المجلس الأعلى للثقافة

قصة جاويد

المشروع القومي للترجمة

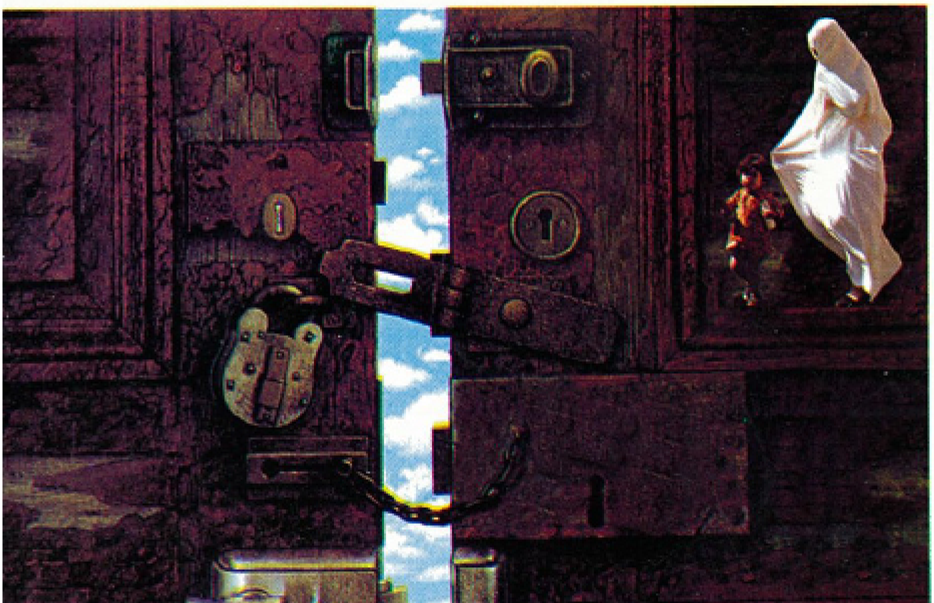

180

تأليف : إسماعيل فصيح

ترجمة: سليم عبد الأمير حمدان

المشـــروع القـــومـــى للترجمـــة

قصة جاويد

تأليف

إسماعيل فصيح

ترجمة

سليم عبد الأمير حمدان

الفهرس

- مقدمة المترجم 9
- مقدمة المؤلف للطبعة الثانية 15
- نص قصة جاويد (١ – ٦٩) 17

قصة

جاويد

إلى پ. ع.

العزيز فى معبد المجوس هو النار

التى لا تموت، التى فى قلبنا أبداً.

« حافظ »

مقدمة

إسماعيل فصيح من كتّاب الجيل الثانى للرواية الفارسية ـ بعد جيل الرواد الذى يشمل أساساً صادق هدايت وبزر علوى ـ ومع أنه ليس خير من يمثّل جيله فنيّاً، إلاّ أنه حصل على شهرة عالمية عندما تناولت صحف العالم الثالث روايته «ثريا فى إغماء» بالتعريف، واعتبرتها ظاهرة مهمة فى إيران الإسلامية فى السنوات الأولى بعيد انتصار الثورة، وأشادت بجوّها المنفتح إزاء الوجه المحافظ المتجهم الذى كانت إيران تكشفه للعالم عن نفسها. ثم كان نشر ترجمته الشخصية للرواية ذاتها بالإنجليزية سنة ١٩٨٣/٨٤ عاملاً مساعداً آخر فى شهرته، مع أن روائيين إيرانيين آخرين ترجموا قبله وبعده الى لغات أخرى.

ولد إسماعيل فصيح فى طهران فى ٢١ شباط/ فبراير ١٩٣٤، ودرس فيها ثم فى الولايات المتحدة، ليعود سنة ١٩٦٣ فيعمل فى شركة النفط الوطنية الإيرانية حتى صار أستاذاً مساعداً فى جامعة نفط آبادان (عبادان)، حيث كان يدرّس مادة التلخيص وكتابة تقارير العمل، الأمر الذى يبدو تأثيره واضحاً فى لغته المختصرة، السريعة، التى تنفر من التوصيف الزائد والسرد المتأنى.

وفى شغله ذاك فاجأته الثورة الإسلامية، فأحالته على التقاعد (المعاش) ضمن الثورة الثقافية التى نفذتها فى الجامعات والمؤسسات الثقافية، مما جعله ينصرف بعدئذ ليتوفر على الكتابة والترجمة حصراً.

صدر لفصيح، خلال عمره الأدبى الذى يتجاوز ثلاثين سنة بقليل، أربع عشرة رواية، كانت أولاها «الشراب الخام» التى صدرت سنة

١٩٦٨، وآخرها «اشتعلت الشقائق» التى أصدرها سنة ١٩٩٨.

كما أن له عدداً كبيراً من القصص القصيرة نشرها فى ثلاثة كتب ما بين ١٩٧٠ و١٩٧٨، ثم اختار عدداً منها أصدره فى كتاب بعنوان «مختارات القصص القصيرة» سنة ١٩٨٧، وأصدر بعده مجموعة جديدة سنة ١٩٩٠ باسم «رموز السهل المشوّش».

ولم يقتصر نشاطه على الإبداع الأدبى، وإنما ترجم عدداً من الكتب فى سوسيولوجيا العلاقات البشرية، ومجموعة من القصص القصيرة العالمية وكتاباً عن البطل شبه الأسطورى الإيرانى «رستم».

إلاّ أن حقله المميز دون شك هو الرواية، حتى ليؤثر عنه قوله: «ثمة فى حنجرتى دوماً قصة تريد الانطلاق».

***

جرت إحالة فصيح على التقاعد ـ كما ذكرنا ـ سنة ١٩٨٠، مع من أحيلوا من ذوى الاتجاهات السياسية المختلفة، لا بسبب موقف معين ـ إذ ليس له موقف خاص معروف ـ وإنما لمجمل توجهه الليبرالى فيما يبدو، و«تحرره» الزائد فى كتاباته، التى يصف راويها دائماً ـ وهو شخصية تتكرر فى كل رواياته تقريباً ـ تلذّذه بالخمرة وعِشّرة النساء الجميلات، وإن كان يتجنب الخوض فى تفاصيل هذه العِشّرة.

وتميزت علاقته مع النظام الإسلامى بالفتور، لما تقدم، وإن كان حاول ردم الهوة التى تفصله عن النظام فى روايته «الخمر العتيق» (١٩٩٤)، والتى مجّد فيها الرئيس السابق هاشمى رفسنجانى، وروايته «أسير الزمان» (١٩٩٤) التى كساها بطابع صوفى.

وقد جرى تكريمه فى أوائل سنة ١٩٩٩، مع روائيين وقصّاصين

آخرين، لمناسبة الذكرى العشرين لانتصار الثورة، فى بادرة للحكومة الجديدة تحت قيادة الرئيس خاتمى، فمنح دبلوم افتخار عن مجمل أعماله.

تميزت المرحلة الأولى فى إنتاج إسماعيل فصيح الروائى بالتأكيد على الشخصية القومية الإيرانية بشكل حاد، قد يبدو معادياً للعرب. وفى روايته «القلب الأعمى» يلقى بعض اللوم على الإسلام أيضاً فى تعكير صفو الثقافة الإيرانية وإنسيابيتها.

تمتاز رواية «قصة جاويد» التى نقدمها للقراء هنا ـ وهى من روايات تلك الفترة، فهى ثالث ما نشر ـ والمكتوبة سنة ١٩٨٠، باستحواذ هذه الفكرة نفسها عليه، كما تمتاز بأسلوب تفردت به عن مجمل أعماله الأخرى من حيث أنه يسرد الأحداث بأسلوب الواقعية التاريخية، على لسان راوٍ واحد غائب، ويتوحد الزمان الواقعى ـ الروائى بالزمن الروائى فيها.

فالرواية تبدأ منذ انطلاق جاويد وعمه من يزد إلى طهران للبحث عن بقية عائلته: أبيه وأمه وأخته الطفلة. ويبقى هناك سنوات يكتشف خلالها موت أبيه، ويشهد ضرب أمه واصابتها بالبكم وبما يشبه الجنون، ثم يعرف بموت أمه عند ما كان هو مغمياً عليه مرمياً فى مكان بعيد عنها، ويبقى متعلقاً بالأمل فى العثور على أخته: العامل الوحيد الذى يبقيه فى طهران.

ويتطور العالم من حوله؛ إذ تسقط سلسلة آل قاجار المالكة، ويحل محلها «قائد الجيش» المتسلل من قيادة فوج قوزاق أطاح بالحكومة ليصير قائداً للجيش، وزيراً للدفاع، رئيساً للوزراء فملكاً، ويؤسس سلالة

جديدة تعرف باسم: پهلوى.

ومن حسن حظ جاويد أنه هو أيضاً يتطور، بفعل التجارب الغريبة التى مر بها والدنيا العجيبة التى عاش فيها، وبفضل الكتب التى كان يعيره إياها الدكتور نزهت، من مكتبته ومن مكتبة دار الفنون (وهى مدرسة عالية على النمط الأوربى الحديث)، ثم من قراءته الصحف.

ولقد كان جاويد عازماً طيلة هذه الفترة على الانتقام لأبيه، ثم لأبيه وأمه، وعندما اكتشف مقتل أخته أيضاً، وعثوره على آثارها المدفونة ـ وهى التى بقى فى طهران من أجل العثور عليها واستخلاصها والعودة بها ـ لم يعد لديه ما يستبقيه هناك: فيحقق انتقامه الرهيب، والعادل، ويعود! لينطلق مرة ثانية من يزد ـ بعد أن يسوى أوضاعه، إلى خارج البلاد كلها هذه المرة ليعيش فى منفى اختيارى.

أيريد الكاتب أن يقول لنا إن إيران بلد لا يصلح للعيش؟

لماذا يقول ذلك بعد نجاح الثورة «الإسلامية» بسنة واحدة؟

أهو يعنى أن إيران لا تهضم الإسلام، أو أن الإسلام لم يخلق لإيران؟

أم أننا ينبغى أن نقرأ الرواية بوصفها تأريخاً لحادث ـ كما يشير فى أحد اقتراحيه؟

***

وتعبير الكاتب، كما سيلاحظ القارئ، بسيط لا تغلفه بلاغة خاصة، مكتف ببلاغة البساطة نفسها.

أما أسلوبه فخفيف رشيق يستل الضحكة، أو الإبتسامة على الأقل، من القارىء حتى فى أكثر المواقف مأساوية. فقد رأينا جاويد مثلاً

صغيراً دقيق الحجم، وعندما نراه وهو على وشك أن يقطعوا له آلته التناسلية، نجده يفكر هكذا:

«كان منذ البدء، فى هذه الدنيا، دقيقاً ضئيل الحجم، صغيراً ولا شيء، وها هو بالتدريج يصير أصغر فأصغر». وهذا الـ «تدريج» إشارة الى ختانه قبلا!

ونقرأ فى وصفه لمحاولة جاويد مع حوذى الأمير المحتضر:

«حاول مرة أخرى، ولو لمدة خمس ثوان، أن يستخرجه من فم الموت، الذى كان يكره أن يتسلم خادم ملك آرا».

وإذا كانت هذه الرواية تختلف عن روايات فصيح الأخرى فى تأكيده فى مقدمةٍ وضعها لها ـ وهذا نفسه اختلاف أيضاً ـ على كونها حقيقية، بينما كانَ وما يزال يؤكد فى إشارة تتصدر كل واحدة من رواياته على عدم حقيقيتها، وفى كونها تتحدث عن أبطال من غير آل آريان الذين يلازمون كل رواياته الأخرى، فإنها تتشابه معها فى التأريخ للأحداث: إننا نشهد وقائعها تجرى أمام أعيننا من سنة ١٩٢٢ إلى سنة ١٩٣١، ونتابع استقرار العهد البهلوى، ومخاوف بقايا عهد وعائلة آل قاجار وصيرورة رضا خان ملكاً: رضا شاه.

إن الكاتب ترك لنا الخيار فى أن نقرأ عمله كتقرير واقعى، تأريخ، أو كرواية، فلنقرأها إذن كما نشاء.

***

وأخيراً، أجد لزاماً علىّ أن أحيى المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة على تبنيه نشر هذه الرواية، وأخرى ستتبعها، مواصلا بذلك مبادرته بنشر رواية سابقة لفصيح نفسه، وأعمال أخرى لكتاب شرقيين، من

إيران وغيرها، ليعرف قراءنا العرب على النتاج الأدبى لدى الشعوب القريبة منا جغرافياً، المجهولة لنا ثقافياً، آملاً أن يستمرعمله ذاك، وأن يتخذ منحى منهجياً يتم من خلاله ترجمة المزيد من آثار الشعوب الشرقية، لنستأنف التلاقح الحضارى معها، الذى كان أسلافنا الأقدمون حريصين عليه.

المترجم

مقدمة المؤلف للطبعة الثانية

على عكس سائر آثار هذا الكاتب، فإن «قصة جاويد»[١] رواية حياة حقيقية لصبى زرادشتى وقعت فى أول القرن[٢] . إن المصيبة والظلم الواردين على إنسان مؤمن يشكلان نسيج الرواية الأصلى. كما جرت فى الرواية أيضاً المحافظة على ردود فعله الروحية وقوة إيمانه بسنن أسلافه القديمة.

تعرف الكاتب على بطل الكتاب الأصلى فى أواخر أيام حياة الأخير، فى إحدى الجامعات خارج البلاد، فكانت تلك المعرفة ملهم خلق هذا الكتاب. وتمت تهيئة المخطوطة الأصلية لهذه الرواية فى أوائل الخمسينيات[٣]، بعد سنوات من البحث والتقصى المستقلين، ولكن تأخرت الطبعة الأولى للكتاب إلى أواسط النصف الثانى من ذلك العقد[٤].

وقد حاول الكاتب، فى خلق هذا الأثر على هيئة قصة، أن يعيد خلق أحاسيس وآلام الصبى الزرادشتى البسيط الساذج، وعوامل انكسار فؤاده ويأسه وغضبه، على نفس النحو الذى تلقاها هو (الكاتب) وتأثر بها، فى زمانه ومكانه الخاصين. إن مرور نصف قرن على وقوع الرواية،

---

(١) عدا عن كون «جاويد» اسماً علماً، فهو أيضاً صفة بمعنى «الخالد». وبهذا يمكن تسمية الرواية بـ (القصة الخالدة). الهوامش جميعاً لى. (س).

(٢) المقصود القرن الرابع عشر الهجرى الشمسى. وعلى هذا، فالمقصود عشرينيات القرن العشرين.

(٣) وعلى الأساس نفسه، فالمقصود أوائل سبعينيات القرن العشرين.

(٤) أواخر السبعينيات.

(٥) و١٩٢٠ ميلادى.

وخاصة التحولات الكبرى فى تاريخ إيران المعاصر، ربما يجعل بعض ردود الفعل ـ كرد الفعل الغاضب عند خروج جاويد من «درخونگاه» فى سنة ١٣٠٩[٥] غير ممكنة الإدراك، فالمرجو أن يدرك القارئ الإيرانى، نيّر الفؤاد، هذه المسائل.

وإذا ما أرادالقارئ، يمكنه قراءة هذا الأثر بوصفه رواية. ولكن، فى الأبعاد الواسعة للاستخلاص من رواية ما، ينبغى رسم خط، وهو يرسم فعلاً. وأخيراً، فالجواب على السؤال التالى: هل الرسالة الأخيرة هنا هى انتصار الإيمان الطاهر الراسخ على فساد روح ضلال الأفراد، غلبة النور على الظلمة، تسيّد الخير على الشر، أم أنها أمور كلية وواهية وسياسية أخرى؟ هو وظيفة ملقاة على عهدة القارئ المنصف الخالى من الغرض والتعصب.

إ. ف.

٦٣/٦/٢٤[٦]

(٦) وأواخر أيلول/ سبتمبر ١٩٨٤.

ـ ١ ـ

كان يوماً حاراً جافاً، من أواخر صيف سنة ١٣٠١[١] هجرى شمسى. يبدو الطريق الترابى، تحت الشمس الكاوية، ميتاً محروقاً. ويضيع الطريق الملتف، بين الصحراء الجرداء المتربة، هنا وهناك.

من أفقِ آخرِ استدارةِ الطريق الطويل، الذى بلغ معمورة «شوراَب» قرب «قم»، يتقدم مسافران مع بغل واحد.

كان أحد المسافرين، ذاك القادم وراء البغل، صبياً نحيلاً ينتعل گيوة[٢] ويلبس ثوباً عريضاً أبيض طويلاً على قميص أبيض يلتصق ببدنه. وعلى الثوب، كان قد لفّ نطاق مصارعته الأبيض، بإحكام، حول وسطه وعَقَد عدة عقد. وكان المسافر الثانى شيخاً أبيض اللحية، يرتدى هو الآخر قباءً طويلاً جداً فوق قميصه ويعتمر غطاء رأس صغيراً مستديراً من الكتان.

كان العجوز يجلس على كفل البغل متعباً، وكانت عيناه مغمضتين. كان الغلام والعجوز معفرين مضطربين، ويبدوان وكأنهما انكمشا واحترقا من حرارة الشمس. وكانت الشمس المحرقة قد جعلت بشرة أيديهما ووجهيهما بنية اللون مقشرة متغضنة. كانا قد انطلقا منذ أسبوعين من يزد[٣]. وكان هدفهما طهران.

---

(١) أواخر ١٩٢٢ ميلادى.

(٢) حذاء وجهه نسيج قطنى ونعله جلد مدبوغ.

(٣) من مدن إيران القديمة، تقع فى وسط البلاد على أطراف صحراء، من مراكز الزرادشتية المهمة.

كان الغلام النحيل لابن البياض فى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره، ضئيل الجسم وسيم القسمات، عيناه واسعتان بنيتان تلمعان حتى تحت الشمس المحرقة ووعثاء السفر. كان ابن قرية قريبة من يزد، اسمه جاويد، وأهله وأجداده موضع احترام الكثير من زرادشتيي حومة يزد الفرس. كان أبوه فيروز آقا تاجراً يزدياً حسن السمعة يسافر إلى طهران كل عام. كان فيروز آقا قد سافر إلى طهران قبل ستة أشهر، قبل أيام عيد النوروز[١]، وحمل معه إلى طهران مقداراً من الفواكه المجففة والأقمشة للبيع، ولكنه لم يعد. وها هما ابن فيروز آقا وعمه العجوز يذهبان إلى طهران ليتحريا عما جرى.

كان العم العجوز، الـ مويد[٢] بهرام الذي له أكثر من سبعين سنة من العمر، فى بعد الظهر الجاف هذا، راكب البغل عديم الرمق، يبدو كسيراً ومغلوباً من الطريق والسفر الصيفى فى الصحراء، وتبدو على وجهه المنهك ولحيته البيضاء وجسده فاقد الطراوة علائم الانهيار. فى سهول أطراف يزد كان مويد الموبدين أو دستور[٣] معبد نار قديم، وقبله أبوه وجده وأسلافه إلى ما قبل ألف عام أو يزيد، يصير الابن منهم بعد أبيه مويد معبد النار. قبل هذا الصيف لم يكن قد ذهب قط إلى أبعد من يزد. ولم يتحمل عبء هذا السفر إلا من أجل ابن أخيه جاويد، الذى كان قلقاً على أبيه. كان فيروز آقا أبو جاويد يذهب كل عام فى أواخر الشتاء فى رحلة تجارية إلى طهران، ولكنه كان يعود دائماً قبل النوروز

(١) عيد رأس السنة الفارسية ويوافق أول أيام الربيع = ٢١ آذار /مارس.

(٢) الكاهن الزاردشتي.

(٣) رئيس الكهنة.

والحفل التاريخى، فيقضى ليلة رأس السنة ونوروز فى البيت ـ وهذا رسم لا يجرى خرقه قط فى أية عائلة زرادشتية. ولكن فيروز آقا لم يكن قد عاد هذا العام فى ليلة العيد، ثم انصرم الربيع وانقضى الصيف أيضاً. كان انعدام الأخبار وغيبة فيروز آقا قد ولّدا لدى ابنه ولدى الموبد بهرام، قليلاً قليلاً، قلقاً عميقاً من أنه لا بد وقع حادث سيىء فى طهران، خاصة وأن فيروز آقا كان قد اصطحب فى هذه السفرة زوجته وابنته الصغيرة أيضاً.

فى شورآب، أمام كوخ واطئ مبنى بالطين والتبن، أوقف الغلام البغل. كانت شورآب قرية من اثنى عشر كوخاً من الطين والتبن متناثرة... ليس فيها غير آحاد من القرويين والأطفال والكلاب والحمير، يتسكعون هنا وهناك. وصلت الشمس الآن إلى أفق السماء البعيد، وراحت أشعتها الصفراء تغسل أرض وأكواخ شورآب الترابية فى ثناياها. وكان النسيم الملائم الهاب من الشمال فى هذا المغرب يخفف من حرارة السهل.

وضع الغلام يداً على كتف الشيخ فهزه:

ـ «عمى الحبيب؟»، فلم يتحرك الشيخ. قال الغلام:

ـ «عمى الحبيب، لا بد أننا وصلنا شورآب. سنستريح هنا الليلة».

مسح بيده على شعر العجوز الطويل الأبيض، فحمله على فتح عينيه قليلاً قليلاً. قال له إنه ذاهب ليحصل على ماء من مكان ما. أخرج كوز الماء الخالى من عدل البغل، ومضى باتجاه الأكواخ الطينية. عندما عاد، ساعدالشيخ على النزول عن البغل، وأجلسه عند زاويةٍ متكئاً على جدار.

وضع كوز الماء على شفتى الشيخ، وسقاه. أخرج قليلاً من التوت والخوخ المجففين من كيس العدل فوضعهما فى فم الشيخ، وسقاه. غسل جبهته وخديه بمنديله، وبرّده. كان صدر الشيخ مألوماً بأنفاسه المتقطعة.

بعد ساعة، بعد أن أدى الشيخ والصبى مراسم الدعاء الأخير مقابل شفق الصحراء الأحمر، جلسا يتحدثان. كانت عينا الشيخ الرماديتان الآن مسمرتين على ابن أخيه، كان يتمعن فى الغلام، يتفحصه، ويمسك بيديه اليابستين حبات الشباب حول شفتيه. وكانت يدا الغلام، شأنهما شأن يدى العجوز نفسه، قد هزلتا بفعل الفقاعات التى انفجْرت والفقاعات التى انتشرت حديثاً. كما كانت، من الجروح المتيبسة والخدوش المتقشرة المسفوعة بالتراب، قد صارتا بنيتين داكنتين. قال الشيخ:

ـ «أى طريق!» فقال الغلام:

ـ «لم يبق الكثير، يا عمى العزيز. سنبلغ قم بعد شورآب. وبعد ذلك أمامنا ثلاثة أيام أو أربعة. وقد برد الجو أيضاً». فقال الشيخ:

ـ «بعون الرب».

ـ «كان أبى يقول دائماً إنه ما إن يجتاز قم حتى يتحسن الجو وينبسط الطريق».

ـ «بعون الـ... رب». فقال الغلام:

ـ «تصور يا عمى العزيز: نجد بابا فى طهران ونعود بالسلامة».

فوضع الشيخ يده على صدره. وهز رأسه.

ـ «هل أعطيت حبيس اللسان هذا شيئاً، يا جاويد؟». ونظر إلى البغل المتعب المسكين. فقال الغلام:

ـ «العلف اليابس موجود».

أغمض الشيخ عينيه مدة. وبقى ساكتاً. ثم ألقى نظرة إلى السماء، وقال:

ـ «لم تقل للناس هنا... من نحن، يا عزيزى جاويد». فقال الصبى:

ـ «لا، لم يسأل أحد شيئاً. وأنا أيضاً لم أقل شيئاً. ولكننى لا أخشى أحداً بشأن هويتى».

أعاد العجوز رأسه نحو السماء. ومرة أخرى بقى صامتاً مدة طويلة. ثم قال:

ـ «أغلب الناس هنا لا يرحبون بالزرادشتيين». فقال الغلام:

ـ «لا تخف». فقال الشيخ:

ـ «لقد نسى أهل هذه الديار أصلهم وجوهرهم». وأغمض عينيه بعجز.

مسح الغلام على شعرالعجوز:

ـ «اهدأ بالاً، يا عمى العزيز. سيكون كل شىء على ما يرام».

ـ «بعون الرب...».

بعد ساعة، إذ عاد الشيخ إلى الإغفاء، نهض الغلام وجلب ملاءة طويلة كانت فى العدل فنشرها فوقه. ثم جلس، راح يصغى بقلق إلى حشرجة الأنفاس المتألمة الثقيلة للعجوز.

نهض، ووقف وسط السهل الجاف. رفع رأسه نحو السماء وضوء

---

(١) إله الخير عند الزرادشتية. وهو الله أو الرب عندهم.

القمر. لقد علّموه منذ طفولته أن يقف عند الدعاء مستقيماً بسيطاً باتجاه النور، ويتحدث إلى الرب أهورامُزْدا[1]. وقف، ودعا. كان يحب السماء الكبيرة الزرقاء، كما كان يحب المجرّات المنيرة أيضاً.

بعد الدعاء جاء فتمدد إلى جانب عمه الشيخ. كأنه صار أخف وزناً. كان قلبه فرحاً وأكثر هدوءاً. وكان متفائلاً بالمستقبل الوضاء. كان يعلم أنه سيجد فى طهران أباه وأمه، لكنه لم يكن يعرف بعد ما أبعد من ذلك. كان يعرف فقط أنه سيجدهما. كان يفكر أنه لا بد قد مرض أحدهما - ربما كانت أخته الطفلة مريضة. كان قد سمع عنوان المنزل الذى قصده أبوه فى طهران، والذى كان يقصده كل سنة. كان فيروز آقا يجلب محصوله من الفواكه المجففة وكل المواد إلى طهران. إلى بيت أحد أمراء بلاط القاجاريين فيبيعه. الأمير كمال الدين ملك آرا، الذى كان بيته وبساتينه فى طهران قرب البازار[1]، فى محلة وزير دفتر. كان الغلام يعرف أنه سيجد المكان. كان قلبه واثقاً، وأمله فى الرب.

كان القمر والنجوم المنيرة، فى السماء الزرقاء النظيفة، تتلألأ.

(١) أى : السوق. وعندما يطلق علماً هكذا فهو يعنى سوق طهران المركزية.

ـ ٢ ـ

الليلة، وهو مستلق تحت سماء هذا العالم فوق التراب الدافئ لسهل إيران ولا يؤاتيه النوم، كان يفكر:

يتذكر يوم ما قبل حركتهما من يزد، يوم أن أقاموا له فى معبد النار مراسم «لبس السدرة»[١]، أو الـ «رسايى» ـ المراسم التى يلزم حسب الديانة الزرادشتية إقامتها لكل فتى أو فتاة حديث الولادة لغاية سن الخامسة عشرة. كان جاويد يفكر بهذا الأمر سنوات طوالاً، وقد هيأ نفسه باشتياق. إن «لبس السدره» يومٌ يعبر الصبى خلاله من فترة الطفولة فيدخل دنيا الرجال.

وفى الشهر السابق إذ دخل سن الخامسة عشرة لم تعد هذه المراسم قابلة للاجتناب. ولكن عائلته لم تكن تعرف ما تفعل فى غياب أبى جاويد. وأخيراً، عندما قرر هو وعمه أن يذهبا إلى طهران بحثا عن فيروز آقا، وجد عمه ـ الذى كان دستور معبد النار ـ أن مراسم لبس السدرة لازمة لجاويد قبل السفر إلى طهران. قبل هذا السفر الكبير، والإقدام على عمل هو من شأن الرجال، لا بد من إقامة مراسم لبس السدرة لجاويد.

عند الفجر أخذه عمه إلى الحمام. فاغتسل الغلام، وجفف نفسه، فطهّرها، ونثر ماء الورد على بدنه. دعا عمه له، ثم ألبسه الثوب الأبيض

(١) صديرى عديم الأكمام أبيض اللون، هو جزء أساسى من لباسهم.

التقليدى الذى كان مهيأ لجاويد منذ زمن. أخذ الموبد بهرام ـ الذى كان يرتدى قباءً طويلاً وغطاء رأس أبيض ونطاقاً عريضاً أبيض ـ يد الغلام وجاء به إلى معبد النار. كان معبد النار أعلى التل.

كان أعلى باب معبد النار مزيناً بالخيوط والقطن وزهور الياس. كان موبدان[١] وشيوخ المدينة والقرى المحيطة بها وأغلب رجالها الزرادشتيين قد اجتمعوا. كان جاويد يحب معبد النار، خاصة أيام إقامة المراسم. كما كان يحب أيضاً رائحة النار والبخور والعود واللبان والصندل داخل معبد النار.

لم تكن مراسم لبس السدرة مجرد لبس قميص وشد نطاق «المصارعة» على الوسط والدعاء أمام النار المقدسة وإيتاء القَسَم فى محضر الرب أهورامزدا، وإنما كان ينبغى أن يؤدى امتحاناً. مع أن مراسم لبس السدرة، عن طريق الاختيار وإلقاء الأسئلة، أخذت تزول من سائر نقاط إيران، إلا أن هذا الرسم العريق ما زال يقام فى معبد نارهم الصغير.

عليه أن يقف ويجيب على أسئلة الموبدان والدساتير[٢]. أسئلة حول مسائل واعتقادات الديانة الكبرى وكتابات الـ أقستا[٣]، كان قد سمعها منذ الطفولة، تعلمها، وكبر معها ـ خاصة فى عائلة مؤمنة كعائلته لا تُنسى فيها الرسوم والاعتقادات ساعة واحدة. كان يعلم دائماً أنه قبل بلوغ سن الخامسة عشر ينبغى أن يعرف الأجوبة على أسئلة الكتاب

---

(١) جمع موبد

(٢) جمع دستور.

(٣) (يكتب بالفارسية أوستا، حيث الواو المتحركة تلفظ فاءً مثلثة)، وهو كتاب الزادشتيين الدينى.

المقدس. وها هو جاويد ـ ابن فيروز آقا ـ اليوم يعرفها.

أخذوه إلى قرب المجمرة وأبقوه واقفاً. وابتدأ الشيوخ بيض اللحى، المرتدون جبباً وعمائم وزنانير بيضاء، الحاملون وجوهاً جافة رسمية، ذوو العيون المستكشفة، ابتدأوا أسئلتهم بأصوات ثقيلة. أسئلة تحمل أصوات وأصداءالقرون الخالدات. فى تلك الساعة إذ كان يقف عند تلك النار، وإذ كانت روائح البخور واللبان والعود والصندل فى أنفه، وإذ تقدم عمه فوضع نطاق «المصارعة» ـ المفتول من اثنين وسبعين خيطاً والمعقود من طرفيه ـ معلقاً على رقبته، وإذ كان طوال ساعات واقفاً ويجيب على أسئلة الموبدان، كان يتصورهم يسحبونه وسط دم وروح أبيه وعمه، وجده وأسلافه، فيوصلونه إلى ما قبل ثلاث آلاف سنة إلى روح أشو زرتشت[1] ذاته. فكان يجيب بصوت هادئ محسوب.

يا فتى من أنت؟

أنا جاويد بن فيروز، الذى هو أيضاً من صلب أسلافى الزرادشتيين الفرس. إن الروح والجوهر اللذين فى جسمى الآن هما نفس جوهر أسلافى الطاهر الذى كان فى أجسادهم. إن هذه الروح المقدسة هى أهورامزدا المنزه نفسه.

من أين جئت؟

جاء جسمى من صلب أبى ودم أمى إلى هذه الدنيا المادية ـ وسأبقى هنا زمناً.

ولكن روحى وجدت قبلى، وستبقى بعدى أيضاً.

ملك من أنت؟

---

(١) النبى زرادشت.

أنا روح حر، ولست ملكاً لأحد، كما أنه لا أحد ملكي.

إلى أين تعود؟

أنا أبقى منزهاً، وبالاستقامة والخير - بناء على أمر أشو زرتشت - سأمضي من أجل منازلة الشر على طريق أسلافي... لأن الخالق معي؛ فسأصل؛ منتصراً في آخر الزمان، ومن أجل إحقاق الحق الأبدي سأتصل يوم النشور بأهورامزدا.

في زمان الأبدية وعالم الكون أين مكانك؟

روحي أبدية خالدة، وسأبقى أبداً في هذا العالم - الذي خلقت فيه بأمر أهورا مزدا - كما كنت قبل هذا في جسم آبائي وأسلافي.

ما عملك في هذا العالم؟

عملي - حسب أمر أهورامزدا - أن أكون على طيبة وحكمة، أن أتعاون مع الحياة البسيطة الطاهرة، وأن أتمتع بالأمن والصفاء. وعلىّ أن أعمل بفكر صالح، وقول صالح، وعمل صالح، إن واجبي الأبدي هو: الحفاظ على دين وسنّة زرادشت الطاهرين ثابتين.

من هو زرادشت؟

جلب زرادشت المقدس رسالة الخالق أهورامزدا.

ما رسالة الخالق؟

رسالة الخالق عقل وفكر. مفادها أنّ من عنده فكر سيعرف الفرق بين الخير والشر، والصدق والكذب، الطهر واللاطهر، وسيعمل بقوة الفكر.

من هو الخالق؟

ذكر الخالق فى الأقستا باسم أهورامزدا، وهو الخالق وباعث الوجود الكبير والعالم والوحيد. منبع النور والخير والصدق والطهر والعلم والفكر.

الخير فى ماذا؟

الخير فى كونه مخصباً، فى الإطاحة بالشر والكذب واللاطهر.

الشر فى ماذا؟

الشر فى جعل نظام كون الحياة البسيط الطاهر عقيماً. فى جعل الشر والتعايش مع الشر والكذب واللاطهر عقيماً.

تواصلت الأسئلة والأجوبة ساعات وساعات... كان داخل بيت النار يزداد كثافة من دخان الـ هوم(١) والنار. وكان صوت تلاوة الأدعية من كراريس الأقستا المجزأة يتصاعد من كل مكان. فى أوائل العصر، كانت ساقا الغلام قد ضعفتا وفمه جفّ، ولكن الشيوخ لابسى البياض كانوا يلقون عليه الأسئلة من كل صوب وكان هو يجيب.

كانت الشمس على وشك المغيب إذ بارك له الشيوخ والموبدان، واستحلفوه، وقبلوه ـ داعين له ـ فى سنّة زرادشت. منذ اليوم هو رجل زرادشتى بالغ وكامل. «مَزده يَسنو زَره تَشتَريش فَروَرانه اَستى تَسچا فَره وِره تَسچا». علنا وفى الخفاء باللسان وبالقلب، أنا باق على دين عبادة الله الذى جاء به زرادشت.

سقاه عمه بيده عصارة نبات الهوم المقدس. ثم رفع نطاق «المصارعة» عن رقبته ولفّه على وسطه، فوق السدرة، وعقد به عقدتين من أمام وعقدتين من وراء أيضاً. كان النطاق الأبيض المحكم يعطى

(١) عشب برى يستخدم شوكه للإشعال فى بيوت النار.

الفتى رباطاً لا ينفصم مع طهر أهورامزدا وصدقه.

كان صوت تلاوة الأدعية يتعالى من كل مكان. وأجريت له آخر مراسم الدعاء الجماعي. وقدمت له الهدايا أيضاً.

جلبوه الآن جميعاً إلى إيوان بيت النار الكبير على قمة التل. كان جمع كبير من الإخوة فى الدين قد تجمعوا على الإيوان. فى انتظاره. صفقوا له. هللوا له. أحرقوا البخور. وتلوا دعاء مغرب ذلك اليوم فوق التل.

وهناك، وفى تلك اللحظة، أخذ عمه يد ابنته الصغيرة پوران، بنت الاثنتى عشرة سنة، وجاء بها إلى أمام جاويد، وتلا أدعية، وأعلن پوران وجاويد - اللذين كان أحدهما يحب الآخر منذ الطفولة - خطيبين.

الليلة يحدق جاويد، تحت السماء الزرقاء والملأى بالنجوم لسهل شورآب، فى السماء والفلك اللامحدودين. كان يحس داخله وجوداً وتقديراً بسيطاً أيضاً. كان فتى يافعاً صار رجلاً. يسافر. يذهب وراء أبيه. ولم يكن يخاف من أن مصير عائلته قد أخرجه فى اليوم التالى لمراسم لبس السدرة من بيته وأطلقه فى بوتقة اختبار الحياة وتجاربها.

ـ ٣ ـ

كان الجو بين الظلمة والضياء حين استيقظا واستعدا لمواصلة السفر. أسرج جاويد البغل، وشد الخرج وكوز الماء بالسرج. وفى اتجاه الفلق، من اتجاه الشمس ـ التى هى قبلتهما ـ أقاما دعاء الصبح. كانت حال العجوز، للأسف، قد ازدادت سوءاً، فأقام دعاءه جالساً. لم يكن بمقدوره أن يحرك عموده الفقرى.

أعان جاويد عمه على ركوب البغل. كانت ظلمة عميقة ترتسم اليوم على خطوط وجه العجوز وفى عينيه. ولكنه على أية حال حافظ على تماسكه. لم يكن الطريق إلى قم ليزيد عن يوم واحد. ومن ثم أربعة أيام أو خمسة إلى طهران. وفى طهران ربما أمكنهما الحصول على حكيم أو طبيب. عندما انطلقا كانت الشمس تشع فى أفق السماء البعيد. كانت أصوات ديكة معمورة شورآب قد ارتفعت.

حتى نحو منتصف النهار طرقا الجادة اليابسة الترابية والسهل، وصعدا فيها. كان جاويد قد أمسك بعنان البغل يسحبه. انحنى العجوز، على السرج، إلى أمام. كان ضعيفاً يكاد يُغشى عليه. وكانت ريح شديدة تعصف من جهة السبخة، والشمس فوق رأسيهما تمطر نوراً محمّى. كان جاويد يحس القلق على عمه. صار يفهم اليوم لماذا نهى الشيوخ من الأقارب فى يزد العجوز عن هذا السفر. كان الدستور بهرام ابن السبعين سنة ضعيف البنية مهزوزاً، ولم تكن عنده طاقة على هذا

السفر ـ ولم يكن رجل أسفار، ولم يسبق له قط أن ترك وشأنه عارياً بلا ملاذ فى سبخة قاسية وتحت شمس ساخنة. عند الظهر إذ جلسا يستريحان فى ظل شجرة لاحظ الفتى أن وضع عمه اليوم يزداد وخامة بسرعة، ولكن العجوز أشار له أن يواصلا السفر. قال إن عندهما مقصداً، إن عليهما واجباً ينبغى أن يؤدياه. لا ينبغى الخوف من الألم والموت، اللذين هما من عمل أهريمن(١) .

فى أول الليل عندما وصلا بوابة قم أمام منازل القوافل القديمة والبيوت اللبنية القديمة، كان العجوز قد أمضى ساعات على ظهر البغل فى نوم وغيبوبة. ناداه الفتى وأيقظه. كان يرى أن من الأفضل أن يقضيا الليلة هنا. عليهما أن يحصلا على دواء لصدر العجوز، أو أن يستريحا على الأقل. ولكن عندما فتح العجوز عينيه وفهم أين وصلا، هز رأسه رافضاً. لم يكن هذا مكانهما. ينبغى أن يمضيا. فى عينيه المظلمتين، فى هذه الليلة الظلماء، كان يتماوج شىء أكثر تمنعاً على العلاج من الخوف والألم. لم يكن الفتى واثقاً مما ينبغى أن يفعل.

جلس العجوز مستقيماً، رفع رأسه إلى السماء، وتحدث مدة إلى بارئه، بشفتين مرتجفتين، ثم عبر عن رأيه وإرادته بلسانه. قال للفتى أن ينطلق، أن يجتاز بوابة المدينة بهدوء، ويأخذه عبر البوابة الأخرى نحو التلال المحيطة ببوابة المدينة الشمالية.

سعى الفتى أن يغير رأى عمه. ولكنه رأى بعدئذ أن عمه لا بد يعرف أموراً لا يدرى بها هو. فنفذ أمر العجوز. بعد ساعة، بعد أن أعطى البغل المتعب ماءً وعلفاً، وبعد أن سأل المارة عن الوجهة والطريق،

(١) الشيطان، إله الشر عند الزرادشتية.

انطلق مجدداً، تقدم إلى أمام، وخرج من بوابة المدينة الأخرى وعنان البغل في يده.

كان قمر كبير في السماء، يضيىء الجادة الترابية. ثمة الليلة في السماء أيضاً غيوم داكنة متناثرة، وفي الهواء رائحة رطوبة وسوء. على أية حال، صعدا الجادة في قلب الليل. وكان السهل خالياً مضاءً بالقمر.

عند حوالى منتصف الليل، عندما بلغا أول المرتفعات، سحب الفتى البغل خارج الجادة، وقاده نحو التلال المنحدرة ذات الارتفاع القليل. على صدر التلال، إلى الحد الذي يمكن معه الصعود بالبغل والعجوز الغائب عن الوعي دون مخاطرة، ومضى قدما. ثم توقف، على تل وجد فيه مكاناً يصلح للاتكاء، وأنزل العجوز بهدوء فأنامه في زاوية. وبعد ساعة كان قد رتب مكان عمه، وغطى وجهه، وأوقد ناراً.

كان العجوز متمدداً ومتكئاً على حافة التل الترابية. كان رأسه على تراب التل. عيناه على النار. وكان فمه مفتوحاً، إلى جانب، دعاءً. وكان القمر يشع عليه وعلى النار فيضيء هذه الليلة المظلمة قليلاً. وكان العجوز يعلم أنه قد آن لانعتاق فَرّوَهر (١) جسده.

نادى على جاويد، طلب منه أن يعطيه من قعر خرجه لفافته البيضاء، اللفافة العتيقة الغامضة التي كان العجوز قد جلبها بمعيته. أطاع الفتى. جلب جاويد اللفافة، جلب اللفافة البيضاء النظيفة التي كانت معقودة بإحكام فوضعها في يدي العجوز. تناول العجوز اللفافة، وبأصابع مرتعشة فتح عقدها المحكمة.

---

(١) جوهر، ذات.

ثم قال الفتى أن يجلس أمامه على الأرض، ويرى. وهيأ العجوز نفسه. تربع فى جلسته مستقيماً. أخرج من اللفافة شالاً أبيض فطرحه على عنقه. إن إرادة التعلق بالسنة والرسم هى التى منحت يديه القوة. أخرج الزجاجة الصغيرة التى كانت ملفوفة بعناية فى ثنايا اللفافة، وأراها للفتى. كانت عصارة نبات الـ «هوم» المقدس التى ينقذ شربها روح الزرادشتى الطاهرة. إن عصارة هذا النبات علامة على تضحية الأرض والجسم، وارتباط وتواصل الأرض والإنسان وأسراره. كانوا قد اقتطفوا النبات من جبال غربى يزد ونواحى أشك زر، ودقوه فى الهاون أربع مرات، ونخلوه فى غربال من شعر البقر، ثم صبّوه فى ماء بيت النار المقدس، وصفّوه ثلاث مرات. وقد علّم العجوز الفتى الليلة أيضاً هذه المراسم القديمة، وطلب منه أن يحفظها فى صدره. طبيعى أن أسطورة الـ «هوم» وحكمته قد وردت فى كتابى «يسنا»(١) و «ونديداد»(٢) المقدسين.

عندئذ أخرج العجوز من لفافته كأساً معدنية على شكل سلطانية. كانت هذه هى الكأس المحفوظة منذ أكثر من ألف سنة فى عائلتهم ومعبد نارهم. حول الكأس، ووراء الكأس وأمامها، كانت أدعية وشعار من الـ «يشتها»(٣) محفورة بخط پهلوى(٤). (داخل الكأس، حولها، كانت ثمة دوائر لمعرفة المقاييس». صب العجوز ابتداءً من عصارة نبات الـ «هوم» بمقدار خُمس الزجاجة لجاويد - إلى أول دائرة من قعر المكيال - وتلا دعاءً، ومد يده نحو جاويد. نهض الغلام عن قرب النار، وجاء فجلس

(١) و (٢) و (٣) من كتب الأفستا الخمسة - وقد ورد اسم الأخير بصيغة الجمع، ومفرده «يشت».
(٤) لغة العصر الپهلوى، السابق على الفتح الإسلامى لبلاد فارس.

قرب عمه، وأخذ المكيال. قال العجوز:

ـ «اشرب يا ابنى، هذا رباطك بالزمان الأبدى وهذا العالم...».

كان جاويد يعرف.

ـ «على عينى، يا عمى الحبيب».

أخذ كأس الـ «هوم»، قرّبه من شفتيه وشربه دفعة واحدة. لم يكن كثيراً، ولكن بدا وكأن حتى طعمه المر قليلاً قد منح جسمه وروحه بهجة وحدّة جديدتين، كالبهجة والقوة الجديدة التى أحسها فى نفسه فى الليلة التالية لمراسم «لبس السدرة».

تناول العجوز الكأس الفارغة منه، وصبّ الباقى فى الكأس، فرفعه نحو السماء، وتلا دعاءً، ثم شربه. أبقى الكأس فى يده على صدره واتكأ على التل. طوق عنقه بيده الأخرى، وثبت عينيه على النار.

كانت رأس جاويد قد ثقلت، وراح يحس رخاوة. كان يعرف أن ذلك ليس من فعل التعب والجوع، بل هو أثر عصارة نبات الـ «هوم» فلم يبال. كان يعرف أن آلاف الأشخاص قد شربوا من هذا النبات، بهذه الكأس المنقوشة بنصوص «يسنا» و «يشتها» زرادشت وبقوا أحياءً. نظر إلى عمه الدستور بهرام. كانت عينا العجوز قد انطبقتا الان. كان وجهه قد تورد. وكانت جبهته العالية تشع فى ضوء النار.

استدعى إليه جاويد. ذهب الفتى إلى مرقده، جلس قربه. قرب تلك النار أخذ العجوز جاويد، وضع الكأس الآن فى يد جاويد. عندما تكلم، كان صوته محكماً كما لو أنه يشق قلب الليل الأسود. تلا أولاً دعاءً:

«فَرَه ورانه مَزده يَسنو، زَرَه تَشتريش ويديور أَهوره دَكيشو... مَزده يسنو

أَهمى... فَرورَانه آستى تَسچا، فَرَوره تَسچا».

ـ «يا ولدى، إننى راحل الليلة عن هذا العالم إلى زمان الأبدية... اسمع إلى قولى وأودعه فكرك وعقلك، لأن هذا الكلام هو كل ما نملك».

فقال جاويد:

ـ «يا عمى، يا عمى الحبيب. أنا لا أسمح أن تـ...». فرفع العجوز يده إلى الأعلى.

اسكت... قال العجوز:

ـ «اسمع يا جاويد، إنك زرادشتى فارسى. لقد عاش أبوك، وأجدادك، وأسلافك، قبل آلاف السنين، سواء قبل هجوم العرب أو بعده، على دين الفرس المقدس. لقد حافظوا على سنتهم وجذورهم. أنت أيضاً يجب أن تحافظ على جذورك وأساسك بالشرع المقدس. يجب أن تحافظ على روحك حية برسوم الحق الفارسى. تذكّر يا جاويد. تذكّر، احترم أديان الآخرين، لأنها جميعاً تغذّت من نبع هذا الدين الكبير ـ ولكن حافظ أنت على نفسك ودينك وذاتك...».

قال جاويد:

ـ «على عينى...»

قال العجوز:

ـ «عندما تخرج روحى من هذا الجسد الفانى، اتركنى هنا واذهب إلى طهران. لا تدفنّى فى التراب، دعنى فوق هذا التل...».

أراد الفتى أن يقطع كلامه، إلا أن العجوز رفع يده مرة أخرى. وقال:

ـ «لقد كان هذا العمل فى الماضى سنة أسلافنا... إننى أموت الليلة

موتاً عجيباً فى الغربة... أريد، مهما جرى، أن أموت على سُنّة أسلافى. ولا تحرق جسدى أيضاً، فلا ينبغى تدنيس النار المقدسة. اترك الميت وامض. فإن لك فى طهران عملاً. اذهب لتنجزه. نحن لا نخشى الموت. الموت أمر سوء، وهو لعنة أهريمن الأولى، إن الموت بالنسبة لنا مجرد انتقال من هذه الدنيا والتحاق بالأسلاف وبأهورا مزدا... وتذكر أننا جميعاً فى السماء عيوننا عليك ونرعاك».بقى العجوز صامتاً مدة، ثم قال بصوت يتلاشى بالتدريج:

ـ «تذكر، إن سلسلة عائلتنا وتاريخها بقدر تاريخ هذه البلاد... لقد عشنا بهذا الدين فى هذا البلد دائماً... دائماً تقريباً. فقط قبل ثلاثمائة أو أربعمائة سنة، كما سمعت من أجدادى الشيوخ، رحلت عائلتنا إلى الهند. فى تلك الأعوام، فى عصر الصفويين، إذ كان ضغط الحياة صعباً على الزرادشتيين، ذهب أجدادنا إلى بومبى وعاشوا أعواماً طويلة بين زرادشتيى بومبى الفرس. ولكن بعد ذلك، بعد سنوات قليلة عادوا إلى يزد، إلى أهليهم وأشغالهم وبيت نار أجدادهم. إن مكاننا وجذورنا هنا، تذكر ذلك. ودين أهورامزدا الخيّر ديننا. ونحن ـ نحن سنلتقى مرة أخرى».

بقى العجوز ساكتاً. حدّق فى النار. ومرة أخرى ارتعشت شفتاه. قال:

ـ «لا تتعلق بالدنيا لأن الموت يحيق أخيرا بالجميع، وسيأكل النمل والدود والزواحف، لحم الإنسان. بعد الموت، تحوم روح الإنسان ثلاثة أيام حول جثته، وفى اليوم الرابع، عند السحر، يأتى الملك المقدس

فيأخذ معه الروح كي يعبر بها جسر الفلاح... والويل لمن لم تُضأ... روحه... بعقل الدين المقدس...»، تلاشى حتى صوته.

ـ «آه، يا إلهى، جاويد، ثمة العديد من الأمور التى كنت أريد أن أذكرك بها الليلة. ولكنك... أنت نفسك... يجب أن تفهم، بالفكر، بالطبع، بالتأمل، يجب أن تفهم. إلهى... أهورا...».

كانت دموع الفتى قد انهملت.

سكت الشيخ مرة أخرى. حصر حنجرته شىء ما. استدارت نظرته إلى النار. بقى مدة طويلة يحدق فى النار. ثم أدار رأسه نحو الغلام. أخذ يده وقال كلامه الأخير:

ـ «أنا مرتاح،ياجاويد». وبعد سكوت قصير:

ـ «ولكن ماذا عنك؟... إننى قلق... بشأنك...».

ورفع رأسه نحو السماء السوداء

ـ ٤ ـ

جلس عند الجنازة ثلاثة أيام بلياليها. لا لمجرد أن المرويات تقول إن روح الميت تحوم حول الجنازة ثلاثة أيام، وإنما لأن قلبه لم يكن ليطاوعه أن يترك جسد عمه الميت (مع أنه أوصى بذلك) على تلك الحال وحيداً بلا مأوى فوق التلال. فعندما يموت شخص على هذا الجلال والعز يكون موته غير قابل للتصديق ومؤلماً، فكيف يترك جثته للجوارح والأفاعي والنمل؟ ولكن هذا كان ما أمره به عمه.

في الليلة الأولى، جلس لا يدري ما يفعل حتى الصباح عند رأس الجنازة. ولم يكن خوفه قليلاً أو عبثاً. كان يجد نفسه فجأة وحيداً ضائعاً بلا دفاع، في ليلة ظلماء، مع جثة فوق تلال مجهولة. وكانت تتعالى أحياناً همهمة ريح أو عواء بنت آوى بين التل والقفر، فتجعله يطير من مكانه. كانت الريح قد اشتدت، والغيوم السود التي كانت متناثرة أول الليل حول القمر قد غطّت السماء بكاملها الآن. كان الظلام ما يزال مخيماً عندما انفطرت السماء هي الأخرى وانصب المطر على جثة

العجوز، على الغلام الوحيد، على اللوازم والبغل المتعب، والأسوأ من هذا: على النار، فأطفأها. انقضت الليلة ببطء وعسر.

قبيل السحر، إذ توقف المطر تدريجاً، شرع الفتى بالبكاء. لم يكن يريد أن يبكى... تذكر قول عمه بأنه وكلّ أسلافه الموتى يراقبونه فى السماء والجنة. جفف دموعه، وتناول بيده يد عمه التى صارت الآن مثل خشبة ندية.

فى ذلك السحر، وطوال النهار التالى، كان موت عمه سبباً فى جعله ينسى التفكير والقلق بشأن أبيه فى طهران. كانت جثة عمه هناك على التراب، تحت الريح والشمس، وحيدة تعيسة. جلس الفتى على التل، وراح ينظر إلى جثة العجوز والسهل والتلال العارية، ويتأمل. كانت الشمس والجبل والسماء لا تبالى به أو بالعجوز. وبعيداً، بين جادة السهل الترابية كانت تمر عربة أحياناً، أو قافلة صغيرة أو يمر ركاب فرادى على بغل أو حمار بطيئين. جلس وراح يتطلع إلى الدنيا بحزنه. كان بغله يأكل من علف التلال وشوكها وحسكها. وكان عند الفتى ما يزال بعض الأغذية المجففة. تناول منها قليلاً، ونهض فجمع أعواداً وعلفاً يابساً فأوقد ناراً بشكل ما.

لم تكن الليلة الثانية بمرارة الليلة الأولى وصعوبتها، انقضت بطيئة خالية. وألقى به التعب المفرط فى نوم بضع ساعات، ولكن عواء الذئاب وبنات آوى وكل حيوانات التلال كان يمزق باستمرار سكون وسكوت الليلة المقمرة، فكان يضطر للنهوض وطرد الحيوانات التى اجتذبتها رائحة الجثة، بعصاه.

فى اليوم الثانى قرر تبديل مكان جثة عمه. هنا، وسط فلع التل المنحدر العارى، لم يكن مكاناً جيداً، إذ يمكن أن يبلل مطر شديد الجثة ويجرفها نحو الجادة. وكان يمكن أن تمزق الحيوانات الجثة إرباً إرباً منذ الليلة الأولى. وضع الجسد على البغل ونقله إلى بعد بضعة تلال أعلى، وبحث مدة، وأخيراً وضعه داخل فتحة غار شبيهة بالقبر عثر عليها فى قلب أحد الجبال الترابية. ستنال الجثة هنا بعض الحماية والأمن. أضجع الجثة. وضع شاله الأبيض على الجثة.جمع قليلاً من الحجر وصفّه على بعضه أمام الغار. بنى دخمه[١] حجرية صغيرة وأوقد ناراً جديدة. وعند المغرب، إذ أتم عمله، جلس وراح يتأمل الدخمة الجبلية. رفع رأسه نحو السماء، تلا دعاءً، ورجا أن يكون موتاه سعداء. كانت الليلة هى الثالثة لموت العجوز.

(١) بيت الموتى، وهى قاعة يترك فيها الزرادشتيون موتاهم دون دفن.

جلس طوال الليل، أحيى الليل، أبقى النار مشتعلة. ومنذ انغلاق الفجر حتى غروب اليوم التالى بقى جالساً هناك أو متمشياً فى ذلك المكان. كان أنيس روح عمه ورفيقها.

الآن توجهت أفكاره نوعاً ما إلى طهران. كان يفكر فى قطع بقية الطريق منفرداً، فى العثور على بيت ملك آرا، والعثور على أبيه وبقية عائلته ـ ذلك العمل الذى كلفه حتى الآن حياة عمه المسكين. ولما يبلغ طهران بعد، فقد صار لكلمة طهران ولاسم الأمير ملك آرا فى أذنيه وقع مشؤوم.

حوالى ظهر اليوم الرابع، بعد أن ودّع جسد عمه وروحه، وبعد أن صفّ حجراً أعلى أمام الدخمة الصغيرة، وأوقد آخر نار أيضاً أمام الدخمة وتركها مضيئة، جمع لفافة عمه، وكأس الكيل، والكتاب المقدس وبقية تذكاراته، فوضعها فى الخرج وتهيأ للحركة. تناول عنان البغل ونزل عن التلال.

عند سفح التلال، قرب الجادة، توقف. أدار رأسه، ونظر إلى أعلى التل. لم يكن بمقدوره أن يرى بيت الموتى. ولكنه وقف على أية حال تحت الشمس، وتلا آخر دعاء لعمه، وأقسم بالبساطة وبعمه وبأهورا الطاهر

أن يعمل كما أوصاه عمه. أقسم أن يتم العمل الذى شرع به أولئك.

كانت عشرون يوماً قد مرت على يوم انطلاقهما من يزد.

راكباً على البغل، فوق الجادة الترابية، بين السبخ الأبيض، فى الهواء العطن، تحت لفح وأشعة الشمس المحرقة، انطلق نحو طهران.

ـ ٥ ـ

كان التفكير فى العثور على أبيه وأمه قوة أمله وحركته. كان يعبد أباه، ويخصّه بعطف الدنيا واحترامها. لكم كان يتمنى من صميم قلبه أن يكون سافر بمعية أبيه! ولكنه اضطر للبقاء فى يزد، كى يرعى دكان أبيه. ينبغى أن يبقى الدكان مفتوحاً فى العيد.

وكان يحب أمه أيضاً بإعزاز. كانت أمه، سَرْوَر خانم، شابة لا تزال. كانت فى الخامسة والثلاثين وحسناء. كانت سرور خانم البنت الصغرى للميرزا داود خان، حائك السجاد الكرمانى، الذى كان زرادشتياً عميق الإيمان، ولأنه كان من مريدى الدستور أورنگ الكبير (جد جاويد)، فقد نقل شغله وبيته قبل سنين من كرمان إلى يزد، وأقام فى تلك المدينة. كان الميرزا داود خان حائك السجاد يعتبر زواج ابنته سرور من فيروز آقا، الابن الثانى للدستور العجوز لبيت نار يزد من مفاخره وحسن حظه ومفاخر عائلته وحسن حظها. وإن سرور خانم الآن، بعد ثمانى عشرة سنة من زواجها بفيروز آقا، أم لأربعة أطفال: فرخنده ابنة السبع عشرة سنة التى ذهبت الآن إلى بيت الزوجية، وجاويد ابن الخمس عشرة سنة، وشگُوه التى توفيت بمرض الجدرى فى العاشرة من عمرها، وأخيراً أفسانه[1] بنت الثلاث سنوات التى ذهبت فى هذه السفرة بمعية أبيها وأمها إلى طهران.

وإذ كان ممتطياً البغل فيصعد به الجادة الترابية الساخنة، كان يفكر

فى أفسانه أيضاً، التى كانت قرة عين الجميع وآخر عنقود العائلة الحلو.

عند الغروب إذ توقف من أجل الدعاء الأخير، كان يرى معمورة كوشك نصرت من بعيد. (كان أباه قد ذكر له قبل هذا أسماء المحلات المعمورة بين قم وطهران والفواصل الزمانية بين كل منها). وصل العمران أول الليل، ولم يكن بالطبع غير مقهيين خاليين واسطبل (أو محطة بريد) حكومى، ونزل قوافل قديم، ومبانٍ متباعدة من اللبن والطين. وكان أهالى المعمورة الحاسرون الحفاة شكاكين لا مبالين.

سقى جاويد بغله من ساقية صغيرة، تنهل من حوض خلف نزل القوافل. غسل رأسه ووجهه، وأخذ ماءً. وبعد مدة جاء إلى شجرة فاتكأ تحتها. شدّ زمام بغله قرب رأسه بجذع الشجرة، وعقده عدة عقد. وضع خرجه ولفافته تحت رأسه. من بين أغصان الشجرة اليابسة راح ينظر إلى النجوم، والسماء الزرقاء. وكان يفكر فى پوران. تذكر ليالى طفولتهما إذ كانا يجلسان صيفاً على سطح البيت تحت النجوم المضيئة ويتجاذبان الحديث. إن لكل إنسان نجمة فى السماء، وقد جاء إلى الدنيا بنور وجوهر خاصين به، من طرف أهورامزدا. كان وپوران يحدقان فى النجوم التى لا تحد، ويحاولان أن يعثرا على نجمتيهما هناك، وكانا دائماً يتفقان على نجمتين مضيئتين متقاربتين... وبفكر پوران غرق فى نوم ثقيل.

عند الفجر، هبّ من النوم مذعوراً إثر حلم سيىء «مرة أخرى حلم بموت عمه». كان أول شىء رآه عند اليقظة ـ أو لم يره ـ هو أن بغله اختفى. تصور أن الحيوان ربما يكون فكّ نفسه وذهب إلى جهة ما

(١) إضافة إلى كونه اسماً علماً، فـ «أفسانه» يعنى: الأسطورة.

يرعى. ولكن عندما نظر ملياً انتبه إلى أن آخر زمام الحيوان كان لا يزال معقوداً بالشجرة، وكان الرباط الجلدى مقطوعاً بسكين عند الوسط.

تنقل بضع ساعات فى كل مكان من كوشك نصرت، وبحث فى كل مكان عن البغل. لكأن الحيوان، بذلك الحجم الكبير، صار ماءً فغاص فى الأرض. ذهب إلى حيث قالوا أنه كان البريد وإدارة الأمن، ولكن المكان كان مجرد بناء متداعٍ خالٍ. لجأ إلى أهالى القرية. ردّوا عليه، وصاحب نزل القوافل، وصاحبا المقهيين جميعاً، بأجوبة متعالية، أو سخروا منه. حتى الظهر لم يحصل على شىء، عدا أنه اشتبك مع متصدى إسطبل البريد ذى الهراوة، الذى كان جالساً أمام إسطبله بشاربه الشبيه بقبضة مكنسة. كان حديثهما قصيراً وفظّاً. قال:

ـ «السلام عليك، يا سيد». فقال ذو شارب قبضة المكنسة مبتسماً باستهزاء:

ـ «ماذا تريد أيها الطفل؟».

ـ «كيف حالك؟».

ـ «قل ما تريد».

ـ «ضاع مركوبى. ليلة أمس، ربطته بالشجرة، نمت، قطعوا رباطه. الحيوان ليس موجوداً».

ـ «ماذا تريدنى أن أصنع: أن أجلس فألد لك مركوباً؟».

ـ «لا، أردت أن أسأل ألم تره؟»

ـ «الآن صرنا لصوصاً يا ابن المحروق؟».

ـ «طبعاً لم يكن قصدى أنك أخذته».

ـ «ماذا كان قصدك إذن يا بزر الجنّ ابن الكلاب؟».

ـ «أن تسمح بأن أنظر فى الإسطبل».

ـ «كى يصير ماذا؟».

ـ «ربما اختلط بالبقية اشتباها. ها ـ نعم، كأنه هناك».

أحدث بفمه صوتاً قبيحاً.

ـ «نعم؟». ـ «انكتم!» ـ «لماذا؟».

نهض ذو شارب قبضة المكنسة فتقدم إلى أمام، ورفع هراوته وهوى بها بإحكام على كتف الغلام وعنقه:

ـ «يا آكل الحرام بذئ الفم...».

عندما سقط، تقدم ذو شارب قبضة المكنسة، وركله على رأسه ووجهه. ونثر عليه بعض العبارات القذرة المقذعة. ثم دخل إلى الاسطبل وأرتجّ بابه من الداخل. انتهى الأمر.

لم يكن دم جبهته وأنفه كثيراً. عندما نهض، جاء فجلس عند ساقية الماء، وغسل الدماء، وفهم أن البحث والاستقصاء هنا عن البغل لم يعد ذا جدوى.

فى أوائل العصر تحامل على نفسه بأية حال، وضع خرجه وأشياءه على كتفه، وتحرك، واصل طريقه راجلاً ـ مع أن كتفه وكل رأسه ووجهه كانت تؤلمه على نحو شديد. طأطأ رأسه وخرج من العمران بخطى طوال، وصعد جادة المملحة. توقف خارج العمران، ونظر إلى السماء. لم يقل شيئاً. لم يكن يريد لأولئك الذين يراقبون من فوق أن يظنونه خائفاً، أو أن عنده شكوى أو مناحة. لقد مرّ بتجربته الأولى مع السلوك الشرير والكلام الشرير فى هذه الدنيا. كان يعرف أنهم رأوا كل شىء وأنهم يعلمون.

-٦-

ماشياً طول النهار، لم يقطع أكثر من أربعة فراسخ أو خمس. لم تسعده العربات والقوافل الصغيرة أو الكبيرة التى كانت تقطع الطريق من قم إلى طهران. كان لا يزال عنده عدد من نوات الريالين الذهبيات ومسكوكة نصف أشرفى، فى كيس تحت سدرته، ولكنه كان يحتفظ بها لطهران، كى يكون عنده بعض المال إن وجد أباه محتاجاً إليه. لم يكن ليترفع عن التنقل راجلاً. كما أنه كان يحب الأرض والسماء والشمس أيضاً.

وقضى أغلب الأحيان ماشياً تحت نور القمر، فلم ينم إلا ساعة أو ساعتين قرب الفجر عند سفح تلة. وعند طلوع الشمس نهض مرة أخرى، وانطلق، وراح يتقدم بين السهل والشمس.

خلال هذه الثلاثة والعشرين يوماً لامست قدماه ما بين السهل والشمس والسماء وطبيعة إيران البسيطة، ولامستا الأرض كثيراً بحيث صارت الأرض ونور الكون الآن جزءاً من وجوده وحياته وتنفسه. إنه لا يحس نفسه فقط، ولا يحس الكون وحده، ولا يحس الأرض وحدها، ولا يحس مجرد دوران الشمس ومجىء الليل والنهار حسب، وإنما كان يفهم الحيوات التى انقضت سابقاً على هذه الأرض من الماضى أو التى ستأتى فى المستقبل، وكان يحسّ الكون عن طريق الجلد واستنشاق الهواء فيفهم أن كلام عمه عن خلود روح الإنسان، ووجود ما بعد الموت، وحديث الرب الذى هو عين الفكر والعقل، حق كلها. كان إحساسه هذا

---

(١) عباءة النسوة الايرانيات.

(٢) أطول ملوك القاجاريين بقاءً على العرش، وتتميز القبعة التى سادت فى عصره بتدببها التدريجى إلى أعلى، وبطولها الظاهر.

هو عين إيمانه. كان كل شيء بسيطاً مستقيماً.

قبيل منتصف النهار بلغ عمراناً صغيراً آخركان يعرف أنه حسن آباد. جلس ساعة على حافة جدول ماء ضيق، فأزال تعبه. كانت منطقة معمورة نظيفة وجيدة، فتمدد تحت السماء الزرقاء وبضع غيمات منقوشة. كانت تقف عند الطرف الآخر من الجدول عربة، وكان الحوذى يريح حصانين أبيضين جميلين. كانت تجلس داخل العربة امرأتان تلتفان تماماً بالـ شادر[١]، تنظران إليه من تحت نقابى وجهيهما، وتتجاذان الحدث. وخارج العربة كان يقف رجل طهرانى إفرنجى المظهر، لحيتاه وشاربه موخوطان، أنيق اللباس، يرتدى قبعة من طراز ناصرالدين شاه[٢]، وفى يده عصا مذهبة، كان يتمشى ولا بد أنه كان ينتظر زوال تعب الحصانين كى يستأنفوا حركتهم. راقبهم الفتى مدة متحسراً. لا بد أنهم كانوا من متمولى طهران وأشرافها. أيمكن أن يوصله هؤلاء إلى طهران؟

بعد مدة صمم على المجازفة، فنهض وجاء حتى وقف أمام الرجل المتفرنج، وحياه بأدب. ثم تنحنح وشرح باختصار قصة سفره: من أين جاء، وما حصل لعمه، وأين هو ذاهب فى طهران، ولماذا يذهب أصلاً. أنصت المتفرنج بدقة وشىء من العبوس إلى قصة الفتى. وعندما سمع اسم الأمير ملك آرا سعل. وطلب من الفتى أن يكرر الاسم مرة أخرى. كرر الفتى الاسم. هز المتفرنج رأسه ضاحكاً وقال: «ممتع، ممتع». ثم استدار ونظر إلى السيدتين الملفوفتين بالشادر الجالستين داخل العربة، اللتين يبدو أنهما استمعتا إلى حديث الصبى الحافى الشريد. قال المتفرنج:

ـ «أسمعت يا ثريا خانم؟ يقول صاحبنا أنه ابن فيروز آقا اليزدى الذى يجلب كل سنة متاعاً للأمير». فقالت المرأة التى خوطبت باسم ثريا خانم من تحت الشادر:

ـ «واى... عجيب».

فاستدار المتفرنج إلى الفتى وسأله:

ـ «قلت ماذا جرى؟ ضاع أبوك؟ لم يصل يزد؟».

انفعل الفتى، وقد صار يحس الآن أن هؤلاء الأفراد يعرفون أباه، أو على الأقل الأمير ملك آرا.

قال لهم أنه منذ مدة أعلمهم أحد معارفهم اليزديين الذى عاد من طهران أنه يبدو أن أباه قد مرض فى طهران. لم يكن هذا الشخص قد رأى بنفسه فيروز آقا فى طهران، وفى الحقيقة لم يكن لأحد معرفة دقيقة بالأمر.

تبدلت ملامح المتفرنج قليلاً، ثم التفت مرة أخرى إلى السيدة التى كان يحدثها، وقال:

ـ «يا ثريا خانم، أليس عندك أنت خبر ما؟».

ـ «لا». فقال المتفرنج:

ـ «أظننى سمعت أن هذا الشخص جاء هذه السنة قبيل العيد، ماذا حصل؟».

فقالت ثريا خانم:

ـ «لا. لا خبر عندى». فالتفت المتفرنج نحو الفتى، وقال:

ـ «لا أحد يدرى، أيها الفتى العزيز، عد راجعاً، لا شىء هناك، سيظهر. عد راجعاً إلى يزد، لا بد أن أباك قد عاد الآن فوصل». فقال الغلام:

ـ «يجب أن أذهب إلى طهران. كنت أرجو مساعدة منـ...» وترك

جملته دون أن يتمها.

تفحص المتفرنج الغلام عابساً هازئاً:

ـ «أهو، أهو، يا للشريد كثير التوقع».

فخفض الغلام رأسه، ونظر إلى السيدتين داخل العربة من زاوية عينه. كان يرجو أن لا تكونا سمعتا هذه الإهانات.

كانت ثريا خانم قد رفعت نقابها قليلاً الآن، فبدا النصف الأسفل من وجهها الفتى الأبيض للعيان. نظرت من تحت النقاب إلى الفتى، الذى كان يقف تحت الشمس بسروال وقميص أبيضين متربين أشعثين، وشعر قهوائى استحال من شدة تلويح الشمس عديم اللون أو أشقره، ووجه مسفوح متورم، وساقين جريحين مشققين. قالت:

ـ «يا هوشنگ ميرزا[١] خان[٢]؟»

ـ «نعم، يا ثريا خانم...».

ـ «أقول، إنه يستحق الرأفة... قل لـ مش[٣] خداداد أن يركبه إلى جانبه».

ـ «ألا تخنق رائحة عرقه وقذارته العطنة الفرسين؟».

ـ «لا. إنه ثواب: غريب شريد ومسكين. قل له أن يوصله إلى طهران حيث أول الـ بازراچه[٤]»

((١) فى الأصل: ميرزاد وميرزاده، وتعنى ابن الأمير. تطورت فى الاستعمال لتطلق لقبا على المتعلمين.

(٢) فى الأصل: الرئيس أو شيخ القبيلة، وتطورت فى الاستعمال لتصير مجرد لقب احترام، خاصة لمن ترفع الكلفة معه.

٣) مخفف: كشدى أو مشتى، المخففة بدورها عن: مشهدى، أى: زائر مشهد، مركز خراسان حيثضريح الامام على بن موسى، ثامن أئمة الشيعة الاثنى عشرية. وتطلق كلقب احترام فى مخاطبة الخدم وشغيلة المنازل، والشيوخ من غير «الأفندية».

(٤) فى الأصل: مصغر «بازار» أى السوق، وهى اسم منطقة كانت موجودة جنوبى طهران.

سعل المتفرنج، ورفع مكرها عصاه المذهبة عالياً فأشار للحوذى مش خداداد أن يُركبه. شكرهما الغلام، وركض فذهب ليجلب خرجه ولفافته، وعاد نشيطاً متوثباً.

وأعلن مش خداداد الحوذى تذمره مدة من رائحة جسد الفتى ووضعه القذر، ولكنه أفسح له مجالاً أخيراً، وبعد بضع دقائق أخرى كان الفرسان قد استراحا، فانطلقوا.

لم يسبق لجاويد طوال عمره أن ركب عربة، ولو كان ذلك من باب التصدق وإلى جانب الحوذى. أما مش خداداد الحوذى، فبعد بضع الدقائق الأولى من سوء الخلق اتضح أنه شخص مهذار كان يريد أذنين مجانيتين فعثر عليهما، ومن هذر الحوذى فهم الغلام شيئاً فشيئاً أن يد القضاء والقدر وضعته ذاك اليوم فى طريق عائلة ملك آرا.

ذكر له الحوذى أن ثريا خانم، التى صارت السبب فى حمل الغلام، كانت بنت ملك آرا الأرملة، التى كان زوجها مدفوناً فى قم، وأن «السيدة الصغيرة» تذهب إلى قم مرة فى الشهر كى تقرأ الفاتحة عند رأس قبر زوجها وتقوم بالزيارة(١) فى آن معاً. كان زوج ثريا هانم، الميرزا مشير خان نزهت الدولة، من أمراء القاجاريين(٢) الشيوخ، وقد توفى بعد سنتين من تعريسه على ثريا خانم. بقيت ثريا خانم أرملة، وكانت تعيش فى البيت الذى ورثته عن نزهت الدولة مع خدمها. وكانت السيدة الأخرى التى فى العربة فروغ زمان، أخت زوج ثريا خانم، التى كانت هى أيضاً

(١) المقصود زيارة ضريح السيدة فاطمة، الملقبة بـ (معصومة)، أخت الإمام الثامن.

(٢) آخر سلالة حكمت ايران قبل أن يطيح بها رضا خان، الذى صار رضا شاه، وتلقب بالبهلوى، بانقلاب رتبه له الانكليز سنة ١٩١٩/١٩٢٠. وفى أيام القاجاريين الأخيرة تدور أحداث هذه الرواية.

تأتى أحياناً بصحبة ثريا خانم إلى قم. أما هوشنك ميرزا، (المتفرنج)، فهو بالطبع زوج فروغ زمان، وكان أحد رؤساء وزارة المعارف والأوقاف.

عندما وجد الغلام فرصة أن يقول بضع كلمات وسط ثرثرة مش خداداد، سأل إن كان عنده خبر عن فيروز آقا اليزدى - الذى جلب بضاعة لبيت ملك آرا. لم يكن عند مش خداداد خبر موثوق بهذا الخصوص. كان منزل سيده هوشنگ ميرزا فى محلة أخرى من طهران: محلة دروازه دولت. وكان بيت ملك آرا فى ناحية السوق، فى محلة وزير دفتر. وكان مش خداداد على علم بكل الأعمال الصغيرة المتعلقة بخدم ملك آرا ومباشريه. (كان مجىء أصحاب البساتين وكسبة الأطراف وجلبهم صناديق الفواكه والمواد الغذائية إلى باب قسم الرجال وتقاضيهم المال أمراً عادياً). لا، لم يكن عند مش خداداد خبر عن فيروز آقا. وعلى أية حال، فقد كان الفتى مسروراً لأنه سيصل طهران، وأباه، سريعاً، ودعا الله أن يصل طهران أخيراً بعد الثلاثة والعشرين يوماً من هذا السفر المشؤوم.

عبرت العربة قاسم آباد وكهريزك من وسط الجادة الترابية. وعندما وصلوا رى[1] والجادة المحيطة بصحن الأمير عبد العظيم، أوقف مش خداداد العربة، ونزل، وذهب يسأل هوشنگ ميرزا إن كانت السيدتان ترغبان فى التوقف للزيارة، أو الاستمرار بالحركة؟ وسمع الفتى ثريا

---

(١) ليست «رى» التاريخية، وإنما هى ناحية جنوبى طهران، فيها ضريح السيد عبد العظيم الحسنى، من معاصرى الإمام العاشر. ويلقبه الإيرانيون بالـ «شاه» أى الملك، وبالأمير.

خانم تقول إن من الأفضل أن يواصلوا الحركة كى يصلوا المدينة قبل الغروب، فقد كانوا متعبين جميعاً.

عند الغروب تماماً وصلوا طهران. وبعد عبور دروازه غار وشارعين ترابيين طويلين، والالتفافات حول ميدان الاعدام، الذى كان خالياً بحوضه الصغير القذر، صعدت العربة فى شارع جليل آباد، وأخيراً توقف مش خداداد فى مكان ما، وأنزل الفتى بخرجه ولفافته أمام فتحة سوداء لسوق صغير ضيق، قرب مسجد السيد نصر الدين، وقال:

ـ «بيت حضرة الأشرف ملك آرا من ذاك الجانب... اذهب واسأل، سيدلّونك. ولكن ليس الآن، فالدنيا ليل. ها! اذهب صباحاً... يا سحلية! وإلاّ فسيقصون أذنيك فى منتصف الليل ويضعونهما فى كف يدك». وصرخ بالفرسين «هىْ».

ووجد نفسه، فجأة، حائراً وصغيراً وسط شارع مجهول فى مدينة مظلمة، لوحده. كان يتمنى من صميم قلبه لو أتيحت له الفرصة أن يسأل ثريا خانم عن أبيه بعض الأسئلة.

لم ينزل الأشخاص الذين كانوا فى العربة. حتى أنه لم توجه له إشارة أو نظرة من زجاجة العربة الصغيرة. ضرب مش خداداد الحصانين بالسوط، وهزّ الأعنة. انطلقت العربة، وغابت فى ظلمات الغروب بشارع جليل آباد الترابى، وخلّفت وراءها الغلام وحيداً.

ـ ٧ ـ

على خلاف كل ما تصوره عن طهران، فقد رأى طهران الليلة كهفاً مضطرباً، مدينة من تراب وخشب وقيشانى، ميتة القلب، خالية هامدة، شوهاء ومفتوحة، ذات أبواب وحيطان خفيضة قميئة، خالية، بلا مصباح، بلا حياة وبلا اهتمام... ولم يكن هذا ما يتصوره عن عاصمة بلاد قديمة وإمبراطورية. كانت حوانيت شارع خليل آباد فى العشىّ مغلقة جميعاً. ولم يكن لينبعث إلاّ ضياء شمعى كابٍ من داخل مسجد سيد نصر الدين. فى الشارع كان يمر أناس منفردون، أشكالهم ولباسهم عديمة التناسب. وكانت تمر أحياناً عربة صغيرة أو كبيرة، متداعية، يجرها حصان متعب أو دابة عجفاء.

قضى طول الليل عند جدار المسجد، مقرفصاً بين النوم واليقظة، وكان يفكر فى أبيه وأمه. عند انغلاق الفجر، فزّ من نومه على رائحة وصوت حيوان. كانت قطة سوداء عجوز وقذرة تتشممه. ارتجف مذعوراً، هش القطة، ونهض واقفاً. بلا تأخير، وعلى نحو غريزى، انطلق نحو البازارچه. تحت الغيوم الكدرة، كان هواء أغبر رطب يخيم فوق المحلة.

سأل الناس، الذين كانوا قد خرجوا من بيوتهم لشراء الخبز والجبن والهريس، عن بيت ملك أرا. أعطاه الناس عنواناً ضبابياً، فعبر أزقة ملتفة وراء أزقة، سائلاً، حتى وصل معبر وزير دفتر مجتازاً محلتى چاله حصار ومستوفى. بعد ساعتين أو ثلاث لفّها فى تيه وحيرة وضياع، بلغ أخيراً بستان وبيت ملك آرا،اللذين كانا بارزين ـ بواجهتيهما الكبيرتين المحيرتين بين هذه الأزقة القميئة ـ على هيأة قصر باذخ وبستان فخم.

كان البستان وبيت ملك آرا ـ اللذين يشغلان المحلة كلها، وحيث كانت تقع أمامهما تكية أو ميدان كبير أيضاً ـ بابان خشبيان مشغولان بالحفْر ـ أحدهما كبير والآخر أكبر كثيراً. ومن فوق جدران البستان المملوطة بالجص، كانت تتدلى أغصان صريمة الجدى[1] والآس والعنب. حتى من الخارج، من وسط الزقاق، كانت أعمدة المبنى ذو الطابقين وقوسه وإيوانه، بزيناته الجصية الجميلة والملونة، ظاهرة للعيان فى آخر البستان. غمر الغلام شعور فرح خفيف: مهما يكن مبلغ سوء ما وقع لأبيه وأمه، فإنهما على الأقل كانا يعيشان فى مكان كبير مبهج كهذا.

تقدم، وفى خوف ورجفة، دق طارقة الباب الحديد الكبيرة ثلاث مرات.

بعد مدة جاء رجل ففتح الباب. كان هذا الرجل سميناً أصفر الوجه كالمرضى، ضيق العينين صغيرهما. كان فى مؤخرة رأسه القرعاء المبقعة طاقية قذرة، وكان يرتدى قباءً رمادياً يلصقه على بطنه المنفوخة، عندالمنتصف، شال رمادى قذر. كان كل وجوده أصفر رمادياً ومنتفخاً. كانت يداه ملتصقتين وراء ظهره. تفحص الغلام الريفى لابس البياض، مقطباً، من قمة رأسه حتى أدنى قدميه. وقال:

ـ «أأنت من قرع الباب، يا بزر الجنّ؟» كما لو أن دق باب ذلك البيت بيد هذا الغلام الريفى الغريب، فى صباح دولة القاجاريين ذاك، من أكثر الأمور نشازاً.

ـ «نعم».

ـ «أىْ، عديم الدين ابن المحروق»، وأخرج يديه من وراء ظهره. كانت فى إحدى يديه هراوة من خشب الكرز.

---

(١) شجيرة متسلقة ـ متدلية، أزهارها غنية الرحيق.

ـ «عندى شغل ياسيد».

ـ «خذ طريقك واذهب ولِّ، ابن المحروق...»، ورفع الهراوة مهدداً.

ـ «أنا ابن فيروز آقا التاجر اليزدى، الذى جلب للسيد بضاعة. عندى ما أريد قوله يا سيد. عندى شغل».

بقيت يد الخادم المزرقّ، مع هراوته، معلقة فى الهواء. وبقى فمه الكبير مفتوحاً هو الآخر. وراح ينظر إلى الغلام من رأسه إلى قدميه. قال:

ـ «أعد ما قلت مرة أخرى».

فأعاد الغلام.

حدّق الخادم المصفرّ مرة أخرى بعينى الغلام. ثم أدار رأسه عابساً. كشف عن أسنانه البنية التى كانت مثل نوى تمر فاسد مترب فى فكيه الأعلى والأسفل. دفع رأسه إلى الوراء، بصق، ثم أطلق «أستغفر الله»، كما لو كان شاهد كفر إبليس على مبعدة شبر واحد منه. وأخيراً قال مكرهاً.

ـ «رح، رح إلى تلك الزاوية فانهمد هناك، حتى يصحو حضرة الأشرف...».

لم يفهم الفتى. سأل متلهفاً:

ـ «أبى وأمى هنا؟». فقال الخادم المصفر:

ـ «قلت رح وانهمد فى زاوية الزقاق».

ـ «نعم؟ ماذا تفضلت؟».

ـ «... أيها القرد المجوسى النجس. أفلا تفهم اللسان؟ قلت اصبر حتى يصحو السيد. أو اصبر حتى يشرّف مباشرة ميرزا أصغر خان

بالقدوم».

ـ «على عينى».

ـ «... ويقرر شأنك».

ـ «شأن؟».

ـ «ولِّ اجلس، انكتم». سأل الفتى:

ـ «أبى وأمى هنا، أم ليسا هنا؟».

ضرب المصفر بهراوة الكرز على فم الفتى، وقال:

ـ «وهذا عن طول لسانك». ورمى، وهو يفكر، بصقة أخرى عند قدمى الفتى. وصفق الباب، أغلقه، وأرتجه. «فهم جاويد فيما بعد أن هذا الآدمى هو غلوم[1] على خان رئيس الخدم، الذى كان المسؤول الأوحد عن كل شؤون الباحة الخارجية والمطبخ وغرفة الشاى والمرطبات والبستان، التابعة لملك آرا.

ابتلع الدم الذى تجمع فى فمه، وراح إلى زاوية التكية المقابلة للبيت فجلس. وضع اللفافة وخرجه اليدوى على مرتفع. لم يكن يدرى ما ينبغى أن يفعله الان حقاً ـ غير أن يصبر؟ أن ينتظر حتى يصحو السيد ـ أو حتى يشرّف مباشر السيد، الميرزا أصغر خان ـ كائناً من كان هذا ـ بالمجىء. لو كانت له معرفة بأخلاق هؤلاء الناس وعقولهم فلا بد يكون قد فهم الآن أن ثمة رائحة أمر سوء فى الهواء القذر. ولكنه كان طفلاً خاماً وساذجاً من بيت نار سهول يزد.

انصرمت ساعة.

جاء رجل نحيف طويل يرتدى لبادة سوداء، وقبعة سوداء طويلة،

---

(١) محرّف: غلام، بمعنى: عبد، أو صبى.

أعرج، يحمل عصا، من أحد الأزقة نحو بيت ملك آرا. توقف أمام الباب الكبير، تلا دعاءً ثلاث مرات ونفخ حول نفسه فى الهواء. نظر إليه جاويد، كما ينظر إلى كل موجود يتحرك أمام بيت آرا. كان وجه هذا الرجل خفيف اللحية عجوزاً متعباً، ولكن عينيه الدقيقتين المتلصقتين عديمتى الرموش كانتا تشعان كعينى صابوغة[1]. كان يتأبط دفتراً، فحدس الغلام أنه لا بد أن يكون المباشر ميرزا أصغر خان.

قرع الأعرج لابس السواد الواقف أمام باب منزل ملك آرا الباب. وانتظر مدة حتى فتح الباب. دفع سبابتيه بالدور مرة داخل كل من ثقبى أنفه، وأخلاهما واحدة بعد الأخرى، بلا مبالاة، نحو الجدار الذى كان يجلس عنده الغلام، ثم قال يا الله ودخل البيت، وأغلق الباب مرة أخرى.

وانصرمت ساعة أخرى أيضاً. كانت عينا جاويد قد تسمرتا بباب البيت. كان النهار السمج اللامبالى يجرجر نفسه فوق البازراچه. وأمام التكية كان رجل فى قباءات، ونساء فى شوادر مزدوجة، وباعة متجولون ـ يبيعون أوعية وصحوناً أو سراويل وجاكتات ـ وحمار محمّل بالبصل والفواكه، وشحاذ وقارئ طالع، يجيئون ويروحون. كانت الحياة تحت وزير دفتر تجرى مجراها.

قريب الظهر انفتح الباب الثانى لبيت ملك آرا، باب البستان الأكبر، وجاء شخص يحمل ابريقاً راح يرش به أمام الباب. لم يكن هذا الرجل لا الخادم المصفر ولا المباشر الأعرج. كان هذا قزماً سيء الهيأة موخوط اللحية والشارب يرتدى لباس بستانى مندرس، أو شيئاً يشبه لباس حوذى ميرزا هوشنگ خان الذى كان الغلام قد رآه أمس فى

(١) أو: شابلاً، نوع من السمك.

حسن آباد. جلس الفتى فى زاوية الزقاق، وراح يراقب القزم الملتحى ورشّه مقابل بستان ملك آرا بالماء. وأثار جروٌ - كان قد ظهر فجأة من زاوية ما وراح يمسح نفسه بشوق بسقاىّ الخادم فرفسه وطرحه، ثم أمسك برقبته فرفعه، ضربه بالجدار، فقتله. ثم رمى جثة الحيوان فى الساقية فجرفها الماء. (فهم جاويد فيما بعد أن هذا هو أبو تراب، حوذى ملك آرا وصبيه الخاص».

بعد بضع دقائق إذ تم رش الماء وقتل الكلب، وذهب القزم الملتحى، جاء فجأة صوت حوافر جياد وعجلات عربة من مؤخرة البستان. قفز الفتى، وقف، أتلع رأسه. ورأى أن عربة تأتى حقاً من مؤخرة البستان. كان القزم الملتحى يجلس الآن فوق العربة، ويضرب بالسوط. استدارت العربة وسط التكية واستدارت نحو الزقاق الأيسر. جرى الغلام إلى أمام. ولكنه لم ير رأس ملك آرا ووجهه إلا بضع ثوان حينما مرّ، بلحيته المكوّرة وشاربه الأسود، وعينيه الكبيرتين جداً، ووجهه المنتفخ، وقبعته الطويلة على طراز ناصر الدين شاه. وبعد لحظة صعدت العربة سريعاً فى زقاق چاله حصار الصاعد، ثم غابت.

ومرة أخرى لا شىء - عدا التعطل على غير هدى فى زاوية الزقاق. ما الذى ينبغى أن يفعله الآن؟ ففيما عدا التعب والجوع والعطش، كان قلبه يتلظى على نحو سىء على أبيه وأمه - اللذين كانا وراء هذه الجدران - ولا شك أنهما كانت لهما مشاكلهما. بعد انصراف ملك آرا، ارتفع من الباحة الخارجية صوت دعوى الخدم والخادمات وضجيجهم، كما جاء صوت لعب وتفحيش وضرب أطفال مهرجين لا بد أنهم بزر رئيس الخدم وذريته.

وانصرمت ساعتان أخريان، وكان الأمر الوحيد الذى جرى هو أن مجموعة مطربين وتفريحاتية جاؤوا إلى الباب مع عازف كمانچه[١] وقارع طبله وقرد، فجاء الخادم المصفر الذى كأنه كان ينتظر، ففتح الباب وأخذهم إلى إحدى زوايا الباحة الخارجية.

فى الخارج، فى زاوية التكية، خطر ببال الغلام عدة مرات أن يتقدم، ويقرع باب الحديقة مرة أخرى، وأن يسأل عن أبيه وأمه ـ ولكن حرقة موقع هراوة الخادم المصفر فوق شفتيه المتورمتين وفمه الدامى كانت لا تزال محسوسة.

---

(١) آلة موسيقية كالكمان ولكن أصغر حجماً.

-٨-

بعد الظهر، بعد ساعات من الانتظار المرير، كان قد نهض للتو عازماً - حتى ولو مقابل تحمل العصا وهراوة الكرز - أن يأتى فيطرق الباب ويطلب من أهل الدار أن يروه أباه وأمه، عندما ساعده ثانى حادث تافه من أحداث يوميه الأخيرين المصيرية: رأى باب المنزل المجاور لبستان ملك آرا يفتح، فتخرج من ذلك البيت امرأة تلبس شادراً أنيقاً برفقة طفلة صغيرة وخادمة فتاة. كان جاويد قد نظر إليهن - نظرته إلى سائر المارين بهذا الزقاق - بأدنى اهتمام، ولكن الفرق الحاصل هو أن المرأة ذا الشادر الأنيق توجهت إلى الفتى إمّا رأته. سألته أليس هو ابن فيروز آقا التاجر اليزدى؟ ذاب فؤاد جاويد، وللفور ميّز صوت تلك المرأة - كان صوت ثريا خانم ابنة ملك آرا الأرملة.

ومرت أحداث بعد الظهر ذاك بسرعة رعد مشؤوم.

سألت السيدة الشابة بضع أسئلة عن حال الغلام وأحواله العجيبة. وقدم جاويد شرحاً لحاله منذ ليلة أمس حتى عصره هذا. كان الدمع يحرق عينيه - لا من العذاب والتحقيرات التى نالته منذ الصباح حتى الآن، وإنما من رقة لطف وطيبة هذه المرأة الرؤوم. أخذت ثريا خانم الغلام معها إلى بيت ملك آرا، كى تفهم ماذا جرى لأبيه وأمه. كان واضحاً أنها هى نفسها لا تملك الخبر اليقين. أمرت الخادمة أن تحمل الطفلة، وتأخذها للنزهة فى تلك الأطراف. فقالت الخادمة، التى كانت هى نفسها صبية فى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة: «على عينى، يا سيدتى»، وحملت الطفلة. تقدمت ثريا خانم فجاءت ووقفت أمام باب باحة

أبيها، وقرعت المطرقة بإحكام.

فتح باب البيت مجدداً، ومرة أخرى ظهر رأس كبير الخدم المصفر. كان صوت العزف والغناء لا يزال يتصاعد من زاوية بالبستان. عند رؤية السيدة ذات الشادر، حيّا الخادم المصفر تحية مفخمة وأدى مجاملات مبالغاً فيها، وابتعد عن الباب كي تتفضل السيدة بالدخول. وأخبر السيدة بمزيد الاحترام والتملق أن جلب الفرقة الموسيقية وملعّب القردة بإجازة حضرة الأشرف، لمناسبة حفل ختان غلامها ابن الخادم.

لم تهتم ثريا خانم لذلك الأمر، بل سألت كبير الخدم عند الباب مباشرة:

ـ «يا غلوم على، ما أخبار أبى هذا الطفل؟ أخبره».

فقال غلوم على متلعثماً:

ـ «أعرض على جنابك...»

ـ «لماذا عطّلته وأبقيته فى حيرته؟ حرام عليك، لقد أتى كل هذا الطريق، وأصابته النكبات».

تقدم كبير الخدم غلوم على. وقال شيئاً ما فى أذن ثريا خانم، أو حول أذن ثريا خانم، من وراء الشادر. لم يكن الغلام ـ الذى وقف بعيداً عن المرأة الشابة ـ ليسمع كلامه بوضوح، وإنما طرقت سمعه عبارات متناثرة من قبيل «إننا نعانى» أو «قال السيد نلفلفه على نحو ما» و «أنه لا يريد أن يخرج، عما جرى، حرف». وكان قلبه يحدثه لحظة فلحظة بالخوف والإحساس بأخبار السوء.

بناءً على أمر ثريا خانم راحوا فجلبوا المباشر، الميرزا أصغر خان، الذى كانت له غرفة ومكتب فى زاوية من الباحة الخارجية. جاء الميرزا

أصغر خان بعصاه ولبادته السوداء. حيّا هو الآخر وانحنى، وسعل عدة سعلات، وأبلغ أسماع السيدة الصغيرة الجليلة أن حضرة الأشرف كان منزعجاً صباح اليوم، وأنهم خافوا أن يتكلموا فيطرحوا أمامه موضوعاً جديداً. ولكن قبل الظهر، قبل انطلاق حضرته إلى المجلس، عندما سمع على نحو غامض أن ابن «إيّاه» جاء، أصدر أمره بأن يكتموا أنفاسه، أن يلفلفوا الموضوع على نحو من الأنحاء، ألا يدعوا حرفاً ينطلق بأى وجه من الوجوه، لأنه ليس من الصلاح لاسم ومقام السيد أن تصل أمثال هذه الأمور إلى أسماع الجميع. أفليس هؤلاء مجوساً كفرة عبّاد نار؟ ماذا سيقول الناس؟ كان الغلام يحدّق فيهم بعينين مبهوتتين، وينصت.

قالت ثريا خانم، التى كان وجهها الآن مكشوفاً وهى تحدق فى هذين الرجلين بعصبية:

ـ «أيها الناس، حرام عليكم هذا الطفل المسكين، مهما يكن فهو آدمى، إنسان. أفليس من حقه أن يرى عائلته؟». فقال ميرزا أصغر خان:

ـ «... على عينى، إن أمرتِ جنابك، على عينى، سمعاً وطاعة». فقالت ثريا خانم:

ـ «يجب أن تساعد هذا الطفل. ينبغى فى كل الأحوال، أن تقول له كل شىء كى يفهم ماذا جرى...» فقال ميرزا أصغر خان:

ـ «على عينى يا سيدة. طبعاً، نعم، نعم». ثم تنحنح، والتفت فنظر فى وجه الغلام. وأطلق هو أيضاً «أستغفر الله»، ورمى على الأرض بصقة. ولأن ثريا خانم كانت لا تزال واقفة، فقد تمالك المباشر نفسه. سعل

سعلة أخرى، وقال:

ـ «اسمع يا ولد، مات أبوك قبل العيد فى بيت السيد».

كان جاويد قد سمّر عينيه على شفتيه البنيتين الداكنتين.

ـ «ولكن لأن لحضرة الأشرف قلباً رحيماً ونظراً منفتحاً ودماغاً فهيماً فهو لم يرد أن يرمى أمك وطفلتها فى الزقاق أمام الكلاب. إنك لا تعرف ماذا يفعل الناس فى هذه المحلة ومحيط المدينة هذا، فى هذه الدنيا الـ وانفساه، بالمجوس. أتعرف؟».

هزّ الصبى رأسه. كان لسانه قد انحبس. فى عينيه كان الدمع يتجمع.

وقال ميرزا أصغر خان:

ـ «لأن السيد قلبه بحر من الرحمة والكرم والنجابة، تلطف فأمر بأن نُبقى أمك وطفلتها ـ رغم كل الكفر والاثم اللذين ينطوى عليهما الاحتفاظ بمجوسى عابد نار فى بيت مسلم مصلٍّ ـ فى مخزن المطبخ، حتى يأتى أحد يسأل عنهما». فقال جاويد:

ـ «جئت أنا...».

ـ «ولكن الان أنت... أنت أيهما الأعجف الضيئل، أعندك شىء؟ أعندك مال تعيدهما به إلى يزد أو إلى أية مخروبة تريد؟». وألقى نظرة على الكيس الصغير الذى كان الغلام يشده تحت رباط سدرته. لا بد أنه حدس ما يوجد حتماً فى ذلك الكيس.

كان غلوم على المصفر قد انتبه هوالآخر، إلى كيس نقود الغلام، فقال:

ـ «إى، لا بد عنده. عنده كثير».

اكتفى الغلام بأن خفض رأسه باكياً، أن: نعم. فقالت ثريا خانم:

ـ «حسناً، فى أمان الله يا ولدى العزيز. فى أمان الله».

عندما انصرفت ابنة ملك آرا تغير فجأة سلوك ميرزا أصفر ولهجته. تقدم فوضع يده على أذن الغلام وألصقها بها ثم شدّها. كانت خواتم يده تهرس شحمة أذن الغلام. قال:

ـ «يا ابن المحروق، ابن من لم يسمّ بالله، اسمع: إذا نقلت كلمة واحدة مما تسمع هنا إلى الخارج، فحيثما تكون فى هذه الدنيا سأقوم بنفسى بحرق أبى أبيك المحروق بالنار».

ـ «على عينى».

ـ «لا تنس». وكاد أن يقلع شحمة أذنه، أدماها.

ـ «على عينى، على عينى».

وفى زواية الباحة كان صوت الجوق لا يزال عالياً.

اتجه ميرزا أصغر خان نحو غلوم على رئيس الخدم، وقال:

ـ يا غلوم على خان، قل لـ ننه(١) أحمد أن تأخذ هذا الأعجف مُشعل النار إلى مخزن المطبخ وتلقى أمه وأخته أمامه. أستغفر الله، أى عذاب».

فقال غلوم على:

ـ «لا إله إلا الله».

ـ «هيا، اذهبا».

ـ «على عينى...»

ـ «سلمت عينك...».

---

(١) ننه = أم.

ـ «هاى، ننه أحمد».

من زاوية الباحة، من وسط الحشد المتحلق حول الجوق، المصفق ضاحكاً غير مبال، انفصلت امرأة مكورة قصيرة، فجاءت. كانت المرأة تلف شادر صلاة[1] يكون شادر الصلاة عادة ملوناً، بينما شادر خارج البيت أسود.

مورداً صارخ الألوان حول رأسهاوعنقها ووسطها. كانت فى الواقع زوجة غلوم على. قال غلوم على:

ـ «يا ننه أحمد، خذى هذا إلى المخزن. إنه ابن المجوسى. جاء ليأخذهما إنشاء الله».

وكان ما انصب عند قدمى الغلام هو مطر من البصاق. وقالت ننه أحمد متشكية:

ـ «واه! لماذا يكلفوننى بكل وساخة كانت ...». فقال غلوم على:

ـ «هيا، انطلقى».

أطلقت ننه أحمد «آه» من قعر حنجرتها وصدرها، ولكنها انصاعت للأمر.

وانطلق جاويد أيضاً. فقال ميرزا أصغر خان:

ـ «هَىْ، يا مُشعل النار...».

فاستدار جاويد. مرة أخرى نظر إليه.

ـ «أصيبت أمك بسكتة، فأصابها الخرس. وأنت أيضاً من الأفضل لك، كما قلت لك، أن تخرس. وإلا فسأجيء وراءك بالسكين. تسمع؟».

ـ «نعم».

---

(١) يكون شادر الصلاة عادة ملوناً، بينما شادر خارج البيت أسود.

ـ «فآفهم».

نكس رأسه. كان وجهه مخضلاً بالدمع، ولكن جبينه يحترق. كان يتساءل أبقي فى هذا اليوم المنحوس خبر مرير وفاجعة أخرى تُلقى على رأسه؟... فكّر للحظة أن يقفز فيقتلع عينى الصابوغة الخبيثين من محجريهما. ولكنه انطلق وزاء شادر ننه أحمد المورد إلى حيث كانوا يحتفظون بعائلته.

عبرا الباحة الخارجية. واجتازا أيضاً ممراً مسقوفاً طويلاً، كان تحت جزء من أبنية الباحة الكبيرة. وخلا البستان. كان المبنى الأصلى الكبير ذو الطابقين لملك آرا المواجه للقبلة، فى نهاية البستان. وعلى جانبى هذا المبنى كانت ثمة غرف من يمين وشمال. واجتازا البستان أيضاً. الأمر الذى كان كابوساً بالنسبة لجاويد. كانت سراديب ومطبخ ومخزن قديم تحت الغرف المواجهة للممر المسقوف. دخلا سرداب ما وراء المطبخ. كان السرداب والمطبخ مضاءين نوعاً ما. ولكن كان وراء السرداب حجر طويل آخر جمعت فيه وسائل المطبخ القديمة وألواح الحوض. لم تتقدم ننه أحمد أبعد من هنا. أشارت بيدها للغلام «إنها هنا...» فتقدم جاويد.

فى زاوية الحجر السوداء، فى الضوء القليل الذى يأتى من المطبخ، رأى جاويد امرأة بيضاء الشعر، طباشيرية الوجه وحول عينيها حلقتان سوداوان ـ امرأة كالمجانين مشبعة خوفاً، مثل حيوان جريح ـ تجلس القرفصاء فى زاوية على قطعة شادر. كان شعرها الخفيف أشعث، متداخل الخصلات، وكأنها موجود جلس سنوات طوال فى زواية ما وراح يقتلع شعره فى بكاء وجنون، خصلة خصلة، بيديه. كانت المرزة

تلصق بصدرها طفلة فى الثالثة من عمرها كأنها هيكل عظمى، مصفرة اللون.

كان للمرأة بيضاء الشعر الشبيهة بالمجانين شبه ما بالسيدة ابنة الثلاثين عاماً، الطرية حسناء الوجه، التى كانت قبل سبعة أشهر فى يزد أم جاويد، سَرْوَر خانم الجميلة.

-٩-

لا نهاية لألمه وحزنه. طيلة أيام وليالى سفره الطويل هذا، كان يحس خوفاً وتشاؤماً ما من بلاء ومشكلة - ولكن لا هذه المصيبة العجيبة. عندما صحت سرور خانم قليلاً على وضعها وامتلكت حواسها نوعاً، راحت تتذكر ابنها بصعوبة. كانت المرأة المسكينة قد صارت كالهيكل العظمى، وقد فقدت عقلها. لم يعد بمقدورها أن تتكلم. أما أخت جاويد ابنة الثلاث سنوات، أفسانه الصغيرة، فقد كانت على شفا الموت. لم يستطع جاويد أن يفهم ما حلّ بأبيه، كيف مات، ولا أين دفنوه. «وقد فهم فيما بعد أن ذلك الرجل الشريف عابدَ مُزدا مدفون فى نفس هذه النقطة التى تجلس فيها أمه منذ ستة أشهر، فى الظلمة، متعذبة، فى هذا الجحر تحت الأرض ذاته».

جلس قريباً منهما، عانقهما وهو يذرف الدموع، وراح يواسيهما. كان المخزن تحت الأرض أسود مرطوباً، خانق الهواء، سيىء الرائحة - ونهايته فى ظلمات لا تعرف... عندما اعتادت عينه الظلام، فتح الغلام لفافته وأخرج من قعر كيسه بضع حبّات من الفواكه المجففة التى كانت باقية عنده، ووضعها فى فميهما، ومضى إلى حفرة غسل الأرجل(١) فجلب قليلاً من الماء من كاسة عمه، وأذاب فيها قليلاً من الـ نبات(٢) وسقاهما إياه. ألقى عليهما غطاءً. راح يكلمهما. هما اللتان كان يبدو أنهما لا تفهمان.

---

(١) شريط أخفض من مستوى الأرض، يحيط بحوض الماء، يستعمل لغسل الأرجل ولتصريف وحل الحوض. يتزود بالماء من فتحات أعلى الحوض، فيما يجرى التصريف من فتحات أدنى.

(٢) السكّر المطبوخ.

بقى، وصار دافع البلاء عنهما.

كان يدرى أنه ينبغى أن يخرجهما فى أسرع وقت من هذا الحجر الأسود. ولكن ننه أحمد وولداً صغيراً كانا يجلسان عند أعلى السلّم ولا بد أنهما لن يسمحا. لا بد أنه قد تقرر أن يخرجوهم ليلاً حينما يظلم كل مكان ويخلو. كان يسمع صوت همهمتهما وكلامهما وكلام الآخرين الذين كانوا يروحون ويجيئون، بقى حتى الغروب قرب أمه وأخته، اللتين كانتا الآن مثل دودتين صغيرتين متعفنتين بين يديه.

عند الغروب سمع ضجة عربة ملك أرا داخل البستان. كما سمع أيضاً أصواتاً مكتومة لكلام وأوامر تلقى، وتحركات أخرى. وجاءت عربات أخرى أيضاً وذهبت. كما كانت تصل إلى مسامعه أصوات ترددات أخرى فى البستان. ومرة أخرى أغفت أمه وأخته وانهارتا. أبقاهما فى حضنه. وأخذ يد أمه فى يده. وراح يمسد شعر أخته.

لم يكن يستطيع أن يحدس أية حركة تجرى خارجاً هناك. كما أنه لم يكن يهتم الآن. فكل ما كان فى المدينة يخص أولئك. أما هو فلم يكن ينتظر إلا حلول المساء، ولم يكن ليعلق ناظريه إلا على الدرب الذى سيخرجون به من هنا.

فى الظلمة أخرج الكيس الذى كان تحت رباط سدرته، ونظر فيه. عدّ ما كان بقى فيه من مال. كانت عنده خمس سكوكات ذهبية من فئة الـ هزارين، وسكة نصف أشرفى ـ جمعاً: أشرفى ونصف. كان يرجو أن تكفيه للعودة إلى يزد. لم تكن أمه تحمل معها نقوداً. حتى سوارها وقرطيها اختفت أيضاً. لم يكن قد بقى لها إلا قميص ممزق بالٍ على جسدها. ماذا فعلوا بنقود أبيه وماله؟ ولكن لم يكن لدى جاويد، الليلة، لا

القوة ولا الوقت للتفكير فى مال أبيه أو النزاع مع هؤلاء القوم.

جلس فى عتمة مخزن ما وراء المطبخ الخرب وبقى ينتظر - ينتظر أن تسمح ننه أحمد والآخرون بخروجهم. كانت رائحة القذارة العطنة، والسواد الفاشى، والجهل بالحقيقة تعذبه. وكانت هذه بالذات هى عدوة الأسس الفكرية التى نشأ عليها. وعليه أن يعيش معها. لكم كان يتمنى أن يغسل نفسه فى مكان ما بماء نظيف عديم الرائحة. لكم كان يتمنى أن يقف فى مكان ما باتجاه النور ويصلى. جلس فى الظلمة. تذكّر مراسم حفل لبس السدرة الذى أقيم له فى بيت النار فى ذلك اليوم الذى لا ينسى بيزد. «أنت اليوم رجل أهورا ردىّ طاهر، وثمة روح زرادشتية قادرة فى وجودك».

«حافظ على دين أجدادك راسخاً. لقد كان هذا الدين - لقرون عديدة خلت، فى عصور ملوك الساسانيين والأخمينيين وقبل هؤلاء وأولئك - دين الإيرانيين القومى. وهذا الدين قائم على أعمدة من العقل والاستقامة والرحمة». وسط ظلمة مخزن ما وراء مطبخ الأمير ملك آرا ورائحته العطنة جلس، وراح ينتظر صوت إجازة الخدم.

لم يعرف كم ساعة مضت من الليل عندما سمع الصوت. بدا وكأنه صوت خشبة أو عصا اصطدمت بباب المطبخ. قفز إلى أمام وتقدم حتى وصل إلى ضوء الباحة الأعلى، إلى السلالم. كان يرجو أن يكون الميرزا أصغر خان المباشر، لأنه - مهما يكن - عنده على الأقل الكفاءة والقدرة على القيام بعمل، وبمقدوره أن يطلقهم. ولكن الهيكل السمين والوجه المصفر لرئيس الخدم هما ما وجد عند رأس السلالم. كانت هراوة خشب الكرز فى يده ممسوكة وكأنها نابتة من قبضته. من وراء ظهره،

من داخل الباحة، لم يكن لينبعث أى صوت الان. لا بد أن أهل المنزل قد ناموا جميعاً.

سأل جاويد:

ـ «أيمكننا أن نخرج الآن؟».

ـ «لا أيها الروت البائس، انكتم واهدأ».

ـ «ألم يجىء ميرزا أصغر خان؟».

ـ «إنه عندما يجلس ليعمّر الـ وافور[١]، فإن حسابه يصير مع كرام الكاتبين[٢]. وتذكر أنت أيضاً».

ـ «ماذا؟».

ـ «رباط الكيس».

ـ «على عينى».

ـ «إنه من أولاد كلب هذا الزمان. انتبه لنفسك. لا ترخِ فتحة الكيس أمامه».

ـ «نعم، يا سيد. نحن جاهزون».

حدّق فيه رئيس الخدم بعينين تلمعان فى الظلمة. قال:

ـ «كم عندك من المال؟».

ـ «فى حدود أشرفى ونصف». فضحك غلوم على ضحكة مكتومة:

ـ «هوم. لا بد أن هذا سيوصلكم إلى يزد». ثم قال:

ـ «اسمع. يجب أن تعذرنى لأننى سلكت معك اليوم سلوكاً خشناً».

وضع جاويد يداً على شفتيه وفكه، التى ما زالت متورمة من ضربة الهراوة:

---

(١) الغليون الخاص بتدخين الأفيون.

(٢) الملكان اللذان يفترض أنهما يسجلان حسنات المرء وسيئاته، والتعبير كله يعنى «يصير فى عالم آخر».

ـ «انس الأمر يا سيد، فقد مضى». فقال غلوم على:

ـ «أنا مريض وهذا الميرزا أصغر خان يحملنى على الجرى دائماً مثل الكلب من هذا الطرف وذاك». ودفع قباءه إلى وراء، وكشف عن تحت بطنه وآلة تناسله المريضة للغلام.

أى منظر. كانت كل منطقة ما تحت آلة غلوم على التناسلية وطرفاها العلويان إلى ما تحت بطنه قد تورمت وانبعجت وانخسفت بفعل تورم الفتق والخصيتين.

نظر إليه جاويد متألماً، وقال غلوم على:

ـ «زوجتى المسكينة، ننه أحمد هذه إياها، هى الأخرى مريضة، تساقطت كل أسنانها، ليس عندى مال كى أصنع لها أسناناً صناعية...».

أخرج جاويد كيسه الأبيض. من بين المسكوكات الذهبية أخرج إحدى نوات الهزارين. أعطاها للخادم العليل.

ـ «هاك. هذه لك».

أخذ خادم ملك آرا السكة الذهبية غير مصدّق. أوشكت عيناه أن تخرجا من حدقتيهما دهشة. وفى نور القمر فحص السكة حتى اطمئن إلى أنها من ذهب خالص.

وسأله جاويد:

ـ «يا غلوم على خان، ماذا جرى لأبى فمات؟».

تنحنح غلوم على، وراح يغمغم مرة أخرى. وقبل أن يفتح فمه علم جاويد أنه يريد أن يكذب.

قال غلوم على:

ـ «فى الأسبوع السابق للعيد... أبوك هناك فوق، داخل الايوان... كان

يتكلم مع السيد، يعنى يتنادمان، وإذا به يصاب بالسكتة».

ـ «سكتة؟».

ـ «يعنى سقط فمات».

ـ «أكانا يتنازعان؟».

ـ «به! أفيجرؤ أحد أن يكون له نزاع أو مرافعة مع السيد، يا أبله؟ فى هذا البيت يعنى «السيد» الله عز وجل.. ولكنك لا تعرف ماذا يعنى الله عز وجل».

ـ «ماذا فعلتم بجسده؟». فحك غلوم على باطن قدميه:

ـ «بجسده.. حسناً، كانت لنا عذاباً ووالزاريات».

ـ «أى عذاب ووالزرايات؟».

ـ «ما أدرانى. فى ذلك الوقت... حسناً... أخيراً... دفنوه...».

ـ «أين؟».

ـ «أنت الآخر! يكفى الآن، لا تسأل بهذا القدر عن أصول الدين، ولا تكن فضولياً. ما فات مات. «السيد» بذاته طيب جداً. أمير. إنه مشغول فى البلاط والمجلس إلى حد أنه لا يتابع هذه الأمور. وهو لم يكن يريد مال أبيك التافه. إن عينيه وقلبه وروحه شبعى. هؤلاء المحيطون به هم محركون بِلا دين، على الخصوص هذا الميرزا أصغر خان ماء تحت تبن، يعنى كلهم محتالون».

ـ «أين دفنوا أبى؟». فرفع غلوم على صوته:

ـ «... ما أدرانى؟! لماذا تهذر بهذا القدر بلا سبب؟ دفنوه، وانتهى».

ـ «أين؟».

ـ «قلت لا أدرى! أفأنت آكل مخ حمار؟ أقمت أنا بدفنه؟ أنا شغلى فى

هذه الساحة ـ الساحة الخارجية. هم، ذاك الميرزا أصغر وذاك الأبو تراب البستانى تعاونا فدفناه...».

فقال جاويد:

ـ «لا بد أنك علمت...».

ـ «قلت يكفى».

فتوصل إلى نتيجة مفادها أنه لن يسمع من هذا الرجل الليلة (أو لن يسمع قط) كلمة حق. فسأل:

ـ «متى يمكننا أن ننطلق؟». فقال غلوم على:

ـ «أ... يجب أن تنتظر حتى ... يأتى ميرزا أصغرخان».

ـ «متى؟». فقال غلوم على:

ـ «ما أدرانى؟! أجلس عندك حتى أذهب إلى بيته فأسحبه من عند المنقل[1]»

ثم نهض، ووقف بين ضوء الباحة الخابى. ومرة أخرى نظر إلى سكة الريالين[2] الذهبية فى كف يده، وقلبها. ابتسم أبتسامة صفراء وقال:

ـ «اجلس هنا بالضبط عند السلالم، وانتظر. وحافظ على مالك بإحكام».

ـ «على عينى».

ـ «لا تتحرك، ها!».

وضحك. كانت أسنانه السود كريهة فى وجهه المصفر، وكانت عيناه تبرقان طمعاً.

---

(١) المجمر الخاص باعداد الأفيون للتدخين.

(٢) وحدة النقد الأساسية فى العهد القاجارى كان اسمها هزار، وكانت تعادل قيمتها قيمة الريال الذى ضرب فى العهد البهلوى.

ـ «لا تتحرك».

ـ «لا. عجّل، أرجوك».

وذهب غلوم علي.

عاد جاويد إلى المخزن. ومرّ بأمه وأخته فوجدهما نائمتين. جمع كل شيء ورتبه، شدّ لفافته وجلبها فوضعها في متناول يده، وجلس. انتظر ـ صابراً ـ إذ كأن هذه الأيام انعجنت بتنفسه.

كانت ليلة باردة مضيئة النجوم. كان الهواء يتلوى مُعولاً بين أشجار دلب وتنوب وصفصاف البستان وكان صوت صرير الصراصر مرتفعاً. وثمة بوم ينعب بين حشد الأشجار. هذه الأصوات، مقرونة بخرير ماء ساقية تمر في وسط البستان، كانت تدفعه إلى الإغفاء أكثر. وضع ذقنه فوق كلتا يديه على درجة السلم الأولى، وراح ينظر إلى البستان والإيوان المظلم ومبنى المنزل. كان يراقب كل حركة داخل البستان. انسلال القطة فوق الجدار، اهتزاز أغصان الغَرب، تساقط أوراق الدلب، وكان يراقب حتي اهتزاز الورق المصفر علي الأرض. من هذه الزاوية التي يجلس فيها كانت مباني المنزل تتبدى لعينيه مثل حرف (ن) مقلوب. كان هو عند الرأس الأيمن للحرف، والممر الذي ينبغي أن يأتي منه غلوم علي في الرأس الأيسر، وتمتد بينهما مباني الساحة وغرفها. وفي الجانب الأعلى يستقر مبنى المنزل الفخم، ذو الأساطين المرتفعة والإيوان والشرفات الفارهة. كان ملك آرا نائماً هناك، ولا بد أنه لا يدري بما يجري الليلة في زاوية بستانه. وربما كان يدري إلا أنه لا يعني بهذه الأمور. جلس جاويد، انتظر، وراقب. وأحياناً بين أفكاره البعيدة المتناثرة كان يغفو. لم يعلم متى نام. حتى أنه لم يعلم أي صوت أطار

النوم من عينيه. مجرد أنه فجأة اهتز، ورمته ضربة الهراوة أو خشبة العصا ـ التى قرعت قفاه ـ إلى أسفل السلم. تلوى أنينٌ فى صدره وحنجرته. وقال:

ـ «لا! يا إلهى، هذا لا!».

ثم اسودّت الدنيا فى عينيه وفى ذهنه.

عند الفجر، إذ سمع أصوات الديكة، وفتح عينيه قليلاً قليلاً، وجد نفسه ملقى على وجهه فوق الأرض، وعلى طابوق نهاية سلم المطبخ قرب منخفض غسل الأرجل. كان الدم الذى أريق من خلف أذنه وقفاه قد انعقد على الطابوق وجف. كانت جمجمته ثقيلة من الألم، ومحرقة. عندما وجد أن كيس نقوده، وسيلة عودتهم الوحيدة، قد سرق، فهم أن كابوسهم وعذابهم فى هذا البيت لم ينتهيا.

فى الحقيقة، منذ فجر اليوم بدأ الكابوس الشيطانى لحياته الشخصية.

كان أول ما فعله أنه نهض فركض إلى آخر المخزن. كانت أمه وأفسانه الطفلة ما تزالان هناك. كانت سرور خانم جالسة فى وسط الظلمة واضعة قطعة خبز يابس، مرطب قليلاً بالـ آب نبات[1]، فى فم أفسانه. تنفس جاويد الصعداء، فعلى أية حال، لم يصبهما ضرر جديد فى هذا الفجر المر. جلس قرب أمه، وأخذ رأسها فى حضنه وقبّل شعرها. كان قد وعدها ليلة أمس أن يخرجوا من هذا البيت مساءً. ولم يكن فجر هذا اليوم ليدرى كيف يروى هذا الحادث الجديد لهذه المرأة مكوية الفؤاد. لم يكن يدرى إن كانت أمه تفهم أم لا. قال:

ـ «اسمعى، يا أمى. أعلم أنك تفهمين كلامى. يجب أن تفهمى. اسمعى. هذا الغلوم على، الذى كان مقرراً أن يساعدنا ليلة أمس كى نرحل عن هنا، لا أدرى، لا أدرى حقاً ما جرى، فبعد منتصف الليل عندما غلبنى النوم أعلى السلم، جاء، أو ربما كان ذلك ميرزا أصغر خان، جاء شخص ما فضربنى على رأسى بهراوة، وأخذكل ما كان معنا من مال».

راحت سرور خانم تهز رأسها وتطعم الطفلة شيئاً. كان العذاب والألم قد تجاوزا حقّيهما بالنسبة لها.

قال جاويد:

ـ «ولكن انتظرى، يا أماه. انتظرى، لا تأسى. سأخرجك من هنا ـ بأية وسيلة كانت...».

---

(١) السكر المطبوخ

جلس، احتضن ركبتيه، وتأمل من كل زوايا وشواطئ وأعماق واقعة السوء هذه، وفكر: ما الذى ينبغى أن يفعله حقاً؟ لو كان يمكنه لذهب إلى داخل البستان، وعندما يخرج ملك آرا، يصد طريق العربة، ويطلب العون... فلربما وصل إلى مكان. لا بد أنهم لن يسمحوا له. ولو كان بمقدوره أيضاً لذهب على نحو ما إلى باب بيت ثريا خانم، فقد كانت تلك المرأة الرحيمة ستساعد بلا شك. ولكنه رأى بعد ساعتين أن كل هذه الأفكار والأمانى عديمة الجدوى. لأنه عندما جاء إلى رأس سلم المطبخ، كان أبو تراب البستانى وغلوم على رئيس الخدم واقفين بالسوط والهراوة قرب عربة ملك آرا، ينظفان العربة ويهيئانها. عندما ظهر رأس الغلام أعلى السلم أجباره بالتهديد والوعيد على العودة إلى آخر المخزن، على أن يختفى عن الأعين، كى يبينا له موقفه فيما بعد.

وانصرم كل ذلك اليوم على ذاك المنوال.

بعد الظهر جاء شخص إلى أعلى السلم، ورمى لهم قطعة خبز حصى[1] وبمقدار سير[2] من الجبن، من فوق، فسقطتا أمام حفرة غسل الأرجل ـ كى يأكلوا ولا يموتوا. جاء جاويد فالتقط الخبز والجبن، وقبّل الخبز، ثم وضعه على جبهته، وغسل الجبن بماء الحنفية، وجاء بهما فأعطاهما لأمه، وأكل قليلاً منهما هو نفسه، وجلس مرة أخرى فى فكر وخيال.

لم يستطع أن يفهم لِمَ لا يسمح هؤلاء القوم له ولبقية عائلته أن يتركوا هذا البيت ـ أو لماذا لا يخرجونهم منه. الآن، ولم يعد لديه شيء، لم يعد عنده ولا فلس ليأكله هؤلاء الخدم والمباشرون. إلا إذا

(١) خبز يخبز فى تنور تفرش أرضه بالحصى، الذى يسخن، فيخبز.
(٢) وحدة وزن تساوى خمسة عشر مثقالاً، أو نحو خمسة وسبعين غراماً.

كان عندهم أمر... أمر ممن؟ من ملك آرا؟ لا ـ فما فائدة هذا الأمر؟ ما الذى يستفيده ملك آرا من إبقاء هذه المرأة والطفلين؟ أو، إذا ما خرجوا من هذا البيت فأى خطر سيصيب الأمير ملك آرا؟ تذكر أن ميرزا أصغر خان قال أمس لثريا خانم أن «السيد» أمر بأن ينهوا الموضوع دون ضجة بشكل من الأشكال. لم يكن من «الخير» أن ينتشر هذا الكلام وهذه الأمور فى المحلة والمدينة، أمام الناس، فيمتلئ بها كل مكان. أى كلام كان، وأية أمور كانت، تلك التى لا ينبغى أن تملأ كل مكان؟ كون ملك آرا يحتفظ فى بستانه بعائلة زرداشتية؟ أم يحتمل أن يكون حادث آخر قد وقع وملك آرا لا يريد أن ينتشر حديثه فى كل مكان؟ ما الذى وقع؟

كانت ساعتان أو ثلاث من الليل قد انقضت، عندما خفتت أصوات البستان، وعاد كل مكان خالياً، عندما جاء جاويد بهدوء إلى أعلى السلم فأتلع رأسه. كان البستان خالياً. نظر إلى باب البستان. كان باب البستان مقفلاً من الداخل بالـ كلون[1]، كما أنهم أقفلوا الكلون أيضاً بقفل طويل. أما جدار الزقاق، فمع أنه لم يكن مرتفعاً، إلا أنه لم يكن بمقدور جاويد أن يجعل أمه وأفسانه تعبرانه لكثرة الورد والنباتات المدلاة منه. كما أن المرور من باب الباحة الخارجية مستحيلاً هو الأخر.

جلس مرة أخرى فى كآبة وانتظار.

فى أواخر الليل، جاء غلوم على رئيس الخدم مرة أخرى إلى أعلى سلم المطبخ، وناداه. قفز جاويد من مكانه وجاء مسرعاً إلى أسفل السلم، على أمل أن يمنحوهم الليلة إذن الخروج. وقف غلوم على مثل ليلة

(١) قفل خشبى، أشبه بالرتاج، كان يستخدم لإقفال البوابات من داخل.

أمس فوق السلم.

ـ «هيْ، زبالة!...». رفع جاويد رأسه من أدنى السلم.

ـ «نعم...».

ـ «لم يتيسر ليلة أمس أن تشدوا رحالكم؟ ـ ها يا خراء؟». كان لسان غلوم على دائماً ممزوجاً بمساند كلام تتعلق بالغائط والأجزاء السفلى من البدن الأدمي.

نظر إليه جاويد، محاولاً أن يفهم ماذا يريد هذا الرجل الليلة بعد. ثم قال:

ـ «لا».

ـ «لا لماذا؟».

ـ «لم، لم يتيسر أن نذهب». فقال غلوم على:

ـ «بأية صورة تريد الآن أن تعودوا إلى كاشان؟».

ـ «إلى يزد...».

ـ «حسناً يزد، أية خرابة كانت. كيف تريد أن تعود؟». فقال جاويد:

ـ «لم يعد عندنا مال... ولكن لو أذنت فقط، فإنني وأمي وأختي نرفع زحمتنا من هنا، من هذه المحلة، بلا صوت، وبدون أن يفهم أحد. نخرج، ولا نكلم أحداً أصلاً. أقسم، تفضل بإسداء لطف ومعروف، في ذلك ثواب». فقال غلوم على:

ـ «إنشاء الله ألا تموت، يا إلهي... لكي أحرقك بنفسي ليلة چهار شنبه سوري[1]»

---

(١) عشية آخر أربعاء من السنة، حفل يشعل فيه الناس نيرانا في المحلات والأماكن العامة يعبدون من فوقها، مع أن هذا العيد زرادشتي أصلاً، إلا أن جميع الإيرانيين يحرصون على إقامته حتى اليوم.

أدار جاويد رأسه، وقال:

ـ «أختى مريضة. وأمى بحاجة إلى حكيم ودواء أيضاً. إننى أرجوك، يا سيد». كان مستاءً لأنه يلتمس هذا الخادم الرجس الدغل.

قال غلوم على:

ـ «لم يعد عندك مال؟».

استل جاويد آهة، وفهم لماذا عاد هذا الرجل إليهم. قال ببساطة:

ـ «ليلة أمس عندما جلست أنتظرك وغفوت، جاء شخص فضربنى على رأسى بالهراوة وسرق كيسى». قال هذا وحدّق فى الخادم المصفر فقال غلوم على بابتسامة صفراء:

ـ «فى هذه المحلة ازداد لصوص الليل. كثر القادمون من الأطراف. ولهذا السبب تقفل الأبواب» فقال جاويد:

ـ «على أية حال راحت سرقة ليلة أمس. إذا سمحت فبمقدورنا أن نوصل أنفسنا إلى خارج المدينة...». فقال غلوم على:

ـ «... عديم المواد فطير...[1]».

ـ «نعم؟».

ـ «بدون مال ونقد كيف يمكنكم أن تتحركوا من هذه المدينة؟».

ـ «نلتمسك أن تساعد».

ـ «كيف تريد أن تصلوا يزد؟». فقال جاويد:

ـ «سنفعل شيئاً ما». فاكتفى غلوم على بأن قال:

ـ «بخ، بخ!» وسأله جاويد:

ـ «ماذا تقول أنت أن نفعل، يا جناب غلوم على خان؟». فقال غلوم على:

---

(١) كناية فسرها قوله التالى.

ـ «بمقدوركم أن تبقوا هنا، السيد لا يمانع».

ـ «وماذا نفعل؟».

ـ «بمقدورك أنت أن تعمل».

كانت النجوم تلتمع فوق بستان ملك آرا، ويد غلوم على داخل مقدم سرواله، يمسد أسفل بدنه المفتوق ـ الأمر الذى كان يبدو وكأنه لهو ومشغلة يده وفكره نهار مساء.

قال جاويد:

ـ «اشتغل هنا؟». فقال غلوم على:

ـ «أين إذن؟ فى دار الطبول؟[1]» فقال جاويد:

ـ أمى وأختى كلتاهما مريضتان. يجب أن أنقلهما قبل أن تموتا». فقال غلوم على:

ـ «اختنق، يا عظاية، إلى أى قبر يمكنك أن تذهب؟ لقد أمر السيد بأن تبقوا كم يوم حتى تخفت الأصوات ـ حتى ينتهى الأمر بشكل ما. أنت ولد شاطر وفاهم. عندك ذكاء وحواس. ابق هنا. اجمع مالاً كى تعودوا بعد ذلك إلى أية خرابة كنتم فيها». فقال جاويد:

ـ «كيف أجمع مالاً؟». فقال غلوم على:

ـ «يمكنك أن تؤمن ـ ثم تذهب وتقبل يد السيد. يسمح الأمير بأن تقوم بالخدمة هنا. لقد قام الأمير بأعمال ثواب كثيرة، كانت أمه علوية، من أحفاد سبط النبى، رحيم القلب. سيعطيك عملاً ما. وبعد ذلك إنشاء الله ربُّ أبى الفضل[2] هو الأوسطى كريم».

---

(١) كانت أمثال هذه الدور توجد فى القصر الملكى وفى ضريح الإمام الرضا، وما زالت فيه، يقوم مأمورون خاصون فى أوقات معينة بقرع الطبول والنفخ فى الابواق.

(١) العباس، أخو الامام الحسين، الذى حارب معه واستشهد دونه.

نظر إليه جاويد فى العتمة. تظاهر بأنه لم يسمع قول غلوم على «أن تؤمن» ـ بل ومسح أثرها فوراً من ذهنه ولوح روحه. إن عنده لإيماناً وديناً لم يكن لهذا الرجل السارق والأبله قط أن يفهم عمق أساس شموخهما وثباتهما. قال:

ـ «أنا لا أعرف عملاً...: كما يجب أن أخرج أمي وأختى فوراً من هذا البيت». فقال غلوم على:

ـ «هو ما قلت، تبقى، تنصلح... تقوم بالخدمة، حتى يتضح حالك وتكليفك» فقال جاويد:

ـ «أرجوك، أنت نفسك ساعدنا من طريق ما. وسأقوم بالتعويض فيما بعد». لم يكن يمكنه أن يوضح لهذا الرجل أن أسوأ عذابات الدنيا للزرادشتى أن يحبسوه فى مكان مظلم، بعيداً عن النور والنار ـ خاصة عندما يتعذر عليه أيضاً التطهر والاغتسال لتلاوة الأدعية،لم يكن هذا الرجل ليفهم.

ـ «لا يصير» أخرج يده من مقدم سرواله، فحك رأسه تحت طاقيته المدهنة القذرة.

ـ «إذن فاسمح لى بأن أرى ثريا خانم لدقيقة واحدة...»

ـ «لا يصير».

ـ «أرجوك».

«قلت لا يصير. أستنْكتم أم لا، أيها النكبة مُوقد النار؟ دِ، يجب أن تفهم ما هو لك خير. وإلا فسيسلمكم جيمعاً هنا بالذات، فى قعر المخزن، فيفنوكم».

لم تكن ثمة جدوى.

تعب غلوم على، تثاءب، ونهض فذهب إلى الطرف الآخر من البستان نحو ممشى الباحة، حتى غاب وسط الممشى المعتم. فهم جاويد أن تكليفه هو أيضاً قد اتضح الآن. هو أيضاً غير مسموح له بالخروج – مثل أمه وأخته. هو أيضاً يجب أن يبقى هنا، يقوم بالخدمة، حتى يتفسخ – أو يموت، وتموت أمه وأخته معه أيضاً.

عاد فى الظلمة ورائحة المخزن الكريهة إلى أمه. وجلس مرة أخرى قربها. ومرة أخرى احتضن رأسها. ومرة أخرى غاص فى التفكير. كان لذكرى حديث عمه الشيخ – الذى مات فى أولى مرتفعات طريق طهران الواطئة – موج وصدى باهتان.

- ١١ -

منذ تلك الليلة بدأ بالتخطيط لفراره من بيت ملك آرا. أثناء اليومين أو الثلاثة التالية، تعرف بالتدريج على مجرى الحياة اليومية لأهل الدار، وذلك عن طريق الجلوس على الدرجة الثانية من سلم المطبخ القديم وفتْح عينيه وأذنيه، والتحدث أحياناً إلى غلوم على وأبى تراب الحوذى - البستانى.

كان باب البستان الكبير مقفل دائماً بالكلون، وهو مقفل دائماً، بالطبع فيما عدا الأوقات التى يفتحونه فيها كى تخرج عربة ملك آرا، أو عندما تعود. ففى هذه الأحيان يأتى غلوم على من الباحة الخارجية راكضاً فيفتح الباب. ولم يحصل جاويد على معلومات صحيحة عن باب الباحة الأخرى، باب الباحة الخارجية، ولكنه كان يعلم على أية حال أن تلك الباحة محتشدة دوماً. كانت الباحة الخارجية ملآى ليل نهار بالرواح والمجئ وأطفال غلوم على وسائر الخدم والخادمات ورئيس الطباخين. وكانت غرفة مكتب ميرزا أصغر خان ومقره هناك أيضاً بالطبع.

فى الباحة، فى البستان الكبير، لم يكن يشاهد من سائر أهل البيت أحداً غير ملك آرا نفسه، إلا لماما، ولم يكن من يشاهدهم كُثراً. كانت غرف الجانب الأيمن من البستان، الغرف الكائنة فوق المطبخ والمخزن وخزان الماء، فى يد أم ملك آرا: بى بى گوهر تاج خانم. كانوا يسمونها حجرات بى بى خانم. وكانت بى بى گوهر تاج خانم عجوزاً قعيدة. أما غرف الجانب الأيسر من البستان، الغرف الكائنة فوق المطبخ الجديد والمجاز، فقد كانت بيد تاج ماه خانم، زوجة ملك آرا، التى كانت هى

الأخرى مسنّة الآن ويبدو أنها ولدت بطنين فقط، أو لم يبق لها غير اثنين: ابنها كيومرث خان، الذى يقولون أنه فى فرنسا وأنه درس هناك ويعمل هناك الآن، والأخرى هى بالطبع ثريا خانم ـ التى لا تأتى هى أيضاً إلى هذا البيت إلا قليلاً. من أهل البيت، لم ير جاويد إلا تاج ماه خانم مرة أو اثنتين، من بعيد، وهى فوق الإيوان، حيث كانت تحمل بنفسها أحياناً ـ بهيكلها الكبير جداً، مثل جبل من لحم وشحم وسمن، فى شادر صلاة مورّد ـ صينية الشاى والنرجيلة، أو طعام ملك آرا إلى الحجرة العليا.

وكانت غرفة الصالة، المجلس الرئيس، التى تحيط بها عدة غرف نوم. هى المبنى الأصلى ومحل استراحة ملك آرا ذاته، واستقبال أصدقائه وتردد ضيوفه. فقد كان الأمير كمال الدين ملك آرا فى تلك السنة، ما بين الخمسين والستين سنة من عمره، لا يزال يقضى حياة ملآى بالأبهة والجلال الجبروت.

فى تلك الأيام، لم ير جاويد ثريا خانم إلا مرة واحدة تأتى مع طفلتها الصغيرة وخادمتها الصبية من مجاز الحديقة الخارجية لتذهب إلى حجرات أمها. مررن من الطرف البعيد من البستان فلم يجرؤ جاويد على الخروج والتقدم والتحدث إلى تلك السيدة، مع أنه كان واثقاً أن تلك السيدة كانت ثريا خانم. فقد عرف طفلتها وخادمة الطفلة، ابنة الاثنتى عشرة سنة.

فى العصارى والأماسى التى يستقبل فيها ملك آرا ضيوفاً، وتكون فيها عربة أو اثنتان أخريان داخل البستان أو عند الباب، كانوا يبقون باب البستان مفتوحاً. فى تلك الأوقات كان أبو تراب والحوذية الآخرون

يقفون داخل البستان، يتجاذبون الحديث، أو يذهبون أحياناً إلى الباحة الخارجية، ليشربوا قدح شاى ـ فيخلو البستان. لو أمكن للفتى فى تلك الساعات أن يستفيد من الفرصة، لكان يمكنه أن يصعد من الظلمة، دون صوت، فيخرجون من باب البستان الخارجى. ولو تمكنوا من مثل هذا الأمر، فإن أحد لن يعلم بفرارهم حتى اليوم التالى، أو ربما بعد يومين أو ثلاثة. ولكن ذلك عمل خطير للغاية وإقدام دون حسبان للعواقب. فبالأمر المؤكد الصادر من ملك آرا بشأن حراستهم، كان الغلام يتجمد رعباً من التفكير فيما سيفعله الخدام إن هم أمسكوه وأمه وأخته عند الفرار.

عشية جمعة ذلك الأسبوع، علم جاويد أمراً جديداً عن حياة بيت ملك آرا كان مفيداً لحظة فراره. ففى ليالى الجمعة، كان يقام مجلس قراءة روضة[1] أسبوعى فى بيت ملك آرا. منذ العصر كانوا يتركون باب البستان مفتوحاً على مصراعيه، وكان يأتى جمع غفير من الأهل والأقارب والمعارف للمشاركة فى مجلس قراءة الروضة. كان البستان يعج بالناس، ويلعب أطفال الضيوف داخله.

فى عشية الجمعة هذه شاهد جاويد ثريا خانم وطفلتها مرة أخرى عن بعد ـ وقد لعبت طفلة ثريا خانم طيلة عصر ذلك اليوم مع نديمتها ليلا داخل البستان. كانت ليلا اليوم قد طلعت شادرها الأبيض، وراحت تعنى بطفلة ثريا خانم وهى لا ترتدى غير عصابة رأس موردة وقميصاً وردياً وسروالاً أسود طويلاً. وكانت تلعب هى أيضاً. كانت ليلا تذكّر

(١) مجلس عزاء يقام لتذكر استشهاد الحسين وصحبه فى واقعة كربلاء، تقرأ فيه «الروضة الحسينية» وهى مجموعة مراث خاصة بالمناسبة، يتضمنه النواح ولطم الصدور والرؤوس.

جاويد بابنة عمه پوران، مع أنها لم تكن بجمال پوران أو رهافتها. كانت ليلا كبيرة الأعضاء سمراء اللون، ولها عينان وشفتان أنثويتان واسعتان، على عكس پوران التى كانت دقيقة وبيضاء فى كل شىء. عندما جاءت ليلا مرتين أو ثلاثاً قريباً من سلالم المطبخ، تجرأ جاويد فسألها سؤالين أو ثلاثة، على أمل أن يتمكن من إرسال رسالة إلى ثريا خانم. ولكن ليلا كانت ـ هنا أيضاً على خلاف پوران ـ لا أبالية بليدة، فلم يطمئن جاويد إلى أنها يمكن أن تنفع فى المساعدة على فرارهم.

وفى ليلة الجمعة هذه بالخصوص أتيحت الفرصة لجاويد كذلك أن يراقب ملك آرا عن بعد ساعةً أو ساعتين، ويقوم لأول مرة بتفحص هذا الرجل، أو مظهر هذا الأمير القاجارى. (كانت ليلا قد دلت جاويد بالإشارة على ملك آرا الذى كان يجلس فوق الإيوان ذى الحاجز، يستمع إلى قارئ الروضة الجالس على كرسى).

كان الضيوف من الرجال يجلسون داخل الإيوان، الذى كان مزيناً بالسجاد وبوسائد ومتكآت[1]. أما غرفة الصالة، خلف الإيوان، فقد كانت مجلس النساء. كان القارئ قد جاء وجلس على كرسى بين الرجال وراح يقرأ الروضة ويستدر دموع الناس.

وبعد، إذ ينهض قارئ الروضة فيذهب، يأتى قارى الروضة التالى فيقرأ نفس تلك الروضة تقريباً، وتتكرر نفس الأدعية والتملقات من أجل سلامة ملك آرا، مقيم العزاء.

لم يكن جاويد قد رأى حتى ذلك اليوم مجلس روضة، فكانت مشاهدة

---

(١) وسادة كبيرة، صلبة نوعاً ما، توضع قائمة متكئة على الجدران كى يتسنى للجالس ـ والجلوس طبعاً على بساط فوق الأرض ـ أن يستريح فى جلسته. واحدها: متكأ.

هذه المراسم ممتعة له. لما كان دينه يقوم على أساس من آلاف الطقوس والرسوم، كانت تسره مشاهدة أى نوع من المراسم والطقوس الدينية يقام بمفهوم وتفكير خاصين، وكان يحب عموماً كل ما يتعلق بالإيمان والرب والدين. فى مغرب اليوم كان قد غاص خصوصاً فى خط ملك آرا وبحره كى يتعرف، على نحو أفضل، على دين وإيمان هذا الرجل الكبير ـ الذى سيطر فى خريف حياته هذا عليه وعلى أسرته.

كان ملك آرا يجلس متربعاً عند قائم كرسى القارئ. كان يضع جمع يده اليسرى بزاوية تسعين درجة فوق ركبته اليسرى. وبأطراف أصابع هذه اليد ذاتها كان يدق أحياناً على جبهته ـ يعنى أنه يبكى. كان هيكله ضخماً، وكان يبدو ـ بجاكتته رمادية اللون ذهبية الأزرار ـ أضخم وأكبر. كان شاربه ولحيته المكوران يضفيان على وجهه أبهة، خاصة بتلك القبعة العالية والوسام الذهبى. كان جميع الرجال يجلسون حاسرين احتراماً لملك آرا. كان موضوع روضة القارئ فى ذلك المغرب جلب حضرة أبى الفضل عليه السلام للماء وقطع يديه، وكلما كان ملك آرا يقرع على جبهته كلما كان الناس يصرخون معولين بالبكاء، ومن قسم النساء كان صراخ النسوة وعويلهن يتلوى فى الصالة.

كان جاويد يتفرج من بعد على هذه المراسم والضجة. (ويحس أن عشية الجمعة ليست مناسبة للفرار، فإذا ما شاهدهم الناس عند الفرار أثناء قراءة الروضة، وقبضوا عليهم، ألن تكون كفّارة ذلك رهيبة؟). كان يتفرج على قراءة روضة ملك آرا ويتأمل أى علم وفهم لهؤلاء القوم حقاً عن هذه الطقوس. فى تعليمات الدين الأولية، منذ الطفولة، كانوا قد علّموه أن الدين رباط الإنسان الفكرى بدنياه الخاصة. كانوا قد علموه

أن علامة الرجل المؤمن والمرأة المؤمنة، هو الوفاء بمفهوم كلام الله، وترسيخ الأساس الفكرى والخصوصيات القومية الفارسية.. وهكذا، ففيما كان يجلس الليلة عند سلالم المطبخ ويشاهد مجلس قراءة روضة ملك آرا وبكاءه الكاذب، كان يتأمل..

فى أول الليل إذ انتهت قراءة الروضة، وتلا آخر قرّاء الروضة دعاء اختتام المجلس، نهض أكثر الضيوف الرجال مرة واحدة وراحوا يقبلون واحداً واحداً يد ملك آرا، ثم نزلوا من الإيوان وغادروا البيت. لم يبق إلا فرادى من المقربين، ذهبوا هم أيضاً بعد بضع دقائق من الحديث والمنادمة مع ملك آرا. وجاءت ثريا خانم مع طفلتها فجلست قرب ملك آرا، وراحت تتلاطف مع أبيها. وجاءت امرأته تاج ماه خانم وأمه بى بى كوهر تاج خانم أيضاً فجلسن جميعاً ورحن يتجاذبن أطراف الحديث. كان ملك آرا الآن فرحاً طرباً، فأجلس ابنة ثريا خانم الصغيرة على ركبتيه، وربت عليها، ولعب معها. وأخرج من جيب جاكتته مسكوكة أعطاها للطفلة. وحتى أنه قرص ليلا - التى كانت تجلس عند زاوية السجادة قرب ثريا خانم - من خدها. وأعطى ملك آرا مسكوكة لليلا أيضاً.

انقضت ساعة أو ساعتان من الليل، عندما انصرف الجميع، فعاد جاويد إلى قرب أمه وأخته. كانتا - شأنهما كل ليلة - قد أكلتا كفافهما، كانتا نائمتين، أو مغشياً عليهما. ولكن جاويد استعصى عليه النوم. فعاد وجلس عند حافة السلم.

كان الإيوان خالياً الآن، وجاء غلوم على ليغلق باب البستان؛ ولكنه قبل أن يغلق الباب نادى على الرجل الغامض، الذى كان يجلس منذ

ساعة أو اثنتين فى الزقاق قرب باب البستان. على صوت غلوم على، قفز العجوز أبيض اللحية أصلع الرأس، ذو الوجه الطويل البارز والعينين الصغيرتين المدققتين كعيون اليهود، كقطعة ألعاب نارية، من مكانه فتدحرج على الأرض فى ظلمة التكية وتقدم. قال غلوم على:

ـ «كم جلبت، يا آق[1] موسى».

أفلت آق موسى ضحكة صفراء، وعرض كيساً كبيراً أسود، كان يخفيه وراء ظهره، على غلوم على .

ـ «ستة خصوصية. واثنان أيضاً ملكية خالصة للأمير ذاته شخصياً. هه هه. كما أمر الحكيم». فقال غلوم على:

ـ «اختنق! نجاسة...» وقال آق موسى:

ـ «نعم، على عينى...». وواصل غلوم على:

ـ «إن أردت أن لا يفهم كل من فى الزقاق». فقال آق موسى:

ـ «نعم، على عينى». قال غلوم على:

ـ «هات». وقال آق موسى:

ـ «نعم، علي عيني». فقال غلوم على:

ـ «هيا تحرك ـ يابس...».

ناوله آق موسى الكيس الأسود. أعطاه غلوم على مالاً. تمت المعاملة. أخذ غلوم على الكيس من اليهودى عند الباب. وانصرف خفيفا مسرعاً وبعد بضع دقائق أعاد الكيس ـ الذى كانت القنانى الفارغة تقعقع من قعره ـ إلى اليهودى.

---

(١) مخفف: آقا، يعني: سيد، وهي عامية.

- ١٢ -

كانت ليلة الصيف هادئة باردة. وكان القمر ونجوم السماء تضيء البستان، والنجف والمصابيح المنضدية النفطية تضيء قاعة إيوان ملك آرا. لم يعد ملك آرا في الإيوان ولكن الخدم والخادمات كانوا هناك يرفعون السماط.

بعد نصف ساعة، فتحت إحدى بوابات الصالة الرئيسة، ورأى جاويد هيكل ملك آرا الضخم يخرج لابساً قباءً أرجوانياً مطرزاً. هبط ملك آرا السلالم، وتقدم إلى منتصف البستان حتى بلغ حافة الحوض. استولى ضربان سريع عل قلب الفتى. كانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها ملك آرا وحيداً في البستان. كانت هذه هي الفرصة التي ينتظرها طيلة الأيام الأخيرة. وفي ثوانٍ خطر في ذهنه، كالبرق، أن يتقدم من ملك آرا ويحدثه حديث قلبه، ويطلب منه هذه الليلة أن يساعده. ولكنه سرعان ما فهم أنه على خطأ. فهما لم يكونا وحدهما. في زاوية البستان الأخرى، رأى جاويد ظل غلوم على بهراوته الكرزية، عند باب الدهليز. كان رئيس الخدم جالساً، كامناً، في انتظار أمر ملك آرا.

عند حافة الحوض، رفع ملك آرا كمّيْ قباءه إلى أعلى المرفقين. جلس، وفيما راح يتلو عالياً أدعية وآيات عربية، توضأ. غسل ساعديه وكفّيْ يديه بصخب. ومسح مفرق رأسه وأصابع قدميه. لم تكن الأدعية العربية تفارق فمه.

عندما تم الوضوء، نهض ملك آرا ووقف برهة عند حافة الحوض،

ودعا. ومرة أخرى خطر على ذهن جاويد أن يتقدم مهما كلف الأمر ويتحدث إلى ملك آرا. أراد أن يتحرك، إلا أن ملك آرا تمخط وبصق وعاد إلى أعلى الإيوان. هنا كانت تاج ماه خانم قد فرشت بنفسها لزوجها سجادة الصلاة الخاصة به. وقف ملك آرا باتجاه القبلة، سوّى لباسه وشرع بالصلاة. راقبه جاويد. كانت صلاة ملك آرا هادئة ودقيقة ـ وفى أدب وخشوع وخلوص امرئ إزاء الله الأكبر...

بعد أن تمت صلاته، بقى ملك آرا جالساً مدة طويلة، وأرخى يديه تحت مقدم صدره. كان يناجى ربه. كان جاويد ـ الذى يراقبه من ثقب زاوية البستان ـ يتحرق شوقاً إلى أن يتمكن من معرفة ما يخاطب به ملك آرا ربه. كانت له، ولا بد، مخاوفه. كان هو أيضاً، ولا بد، يريد أشياء أو لا يريد أن تحصل أمور. فقد كان جاويد سمع أثناء هذه الأيام المعدودة، وهو فى زاوية البستان، على نحو عابر ومتناثر، أن طهران وجدت هذه السنة وضعاً محكماً وحكومة جديدة. كان انقلاب رضا خان قائد الجيش، وقدرته، قد أخافا الجميع. كان قائد الجيش قد حكّم موقع الحكومة، وكان يتشدد. كان الأمراء القاجاريون خائفين يتسترون. وحسب قول مش خداداد، حوذى هوشنگ ميرزا، لم يكونوا يذكرون اسمه إلا بعد سلسلة من ألقاب التعظيم والتفخيم، فلا بد أن ملك آرا كان الليلة يناجى الله ويساومه خوفاً من رضا خان قائد الجيش.

بعد بضع دقائق من رفع سجادة الصلاة، جاءت تاج ماه خانم، بدون شادر الآن، بصوانى العشاء إلى الإيوان. راحت المرأة، التى يشبه بدنها جبلاً، تتناول عدة أنواع من مجمعات الغذاء عند عتبة الباب من

أيدى الخادم والطباخ، وتصفّها على السماط. وأخيراً راحت بنفسها وجلبت صينية خاصة فيها زجاجة أو اثنتان موضوعتان فى قدح ثلج كبير. (لا بد أنها من الزجاجاتّ التى جلبها آق موسى اليهودى إلى الباب قبل ساعة).

بعد أن أعدت تاج ماه خانم السماط. وجلبت وسادة ومسند ملك آرا الخاصين، المحشوين بريش البجع، ورتبت كل شىء، جاء ملك آرا من موقع الصلاة إلى السماط فجلس عند القدح. وجلست تاج ماه خانم نفسها، كجارية مخلصة مطيعة، عند زاوية بعيداً عن السماط، وراحت تهوّى نفسها بمروحة يدوية، وهى تراقب أكل ملك آرا وشربه.

بقى ملك آرا جالساً هناك فى الإيوان ساعات، يأكل ويشرب، يأكل ويشرب. ثم جلبوا له مروحة راح يهوى بها، وجلبوا نرجيلة فدخن فيها، وجلبوا شاياً فشربه، ثم انحلّت عقدة نطقه. تكلم مع تاج ماه خانم، ثم أرسل فى طلب ميرزا أصغر خان، فتكلم معه أيضاً، وأصدر إليه أوامر. ثم أرسل إلى غلوم على، وتكلم معه هو الآخر، وأصدر إليه أوامر. ثم جلبوا له نرجيلة وشاياً جديدين. اتسعت آمال الفتى، وتصور أن ملك آرا ربما سيرسل فى طلبه، ويعين له مصيره، ولكن لم يحدث شى ء من هذا. كل ما هنالك أن تاج ماه خانم نهضت، آخر الليل، فجاءت بصينية منقل الأفيون وحُقِّه إلى الإيوان، الأمر الذى بدا وكأنه آخر طقوس عشية جمعة الأمير ملك آرا.

بعد نصف الليل بقليل، إذ ذهب الجميع ليناموا، أظلم البستان وخلا مرة أخرى، وظهر غلوم على المصفر ليقفل الأبواب، وكان جاويد لا يزال جالساً فى رأس سلالم المطبخ يقظاً.

ـ «لا تزال صاحياً، يا بزر الجن». فسأل جاويد:

ـ «لم يقل السيد شيئاً بخصوصى؟» فقال غلوم على:

ـ «ربما يضرب حظك غداً ضربته... فهو لم يتفضل الليلة بشىء».

ـ «كيف؟». فقال غلوم على:

ـ «لقد هيأنا الأرضية، الآن اسمع جيداً، سأقول لك ما يجب أن تفعل... غداً، أو بعد غد، عندما يريد السيد أن يخرج، تخرج أنت أيضاً، واضعاً يدك على صدرك، فتتقدم إليه. تنحنى فتقبل يد السيد. تقول، يعنى تستأذن بأدب أن تقوم بأعمال الخدمة له، أن تبقى هنا، تصير عبداً...حتى ترى ما يكون بعد».

نظر جاويد من الظلمة الى رئيس الخدم. لم يقل شيئاً. قال غلوم على:

ـ «فهمت؟». لم يجب جاويد. قال غلوم على:

ـ «ليس هناك ماذا أفعل وماذا لا أفعل. هو ما قلت. إمّا يجب أن تتعفن فى هذه الظلمة والقذارة، وتتعفن أمك وأختك أيضاً، أو تقوم على عجل بخدمة السيد... حتى ترى ما يكون بعد». هزّ جاويد رأسه رافضاً.

ـ «تحمل الألم حتى تصل إلى العلاج».

ـ «لا».

ـ «ابدأ غداً، صرّف أمورك هكذا، كن مطيعاً».

ـ «لا».

ـ «السمك طازج أى وقت تخرجه من الماء».

ـ «السمك يموت أى وقت تخرجه من الماء».

خفض رأسه إلى أدنى ولم يرفعه بعد. سمع غلوم على يذهب فيقفل باب البستان.

وسمع فى قعر المخزن شخصاً يئن. لا بد أنها أمه ترى حلماً سيئاً. أو لابد أنها أفسانه تتضور من الألم والجوع.

بقى جالساً الليل كله فى الظلام، ومرت أفكاره وإرادته فى ذهنه. إنه لن يقبَل رجل ملك آرا قط. ليس هذا سلوكاً حسناً من إنسان حر. يمكن أن يذهب إلى ملك آرا، فيقف أمامه، مستقيماً... ولكن على أن يروى قصته بحق واستقامة، ويطالب بحقه. فقط.

ـ ١٣ ـ

لم يقع جديد صباح الجمعة. بقى البستان خالياً ساكتاً. بعد الظهر جاءت بضع عربات وبضعة ضيوف بقوا مع آرا فى الصالة. لم يخرج ملك آرا. جلس جاويد منتظراً. كان الانتظار، وكسل الجلوس اللاهادف، يكادان يجننانه.

صباح السبت، كان جاهزاً، مترصداً منذ الفجر، جاء فجلس عند أعلى السلم. هيأ فى ذهنه الأمور التى ينبغى أن يقولها لملك آرا، وراجعها عدة مرات. كانت كل الساحة والبستان قد كُنسا ورشّا بالماء وهيّئا لمجيء ملك آرا. كان كل الخدم وسائرالمستخدمين حول العربة داخل البستان ينتظرون هبوط ملك آراء. حتى الميرزا أصغرخان كان قد جاء بعصاه ودفتره فوقف عند طرف الحوض.

قريب الظهر هبط ملك آرا، ساعلاً متنحنحاً منتفخاً، عن الإيواء والسلالم. كان كل واحد من المستخدمين يحدّق إليه من تحت حاجبيه شاغلاً نفسه بعمل ما. إضافة إلى ميرزا أصغر خان وغلوم على وأبى تراب، كان خادم أو اثنان من أولاد غلوم على الكبار فى البستان، واثنان آخران يجلوان بدن العربة بخرقة ومنديل. نهض جاويد، ولأول مرة بعد الأيام الخمسة الأخيرة. خرج من ثقب سرداب المطبخ، فجاء باتجاه عربة ملك آرا.

تقدم ميرزا أصغر خان أولاً، وتكلم بضع كلمات إلى ملك آرا، ثم انحنى له. ثم تقدم غلوم على ويده على صدره، وتبادل هو أيضاً كلمة أو

اثنتين معه، ثم انحنى له. اقترب ملك آرا من باب العربة فوقف، وتريث. مد جاويد خطوة من الجدار إلى أمام، وسلم متمتماً. ولكن الفتى لم يكن قد فتح شفتيه بعد عندما أشارملك آرا بعصاه المرصعة نحوه، سائلاً غلوم علي:

ـ «هذا؟». فقال رئيس الخدم:

ـ «نعم، يا حضرة الأشرف...». فقال ملك آرا:

ـ «إذا كان هذا يريد أن يصير خادمي، وأن تقع عيناي على وجهه القذر كل يوم، فينبغي أولاً أن تصلحوه عن طريق الشريعة الإسلامية...».

لم يفهم جاويد عم كانوا يتكلمون. قال غلوم علي:

ـ «على عيني يا حضرة الأشرف». لا بد أنه لم يكن يدري هو أيضاً.

فأصدر ملك آرا أمره:

ـ «أبلغوا أوسّا[1] ذبيح».

ـ «على عيني يا حضرة الأشرف».

ـ «سريعاً، الآن للتو».

ـ «نعم، الساعة، يا حضرة الأشرف». وركض فقال شيئاً لأحد أولاده، فطار ذلك الولد فوراً من البستان، وغاب في السوق الصغيرة.

بقي جاويد حائراً لا يفهم من هو أوسا ذبيح وما الأمر. مد خطوة أخرى نحو ملك آرا، أراد أن يقول شيئاً، ولكن ملك آرا رفع عصاه وقال:

ـ «انكتم، انكتم...» ، ثم ذهب الأمير القاجاري نحو مباشره، وبقي مشغولاً معه زمناً.

---

(١) مخفف ـ محرف: أستاد = أوسطى.

بعد عشر دقائق، عاد الولد الذى كان ذهب فى طلب أوسا ذبيح، بمعية رجل متوسط السن يحمل حقيبة. كان هذا الرجل أبيض الوجه غليظ الشارب، له هيأة ما بين حلاق وقصاب. جاء داخل البستان فتقدم، أخذ يد ملك آرا فقبلها وانحنى وقدم تحية عبودية.

أشار ملك آرا بعصاه نحو الغلام. قال ملك آرا مخاطباً أوسا ذبيح:

ـ «ذلك ... هيا أنيموه، وحلّله».

تفحص أوسا ذبيح جاويد، وقال:

ـ «على عينى، يا حضرة الأشرف». فقال ملك آرا:

ـ «الآن بالضبط». فقال أوسا ذبيح:

ـ «على عينى، يا حضرة الأشرف» والتفت نحو الخدم، قائلاً:

ـ «هاتوا بطانية وصينية وباطية ماء مغلى ... أنيموه هنا عند حافة الحديقة».

ظن جاويد أولاً أنهم يريدون قطع رأسه. ثم تحسر فيما بعد لِمَ لم يفعلوا.

ذهب غلوم على طلباً للبطانية والصينية والماء المغلى. وجاء أبو تراب ـ والسوط فى يده ـ فى أثر الفتى كى يمسك يده، فتراجع جاويد بقوة وفظاظة. قال أبو تراب:

ـ «لا تخف يا عظاية... لن يصيبوك بسوء...»

ـ «دعنى».

ـ «يجب أن تصير حلالاً مسلماً». وضحك.

ـ «لا!».

ـ «لا يريدون إلا أن يختنوك».

ـ «لا!» وركض إلى زاوية البستان. فصرخ ملك آرا:

ـ «خذوه، اطرحوه أرضاً».

وبهذا الأمر، فى صباح ذلك اليوم المشؤوم، بدأت أكبر معاناة لألم فرار وتعقيب شهدها بيت ملك آرا ومحلة زيركذر فى تايخهما . كان أوسا ذبيح يصرخ:

ـ «خذوه، أنيموه». ـ «خذوه!». ـ «أنيموه!». وكان كل شىء يكتسى بظل من السخرية والدعابة...

راح جاويد يركض حول البستان، وأبو تراب وأوسا ذبيح وأبناء غلوم على، وحتى ميرزا أصغر خان الأعرج، يجرون وراءه، فلا يستطيعون أن يمسكوا به. كان الكلام والصراخ والضجة ترتفع. حتى خيل عربة ملك آرا كانت تثب جامحة.

ـ «خذوه!». ثم جاء اثنان أو ثلاثة من الأطفال الصغار الآخرين من الباحة الخارجية فانضموا إلى حشد المطاردين. وعندما جاء غلوم على حاملاً البطانية والصينية وباطية الماء المغلى، قال ملك آرا:

ـ «اركض، خذه، هاته». فترك غلوم على الأشياء فى زاوية الحديقة، وشرع هو الآخر، بفتقه وورم خصيته، يركض. وانفتحت نوافذ غرفتى تاج ماه خانم وبى بى گوهر تاج خانم على عجل أيضاً، وأتلعت السيدتان رأسيهما إلى الخارج لتريا ما كان يجرى.

كان جاويد يركض، لا يريد أن يمسكوه له، ولم يكن أحد ليستطيع أن يمسك به. كان قد نسى أمه وأخته. لم يكن عنده فكر ولا منطق. كان يفر

بفعل غريزته الإنسانية، لم يكن يريد أن يمسكوه فيقطعوا بدنه.

عندما حاصروه فى زاوية البستان، نفذ فانسل من داخل الممر إلى الباحة الخارجية. ولكن هنا أيضاً طاردته ننه أحمد ورئيس الطباخين وعدد من الأطفال الذين سمعوا صراخ:

«خذوه، أمسكوه». قفز جاويد على الجدار فذهب إلى أعلى السطح... وركض وراءه الأطفال وعدد من الكبار أيضاً. كان يركض على الأسطح، يتطاير فوق الجدران والأسطح، والأطفال فى إثره. ولم يمض وقت طويل حتى جاء عدد آخر من أطفال المحلة فى أثره أيضاً.

كان منظراً حقاً! كان جاويد يركض فوق أسطح الغرف المحيطة ببستان ملك آرا وبيته، ويتقافز، ووراءه جيش خدم ملك آرا وصبيان المحلة. وأخيراً، عندما راح ليقفز عن أحد أسطح ملك آرا إلى فوق سطح بيت ثريا خانم، زلت قدمه فوقع على حافة جدار البستان، ومن هناك سقط أيضاً إلى داخل الحديقة. اندلق الصبيان عليه، فأمسكوه. جاءوا به سحلاً. كان يعارك عراك الموت والحياة، فجاء به الصبيان إلى حافة الحوض، مقابل ملك آرا، الذى كان لا يزال يقف مغضباً هناك. ووصل الآخرون من الكبار والصغار أيضاً، لاهثين مقذعى القول.

قال ملك آرا:

ـ «أوسا ذبيح، اطرحه ابن الكلب ابن المحروق...»

كان الصبيان والكبار قد أمسكوا بكتفه وساعديه، يضغطونه، كان ملك آرا يقف الآن مغتاظاً ويداه داخل نطاقه. كان غلوم على قد فرش البطانية عند حافة الحوض. كان أوسا ذبيح قد فتح حقيبته السوداء.

ولكن من كان قادراً على طرح جاويد على البطانية لينيمه؟ لا أحد، بدا أنه لم تكن ثمة قوة قادرة على أن تنيمه.

في هذه الأثناء، جاء ميرزا أصغر خان يعرج متقدماً، وأشار إلى أبي تراب. أخرج أبو تراب هراوة من نطاقه، رفعها وضربها بشدة على رأس الفتى. كانت ضربة موت وإهلاك. ولكن جاويد تحمّل هذه أيضاً، وبقي واقفاً. صرخ ملك آرا:

ـ «أنيموه...».

لم يعد الموضوع موضوع ختان وتحليل وأسْلمةٍ. صار الأمر أمر تحطيم وإخضاع. فتى جسور وشرير خارجي تجاوز على حريم هذا البيت قائماً بتمرد وتخريب. انهمر كل الكبار معاً حول جاويد، أمسكوا به، ضربوه على رأسه ودماغه، رفعوه كي ينيموه على البطانية، ولكن جاويد كان يتلوى، يناضل، ينهض من بين أيديهم وأرجلهم، لا يدعهم. كان بدنه مثل بدن ضأن صغير، ولكنه ضأن سحري ينزلق من بين أيدي مهاجميه فيظهر. والقوة التي حلت فيه، العجيبة التي لا تصدق، لم يكن هو نفسه يفهمها ولا يعرفها. ولكنه كان لا يقهر. مع أنه كان يحس أنه بمقدوره أن ينتصر تحت أيدي هذه الجموع المهاجمة. لم يكن بمقدورهم أن يغلبوه ـ ولكن كان بمقدورهم أن يبيدوه ـ وكان ذلك ما يفعلون. وفكر في أمه وفي أفسانه. وكان يفكر في حياته وكرامته. فصاح:

ـ «حسناً جداً، اتركوني... انتظروا!». انكتم الجميع فجأة ساكتين في حيرة وعجب. حرر جاويد نفسه من قبضاتهم. وقال:

ـ «حسناً جداً، اتركوني، سأنام أنا نفسي... إذا أراد أحد أن

يقصني، فلا بد أن أسمح أنا».

عندما تحرر، مضى بين الحشد، فوقف على البطانية. اتجه نحو ملك آرا وأسا ذبيح. بيديه أخذ سرواله فسحبه إلى أدنى. وقال:

ـ «... تعالوا يا عديمي الدين... هو لكم». تصاعد دوي ضحك من بين الرجال. لكنه لم يكن يبالي. تلا، هامساً، دعاءً وتمدد. عرض عليهم جسده.

كان له جسد صغير جميل، وإذ كان الآن مضطراً إلى تسليمه عارياً مكشوفاً لهؤلاء أمامهم وأمام السماء، كان الاختناق في بلعومه والدمع في عينيه يحرقان. فره ورته: أشو زرتشت. آستويه هو متم منو، آستويه هو ختم وچو آستويه هورشتم شيوتنم. شهد لأهورامزدا، دعاه، وتوسل إليه أن يساعده، وحبس دمعة وحافظ على كبريائه. وضع ظاهر أصبعيه بين أسنانه وعض عليهما.

لم يصدق أوسا ذبيح كلامه. نادى أبا تراب وغلوم علي وطلب منهما أن يجلس كل منهما على إحدى ساقي الفتي، وأن يمسكا به بشدة كي لا يتحرك. كما أمر اثنين من أبناء غلوم علي أيضاً أن يجلسا على يديه. ثم ركع هو أيضاً بين جسد جاويد، وطرح مئزراً ومنشفة بيضاء تحت ساقي الفتي. أخرج من حقيبته عودين دقيقين وشفرة حادة وبعض القطن وصبغة يود، وضعها جميعاً قرب يده على الصينية. كان الجميع واقفين يراقبون، يعلق بعضهم ويسخر الآخرون ضاحكين.

تناول أوسا ذبيح العودين بيد واحدة وجمع جلدة الحشفة فضمها بين العودين وضغط عليها. ثم تناول الشفرة بيده اليمين وقدمها. قال بسم

الله. قص الجلد. فار الدم.

ولكن في تلك اللحظة أوجعه شيء أكثر من شفرة أوسا ذبيح، ذلك أنه رأى من زاوية عينه أمه وقد جاءت من السرداب إلى أعلى السلم، تبكى وتنتحب، كانت المرأة المسكينة وكأنها ـ من هول هذه الصدمة والمصيبة الجديدة ـ قد عثرت على لسانها مرة أخرى، فراحت تلتمس الناس وتبكى محدثة صوتاً. وشاهد جاويد أيضاً شادر ثريا خانم المورد وحتى شادر ليلا الأبيض الصغير، إذ كانتا قد جاءتا لتعرفا سبب هذه الضجة المدوية فى البستان.

شهدت أمه تلك المراسم. وشهدت كل النساء هذه المراسم أيضاً.

ـ ١٤ ـ

أخذوه من تحت إبطيه، رفعوه، وجاءوا به ـ والمئزر مربوط بنطاقه ـ فألقوا به من فوق سلالم المطبخ. وألقوا بسرواله الأبيض وراءه أيضاً. سقط على طابوق أرض المطبخ قرب أمه. وبين ألم الجراح وحرقتها كان يسمع صوت ملك آرا من فوق، من البستان، ينهر ابنته ثريا خانم ـ التى كانت تريد أن تتوسط لصالحه، ويعنفها بسبب دفاعها عن شرير وقح.

رفع رأسه عن أرض المطبخ، نهض من مكانه، وعلى أى نحو كان تمكّن أن يرفع أمه التى كانت قد غابت عن الوعى، فجاء بها إلى المخزن، جلست سرور خانم بين العتمة والنور وراحت تحدق ذاهلة بعينين فارغتين مرعوبتين بابنها. لم تكن على معرفة حقيقية بما جرى فى الخارج. عندما نظرت فى نور المخزن القليل إلى رأس ابنها ووجهه الداميين، إلى جذعه المحنى وأسفله المغطى بالمئزر، وانتبهت إلى سيل الدم الجارى على ساقيه، ضجت نادبة مرة أخرى ولطمت بكلتا يديها على رأسها وظفائرها البيض. لا بد أن المرأة التعيسة ظنت أنهم قد خصوا ابنها.

ـ «واى طفلى، ابنى».

هدّأ جاويدُ، بين العجب والدهشة، أمّه، وضمها إليه. فَرِح أن استعادت أمه نطقها ولسانها. كما لو أن بلاءاً ومصيبة جديدين صارا ثمناً وكفارّة لمحو صدأ بلاء ومصيبة قديمين. قبّل أمه وقال لها إنه لم يقع أمر ذو بال، إنهم ختنوه فقط، لأنهم تصوروا أنه حاضر لخدمتهم. وقال لها إنه مسرور لاستعادتها لسانها.

سقطت سرور خانم الآن فى هوة بكاء سيىء لا ينقطع - بكاء كانت كأنها تريقه من قعر بطنها وصدرها وكبدها وحلقومها ودماغها. تركها جاويد تبكى. وبكى هو أيضاً. كان عندهما كثير من الأسباب التى تجعلهما يبكيان. حتى أفسانه الصغيرة كانت تشهق فى نومها بالبكاء.

بعد وقت طويل من البكاء، غابت أمه عن الوعى، أغفت. أما جاويد نفسه فلم يتمكن من النوم لشدة الألم. جلس وراح يفكر، يتأمل فى الفرار - بأسرع ما يمكن، بمحض أن يجد القدرة على الحركة ينبغى أن يبتعدوا عن هذا القبر.

كان لا يزال يذكر الطريق حتى شارع جليل آباد، يعرفه. ومن هناك إلى مدخل الأمير عبد العظيم، كان يذكره نوعاً ما. فى ذلك اليوم كان مش خداداد الحوذى قد أراه حرس ماكنة دخان «محطة قطار» الأمير عبد العظيم فى شارع خراسان - التى كانت غاصة بالناس. كان بمقدورهم أن يخرجوا من طهران بماكنة الدخان. فى خضم حشد الناس لا بد أن أحداً لن ينتبه إليهم، وحتى إذا طاردهم خدم ملك آرا فإنهم لن يعثروا عليهم... ولكن المال - كانوا بحاجة إلى مال. من أين له أن يحصل على بعض المال؟ ليته كان قد أخفى بعض مسكوكاته فى مكان آخر. كم كان فى هذه المدينة من ألم وعذاب وحيلة وخداع، مما لم يكن يعرف! ربما كان يمكنه أن يقترض بعض المال من ثريا خانم. كيف؟ ليت فلساً واحداً من كل مال أبيه ذاك قد بقى.

أنّت أمه فى نومها، واستلّت آهة مستطيلة.

مسح جاويد على شعر أمه ووجهها. ولكن عندما فتحت عينيها، كان أول ما سألها جاويد عنه هو موت أبيه.

ـ «أماه...». قالت أمه:

ـ «أنا... يمكننى الآن أن أتكلم... شكراً للرب... هل حالك حسنة، يا جاويد؟».

ـ «أماه، كيف مات أبى؟».

مرة أخرى بهت وجه سرور خانم. استولى المأتم والألم القديمين على روحها. انحرفت عيناها الممتلئتان غصة وذهولاً إلى الحائط الأسود. قالت:

ـ «ضربوه، شدّوه بالفلقة، وتحت الفلقة والضرب قتلوه».

ـ «فلقة؟».

ـ «أناموه فى البستان، ووضعوا رجليه بين الخشب والحبل، فى نفس المكان الذى طرحوك فيه ـ وضربوه بالعصا، ضربوا قدمه، ضربوا رأسه، حتى قضى نحبه تحت الفلقة...».

نظر جاويد إلى عينى أمه الأسيّة، كان يمكنه الآن أن يصدق كلامها ـ كان يصدق الآن كل شىء. وكان أبوه ميتاً. سأل:

ـ «لماذا... ماذا جرى؟». قالت سرور خانم:

ـ «لا أدرى. تنازع الأمير معه. فجأة تملكه الغيظ والغضب. لا أدرى عم كان الحديث. كانا فوق الإيوان. كانا واقفين، يتكلمان. كنت وأفسانه جالستين عند الباب من زاوية الباحة. يا ربى، أى يوم... أى يوم. كان ذلك اليوم الأول بالذات. لم نكن ندرى، قالوا إنه مغتاظ من مكان ما ـ فأفرغ غيظه على رؤوسنا ـ كان جالساً فى الإيوان، فجأة نهض، ورأيته يضرب وجه أبيك بعصاه... ثم لا أدرى، نهض فيروز آقا وراح إليه، لا أدرى بم أجابه بحيث صرخ ملك آرا: «أىْ، ابن المحروق المجوسى

اللامسلم...»، ثم أمر فجاءوا بالفلقة. قال: «اضربوا ابن المحروق هذا ضرباً لا ينهض بعده، ولا يرد عليّ...» فقام الخدم بما طلب بالضبط... وبعدئذ، لما ذهب ملك آرا بالعربة تكأكأ الخدم فسلبوا أباك، ولم أفهم ـ كلهم، أخذوه كله...».

كان يدرك. ربت على أمه.

وسأل عن وفاة أبيه وجنازته. لم يكن لسرور خانم خبر عن جنازة زوجها، بعد وفاة فيروز آقا أخذ الخدم المرأة التعيسة إلى الباحة الخارجية، أبقوها يوماً هناك، ثم جاءوا بها إلى هذا القبر. لم تحصل قط على خبر عن جنازة زوجها.

امتلأت عينا سرور خانم دمعاً مرة أخرى. وامتلأت عينا جاويد بنار الانتقام. قال:

ـ «على الأقل، فهو قد وقف أمام هذا الرجل وقال قولته». فقالت سرور خانم باكية:

ـ «لا ـ ما كان يجب أن يفعل ذلك».

ـ «أماه! يجب...»

ـ «ماذا كانت الفائدة؟ ما الفائدة؟». فقال جاويد:

ـ «أنت نفسك أيضاً تعرفين ما الفائدة... أنت أيضاً زاردشتية. وكان بابا يعرف أيضاً».

خفضت سرور خانم رأسها. مسحت دموعها بظاهر كفها. قالت:

ـ «أنا أم... أريد أن أبقى حية». فقال جاويد:

ـ «سأحافظ عليك حية».

ـ «أريدأن يبقى أطفالي أحياءً... أريدك أن تبقى حياً، أريد أن تبقى

أفسانه حية».

ـ «لا يدخلّن القلق قلبك، سنبقى أحياءً».

ـ «وليس هذا إثماً... أهو إثم؟».

ـ «لا، ليس إثماً». وضم رأس أمه إلى صدره. لم ينبس بحرف آخر. بقي ساكتاً. إن الإثم شيء، أما العار فشيء آخر.

نظرت سرور خانم إلى ساقي ابنها الداميتين. فحصتهما. أخذت منديلاً وذهبت فبللته ثم عادت به فجلست وغسلت الدم. وبينما كانت تبكي، راحت تكرر مرة أخرى كل ما جرى لزوجها، كما لو كانت تقصه على نفسها. ثم روت ما جرى لها ولطفلتها الصغيرة أثناء هذه الشهور السبعة.

كلام وعقد صارت «كان مقدراً أن تصير» إلى آخر عمرها وعمر جاويد، سوداوية دماغيهما.

ـ ١٥ ـ

فى مغرب ذلك اليوم، عندما كانت آخر ذرّات ضياء مخزن المطبخ تموت، سمع جاويد صوت شخص من أعلى السلم. لم يكن صوتاً ضخماً ولا صوت ضربة هراوة غلوم على. كان صوتاً خفيفاً لامرأة أو طفل. أرادت أمه أن تذهب فترى من هناك، إلا أن جاويد لم يدعها تفعل. تحامل على نفسه فأوصلها إلى أدنى السلم.

كانت ليلا. خادم ثريا خانم الطفلة، بشادرها الأبيض الصغير، متجمعة على نفسها فى زاوية السلم. كانت فى إحدى يديها باطية نحاس. وفى يدها الأخرى كان كأس روسى كبير مملوء بسائل أبيض. كانت تبدو صغيرة جداً وشبيهة بملاك. قالت:

ـ «سلام... حالك حسنة؟» فقال جاويد:

ـ «عليك السلام...». نزلت ليلا السلالم، وأعطته ما كانت جاءت به.

سأل جاويد:

ـ «من أعطى هذا؟». فقالت ليلا:

ـ «تفضلت بها ثريا خانم».

تناول جاويد بيدين مرتعشتين، وتشكر، وخجل من رؤية ليلا إياه بالمئزر الدامى. أودعت ليلا فى يد جاويد كذلك قطعة ذهبية من فئة الريالين. خفض جاويد رأسه كى يعود إلى المخزن. احمر وجه ليلا أيضاً، فخفضت رأسها. وقبل أن تستدير لتعود، قالت للفتى:

ـ «أنت... حالك حسنة؟». فقال جاويد:

ـ «نعم، نعم... لا شىء».

لم يكن يريد أن يتكلم إلى ليـلا. لم يكن يريد أن يـجـاذب أية فـتـاة الحديث غير پوران ـ خاصة بهذا المئزر الدامى حول وسطه. قالت ليلا:

ـ «كيف حال أمك وأختك الصغيرة؟» فقال جاويد:

ـ «بخير... عائشتان». حدّقت فى عينى الفتى،وقالت:

ـ «كان ذلك قضاءً وبلاءً. لا شىء. ينقضى». فقال جاويد:

ـ «متشكر».

ـ «حسناً».

ـ «قولى لثريا خانم عن لسانى إننا شاكرون جداً، ممنونون». فقالت ليلا:

ـ «إن ثريا خانم زعلانة معهم».

ـ «لا ـ يجب ألا تزعل».

ـ «استاءت كثيراً...». فقال جاويد:

ـ «الأمر لا يستحق». فقالت ليلا:

ـ «كلما أردت شيئاً، قل لى». فقال جاويد:

ـ «لا، لا... أنت أيضاً لا تتحملى العناء».

ـ «لا عناء».

ـ «أنت أيضـاً سيصـيبك السوء... اذهبى، انصرفى، فى أمـان الله».

فقالت ليلا:

ـ «سأجىء غداً لآخذ الأطباق». وقال جاويد:

ـ «متشكر. اذهبى».

نظرت ليلا إليه. فقال جاويد:

ـ «فى أمان الله».

ذهبت ليلا. بقى جاويد واقفاً، حتى غابت ليلا أعلى السلالم داخل البستان، وعاد هو إلى أمه.

كنت باطية النحاس مليئة بالرز والقيمة[1] وفوقهما بضع قطع من خبز الحصى. وكان القدح الروسى مملوءً حليباً. ولكن الأمر الذى كان يفكر فيه جاويد، هو قطعة الريالين، التى كانت فى يده – والتى كانت ستصير وسيلة فرارهم ووصولهم إلى بيتهم. شعر بالامتنان فى فؤاده لثريا خانم. رفع رأسه ودعا أهورامزدا رب الخير واللطف. وفكّر أنه لو كان فى هذا البيت دين وإيمان، أو لو كان ثمة جوهر إنسانى، فقد كان فى روح هذه المرأة.

(١) طبخة من الحمص المفلوق وأشياف بطاطا ولحم مقطع.

ـ ١٦ ـ

بعد ثلاث ليالٍ، بعد منتصف الليل بساعة، كان جاويد جالساً مرة أخرى في رأس السلم. كان ينتظر. كان قد شدّ لفافتهم وأغراضهم القليلة. كان جاهزاً .كما كانت أمه مقرفصة في أدنى السلالم، وكانت جاهزة للحركة. وكانت أفسانه نائمة في حضن أمها.

جذبت سرور خانم آهة متعبة، وقالت:

ـ «أمازلت تتصور بأنها ستظهر؟» فقال جاويد:

ـ «نعم».

ـ «أنا لا أتصور».

ـ «قالت عندما ينام الجميع، وعندما يخلو كل مكان، ستأتي ـ ثمة طريق من فوق سطحهم ـ ستأتي إلى الباحة الخارجية، ثم إن لم يكن ثمة أحد تأتي فتفتح لنا الباب». قالت سرور خانم:

ـ «إن الديكة تصيح».

ـ «لا يزال ثمة وقت».

ـ «ربما غلبها النوم، أو ربما فهموا بالأمر فأخذوها وألقوا بها في حجرة الصناديق وحبسوها».

ـ «ربما».

ـ «أخاف».

ـ «تشجعي، يا أماه... واصبري».

كانت الأيام الثلاثة والليالي الأخيرة بالنسبة له استمراراً من الانتظار والقلق المريرين. كان ارتباطه المتقطع الوحيد بالخارج رؤية ليلا مرتين

أو ثلاثاً، ليلا التى جاءت بضع مرات إلى أعلى السلم جالبة فى كل مرة طعاماً أو شيئاً. كان غلوم على وأبو تراب يأذنان لليلا على مضض.. إذ لم يكونا يستطيعان ألا يأذنا. كان ذلك أمر ثريا خانم. وليلا نفسها، كانت منذ سنوات فى هذا البيت أو فى بيت ثريا خانم، وقد ولدت فى هذا البيت، فكانت جزءاً من حياة عائلة ملك آرا وابنته. على أية حال، ففى كل مرة كان غلام على أو أحد الخدم يأتى وراء ليلا، فيقف فى الساحة حتى تتم ليلا عملها وتعود.

(جاء غلوم على نفسه مرة كى يأخذ جاويد ليستخدمه فى شأن ما، إلا أن جاويد قال إن ساقيه لا يزالان مجروحين فهو لا يستطيع العمل).

ليلة أمس الأول، إذ جاءت ليلا وحدها ـ تكلم معها جاويد طويلاً ـ ولو على خلاف ميله ـ طلب منها أن تساعد ـ سراً ـ أن تأتى مساءً، آخر الليل، فتفتح لهم باب الباحة الخارجية، كى يخرجوا من البيت. كانت ليلا خائفة. قالت إنها لا تستطيع. ولكن أمس، حين أعاد الفتى الموضوع، حين التمس مرة أخرى، قالت ليلا أخيراً إنها قد تفعل.. ولكنها تخاف. قال لها جاويد أن تأتى مساءً، عندما يكون الجميع قد ناموا، عن طريق السطح، بهدوء. وكانت ليلا قد قالت إنها قد تفعل، إنها سترى. ولم يكن جاويد الليلة، الآن، يدرى هو نفسه كم يمكنه حقاً الاعتماد، أو عدم الاعتماد، على ليلا. فمع أن ليلا تبدو وكأنها تريد قلبياً أن تساعد، ولكنها حائرة خائفة، ولسوء الحظ، فقد كانت ليلا أملهم الوحيد.

قالت أمه:

ـ «إننا ننتظر بلا معنى». فقال جاويد:

ـ «ربما غلبها النوم».

ـ «طلع الفجر».

ـ «فى الوقت متسع بعد».

ـ «لنذهب، ننام. دع هذا الأمر. إننى أخاف كثيراً».

ـ «فلننتظر نصف ساعة أخرى».

ـ «لنذهب ننم. أنت أيضاً على حال سيئة. إنك جريح».

ـ «لم تضئ الدنيا بعد». كان جاويد مسروراً لأن أمه استعادت فكرها وحافظتها.

فى زاوية البستان، من ناحية الممر، تحرك ظل شاحب. حدق جاويد، فعرف قميص ليلا الوردى وسروالها الأسود الطويل. وبعد لحظة كانت ليلا قربه خائفة، وكالأشباح. قال:

ـ «ليلا، ليلا... متشكر. أفتحت الباب؟». فقالت ليلا:

ـ «هيا، هيا ـ انطلقوا. إننى أخاف». قال جاويد:

ـ «على عينى، على عينى...»، ثم سألها:

ـ «أكان باب الباحة مفتوحاً؟». فقالت ليلا:

ـ «ليس لبابهم إلا ملزمة خشبية ومتراس، إنهم لا يقفلون باب تلك الباحة». فقال جاويد:

ـ «إذن ننطلق».

وأشار أيضاً لأمه ـ التى صعدت قليلاً عن حوض الحنفية، والتى كانت تضغط أفسانه إلى صدرها ـ أن تتحرك. تحركت سرور خانم بخوف وارتجاف فجاءت إلى البستان. كانت هذه المرة الأولى التى تخرج فيها من هذا الجحر بعد ستة شهور أو سبعة. وساعدها جاويد. وانطلقوا.

كان البستان غارقاً فى الظلمة والسكون. لم يكن ثمة قمر، وإنما بضعة نجوم متناثرة تبدو من خلف الغيوم السوداء. كانت ريح عنيفة تهب، وتتلوى بين الأشجار المجرودة. كانت الحجرات المحيطة بالبستان، والبستان كله، غائصة فى الظلمة والنوم. عبر جاويد وأمه، محتضنة الطفلة وراء ليلا مثل ظلال هاربة. دخلوا الممر الطويل والأسود. كانت عيونهم ترى فى الظلمة، لأنها اعتادت السواد. بلغوا الباحة الخارجية بسرعة. كانت ليلا تهسّهم وتقودهم بسكوت وهدوء قطط الليل السارقة. هنا، تقدمت بوجل وأرشدتهم على باب الباحة، وذهبت هى فاختفت فى زاوية. سحب جاويد ملزمة باب الباحة الخشبية، وفتح المتراس. بعد لحظة انفتح الباب.

التفت جاويد، ولآخر مرة شكر ليلا. أوصاها أن تغلق الباب وراءهم وتعود إلى بيتها فوراً. طلب منها ألا تقلق بشأنهم لأنهم سيذهبون فى الصباح الباكر بماكنة الدخان إلى الأمير عبد العظيم ومن ثم إلى يزد. أوصاها ألا تقول لأحد شيئاً. كانت ليلا ترتجف. كانت تتمتم بأشياء تحت شفتيها ـ كما لو كانت نادمة على شىء ما فعلته. قالت إنهم لو علموا أنها فعلت هذا فسيقطعونها إرباً. كانت جرأتها وإيمانها قليلين. وسرعان ما فقدت هذا القليل أيضاً. طمنها جاويد، وطلب منها ألا تخاف، وأن تعود فوراً.

عندما أغلق الباب وراءهم، أحس جاويد شعور فرح وظفر عميقين. حتى تلك اللحظة لم يكن ليتصور أن فرارهم من هذا البيت سيتم حقاً. وحتى الآن لم يكن يصدق من صميم قلبه. أمسك بيد أمه من تحت إبطها، وباليد الأخرى رفع اللفافة على ظهره، وبخطوات سريعة تجاوز

بها التكية المظلمة وبيت ملك آرا.

في آخر ساحة التكية، عند أول زقاق بلغوه، وقف جاويد وأدار رأسه... نظر إلى ظل ملك آرا الأسود. كانت التكية كلها خالية، وبيت ملك آرا في صمت ظلمة السحر المغشاة بالنور يحلم. تذكر جاويد ما وقع في ذلك البيت على رأس عائلته ورأسه.

أدركت أمه أفكاره، فقالت:

ـ «ما كان انقضى، هلم نذهب». كانت في عيني جاويد نار. قالت سرور خانم:

ـ «جزاؤهم عند الله».

لم يقل جاويد شيئاً آخر الليلة. نظر إلى السماء. كان يتذكر قول عمه الشيخ. قالت سرور خانم:

ـ «انطلق، لا تتلكأ». فقال جاويد:

ـ «عندما كان عمي بهرام يحتضر على الجبل، قال لي إنه وبقية أسلافنا هناك في السماء، وهم يراقبونني...» فقالت سرور خانم:

ـ «أعرف، أعرف. تعال الآن كي لا نتأخر».

كان جاويد لا يزال يحدّق فاغراً في ظل البيت. قالت سرور خانم:

ـ «ليكونوا... عليهم الرحمة جميعاً. تعال» فقال جاويد:

ـ «يجب ألا نغضي عن كل هذا الوسخ والشر، فلا نفعل شيئاً».

فقالت سرور خانم:

ـ «صحيح، ولكن ليس الليلة ـ ليس وقته أن تعود الليلة إلى داخل بيت ملك آرا. انس الليلة هذا الكلام. ليس الآن وقته». تنهد جاويد، وقال:

ـ «لا». وتحرك. قالت سرور خانم:

ـ «لا يقضى العقل والحكمة بهذا. انطلق، أسرع». فقال جاويد:

ـ «ولكن سيحين وقته».

واستدار، وسحب يد أمه، ومر وسط الظلمة من أمام تكية بيت ملك آرا...

وبعد دقيقة اختفوا فى الأزقة.

كان الظلام لا يزال سائداً عندما وصلوا شارع جليل أباد. عند حافة الرصيف جلس جاويد فغسل وجهه ورأسه بماء الساقية المحاذية للشارع كى يطرد عن عينيه النوم. ثم نهض، وأخذ الطفلة من حضن أمه التعبى العاجزة، وحمل هو الطفلة. ولأنه لم يكن يريد أن يلتقى فى هذه الأطراف بأحد من خدم ملك آرا، الذين يقضون الليل خارج البيت، ويبتعدوا عن هذا الجزء من المدينة بينما لا يزال مغموراً بالظلام، لم تكن عنده بعد خطة دقيقة للسفر الطويل إلى يزد، إنه لا يريد الآن إلا أن يخرجوا من طهران - وأن يصلوا عند المغرب إلى الأمير عبد العظيم، وإن أمكن، فحتى إلى عمران أبعد منه.

عندما بلغوا ميدان الإعدام، كان ثمة أناس متفرجون من المبكرين. انطلق جاويد وأمه خائفين، سريعى الأجنحة، وبلا نظر إلى خلف.

إما وصلوا شارع خراسان كان الضياء ينتشر، مع أن السماءكانت مظلمة غائمة. كانت محلات الخبز والبقالة والكراع والمحلّبى[١] والهريس[٢] مفتوحة الآن. كان جاويد يريد من صميم فؤاده أن يشترى شيئاً ساخناً لأمه وأفسانه، ولكن لم يكن عنده غير قطعة هزارين ذهبية كانت ثريا خانم أرسلتها له، ومن المحتمل جداً أن هذا المبلغ لا يمكن فكّه فى هذه الحوانيت. فانتظر. وتقدما.

أمام المحطة، أجلس جاويد أمه قرب الجدار، وناولها الطفلة. ذهب هو نفسه إلى دكان عطارة كبير، وتكلم إلى العطار، كى يشترى بعض

(١) المهلبية (في مصر): طعام من نشاء وحليب وسكر، يستعمل في الشتاء والخريف افطاراً.

(٢) هريس الحنطة المقشورة واللحم، ويستعمل إفطاراً هو الآخر في ذينك الفصلين.

الدواء. بالطبع من أجل أن يفك قطعة الهزارين الذهبية. عطّله العطار، مكرهاً، سيء الظن، وألقى عليه أسئلة محرجة، وسأله من أين وكيف حصل على تلك المسكوكة. ذكر جاويد الحقيقة بقدر ما يمكن، إن أباه تاجر يزدى جاء بمتاع لبيت ملك آرا المعروف، وإنه كان يأتيه بالبضائع دائماً، وإنهم الآن يريدون أن يخرجوا من المدينة فى الصباح الباكر. أخيراً تمت المعاملة، وأعطاه العطار ـ أضافة إلى الدواء والمأكولات التى طلبها جاويد ـ بعض الأوراق النقدية والمسكوكات. شكره جاويد كثيراً، وعاد إلى حيث أمه.

اشترى رغيف خبز حصى ساخناً وطبق محلبى ساخناً أعطاهما لأمه عند زاوية رصيف دكان المحلبى. وجلس هو أيضاً فأكل قليلاً. وفى هذا الفجر راح ينظر إلى الشارع الترابى، ودكان المحلبى الساخن، والناس البسطاء. كان الناس فى الدكان مشغولين، والحياة تمضى أمام حراسة ماكنة دخان طهران. كان طباخ المحلبى جالساً متربعاً على منصة بين قزانين كبيرين، قزان المحلبى وقزان الهريس، مشمراً عن ذراعيه، تنطوى يده وتنبسط بالمغرفة، يملأ الأطباق، مشغولاً بعمله بخُلُق دمث مغنياً يطرى بضاعته. كان الناس يتناولون الإفطار، يتجاذبون الحديث، ويتمازحون. كان بعضهم يمتدحون أعمال رضا خان قائد الجيش[1]، الذى جاء هذه الأيام ليقطع الأيدى الظالمة للأشراف والأمراء ممتصى دماء الأمة. ليست الدنيا مكاناً بهذا السوء، إن كان ثمة رحم وطينة طاهرة. كان جاويد يحس فرحاً وتحرراً.

(١) عند تنفيذ انقلابه في الأيام الأخيرة من سنة ١٩١٩، اكتفى رضا خان بوزارة الدفاع وقيادة الجيش، ثم استحوذ على رئاسة الوزارة، ومهد الطريق بمناورات محسوبة خلال أربع سنوات ليستولي على العرش. وكان «قائد الجيش» في تلك الأثناء لقبه.

نظر إلى أمه. كانت سرور خانم بشعرها الأبيض ووجهها المنكسر فاقد اللون تطعم طفلتها، وتضع القليل فى فمها الجائع أيضاً. ربما كان بمقدور أمه، بعد، أن تعود إلى الحياة البسيطة. تصورها جاويد فى بيتهم الكبير النظيف فى يزد. تسير سرور خانم فى البيت بثوب طويل ليمونى فاتح بلا أكمام، من النوع المطرز بأسلاك مموهة بالذهب، وتفتح النوافذ باتجاه النور. وتقطف من الحديقة زهور الياسمين والسوسن، تنظمها فى خيط، وتجلبها فتلف الورد المنظوم حول صورة أشوزرتشت. كانت حجرة الجلوس مفروشة بسجاد نائين. والمرايا والشمعدانات الفضية تضىء الحجرة. كان كل شىء يفوح برائحة النظافة وعطر ماء الورد. وكانت الحياة تمضى بخير ودعة وهدوء.

كانت سرور خانم - كابنها - غارقة فى أفكار بعيدة محلقة. قالت:

- «أتدرى ما يريد فؤادى الآن يا جاويد؟».

- «يزد...».

- «حمّاماً فقط. حماماً جيداً - أغسل به نجاسة وقذارات هذه الشهور الستة أو السبعة عن رأسى وجسدى. كما يجب أن أغسل رأس أفسانه وجسدها أيضاً. ليس هذا صحيحاً».

كان جاويد يعلم ما تقول أمه. قال:

- «ربما كان هنا حمام عمومى. ولكن الأفضل أن ننطلق من المدينة بأسرع وقت».

قالت سرور خانم:

- «لقد اكتسب كل بدنى وروحى نجاسة هذه الشهور الكريهة العطنة». فقال جاويد:

ـ «أدرى...». كان قلبه هو أيضاً يتحرق إلى حمام ـ مع أن الجرح بين ساقيه كان لا يزال يوجع ويحرق. قال:

ـ «سريعاً يا أمى، سريعاً... لقد تحملت عذاب سبعة شهور، فاصبرى يومين أو ثلاثة أخرى».

عندما نهضا وجاءا تحت السماء الغائمة السوداء نحو سلالم محطة ماكنة الدخان، كان مطر خفيف قد بدأ. سأل من بضعة نفر عن طريقة ركوب ماكنة الدخان. قالوا له إنه ينبغى أن يدخل المحطة، أمام الثقب الذى يقف خلفه مأمور الأمن ومأمور التذاكر، فيعطى مالاً ويأخذ تذاكر كى يفسحوا له فيدخل صالة الانتظار. تحت المطر دخلوا حدود المحلة الصغيرة، وكان جاويد قد هيأ ماله فى جمع يده. لفّت أمه وجهها بإحكام تحت الشادر الممزق. اشترى جاويد تذكرتين، مزقهما المأمور نفسه فى المكان نفسه، وأشار لهما مأمور الأمن أن يدخلا الغرفة التالية. أخذ جاويد مرفق أمه، ومن قسم الجدار المفتوح وراء المأمورين دخلا الغرفة التالية.

تنفس الصعداء.

لقد منحه مجرد العبور أمام مأمور الأمن، ودخول الغرفة الكبيرة والأبواب المغلقة روحاً جديدة، أحس أنهم خلّفوا طهران وراءهم أخيراً. لقد بدأ سفرهم نحو البيت!

فى هذه الغرفة كان جمع غفير من رجال يلبسون القباءات، رجال دين يضعون عمائم سوداء وبيضاء وخضراء، ونساء بشادر مزدوج، وأطفال صغار، ينتظرون جميعاً فتح أبواب الصالة المغلقة ـ كان ثمة باب كبير فى الوسط وبابان أصغر على جانبيه. قدّم جاويد أمه وأخته

من وسط الحشد إلى أمام فأجلسهما خلف أحد البابين الصغيرين، متكئين على الجدار. وجلس هو أيضاً. حتى هنا كان يسعى لأن يبقوا مختفين، أن يكونوا صغاراً عديمي الأهمية، أن لا يسفروا عن أنفسهم، كان يرجو ألا يراهم أحد من بيت ملك آرا. حتى الآن لم يكن صميم قلبه خالياً من الخوف والقلق.

ازداد الحشد بالتدريج ازدحاماً وهرجاً. في أنحاء الصالة وزواياها كان الشحاذون يتلون الأدعية والروضة بأصوات عالية. وفي زاوية كان رجل قد جمع حوله المتفرجين، وافتتح مشهد صحراء كربلاء، جامعاً من الناس «ثمن إيقاد الفانوس». وفي زواية أخرى كانت امرأة عمياء مجدورة، تضع على رأسها منديلاً مثلثاً وآخر مربعاً وتلف نفسها بشادر، تقرأ الروضة بصوت غليظ مخنوق، وتهز في الهواء عصا وتأخذ من الملة مالاً، ويسميها الناس بأنثى المرشد[1].

كان جاويد يجلس صامتاً ينظر إلى الحشد المتجمع النائح الشاكي. وفجأة ارتفع صراخ الناس أن «فتح الباب، فتح الباب»، وانهال الجمع على بعضه بعضاً هاجماً إلى أمام. وقد داس بعضهم، في الواقع، على ساقيه وكتفيه وساقي أمه وكتفيها وعبروا من فوقهما. ولكن جاويد تمكن، بنحو من الأنحاء، أن ينهض من تحت أرجل الناس وأيديهم، ويرفع الأم محتضنة الطفلة، فأمسكها بإحكام من مرفقها، وشدّها إليه، وسعى إلى أن يقفا جانباً حتى يمر هجوم الجمع. ولكن موج الناس جرفهما كقطعة ورق ممزقة على سيل ماء هادر، ودفعهما إلى وسط الباب الخشبي، وألقى بهما من زاوية ما إلى الخارج.

في الخارج، كان المطر الآن سريعاً دقيقاً يتساقط بكثافة. كان

(١) هو الحكواتي، وقارئ الروضة في الهواء الطلق.

الناس يتراكضون كحيوانات هاربة نحو ماكنة الدخان. رأى جاويد هيكلاً طويلاً من الحديد والخشب. كان سيل الجمع يندلق من الباب ويهجم على القطار. كان الأكثرية متماسكى الأيدى مع مرافقيهم وهم يهجمون، الرجال يتصايحون، والنسوة يصرخن، والأطفال ينقذفون، ويتمازج الشبان ويتعابثون، والجميع نحو ماكنة الدخان يتراكضون.

جدد جاويد أنفاسه، كان قد أمسك بمرفق أمه، فكان جاهزاً لكى ينطلق نحو زاوية من القطار فينجو من المطر، ولكن فجأة هبط قلبه: بالضبط أمام الباب الكبير المفتوح، قرب القطار، رأى ثلاثة أشخاص واقفين، فى أيديهم العصى والهراوات وظهورهم إلى القطار، يحدقون فى الجمع، يبحثون. لم يكن هؤلاء الثلاثة أشخاص قد رأوه بعد، ولكن لم يكن أمامه أيضاً طريق فرار. لم يكن بمقدوره أن يعود إلى غرفة المحطة لأن سيل الجموع كان لا يزل يندلق منها. ولو أنه انفصل مع أمه عن الحشد وفرّا إلى نهاية المحطة فلا شك أنه سيتم العثور عليهما بسرعة. بقى بضع ثوان حائراً لا يدرى ما يفعل. كان الجمع يلكزهم ويدفعهم فيعبر. قرر جاويد أخيراً أن من الأفضل أن يركبوا على أية حال، فلربما أمكنهم أن يختفوا فى زاوية ما. كان الأمر الوحيد الذى يريده فى هذه الدنيا هو ألا يقع فى قبضة هؤلاء الأشخاص الثلاثة وسياطهم وعصيهم وهراواتهم: أبى تراب وميرزا أصغر خان وغلوم على رئيس الخدم.

سحب مرفق أمه وركض نحو آخر ماكنة الدخان. ولكن فى تلك اللحظة، حتى بين صخب وضجيج الحشد، سمع صوت ميرزا أصغر خان يقول:

ـ «ها هم، هناك...». وقال أبو تراب:

ـ «هم بالذات...»، وصرخ غلوم على:

ـ «قفا يا آكلىْ الحرام».

عند رِكاب القطار انهالوا على رأس جاويد وسرور خانم. كان الجمع فى ذلك الوقت من الانشغال بذاته بحيث لم يكن لينتبه إلى أى شىء. ومن ذا الذى كان ليهتم؟ وكان ما جرى بعدئذ تحت ذلك المطر، سريعاً وبلا سؤال، كهبوط ظل الموت. وضع ميرزا أصغر خان عصاه الشبيهة بالهراوة تحت حنجرة جاويد وقال:

ـ «إن لم تكن تريد أن أعطى هنا بالذات أمك وهذه الطفلة كى يعجنونهما تحت الهراوات فعليك أن تعود معى بلا صوت ولا حس... إن السيد يريد أن يعطيك بنفسه مالاً فى الوقت المناسب ويعيدكم بالعربة إلى يزد. والعربة أيضاً الآن هنا... تحرك».

لم يكن ثمة طريق آخر أو علاج. نظر إلى أمه، كانت تبكى الآن دون صوت، وتدق على صدرها. قال:

ـ «لا تبكى، يا أماه. لنعد».

ـ ١٨ ـ

تحت المطر، أخرج خدم ملك آرا جاويد وأمه والطفلة الصغيرة من المحطة. جلبوهما سحلاً وحشروهما فى العربة. وساق أبو تراب العربة سريعاً نحو گذر وزير دفتر. كان ميرزا أصغر خان وغلوم على فى مؤخرة العربة إلى جانبهم. وأوقعا أول ضرب بجاويد هناك بالذات، فى العربة، أمام أمه وأخته الصغيرة.

ومع ذلك، مضى طريق العودة سريعاً فى نظر جاويد ـ لأنه لا بد أن ذهنه كان قد توقف عن العمل. كانا يضربان على رأسه وبطنه من يمين ويسار. كان ميرزا أصغر خان يضرب بعصاه على رأسه ووجهه، أو على عظم ساقه، مما أحدث له كل ذلك الألم. أما غلوم على رئيس الخدم فكان يضع يداً بين ساقيه ويعول، وبيده الآخرى كان يضرب، كلما عنّ له، بطن جاويد، ويشتمه ويشتم آباءه وأجداده.

كان باب البستان مفتوحاً، فدخلت العربة مباشرة. قفز أبو تراب هابطاً وأغلق الباب الكبير. وألقى بهم ميرزا أصغر خان بالركلات من العربة إلى وسط الباحة تحت المطر. جاء غلوم على من الباب المقابل، وبناءً على أمر ميرزا أصغر خان دفعهما على عجل نحو السرداب فمخزن المطبخ، كى يروا ما سيأمر به ملك آرا فيما بعد.

وعلى هذا، فإن ذلك اليوم، يوم تحررهم المزعوم، لم يكن قد شهد ظهره بعد لمّا كانوا مرة أخرى فى قعر السرداب الأسود كريه الرائحة، ولم يكونوا يعرفون ما الذى سيفعلونه بهم.

انقضت ساعتان أو ثلاث، زماناً طويلاً كان بالنسبة لجاويد حتى ذلك

اليوم أسوأ ساعات عمره، وربما كان حتى أسوأ من اليوم الذى سمع فيه أن أباه مات قتلاً تحت الفلقة.

فى أوائل العصر، ارتفع صخب وصوت تحرك كثير فى البستان. سمع صوت كثيرين يروحون ويجيئون ويتكلمون ويتصارعون. وكأنما سمع جاويد حتى صوت بكاء عدة نساء وصوت صراخ وبكاء ليلا وما كان يبدو أنه ايقاع ضرب بها. لم يكن يدرى ما الذى كان يجرى هناك فى الباحة. ومرة أخرى انقضى زمن طويل.

عند العصر، فى لحظة مثل دوى الرعد، تلوّت صيحة صراخ غلوم على فجأة فوق السلالم طالباً منهم أن يصعدوا جميعاً إلى فوق، لا بد أن ملك آرا جاء.

ناجى جاويد ربه ودعاه، وتناول يد أمه محتضنة الطفلة فصعدا من السرداب. على عكس توقعه لم يكن ثمة ناس كثر فى الباحة. لم يكن داخل البستان غير غلوم على. كان ملك آرا نفسه يقف فوق الإيوان ـ يداه فى نطاقه، مثل برج سم الأفعى. وكان ميرزا أصغر خان يقف إلى جانبه أيضاً. كان قد قدّم تقريراً بكل أعمال جاويد وتجسسهم وعملياتهم إلى ملك آرا. كان ملك آرا يلبس ملابس القادة العسكريين الرسمية الزاهية البراقة، كما لو كان عائداً من مراسم خاصة، أو ذاهباً إلى مراسم خاصة. كانت ملابسه سوداء من الرأس حتى القدمين، سترة وسروال وجزمة سوداء جميعاً، واضعاً أوسمة، وتحمل ملابسه تطريزات وزينات باهرة. وكان حتى يشد إلى وسطه سيفاً.

ومرة أخرى على خلاف انتظار جاويد، عندما تكلم ملك آرا لم يكن مخاطبه جاويد ـ كان مخاطب ملك آرا ـ الأمر الذى ألقى الرعب

والاشمئزاز فى قلب جاويد ـ هو أم جاويد. صرخ:
ـ «إذن فقد حشوتيه أيتها الكريهة كى يهرب؟». لم تفهم سرور خانم.
أحست فقط أن حديثاً موجهاً إليها:
ـ «هوم؟ نعم؟ بم تفضلت يا سيد؟». فصاح ملك آرا:
ـ «فتحت لك لساناً؟ ها؟».
ـ «هوم؟ لا أَبداً، سامحنا يا سيد ـ لقد أخطأنا، لم نفهم. اشتبهنا».
فصاح جاويد:
ـ «أماه، لا تتقدمى».
ـ «كان الذنب ذنبك يا قحبة. أنت التى قرأت فى أذنه أن يهرب، أيتها السليطة مقصوصة الشعر».
فصاحت سرور خانم:
ـ «اغفر لى يا سيد... لقد اشتبهت. سامحه. إنه طفل. وأنا أيضاً على عينى، سأنكتم، أنا جاريتك». فقال جاويد:
ـ «أماه...» صاح ملك آرا:
ـ «سأسلمك كى يقتلعوا عينيك المنكوبتين كلتيهما يا ابنة المحروق، أسلمكم فيقطعون آذانكم ويضعونها فى أكفكم، أسلمكم ليقطعوا ألسنتكم من أصولها بالسكين ويلقونها أمام الكلب. أسلمك ليقصوا شعرك يا قحبة من جذوره ويلقونه فى بيت الخلاء. ثم آخذ طفلتك بنت الحرام هذه وأخنقها بيدى. ثم آأمر فيدفنوكم فى قعر السرداب، يبقوكم حتى تتهرأون، حتى لا تصيروا، يا منكوبين، خونة تأكلون خراءً من دون أمرى» قال هذا وتقدم إلى أمام، عند رأس السلم، ولكن لأن مطراً شديداً كان يهطل، فقد توقف. قال:

ـ «هاتوهم هنا». فصاحت سرور خانم:

ـ «أعف يا سيد، أعف». وقال ملك آرا:

ـ «اضربوا أولاً ساقىْ ابن المحروق هذا فاكسروهما كى لا يهرب مرة أخرى».

راحت سرور خانم تلطم رأسها معولة نادبة. صاحت نحو ملك آرا:

ـ «اغفر له يا سيد... لا تفعل به ما فعلت بأبيه».

تقدم جاويد خطوة نحو أمه، كى يحتضنها، يهدئها. قال:

ـ «أماه، أماه، اهدئى. لا تبكى ولا تندبى». لكن سرور خانم وضعت طفلتها الصغيرة أرضاً، ألقت بها تقريباً على الأرض، وركضت بيدين مفتوحتين مرفوعتين إلى الهواء، نحو سلالم إيوان ملك آرا. غصت أفسانه بين الطين والمطر بعويل ونحيب أشد. رأى جاويد الطفلة ولكنه لم يبال هو أيضاً. بل ركض خلف أمه. كان قميصه الأبيض الطويل، الذى ابتل تماماً، يلتصق بساقيه، بصوت على نحو ردىء ومثل جناحين مكسورتين لعقاب، يمنع حركته. فى تلك اللحظة المشؤومة، كان يحس أن نهاية عمره قد حلّت. كان يفضل أن يذهب ألف مرة إلى استقبال الموت على أن يسمح بتوجيه إهانة اليوم إلى أمه، أو أن يسمح لأفراد ملك آرا أو حتى لملك آرا نفسه أن يمدوا أصبعاً إلى أمه.

ـ «انتظرى يا أماه».

زلقت قدما سرور خانم تحت المطر أدنى سلالم ملك آرا فوقعت أرضاً ـ واصطدمت جبهتها بحجر السلم. عندما بلغها جاويد، كانت ملقاة على طابوق الباحة. كان الدم يسيل من زاوية جبهتها وزاوية شفتيها الرقيقتين، وينغسل تحت المطر. كان شعرها الأبيض المبعثر

نافراً من تحت المنديل. ركع جاويد، احتضن أمه، هزّها، ناداها ولكن لم تندّ عن شفتي سرور خانم كلمة ـ فقط «آه...» أو «أهورا».

كان لا يزال في عينيها ظل التماس يموت وينمحي.

ارتفع من فوق الإيوان صوت ملك آرا آمراً غلوم علي:

ـ «قلت اضرب كلا ساقيْ ابن المحروق ذاك فاكسرهما، كي لا يحل برأسه هوس الفرار مرة أخرى».

تقدم غلوم علي بهراوته الكرزية. لا بد أنه لم يكن يدري أن أم جاويد كانت الآن بالذات تحتضر، أو أنها قد ماتت. ولا بد أن ملك آرا وميرزا أصغر خان لم يكونا يدريان. أو أنهم كانوا يدرون ولكن لا يبالون. إن جاويد ـ في صعقة ومأتم ما حلّ برأس أمه ـ لم يكن الان في هذه الدنيا، مع أنه كان راكعاً عند رأس أمه محدقاً في وجهها الدامي.

جاء غلوم علي إلى فوق رأس جاويد. أمسكه ببراثنه فقبض على كتفه، وجرّه، وألقاه على ظهره فوق الأرض. رفع جاويد رأسه، تحت المطر الشديد الذي كان يلطم وجهه، ونظر إلى وجه غلوم علي وعينيه. رفع غلوم علي العصا، وانكب بغضب وعقدة غريبين، على تهشيم ساقي الفتى. ضرب كل ساق أكثر من عشر مرات أو اثنتي عشرة مرة بهراوة الكرز، أسال الدم، جرح، وحطم عظامهما ـ جرحاً وتحطيماً جعل جاويد أعرج إلى آخر العمر.

ـ ١٩ ـ

عندما فتح جاويد عينيه مرة أخرى، كان فى مكان جديد. كان فى غرفة صغيرة، بلا نافذة، واطئة السقف، حيطانها جصية كابية، مزينة ببضع تصاوير دينية، وأرضها مغطاة بـ زيلو[١]. كانت تند عن الغرفة رائحة أفيون.

فى إحدى زوايا الغرفة كان شيخ نحيف أبيض يرتدى قباءً أسود ملتصقاً وغطاء رأس ليلياً قذراً أسود يجلس القرفصاء عند مجمر، وكان فى يديه حق وافور وكماشة جمر. كان يدخن الأفيون، كان صوت «موچ، موچ» الصادر عن امتصاص العجوز من فتحة حُق الوافور، هو الصوت الوحيد فى الغرفة. ولم يكن فى الغرفة شخص آخر.

كان جاويد تحت لحاف ممزق، لا يستطيع النهوض. كان ساقاه ملفوفين بخرقة، ولكن لم يكن فيهما حس ولا كانت لهما قدرة. سأل:

ـ «يا سيد ـ أين أنا؟».

رفع العجوز وجهه عن المجمر، وواصلت شفتاه تمطقهما:

قال جاويد مرة أخرى:

ـ «يا حضرة السيد...».

ومرة أخرى لم يجب العجوز، ولكنه التفت وألقى عليه ـ مكرهاً ـ نظرة.

سأل جاويد مرة أخرى:

ـ «يا سيد، أيمكن أن تتفضل فتقول أين أنا؟». همد صوت التمطق،

(١) سجادة خشنة الزئبر.

ولم يقل الشيخ غير:

ـ «فى بيت نزهة الدولة...».

ـ «نزهة الدولة؟».

ـ «الزوج المتوفى لثريا خانم، ابنة الأمير ملك آرا... حسناً جداً، أفهمت الآن أين أنت؟ أتتركنا الآن نهتم بمشاغلنا وحياتنا؟ كنت جثة بلا روح حين أمرت السيدة فحملوك وجاؤوا بك إلى هنا، وجعلوك بلاءً لروحنا. أمرت السيدة أن أحتفظ بك هنا حتى تستعيد وعيك، والعبد لله كربلائى[1] هاشم، خادم ثريا خانم وبستانيها. فنم إذن، ولا تتكلم بعد ـ دعنا نعنى بأشغالنا». واستمر صوت «موچ، موچ» من حُق الوافور.

نهض جاويد مستنداً على مرفقه. من شقوق باب الغرفة الصغير كان يرى أشجار البستان عن كثب. كما لو أن الغرفة كانت فى زاوية البستان. سأل:

ـ «أين أمى وأختى؟».

بعد مدة أدارالشيخ رأسه، وقال بعبوس ونفاذ صبر:

ـ «كان صدفة، كان قضاءً وبلاءً وانقضى، توفيت والدتك. نقلوها أمس فدفنوها. رحمها الله».

ـ «ماذا؟».

ـ «هو ما قلت... وأختك الصغيرة أيضاً تركوها عند خدمهم».

ألقى جاويد رأسه على الأرض، وضرب بشدة بكلتا يديه على رأسه، ثم ألصق كفى يديه على وجهه، غطى وجهه، وراح يبكى. كان يحس حقاً موج الألم والتعاسة يزحف تحت جبهته.

بكى طويلاً، حتى تمكن من تشغيل دماغه مرة أخرى. كان قد سمع

---

(١) زائر كربلاء، حيث مرقد الامام الحسين.

أن الأرض كانت ذات يوم ملآى بضوارٍ وزواحف منحوسة سود القلوب. وكان قد سمع أن الأرض ستظلم ذات يوم بقوى كذب أهريمن[1] ونجاسته. ولكن ليس إلى هذا الحد، كاليوم، وليس له، ليس لعالم وحدته. كانت الليلة كل آلام وظلمات الدنيا فى قلبه. كان يحس الليلة أن كل ما كانوا قالوه له عن سواد وقبح عهر إبليس هذا العالم، وحذّروه منه، قد وقع له. كان أهريمن حقاً، كما كان يظن قبل هذا أن دنيا آهورا الطاهرة حق.

مسح دموعه، وسحب نفساً عميقاً. سأل:

ـ «أين دفنوا أمى؟». لم يجب كربلائى هاشم:

ـ «يا سيد ـ كم يوماً مضى علىّ هنا؟». لم يجب كربلائى هاشم. فصاح:

ـ «يا سيد؟».

كان يريد من صميم قلبه أن ينهض فيأخذ حق الوافور ويحطمه على رأس العجوز، ولكن لم تكن له ساقان ولا قدرة.

لم يجب كربلائى هاشم. كان صوت «موچ، موچ» النّاد عن سحبه الأنفاس من حق الوافور ـ ثم صوت نفخة طويلة، هما الصوتان الوحيدان.

قال جاويد بصوت آرقّ:

ـ «يا سيد، أيمكن على الأقل أن تتجشم عناء أن تجلب أختى إلى هنا؟».

لم يجبه كربلائى هاشم.

ـ «يا سيد...». فقال كربلائى هاشم:

(١) إله الشر والظلمة = الشيطان، عند الزرادشتية.

ـ «لا الله* إلا الله. انكتم، إيه، بابا، دعنا ننصرف إلى أشغالنا. نم، إيه. نم كى لا أقوم فأقول لغلوم على فيأتى ويضع على فمك وسادة ويجلس فوقك حتى تختنق».

سكت، وبقى ساكناً. وانقضى اليوم فى عبوس ومرارة. حمله الانهيار والضعف مرة أخرى إلى النوم. عندما استيقظ مرة أخرى كان الوقت مساءً. كان كربلائى هاشم واقفاً يصلى، وكان صوته العالى الغليظ يدوى فى الحجرة الصغيرة. نهض جاويد على مرفقه، وراح يراقب صلاة العجوز الضئيل أمداً.

عندما تمت صلاة العجوز، استدار فنظر إلى الفتى. بعد الصلاة، يبدو أن كربلائى هاشم قد رقّ قلبه قليلاً. رد على سلامه، وقال له أن ينهض فيجلس ويأكل العشاء الذى جاؤوا به من مطبخ ثريا خانم. قال له أنه يجب أن يشكر الله والخمسة أهل العباءة(١). شكره جاويد. ثم طلب منه أن يساعده، وأن يرفعه كى يخرج بضع لحظات. لم يرتح العجوز أبيض اللحية الضئيل من كلامه هذا، فلم يلتفت إليه بعد.

حاول جاويد أن ينهض بمفرده، ولكنه أدرك سريعاً أنه لا يستطيع أن يقوم فيقف، فأنى له أن يتحرك ويمشى! لم يكن فى ساقيه من حس ورمق إلا الألم. وكانت كل أنحاء أسفل بدنه أيضاً قطعة ألم واحدة.لم يكن يدرى، تحت الخرقة الممزقة التى لفوها حول ساقيه، ما الذى حل بساقيه. ولم يكن يبالى. كان يعرف فقط أنه لا يمكنه أن يقف ويمشى.

على اليدين والقدمين، بكل ألم متصور، تقدم، فخرج من الحجرة الصغيرة إلى الباحة، وراح ينظر، رفع رأسه. كانت ليلة باردة، فيها ريح

---

* ليس خطأ، وهكذا تلفظ أيضاً!

(١) هم الخمسة أهل الكساء، في حديث الكساء المشهور، النبي محمد وابنته فاطمة وصهره علي، وحفيداه الحسن والحسين.

قارصة، ولكن السماء صافية ملآى بالنجوم. كانت باحة منزل ثريا خانم أصغر من بستان ملك آرا، ولكن شكل المبانى كان على نفس النسق، كان فى أطراف الباحة الثلاثة غرف ومبان - وكان المبنى المواجه للقبلة أكبر من الطرفين الآخرين. وتحت كل المبانى، كانت فتحات السراديب كأفواه الموتى السوداء مفتوحة ومظلمة. كان هذا هو المنزل الذى يتعين عليه من الآن فصاعداً أن يبقى فيه... لمدة غير معلومة، وفى وضع لا معلوم، مقعداً لا حيلة له. فى ظلمة مقر مطبخ ملك آرا تحت الأرض كان عنده على الأقل أمل. كانت أمه حية. كانت أخته قربه. إن ظلمة وفراغ البستان الليلة يثقلان على صدره مثل جبل موت.

فى إحدى غرف المبنى المواجه للقبلة فقط كان ثمة نور ضئيل. لابد أن هذه كانت غرفة ثريا خانم. لا بد أنها كانت صاحية، ربما جالسة تقرأ كتاباً. ربما كانت تلاعب ابنتها. تساءل جاويد أين ليلا؟ وكان يفكر فى أفسانه. هزّ رأسه متأوهاً غاضباً. كم كان يتمنى لو كانت أفسانه قربه. كم كان يتمنى لو يستطيع أن يخرج من هذه المحلة، أن يخرج من هذا الشرك الشرير. ولكنه نظر فى ظلمة الباحة إلى نفسه. بأية ساق؟ لقدبلغ ملك آرا مراده. «حطموا كلا ساقيه كى لا يخطر هوس الفرار على باله بعد». إنه لن يذهب بعيداً بهذين الساقين.

بعد الاستفادة من المرحاض الصغير قرب حجرة كربلائى هاشم (بكل عذاب ومذلّة)، وبعد الاغتسال عند حافة الحوض، والدعاء، عاد إلى الحجرة، كان كربلائى هاشم جالساً فى زاوية الغرفة يغفو، شاخراً. عندما رآه رفع رأسه، وأطلق لعنة، وأطلق أيضاً فحشاً على الهواء العتيق الذى يلتف داخل حنجرته وصدره. ومرة أخرى أراح رأسه على الجدار وغاص فى النوم والشخير.

وضع جاويد لقمة طعام فى فمه، ولكنه كان عديم الاشتهاء. وضعه جانباً وتمدد تحت اللحاف الليل. سحب اللحاف إلى فوق وجهه. كان صوت شخير كربلائى هاشم العجوز يتصاعد عالياً طوال الليل ـ بين ألم وعذاب ساقيه، وشخير كربلائى هاشم، راح جاويد يفكر طوال الليل فى حياته.

ما الذى ينبغى أن يفعله الآن؟ ما الذى ينبغى أن يفعله بنفسه وحياته؟ كان فى الخامسة عشر. كان أسيراً فى هذه المدينة الشريرة. كان حزن موت وفاجعة أبيه وأمه، من جهة، يعذب روحه. ومن الناحية الأخرى كانت أخته رهينة ـ وكان هو نفسه بين يدى رجل دمّره. كان أفلج قعيداً. لا يمكنه القيام بشىء.

كانت هذه الليلة الوحيدة التى بكى فيها على نفسه. وتحدث إلى أهورا مزدا ـ إلى الإله الذى يرى أنه قد تركه ونسيه. لماذا أنا؟ ماذا جنيت أنا؟ ولماذا إلى هذا الحد؟ يا الله، ياأهورامزدا الكبير ـ كائناً من كنت ـ أى امتحان واختبار هذا الذى يتعين أن أؤديه؟ لماذا أبى وأمى؟ يا أشوزرتشت، يا أشوزرتشت، أين رحمتك ولطفك إذن؟ أين قضاؤك؟ أفلم أتقدم بطهر واستقامة وصواب؟ أفلم يكن قلبى مليئاً من رحمتك؟ أفلم تكن روحى مليئة بنور دينك المقدس؟ أو لم يكن ذهنى مليئاً بعقلك؟ أى عمل قبيح جنيت؟ لمن فعلت سوءاً؟ على من كذبت؟ أين ذهبت بلا تفكير؟ لماذا ينبغى أن أقع ـ منذ اليوم التالى لارتداء السدرة بالذات ـ فى هذا الكرب العظيم وأغوص أكثر فى كل ساعة؟ ماذا جرى لأسلافى الذين يهتمون بى فى السماء؟ يا إلهى العظيم، لماذا تخلّى عنى الجميع؟

مــاذا كــان ذنــب أبى؟ مــا كــان ذنــب أمــى المــسكينة؟ ومــا ذنــب أفــســانه الطفلة؟

ظل يبكى طـوال الليل ـ لأنه كان يحس الآن أن إيمـانه صـار ضـحية شك وضـعف هو الآخـر. وكـان هـذا الإحـسـاس يحـرقـه. لم يكن الناس عديمو الإيمـان والأشـرار فـقط هـم من نالوه بالأذى عن شـر وسـواد قلب وجـهالة، ولكنه كـان يشـعر أنه كـان يصـاب بالأذى فى داخله أيضـاً. كـان يشـعر أن الدين والإيمـان المقدسين اللذين عبدهمـا طوال عمـره القصـير وأحبهما، كانا يستحيلان فيه إلى ظلمة ودنس...

بكى طوال الليل. وكـان شـخير حنجرة كربلائى هاشم، التى دمرها الوافور، يتصاعد فى الحجرة الصغيرة.

- ٢٠ -

وفى الأيام التالية التى مرت، غاص جاويد أكثر فأكثر فى اليأس وفى الاقتناع بعبث حياته، يحل المساء ويجىء النهار ثم يعود المساء، وهو مثل حيوان جريح عاجز، متمدد تحت لحاف ممزق، أو مطروح وحيداً فى زاوية من الحجرة ولا عمل له غير مراقبة كربلائى هاشم إذ يصلى ويأكل ويدخن الوافور وينام ويشخر.

فى أحد الأيام الأولى، ذات صباح، جاءت ثريا خانم (عندما كانت على وشك مغادرة الدار) بضع لحظات عند باب الحجرة فمرت بالفتى، وأظهرت له بعض اللطف. كانت ابنة ملك آرا الأرملة تلبس شادراً بلون الكريمة من الجورجيت وحذاءً أسود بالغ الأناقة. وكانت ابنتها ذات الثلاث سنوات، هُمَا[١]، معها أيضاً. ولكن لم يكن ثمة أثر من ليلا. لم يكن جاويد فى الواقع، بعد يوم فرارهم والقبض عليهم وإعادتهم إلى بيت ملك آرا، ذلك اليوم الذى سمع فيه بكاء ليلا من وسط الباحة، قد رأى ليلا حتى اليوم.

جاءت ثريا خانم، فتحت باب الحجرة الواقعة فى زاوية البستان، وسألت عن أحوال جاويد. كان جاويد وحيداً. شكر هذه السيدة على حياء، خفض رأسه، ثم رفعه وقال أنه حىّ بلطف هذه السيدة وخيرها. كان وجه ثريا خانم اليوم سافراً، ولأول مرة رأى جاويد تمام وجهها وجزءاً من شعرها التمرى الفاتح. كان يرى أنها لا تزال امرأة حسناء فتية، رغم كونها مهمومة مترهلة وذات جسد سمين ومنتفخ.

---

(١) اسم طائر يرمز للسعادة في الأساطير الفارسية

بعد استفسار ثريا عن الأحوال، التمس منها جاويد مطلبه الوحيد فى هذه الدنيا. قال:

ـ «سيدتى، إننى مدين لك كثيراً. مدين لك بعمرى. ولكن إذا ساعدت على جلب أختى الصغيرة هنا إلى جانبى فإننى لن أنسى هذا اللطف الكبير طول عمرى، وسرعان ما سنرفع زحمتنا عن هذا البيت، فنرحل».

فقالت ثريا خانم:

ـ «ليس هذا العمل ميسوراً مع الأسف. لقد حاولت، ولكنه غير ميسور»

ـ «غير ميسور؟». فقالت ثريا خانم:

ـ «إن أخلاق أبى ونفسيته ليست بهذه البساطة، يا ولدى العزيز. إن أبى ـ نتيجة لما وقع، وخاصة بسبب فراركم ـ يصرّ على اللجاج. لقد أخفى الطفلة، طبيعى أنه سلمها للخدم فأخفوها».

ـ «لماذا؟».

ـ «يقول إن أباك كان مديناً له بالكثير، كان أخذ منه مالاً ولكنه لم يجلب بضاعة، وإنك ينبغى أن تبقى، وتقوم بأعمال الخدمة له، حتى يسوى حسابه». أصغى جاويد بدهشة وعدم تصديق، وهزّ رأسه.

قالت ثريا خانم:

ـ «وللأسف، فإنه لكى يعاقبك بشكل خاص كى لا تهرب ـ زعماً ـ مرة أخرى، سمعت أنه أرسل أختك إلى أحد بساتين «كن[١]» أو «أوين[٢]»، وأوصى بالاحتفاظ بالطفلة هناك».

ـ «أين؟».

---

(١) و (٢) قريتان في شمال طهران آنذاك، ومن أحيائها الراقية اليوم.

ـ «والله نحن، أى منا، لا ندرى دقيقاً أين... أنا نفسى رجوته أن يكف عن العناد، وأن يجلب أختك إلى هنا حتى أرسلكما فيما بعد فتعودان إلى يزد، لكنه عاند فلا يقول لى أين الطفلة. والخدم أولاد الأذلاّء أيضاً مثل الكلاب يخافون فلا يقولون شيئاً...».

استمع جاويد إلى كلام هذه المرأة، فازداد يأسه. ألقى نظرة متحسرة على ابنة ثريا خانم، هما، التى كانت فى سن أخته أفسانه وفى حجمها.

لاحظت ثريا خانم نظرة الفتى. وأدركت أفكاره. فقالت:

ـ «لا تحزن. سيعيدونها أخيراً... كل التقصير من ليلا الحمارة خالقة المشاكل...». نظر جاويدإلى ثريا خانم، لم يفهم قصدها. قالت ثريا خانم:

ـ «إن هذه الذليلة أخذت لنفسها إحدى قطعتى الهزارين اللتين كنت نذرتهما وأرسلتهما لكم، سرقتها... كانتا نذر طفلتى هما ـ عندما أصيبت بالحصبة كنت نذرت أن أعطيهما لمستحق عندما تشفى ـ ولم أجد أكثر منكم استحقاقاً وجدارة. الخلاصة، أخذت ليلا إحدى الهزارين، عقدته فى زاوية منديل رأسها، أخفته. وفى الليلة التى هربتم فيها، لما كانت مشتتة الحواس، فقد خلعت منديلها وألقته مع الملابس القذرة. وعند الصباح لما أرادت أمها أن تغسل منديلها عثرت على السكة الذهبية. وعندما يسألون أخيراً ليلا بصراخ وزعيق وعراك، تقول ليلا أن ابن فيروز آقا أعطاها المال، تقول أن ابن فيروز آقا أعطاها إياه كى لا تقول شيئاً عن فرارهم. وتدعى أنكما أجبرتماها، أعطيتماها مالاً، كى تساعدكم... الخلاصة، أن هذه الذليلة، التى عسيتها تموت، تخبر ـ

تحت ضرب أبى وميرزا أصغر ـ أنكم هربتم وتريدون الذهاب بماكنة الدخان إلى شاه عبدالعظيم وتفرون من المدينة...» فقال جاويد:

ـ «ليلا؟...»، ولكن ذلك كان يوضح ـ على أية حال ـ كيف ظهر الخدم فجأة فى محطة ماكنة الدخان.

ـ «نعم، محروقة الروح تلك. لم أكن أظن أن أعمالاً كهذه تصدر عن تلك الفأرة التافهة».

خفض جاويد رأسه، وقال:

ـ «كان ذلك حظى». فقالت ثريا خانم:

ـ «حسناً، لا تحزن، يا ولدى. ما هذا الكلام؟ إن الله كبير، ستنصلح الحال. ابق هنا حتى تتحسن حالك. ولا تيأس... لم تنته الدنيا. أنا نفسى سأقنعه كى تسمح بأن تعود إلى يزد. وسأضع يد أختك الصغيرة أيضاً فى يدك. ستعودان بالسلامة إلى بيتكم وحياتكم. لم تنته الدنيا...».

أراد الفتى أن يسأل بماذا يعود إلى بيته، أبهاتين الساقين المفلوجتين؟»، ولكن ثريا خانم كانت تريد الذهاب، فلم يشغل جاويد وقت تلك السيدة الخيّرة. فخفض رأسه، وأدار وجهه نحو الجدار.

فى أيام الشهر الأول ولياليه، أصيبت ساقاه برائحة عفنة، وكان يسيل منهما على الدوام دم وماء أصفر كالقيح والصديد. كان الوجع مستديماً. كان مطروحاً تحت اللحاف البالى، ولا يكلم أحداً. كان ينام ووجهه إلى الجدار، ويحاول أن يبقى ذهنه خالياً، بلا أفكار. كانت الجدران المعتمة القذرة المجصصة مسرح ناظريه ليل نهار. كان نهار طويل خالٍ يأتى إثر ليلة أليمة ساهرة ويغوص فى ليلة عابسة ساهرة أليمة أخرى... وهو ينظر إلى الجدار المجصص القذر. كان يشعر أنه هو

أيضاً يستحيل إلى قطعة جص قذر كدر. كان ذهنه أيضاً يتخذ صورة قطعة جص كدر. لم يكن ثمة مستقبل. لم يكن ثمة زمن حاضر. وبالحوادث والأحاسيس الأخيرة، كان الماضى الآن يفقد بالنسبة له شيئاً فشيئاً مفهومه. إن كل التعليمات، وكل تلك الخطب الجميلة الزاهية التى علموه إياها «كما لو كالببغاء» منذ الطفولة، تترسب الآن مثل راسب قاتم مرير ـ ومثل صدى منسى تبتعد وتضيع. كانوا قالوا له إن الحياة إيمان وفكر. كانوا قالوا له إن الحياة نور أهورائى وبسيط. كانوا قالوا له إن الخير فى طبيعته عبادة، وإن الوجود بعد الموت يضفى على روح الإنسان جمالاً وخلوداً. ولكنه يرى الان أن الحياة فكر ومزاج ملوك آرا هذه الدينا. إن الحياة فظاظات مفاجئة ولا حدود لها، مسرات وتبذيرات بلا حساب، إن الحياة هراوة من خشب الكرز. إن الحياة هى انكتم، انحصر فى تلك الزاوية. إن الحياة أكاذيب وتملقات الناس الصغار. إن الحياة صدقة عن رأس امرأة أرملة محرومة ووحيدة. إن الحياة صوت «موج موج» المنبعث عن حُق ورائحة الأفيون. إن الحياة هى الصوت الأبح والتلفظ الغليظ لـ «والذالين[1]».

تمدد مع الألم وصديد الدم مواجهاً الجدار، وحدّق فى الجص الكدر.

عندما سمع جاويد من هنا وهناك أن ليلا قد أُرسلت إلى منزل ملك آرا ـ كى لا تبقى أمام ناظرى ثريا خانم ـ وأن ليلا الان عند خالتها رقية بگم، الخادمة الخاصة لبى بى گوهر تاج أم ملك آرا، لم يكن ذلك أمراً ذا بال له. لم يكن جاويد يحس فى قلبه كدراً من ليلا. لم يكن عنده أى احساس نحو ليلا. كانت هذه الفتاة ابنة الاثنتى عشرة سنة مثل بقية

(١) يقصد: والضالين، من سورة الحمد.

الناس هنا، كانت جزءاً من هذه الدنيا ذاتها.

كان ذهنه قد صار خالياً من الفكر والأمل الآن. حتى كأنه لم يعد يأمل في العثور على أفسانه. لم يكن عنده أمل في العودة إلى يزد أيضاً. لم يكن عنده حتى أمل رؤية پوران ابنة عمه. أبداً...

وذات يوم، عندما جلبت ثريا خانم الدكتور منوچهر خان نزهت ـ أخا زوجها المرحوم العائد حديثاً من أوربا ـ كي يفحص ساقي الفتى ويعالجهما، لم يكن جاويد راغباً في ذلك، فلم يرفع رأسه، لم ينظر. تظاهر بالنوم. ولكن الدكتور منوچهر خان نزهت جاء على أية حال بناء على طلب ثريا خانم، فسحب خرق ساقيه البالية من بين اللحم والعظام فأخرجها، وعبث طويلاً بالمقص والإبرة بساقيه، وأخيراً وضع على ساقيه ـ أو ما بقي منهما ـ دواءً. وأعاد العظام ـ بقدر الإمكان ـ إلى مواضعها، ولفها بإحكام بالشاش واللفاف. قال له إنه ينبغي أن ينهض ويحرك ساقيه يومياً قليلاً قليلاً، يمرّنهما. وإنه إن لم يفعل ذلك فثمة خطر في أن يبقى ساقاه كسيحين إلى الأبد، أو أن يصاب بالغنغرينة فيموت. أدار جاويد وجهه نحو الجدار الجصي القذر الكدر. ونام مع الألم والجراح والوجع والقروح والصديد والدم والماء الأصفر والحرقة والكابوس، مواجهاً الجدار.

وعلى هذا النحو انصرف الخريف.

ـ ٢١ ـ

فى تلك الليلة المثلجة الشتوية، فى طهران، فى زاوية الحجيرة الواقعة فى نهاية البستان اليابس لابنة الأمير ملك آرا، تحت لحاف رث ممزق بال، فى منتصف الليل، حلم جاويد.

ورأى فى الحلم نفسه على أرض سهل ما، مثل السهول الصحراوية والمرتفعات الجافة قرب شريف آباد، أو أشگ زَر، ممدداً على الأرض. كان ميتاً. أو كان يحتضر... كانت عيناه المعتمتان مثبتتين على زاوية من الأفق. وكان ساقاه مدفونتين فى التراب.

ظهر شبح أبيض يرتدى أسمالاً من مكان ما فى السهل، تقدم، حتى بلغه. قال:

ـ «جاويد؟». لم يجبه. قال له الشيخ:

ـ «انهض، يا ابنى العزيز» فقال جاويد بنحيب مخنوق للشبح لابس البياض:

ـ «أنا إنسان ميت».

ـ «لا...».

ـ «وأنت أيضاً إنسان ميت».

ـ «لا...».

ـ «دعنى وحدى». تقدم الشيخ أكثر، وقال:

ـ «أنا لست ميتاً...».

ـ «كلنا موتى...» فقال الشيخ لابس البياض:

ـ «اسمع كى أقول لك من أنا. أنا لست ميتاً، كما أننى لست اسماً

فى كتاب تاريخ، لقد ولد جسدى قبل هجوم الإسكندر على إيران بستة قرون، فى هذه البلاد، من أم، وعاش سبعين سنة، ثم مضى إلى التراب، ولكننى حى هنا».

أدار جاويد رأسه.

قال لابس البياض:

ـ «أنا أيضاً تحملت عذاباً كثيراً مثلك. اذهب فاقرأ أناشيدى فى تلك الأقسام السبعة من «يسنا[1]» و «گاتها[2]»، كى تطلع على أنّات فؤادى. وما لم تعرفنى، فإنك لن تفهم الأساطير الفارسية. أنا لست إنساناً ميتاً، لا ـ إننى مجرد إيمان منسى مطرح أرضاً».

حدّق الشيخ الأبيض لابس الأسمال فيه مبهوتاً. كانت لغته وكلامه الفارسيان القديمان أيضاً مجهولين بالنسبة لجاويد:

ـ «كان حلولى فى هذا العالم موضوع تنبؤ، كان شيوخ العقلاء قد بشروا بظهورى مع النور الأهورى فى كتاب «بشتها[3]». وقد سقى ملائكة أهورا أبى وأمى عصارة نبات الـ «هوم» ـ زهر سهول إيران. ومع أننى كنت بشراً فانياً، إلا أننى لم أبق ميتاً. فكما كان مولدى وفقاً لرأى الخالق وحكمته، فحياتى أيضاً حسب اختيار الخالق خالدة. وكان عملى فى هذه الدنيا هدم الظلمة واللوث...

«عندما ولدت، فرحت مخلوقات هذه الدنيا لمولدى. كما أصيبت شياطين أهريمن بالرعب، لأنها كانت تعلم أننى جئت لسحقها، وكانت تعلم أن النصر سيكون حليفى. كان مولدى ووجودى جواب أدعية الملايين من المعذبين والمظلومين، كما كان نتيجة التضحية بعصارة

(١) و (٢) و (٣) من فصول الـ «أوستا»، كتاب الزرادشتية المقدس. و «ها» في آخر الاسمين الأخيرين علامة جمع.

«هوم» زهر سهول إيران. منذ بدء حياتي كرّست نفسي لعبادة الرب الوحيد الحكيم. وأنا أول أنبياء الرب الموحدين».

بقي الشيخ لابس الأسمال ساكتاً. حدّق في عيني الفتى المنهار الخابيتين، ثم استأنف:

ـ «في هذه الدنيا، تعرضت أنا أيضاً للإهانات والسهام من فوق. بين وقت وآخر كانت حملات أهريمن المتعددة تصيبني بالألم والعذاب. في طفولتي، أرادت ساحرة عجوز أن تهشم رأسي بصخرة. وفي مناسبة أخرى أراد جلاوزة أهريمن وعباده أن يحرقوني بالنار. وكذلك، مرة أخرى، ذات يوم إذ كنت في السهل، هيّج رسل أهريمن قطيع ثيران نحوي. ولكن ثور المقدمة وقف، بشكل إعجازي، عند رأسي فحفظني. كانت الجهود التي بُذلت لمحقي قائمة على أسس السحر والجهل والبخل والخيانة والخصام. ولكنها بقيت جيمعاً دون أثر. وكم من روايات أخرى يمكنني أن أرويها لك عن هربي من أيدي عجائز وعواهر وجلاوزة أهريمن المأجورات.

«في شبابي، تركت بيتي ودياري، والتجأت إلى السهول، إلى أنهار السهول، وإلى الوحدة. في دنيا الضياع، غارقاً في أفكاري، ذات يوم، عندما كنت أجلب من النهر ماءً كي أصنع من طلع زهر الـ «هوم» عصارة، بلغني أول نور حكمة الرب. تراءى لعيني نور على هيأة شخص سماوي. كان هذا ألمع الأنوار، كان نور الأنوار، وحدّثني، فأطلعني على النهج الطاهر. كان هذا أول «رؤيتي» لأهورامزدا وأول حديث لي معه. في هذه الرؤية أوقفني على خلودي. وفي هذا الحديث نقل لي كلام الرب، الذي هو اسم أهورامزدا نفسه.

«فى السنوات التالية كانت لى سبع «رؤيات» أخرى لاهورامزدا. فى هذه اللقاءات والأحاديث، أطلعنى الخالق على وجود الثنائية: الخير والشر، النور والظلمة، الجمال والقبح، الطهر والدنس، الحياة والموت، والخلود والفناء. وأكثر من هذا: أوضح لى الرب لزوم معرفة هذه الثنائية وحكمتها. وذكّرنى الرب أيضاً بلزوم الرأى والاختيار اللذين يتعين على كل إنسان أن يكونهما عن هذه الثنائية.

«يا بنى، إننى لا أفعل غير أن أنقل لك حديث الرب - على النحو نفسه الذى نقلته للآخرين أيضاً - وأنا لست غيرمجرد هذا الناقل. لقد حدّثت الرب. يتعين أن يحدث كل إنسان، بلسانه هو، باستقامة وصراحة، ربه. إن كل إنسان حر فى اختيار حديث الرب. كما أن كل شخص يوم البعث مسؤول أمام الرب».

سكت الشبح لابس البياض مرة أخرى. جدد أنفاسه. ثبت نظرة على عينى الفتى، اللتين ظهر فيهما الآن عجب وروح جديدين. كان جاويد نفسه قد جف حلقه. كان قلبه يدق سريعاً. وواصل الشبح لابس البياض:

«رفض الناس فى البدء رسالتى وحديثى عن مدح الرب الواحد وعبادته بمرارة وفظاظة، وسخروا منى. كانت قلوبهم مظلمة وقدت من حجر. طبيعى أننى تألمت، وبعد شدائد وتيه سنوات لا تعد، بقيت حائراً متعباً. وكانت وساوس العواهر ومبعوثى أهريمن تعذبنى كذلك، تهددنى بالفناء، تجرنى نحو الفناء. ولكن هذه الوساوس والتهديدات دون جدوى. كان إيمانى بكلام الرب والنهج الطاهر. حتى صارت عاقبة الخير والنصر معى. لقد قبلنى الملوك الكبار وقبلوا النهج الطاهر. وصار حديث الرب أهورامزدا حديث كبار الملوك. صار النهج الطاهر دين

الإيرانيين القومى. انقضت دورات الشدة والظلام، وستنقضى دورة الشدة والظلمة الحالية أيضاً. إن أهورامزدا إيران خالد مرة أخرى، سيصير نهجه دين الإيرانيين القومى. انهض، يا جاويد. كلّمه. إنك مثلى، تجتاز الصعاب. كلنا سنجتاز الصعاب...».

وسكت، وشيئاً فشيئاً فى ظلمات السهل الباردة.

قفز من نومه مرتبكاً، كما لو كان أحدهم من بين نار مركز الأرض قد ركله فى رأسه، ونهض فجلس. كان داخل الحجيرة مظلماً. كان كربلائى هاشم مقرفصاً متكئاً على الجدار قرب المجمر. وكان شخير حنجرته المخنوقة بالوافور يملأ داخل الحجيرة.

جلس مدة فى الظلمة يصغى، فى البدء لم يكن ثمة شىء. لم يتذكر شيئاً. ظن أن صوت زعيق طفل قد أطار النوم من عينيه. ظن أنه سمع صوت زعيق أفسانه. وفى الحقيقة، كان قد سمع صوت بكاء طفل، شبيه بصوت أفسانه، من مكان بعيد. ولكنه تنبه بعدئذ إلى أنه كان صوت هما، طفلة ثريا خانم، التى كانت تبكى فى الفجر المضاء بنور القمر المغطى بالجليد.

ثم تذكر حلمه الغريب. تذكر الشبح لابس البياض الرث والسهل المترب. وتصاعدت آلام وكوابيس ذهنه العتيقة كصوت موسيقى حربية.

زحف من تحت اللحاف الممزق. جاء على أربع إلى قرب الجدار. أمسك الجدار بيديه. «يا أشوزرتشت»، ورفع نفسه قدر الإمكان. سقط، ونهض مرة أخرى. وقف. جدد أنفاسه. كان الألم يخرق كل عموده الفقرى، تحمّل. سحب ساقيه ذرة ذرة حتى بلغ الحجيرة. فتح ظلفة الباب المهترئة، وأمرَّ نفسه قليلاً قليلاً، منحنياً متوجعاً، كالمجذومين،

فخرج من الظلمة، ووقف متكئاً على قائم باب الحجيرة.

كان الوقت فجراً، وكان قمر أبيض يلتمع فى السماء الزرقاء، وكانت نجوم براقة تتلألأ كحبّات ماس. وكان الجليد قد صيّر مكان البستان العتيق نظيفاً أبيض. وكانت الأشجار الجافة واقفة كأغصان نور أبدى.

تذكر الـ (فَرْوَرَتَه) التى كان نسيها طوال شهور، والتى كان يتلوها فى الماضى عدة مرات فى اليوم عند الصلاة، فراح يتلوها .(فره روانه مزده يسنو، زره تشتريس ويدوو، أهوره وكيشو). أنا ثابت فى دين عبادة الرب، الذى يختلف عن الشيطان والثنوية، والذى هو الدين مانح رب الوجود وباعث زرادشت.

وكان يفكر فى أفسانه.

ـ ٢٢ ـ

بدأ منذ صباح اليوم التالى بالسير حول الباحة، مع أن ساقيه كانا يغوصان فى الجليد شبراً. اقتطع حطبة من إحدى أشجار البستان وراح يعرج عليها كالعصا، منكباً على تمرين عضلاته المتيبسة على الحركة.

عندما خرج كربلائى هاشم من الحجيرة كى يذهب إلى حوض حنفية خزان الماء للوضوء، جنّ عجباً لرؤية الفتى فى الباحة. سلم جاويد على الشيخ، ولكنه لم يبال به بعد. انكب على التمرين والمسير طوال النهار، بين وقت وآخر، إلى الحد الذى سمحت به قدرة ساقيه. وكان كلما تعب يذهب إلى الحجيرة، فيتمدد، ويحشد قواه، ثم يعود مرة أخرى. وكان أهل الدار، ثريا خانم ومربيتها القديمة، فاطمة بگم، فرحتين أيضاً لرؤية جاويد وملاحظة أن طاقة حياة جديدة حلت بالفتى. بعد أسبوع تمكن من السير مسرعاً، مع أنه كان يضلع كالعُرج.

وكذلك كان منذ اليوم الأول يسأل ويحقق عن أخته أفسانه، من كل من يستطيع سؤاله. إن الحقيقة التى قيلت له كانت، للأسف، صحيحة. لقد أخذوا أفسانه، حسب أمر ملك آرا إلى أحد بساتينه فى كن أو أوين ـ على كل حال، لم تكن أفسانه فى منزل ملك آرا. والحقيقة الآخرى التى صارت أمراً مسلماً بالنسبة لجاويد هى أن ليلا «التى يحتمل أن يكون عندها خبرعن أفسانه» كانت فى منزل ملك آرا ـ كانت ليلا عند خالتها رقية بگم خادم بى بى گوهر تاج خانم تقوم بدور المعاونة.

فى الأسبوع الثانى، عشية أحد الأعياد الدينية عندما جاء الدكتور

منوچهر خان مع أخته فروغ زمان وهو شنگ ميرزا إلى منزل ثريا خانم، نادت ثريا خانم جاويد، ففتح الدكتور منوچهر ضمادات ساقى جاويد، التى استحالت قذرة صفراء لمرور ثلاثة أشهر، عن جراحه، وفحص ساقيه، وقال إنهما تحسنتا.

فى صباح اليوم التالى ذهب جاويد - بإذن ثريا وبقليل من المال - إلى حمام الرجال العمومى - بعد أكثر من أربعة أشهر بقى فيها بعيداً عن يزد وعن دياره، وقذراً. جلبه كربلائى هاشم نفسه إلى باب الحمام ودلّه على الطريق وطريقة التصرف - ربما لأنه ظن بأن خطر الكفر والحرام، أو تنجيس حمام المسلمين، قد زال بختان الغلام.

اغتسل، نظّف نفسه، حكّ بدنه بالكيس، وبرى رأسه وجسده عدة مرات بالليف والصابون، ثم استحم فى خزانة الماء الساخن - الأمر الذى كان فى دينه أحد أكثر الرسوم الأسبوعية خصوصية. وخلع أيضاً سدرته لأول مرة اليوم بعد يوم مراسم الـ (بلوغ) أو(تلبيس السدرة)، وغسلها جيداً هنا تحت صنبور الماء بالصابون، وعصرها، وجاء فجففها بعناية على نار مجمر منزع الحمام، ثم لبسها مرة أخرى... ذلك الرداء الذى كان رسماً، وكان مقدراً عليه أن يكون مُرتديه - شأنه شأن كل زرادشتى مؤمن - حتى بعد الموت.

بعد الاغتسال، لبس سدرته وثيابه مرة أخرى، وجاء فوقف أمام صندوق الأوسطى صاحب الحمام. أعطاه «عباسياً» أجرة الحمام. وفى المرآة قرب الصندوق وقعت عيناه على شكله وهيكله. صعق وارتعب لما رأى. فى سن الخامسة عشر، مع أن شاربه طرّ حديثاً، كان شعر رأسه قد ابيض شعرة فشعرة. كان دائماً فتى ضئيل الحجم، ولكن الآن -

بوجهه الضعيف وعنقه النحيل وصدره الغائر الخالى ـ كانت المرآة تصوره مصغّر إنسان عجيب غريب كما لو أن غجر الزمان وسحرته خطفوه إبان ولادته ـ مع أن خالقه خلقه وسيما ـ فأخذوه وعبثوا ببدنه ورأسه حتى جلعوا منه قرداً غريباً عن هذه الديار والأمصار. وكان المعطف القديم ـ الذى وهبته إياه ثريا خانم كى يرتديه عند البرد ـ يصرخ على جسده ويتجرجر فوق الأرض.

ومع ذلك، فعندما جاء ذلك اليوم عبر جليد الزقاق من الحمام إلى البيت لم تكن فى رأسه غير إرادة واحدة، تنطوى فى الواقع على أمرين: العثور على أفسانه، والعودة إلى يزد. لهذا كان ينبغى أن يهتم بحياته وبأن يبقى حياً ـ ينبغى أن يحترم الحياة وأن يحترم نفسه، وأن يكون ذا إيمان. تذكر جهنمه الفكرية وفراغ روحه الأليم أثناء الشهور الأخيرة. كم صار تافهاً وكم صار دنيئاً. ينبغى أن يؤمن بذاته. ينبغى أن يؤمن بالحياة. وينبغى أن يحارب الشرور التى أوقعت عليه... وكان هذا يعيده بالطبع مرة أخرى إلى الأسس الأخلاقية لدينه.

ـ ٢٣ ـ

بهذا القصد وهذا الإلحاح انكب بقية الشتاء على السؤال والتحقيق والتحرى عن أخته الصغيرة.

كان فى الظاهر خادم البيت أو صبى البستانى فى منزل ثريا خانم نزهت الدولة، ابنة ملك آرا. كان يضلع فقط على ساقيه اللتين لم يعد فيهما ألم، ويتنقل. وكان يقوم ببعض الأعمال داخل الباحة، ويؤدى بعض المشتريات الجزئية وينفذ الأوامر المتعلقة بالخدمة المنزلية، تلك الأوامر التى كانت تقوده أحياناً إلى الباحة الخارجية لملك آرا أيضاً.

إن خدم وخادمات الباحة الخارجية لملك آرا قد نسوا الآن ماضيه كما ينسون أشياء أخرى عديدة. لقد قبلوه لعدم أهميته، وبشىء من السخرية، كان جاويد كلما حصل على فرصة ضئيلة، فى كل مكان وعلى الدوام، يسأل عن بساتين كن وأوين المتعلقة بملك آرا. لم يكن ولدا غلوم على الكبيران، أحمد ومحمود ـ اللذان كانا فى مثل سنه، واللذان كانا يجاذبانه بضع كلمات أحياناً بين الإيذاء والسخرية ـ يعرفان شيئاً عن تلك البساتين، ولم يكن الكبار يجيبونه، كانوا يبعدونه عنهم، يقولون له إن الفضولى لا مكان له! كما أن جاويد لم يكن يرى ليلا قط كى يحصل منها على خبر. كانت ليلا لا تزال تعيش فى منزل ملك آرا عند خالتها. وعلى أية حال، فلم يكن جاويد يدرى رأى ليلا فيه الآن أو بأى أسلوب ستعامله.

لم تكن الشهور الستة الأولى قد اكتملت عندما أطلق الصبية وأهل المحلة (إذا كان لكل فرد فى المحلة لقب يعقب اسمه، ولأن جاويد ـ

بقامته الضئيلة التى تبدو شائخة ـ كان دائماً يخفض رأسه عندما يتحرك ويتنقل) على جاويد لقب «جاويد جوجو[1]». جاويد جوجو، أو ـ عند من لم يكونوا يعرفونه جيداً ـ جواد جوجو. جاويد جوجو تعال، رح يا جاويد جوجو. جاويد جو جو لا تقع. جاويد جوجو تأكل هذا وكم تعطى؟ لك الويل يا جاويد جوجو، متى تذهب إلى يزد... ألم يمت، أماته الله، بعد؟ جاويد جوجو اركض. الماء آت يا جاويد جوجو، ألق العربة فى الحوض. جاويد جوجو تعال خذ صفحة الـ «شله زرد[2]» هذه. لا تهذركثيراً ياجاويد جوجو. جاويد جوجو الفضول ممنوع، رح، انتبه يا جاويد جوجو ألا يدخل أصبع قدمك فى عينيك!

كان سلوك الخدم والخادمات ولسانهم معه سيئاً ومقترناً بأحط أنواع السخرية. وكان سلوك ولسان أطفال الخدم والخادمات، وحتى سائر أطفال الزقاق أيضاً ـ ظلاً وانعكاساً لسلوك ولسان الكبار. كان أحمد ومحمد ومحمود، أولاد غلوم على الكبار، ومرتضى ومصطفى ومجتبى، أولاد ميرزا أصغر خان ـ الذين كانوا جميعاً مثل بذر الرشاد سريعى النمو وسارحين فى كل مكان ـ وأطفال المحلة بشكل عام، يسخرون منه، أو يحرجونه أو يعذبونه بالكنايات والسباب المقذع والضرب غير المبرر. حتى أطفال عوائل المحلة الأفضل، أولاد بيت السيد لواسانى أو السيد قريشى، الذين كانوا يرونه مطأطئ الرأس ساكتاً، كانوا يؤذونه بالسلوك الجاهل وجراحات اللسان. حتى داريوش، ابن السيد قريشى، الذى كان يرتاح نوعاً ما إلى جاويد، وكان صديقه،

(١) حبة حبة، أو: قليلاً قليلاً.

(٢) هريس الرز والسكر، المصبوغ بالزعفران، يعد خاصة في المراسم والنذور.

كان أحياناً ـ إذ يراه قادماً ـ يؤذيه ويعذبه بمزاحه. كان داريوش يقف أمام جاويد ويرفع يده فجأة أمام وجهه، ولكنه يحك بها رأسه. أو كان يرفع ساقه فجأة بين ساقى جاويد، ولكنه يحك ركبته هو. كان يبدو أن الجميع يحكمهم العذاب. كانت محلةٌ ما إن يرى أحدهم فيها مظلوماً حتى يصير هو ظالماً على الفور. ما إن يرى أحدهم مجنوناً حتى يصير فوراً مؤذى مجانين.

عندما حلت أيام عيد نوروز، بزياراتها ومقابلاتها، وحفلات ضيافتها، والهرج والمرج داخل البستان، والحديث مع هذا وذاك، توصل جاويد أخيراً إلى اطلاع مؤكد على مسألتين: أن لملك آرا بستانين صيفيين فقط، أحدهما فى كن والآخر فى أوين. كان بستان كن الكبير بستان فاكهة، يعنى أن له محصولاً وافراً من التوت والتوت الأسود والكرز والكرز الحامض والأجاص. وقد كان هذا البستان ـ إضافة إلى كونه محل تسلية بين الحين والآخر لملك آرا ـ مورد دخل أيضاً، وكان بستانيو ملك آرا يبيعون محصول ذلك البستان فى طهران لأصحاب حوانيت معروفين. كان متصدى هذا البستان فى البدء شخصاً يدعى يحيى خان، وقد توفى ـ سبق لملك آرا أن جلبه فى شبابه من أحد أسفاره إلى خراسان وكابل، تلك الأطراف ـ وقد جلب يحيى خان من خراسان أيضاً كلتا زوجتيه التوأمين: فاطمة بگم ورقية بگم، اللتين صارتا بالترتيب نديمة أم ملك آرا ومربية ثريا، ابنة ملك آرا. أما بستان أوين فكان عند حافة أسفل جبال شميران، ولحد ما عرف جاويد سماعاً، كان بستان اصطياف يضم ـ إضافة إلى جدول الماء وحديقة الزهور

والأشجار العتيقة ـ فيلاً ومبنى سكنياً، كان ملك آرا يقضى الصيف هناك. وكان شائعاً أن ملك آرا يتصيغ[1] فتاة أو فتيات هناك كل عام، فيتسلى ويقضى وقتاً سعيداً. كان هذا البستان يدار أخيراً، إلى أمد قريب، بأيدى ابنى يحيى خان، ولكن كلا الولدين قتلا على أيدى قرويين أوين ودركه.[2] وكان شائعاً أيضاً بشأنهما أنهما أسرفا فى تقديم الخدمات لحياة ملك آرا الشهوانية أكثر من اللازم فتولى القرويون الغيورون أمرهما.

لم يتمكن جاويد أن يعرف إلى أى من هذين البستانين نقلت أفسانه الصغيرة، بل حتى لم يكن يعرف أين يقع هذان البستانان اللعينان وسط كل تلك الجبال والمرتفعات فى شمال طهران، أو كيف يمكنه هو الوصول إلى تلك المناطق. كان الذهاب إلى هناك يتطلب ـ إضافة إلى الوسيلة ومعرفة الطريق ـ جرأة، وكان خطيراً، خاصة مع أوامر خدم ملك آرا التى تقضى بأن يبتعد المرء ويكون أعمى!

كان فى كل مكان نوع من الخوف من ملك آرا: كان نوع من الإطاعة دون سؤال، ونوع من التسليم والصيرورة فى عبودية مطلقة، قد حلاّ فى طبائع الناس وحتى فى عاداتهم، بفعل قوة وأبهة ملك آرا، بحيث لم يكن العصيان ليخطر ببال أحد. وفى نفس الوقت كان الجميع، فى الخفاء وراء ظهر ملك آرا، يسخرون من ملك آرا.

وفى مدة الستة أو السبعة الشهور هذه، لم ير جاويد ملك آرا إلا مرتين أو ثلاثاً عن بعد. ولكنه لم يفهم فى أى من هذه المرات إن كان ملك آرا يراه أم لا ـ مع أن ملك آرا كان على علم ـ بشكل عام ـ بوجود

---

(١) يعقد صيغة المتعة، أي الزواج المؤقت.

(٢) منطقة أخرى في شمال طهران، قرب أوين.

هذا الصبى فى بيت ابنته. كان جاويد يسمع أن ملك آرا ازداد سوء خلق وعصبية هذه الأيام. وأنه لم يعد ذا نفوذ كبير فى جهاز الدولة. كان ارتباط ملك آرا دائماً بالبلاط، ولكنه هذا العام ـ إذ كان أحمد شاه[1] فى أوربا، ووضع الملكية متزلزلاً ـ كان يقضى أوقاته فى البيت فى مرارة وتشدد مع هذا وذاك. كان فى زمان الشاه السابق، فى سلطنة مظفر الدين شاه، قد شغل الوزارة والنيابة كثيراً، وكان قبل ذلك أيضاً حاكم خراسان وأماكن أخرى أيضاً، ويتقاضى الآن معاشاً هائلاً من البلاط، وعنده مداخيل أخرى أيضاً. ولكن مجيء رضا خان قائد الجيش، الذى هو الآن رئيس وزراء أيضاً، فقد حاق الخطر بكل أعمال النهب والسلب وتجليات سلطة الأشراف هذه... ولكن على أية حال، كان ملك آرا هذا العام لا يزال ملك آرا، وكان نفوذه مثل ظل عُقاب كالغول يحيط بكل مكان ويحل بحياة الجميع، ومن بينهم حياة جاويد أيضاً.

فى أواخر الربيع، توصل جاويد إلى هذه النتيجة: إن أفضل طريق هو أن يبقى بضعة أسابيع، أو حتى بضعة أشهر أخرى فى هذه المحلة هادئاً، وأن يبقى مترصداً، كامناً، حتى يستدل ـ أثناء الصيف القادم ـ بنحو من الأنحاء على طريق البستانين... ويعثرعلى حل.

مع أنه كان يفكر فى أفسانه الصغيرة ليل نهار، ولكنه لم يكن يدرى على وجه اليقين إن كانت أخته حية أم لا. إن كانت حية فهى فى الرابعة من عمرها الآن... فى النهارات كان يجلس أحياناً فى زاوية فيراقب هما،

(١) آخر ملوك القاجاريين، فرض رضا خان ـ بدعم انكلترا ـ نفسه عليه رئيساً للوزراء بعد مدة من انقلابه، سافر إلى أوربا للتهرب من التوقيع على بعض القوانين وليتملص من المسؤولية عن بعض إجراءات رضا خان وكان هناك عندما طرح رضا خان تبديل نظام إيران إلى الجمهورية، وعند فشله في ذلك أسقطه عن العرش وجلس محله.

ابنة ثريا خانم وهى فى الباحة، تلعب دور العزيزة الوحيد، وتلاحقها فاطمة بگم كالظل وتحميها. كان وجود هما فى هذا البيت بالنسبة لجاويد تذكاراً دائماً بأفسانه... وقد احتفظ بالقليل من المال الذى أخذه من ثريا خانم والدكتور منوچهر خان نزهت وغيرهما فى العيد، بعناية، فى قعر كيسه، لليوم الذى ينبغى أن يعود فيه إلى يزد.

وفى هذه الأيام الأخيرة رأى ليلا أيضاً فى تلك الباحة مرتين أو ثلاثاً بشادر صلاتها الأبيض.

كانت ليلا الآن جزءاً من الخدم الخصوصيين لحجرات بى بى گوهر تاج خانم، وكان جاويد يراها عن بعد، داخل مطبخ الباحة الخارجية لملك آرا.

لم تعد ليلا بالنسبة له شيئاً، عدا أنها تذكار الأيام التى كان فيها جاويد وأمه وأفسانه معاً ـ تذكار الأيام التى كان عندهم فيها أمل بالعودة إلى يزد. بدا له أن ليلا تغيرت، كبرت، صارت شيئاً آخر. فى المرة الأولى التى رأى فيها ليلا، أظهرت أنها مخاصمة له، أبدت بروداً وعبوساً وأشاحت بوجهها، حتى أنهآ ـ فى عالم طفولتها ـ عوجت فمها أمام جاويد. كانت ثريا خانم لا تزال تمانع فى الإذن لليلا بأن تأتى إلى بيتها. ولكن ليلا كانت تأتى أحياناً سراً وفى الخفاء (كلما عرفت بأن ثريا خانم ليست فى البيت) إلى أمها فاطمة بگم. وكانت فاطمة بگم تذهب بانتظام وحرية، بالطبع، لرؤية ابنتها فى بيت ملك آرا.

فى هذا الربيع، كان أهل البيتين يروجون الآن عن ليلا شائعات وكلاماً. كان جاويد يسمعهم يقولون أحياناً أنها «صاحبة» الأمير. كان يسمعهم يقولون أن ملك آرا طلب من تاج ماه خانم أن تعقد له عقد

صيغة على ليلا ـ أو أن تاج ماه خانم نفسها تريد أن تعقد لملك آرا عقد صيغة على ليلا، لأنها كانت قد سمعت أن ملك آرا وأذناه تتحرك وراء أماكن أخرى.

بعد العيد بشهرين، ذات يوم عندما ذهبت ثريا خانم منذ الصباح إلى قم، عند قبر زوجها، وكان جاويد فى حديقتها يسقيها ـ بدلاً من كربلائى هاشم، الذى كان مريضاً يلازم الفراش ـ جاءت ليلا بشادر صلاة من الـ «وال[١]» الوردى جديد.

لم يعرفها جاويد فى البدء، وكان بينهما لقاء سيئ وقصير.

عندما كانت ليلا تمر وقفت ورتبت شادرها. ثم قالت:

ـ «لماذا تسقى زهر الحديقة ماءً بهذه الكثرة؟ تتفسخ جذوره». فقال جاويد:

ـ «قالت السيدة أن أعطيها قليلاً من الماء كل يوم».

ـ «إش! عديم الفهم!». رفع جاويد رأسه. ونظر إليها. فقالت ليلا:

ـ «كان تقصيرك أنه ترتب علىّ الآن أن أجئ كاللصوص لرؤية أمى... عديم الفهم!».

ـ «تقصيرى؟».

ـ «ماذا إذن؟ إش... تافه، جوجو».

اكتفى بالقاء نظرة واحدة على وجه ليلا، ثم خفض رأسه، وظل ساكتاً. عديم الفهم. تقصيرك. قال لنفسه نعم، كان تقصيرى. كان تقصيرى أنك سرقت إحدى مسكوكتى الهزارين التى أرسلتهما ثريا خانم. كان تقصيرى أنك أخفيت الهزارين فى زاوية منديل رأسك. كان

---

(١) قماش قطني شبه شفاف.

تقصيرى أن فهم خدم ملك آرا أين هربت. كان تقصيرى أن قبضوا علىّ وعلى أمى وأختى فى محطة ماكنة الدخان. كان تقصيرى أن أمى، تحت المطر وتحت إفحاش ملك آرا وتهديداته، سقطت فماتت.

وبتلك النظرة الوحيدة أيضاً فهم ذلك اليوم أموراً كثيرة. كان وجه ليلا وضاءً بلا نقاب - على الشفتين زينة وحمرة، وقد أزيل شعر ما تحت الحاجبين. كان تقصيرى أنك صرت صيغة ملك آرا، أو أنك صرت أى شيء ملك آرا فبلغت المراد والمباهاة.

ألقى برشاش الماء فى زاوية البستان. وبدون أن يرفع رأسه أو يديره نحوها، عاد فدخل الحجيرة.

-٢٤-

بعد وفاة كربلائى هاشم البستانى وقع شغل العناية بالبستان والعديد من أمـور منزل ثريا خـانم - التى يجب أداؤها فى الخـارج - بعـهـدة جـاويد. (فى مـغرب يوم وفـاة كـربلائى، جاء خـدم بيت ملك آرا فـحملوا جنازة الشيخ ووضعوها فى مسجد الشيخ فضل الله. ثم ذهبوا فأبلغوا الأولاد والبنات، الذين كانوا للعجوز، فى زوايا المدينة وأكنافها، وفى اليوم التالى حملوا الجنازة بهدوء إلى المقبرة عند رأس السيد، فدفنوا كربلائى هاشم مع رائحة وافوره وآخرة صلاته وصيامه. وفى اليوم التالى لذلك جاءوا فأخذوا القليل من متاع دنياه ومجمره وحُقه.)

لم يكن شغل البستان والبيت كثيراً، ولكنه كان متنوعاً، وقد جعل جاويد - خاصة بمشترياته المختلفة وحمله الأخبار والتنقل هنا وهناك - يمتلك حرية عمل أكبر كى يحقق بشأن بستانىْ ملك آرا ووضعية المدينة، فيتعرف على بعض الأمور. (مع أن أتباع ملك آرا، وخاصة ميرزا أصغر خان وأبو تراب، كانوا يراقبونه فى كل مكان، ينخسونه ويهددونه، ويذكرونه ألا يبتعد عن البيت).

لم تكن ثمة أية حركة أو ازدحام كثيرين فى بيت ثريا خانم فى أى وقت من الأوقات. ولم يكن مع ثريا خانم الآن، فيما عدا طفلتها هما، غير فاطمة بگم التى تقوم بأشغال المنزل. كانت كل أعمال داخل المنزل تقريباً منوطة بفاطمة بگم، وأكثر المشتريات والمشاغل الخارجية بعهدة أفراد ملك آرا، وتحت إشراف ميرزا أصغرخان.

كان ثمة بين بيت ثريا خانم وبستان ملك آرا طريق اتصال، بواسطة

السراديب، طريق فُتح مؤخراً بعد أن ورثت ثريا خانم البيت. كان ثمة دهليز يمتد من سراديب منزل ثريا خانم إلى سرداب ما تحت عمارة ملك آرا المواجهة للقبلة وبستانه. وعلى هذا فإن أفراد الباحة الخارجية، وخاصة الخدم، لم يكن لديهم منفذ إلى هذا الممر تحت الأرض، وإنما كان يعد ممراً خصوصياً وسرياً. وكان خدم الباحتين يتنقلون عن طريق الباحة الخارجية والزقاق. كما كان منزل نزهت الدولة مشهوراً أيضاً بامتلاكه أكبر وأعمق وأبرد سراديب هذه المحلة من طهران... وكان هذا أحد الأسباب التى حدت بملك آرا أن يمارس الضغط طوال السنوات الأخيرة على ابنته كى تبيعه البيت. كان ملك آرا يريد بيت نزهت الدولة هذا العام لنفسه. وكان يريد أن يجعل البيتين بيتاً واحداً، ويستفيد من هذه السراديب كما يهوى. أما ثريا خانم فكانت، من الجهة الأخرى، راضية هذا العام عن حياتها البسيطة، فكانت تتحمل ضغوط أبيها وحتى مظاهر غضبه ومناكداته من أجل شراء البيت، ولم تكن تحمل على محمل الجد تهديدات ملك آرا من أن بيت ثريا خانم مندثر خاوٍ هارٍ يمكن ـ تحت عبئ جليد ثقيل ـ أن يسقط على رأسها ورأس هما، مع أنها كانت تعلم أن ما يريده صائر فى النهاية. (كان جاويد يسمع روايات عديدة عن فظاظات وقساوات ملك آرا. فقبل بضع سنوات، فى خراسان، سلم ملك آرا ستة من الملاكين، الذين لم يدفعوا الضريبة، إلى جلاوزته الذين ألقوا بهم فى خزان الماء[1]، وملأوه ماءً حتى السقف، فخنقوهم جميعاً. بل إن ملك آرا، قبل بضع سنوات فى طهران، هرس ابنه تحت السوط والركلات، لعصيانه، وطبيعى أن جاويد لم ينس ما حل

---

(١) سرداب خاص لحفظ الماء، كان يقام في المدن ـ للاستعمال العام ـ وفي البيوت الكبيرة لاستعمال أصحابها، تساق اليه مياه الأمطار وجليد الشتاء، للاستفادة عند الحاجة.

بأبيه هو، كما لم يزايل ذاكرته موت أمه، وكذلك الأحقاد والدسائس التى كان ملك آرا لا يزال يغذيها تجاهه وتجاه أخته).

كان جاويد يفرد لشخصية ثريا خانم مقاماً واحتراماً عاليين. كانت ثريا خانم الإنسان الوحيد الذى لم يفعل به شراً فى طهران، وفى الحقيقة فهذه المرأة فعلت له معروفاً وأظهرت له محبة ـ مع أن وجودها وحريتها هى نفسها بوصفها امرأة، فى ذلك العصر الأسود تحت يد أب فظ غير قابل للتصور وذى نفوذ كملك آرا كانا محدودين ومنكوبين. ومع ذلك كله فقد شهد، ويشهد الآن، أعمال شجاعة أدبية كثيرة من ثريا خانم.

فى أواخر الربيع، ذات يوم عندما كان مقرراً أن تذهب ثريا خانم مع فروغ زمان والدكتور منوچهر نزهت، بمعية هوشنگ ميرزا إلى المنزل الصيفى لرئيسه ـ اعتضاد السلطنة، وزير المعارف ـ فى أوين، أقدمت ثريا خانم على عمل محير ومحفوف بالمخاطر. فى آخر لحظة، عندما تهيأ الجميع لركوب عربة هوشنگ ميرزا، قررت ثريا خانم أن تُركب جاويد أيضاً إلى جانب مش خداداد الحوذى، وتأخذه معهم. قالت إن من الثواب أن يخرج الفتى المريض المسكين يوماً من المدينة، يستنشق الهواء... ولم تعترض فروغ زمان ولا هوشنگ ميرزا. وقال الدكتور منوچهر خان نزهت أيضاً، الذى كان يرتدى ملابس شباب أنيقة، ويلعب ويضحك مع الصغيرة هما:

ـ «نعم، فكرة جيدة ... اقفز إلى فوق أيها الفتى العزيز».

ذاب فؤاد جاويد... أوين! وفى هذه الثانية بالذات أدرك أى لطف ورقة يجريان فى قلب ثريا خانم.كانت هذه فرصة لجاويد كى يذهب فيرى

النقطة من مصايف أطراف المدينة ويتعرف عليها. ومثل عصفور صغير طار صاعداً العربة، فجلس جانب مش خداداد.

كان ذلك أوائل بعد الظهر. وكان الجو حاراً مشمساً. وطوال الطريق استعار جاويد أذنين، إضافة إلى أذنيه، وراح يحفظ فى ذاكرته كل ما يسمع. كما راح يلقى أسئلة على مش خداداد، يحقق، وأبقى عينيه أيضاً مفتوحتين، وكان ذهنه ـ فى المجموع ـ يشتغل مثل ماكنة مركبة من جهازِ استدلالِ اتجاهٍ وجهازِ رسامٍ خرائط وآلة تسجيل أسطوانات.

صعدوا من كلوبندك ووراء سنكلج. ومن شارع ترابىّ يمتد إلى ميدان التدريب استداروا يساراً. مروا أمام دار الطبول. كما اجتازوا المقبرة أيضاً. ومضوا فى جادة مشجرة تصعد نحو ماء كرج. كانت الجادة الآن ترابية، ومن بين الجبل والتلال تلتف وتصعد. مضوا صاعدين مدة طويلة. كانت الجادة الترابية الجبلية خالية. كانت الشمس تلمع، ولكن نسيماً بارداً يهب من الجبال. كان جاويد يسمع صوت ضحك ولعب هما قادماً من العربة حيث كانت تلعب وتمزح مع عمها الشاب الدكتور منوچهر نزهت (عمو منو). وكان جاويد نفسه مسروراً، ويفكر أن خلف هذه التلال، فى مكان ما، كانت أخته هو الصغيرة حزينة ووحيدة تنتظر.

عندما وصلوا أوين، لم يكن جاويد يرى بين أزقة البساتين الطويلة والملتوية، غير حيطان مبنية بالطين والتبن، تتشابك وراءها أشجار كثة. وكانت هنا وهناك أبواب بساتين من خشب عتيق ومهترئ. لم يكن ثمة أثر قط بسوق أو زقاق له اسم أو علامة. ولكن ذهن جاويد كان، على أية حال، يسجل.

أوقف مش خداداد العربة أمام باب بستان كبير ـ بستان

اعتضادالسلطنة. وهبط، وراح فدق الباب. جاء خادم ففتح الباب ومضت عربتهم إلى داخل البستان. كانت عمارة من طابق واحد ـ شبيهة بالقصر، تميل أكثر إلى الشبه بفيلا خارجية كبيرة ـ فى آخر البستان تنتظر الضيوف ــ المنزل الصيفى لاعتضاد السلطنة، وزير المعارف وأكبر رجال الثقافة فى إيران ذلك العصر...

أثناء البضع الساعات التى بقيها جاويد داخل البستان قرب مش خداداد، تحدث مع الخدم والقرويين الآخرين، فعلم أن بستان ملك آرا فى الشمال الأقصى من القرية، وأنه كان أكبر البساتين، وبالمناسبة فهو لم يكن محبوباً بين القرويين. كم شخصاً يسكنون بستان ملك آرا؟ كانت ثمة عائلتان تسكنان هناك على نحو دائم: إحداهما عائلة من خدم السيد الطهرانيين، زوجة المرحوم على أكبر خان، التى كانت بوابة. والآخرى عائلة مش قربون[1]، الذى كان من أهل القرية ومن أصحاب البستان الأصليين. تشجع جاويد أكثر فسأل: أليس ثمة أحد آخرفى بستان ملك آرا؟

لم يجد عند أحد جواباً صحيحاً.

كانت الشمس على وشك الهبوط عندما خرج الضيوف فودعوا. وجاء المضيفون إلى خارج باب العمارة الصيفية فشايعوا الضيوف إلى أعلى السلم. وركبه الجميع، فانطلقوا.

عندما كانوا يخرجون من باب بستان اعتضاد السلطنة أخرجت ثريا خانم رأسها من نافذة العربة ونادت مش خداداد. أطلقت مش خداداد «هش» فأوقف الخيل. قالت ثريا خانم:

ـ «يا مش خداداد. أتعرف بستان الأمير؟». فقال مش خداداد:

---

(١) محرف: قربان، وهو لفظ أهل طهران.

ـ «بستان حضرة الأشرف؟... أبا جنابك؟».
ـ «نعم». فقال مش خداداد:
ـ «أفثمة أحد لا يعرفه، يا سيدتى؟».
ـ «انطلق إلى ذلك الجانب، لنمر من أمام بستان الأمير، لنعد. مضى علىّ وقت طويل لم أر البستان».
ـ «على عينى يا خانم». فقال هوشنگ ميرزا:
ـ «نعم، لنقم بجولة، ثمة وقت طويل قبل أن يحل الظلام». فقالت ثريا خانم:
ـ «نعم». وقال الدكتور منوچهر خان:
ـ «وترى هما العزيزة بستان جدها». وتصاعدت ضحكة فرح الطفلة الصغيرة.

وجاءوا.

جلس جاويد صامتاً. كانت أصابعه متشابكة. كانت عيناه على جدران الطين والتبن التى تمر أمامها العربة من الأزقة الملتفة المخروبة. كانت ثريا خانم قد قالت لمش خداداد أن يمروا «من أمام البستان». وكان هذا هو ما ينظره جاويد طوال هذه الشهور المشؤومة: الاستدلال على مكان هذا البستان.

ولكن ثريا خانم تجاوزت ذلك الحد أيضاً. فعندما وصلوا أمام البستان أو نحو ذلك، أخرجت بنت ملك آرا رأسها وقالت لمش خداداد:
ـ «توقف دقيقة...».

مرة أخرى أطلق مش خداداد «هش» فأوقف الخيل.

بعد أن اعتذرت ثريا خانم لهوشنگ ميرزا، قالت:
ـ «يا جاويد، اقفز فاعط ورقتى الخمسة تومانات[1] هاتين ـ عند

(١) يساوي التومان عشرة هزارات أو ريالات، فهي تعطي كلا من العائلتين إذن خمسين ريالاً.

الباب ـ لزوجة على أكبر، وواحدة أيضاً لمش قربون... كنت قد نذرتهما لأطفالهما، إن مش قربون سيد، من أولاد النبى، وزوجة على أكبر عندها كم طفل يتيم هى الأخرى...» ثم أضافت:

ـ «وانظر أيضاً إن كان ثمة أحد هنا أم لا».

طار جاويد هابطاً، أخذ ورقتى الخمسة تومانات، وانطلق راكضاً. جاء، بمساعدة مش خداداد، الى داخل البستان... وداخل المِلك كان يبدو بستان وحديقة زهر بلا نهاية. كانت ثمة بنايتان كبيرتان بيضاوان على الجانبين، لهما جلال وأبهة أكبر بكثير مما لملك اعتضاد السلطنه.

راح جاويد يركض فى كل جانب منادياً على مش قربون... أو على زوجة على أكبر خان... وعلى أفسانه... وكان مش خداداد يتبعه، حائراً مضطرباً، عن بعد، ويقول: يا ولد أبطئ، أفأصابك ـ لا سمح الله ـ الجنون؟ لم يكن يدرى.

عثرا على مش قربون البستانى، الذى كان يلبس لباس رجال الدين، وجاءا بمعيته إلى طرف البستان الآخر بحثاً عن زوجة المرحوم على أكبر، البوابة. كان جاويد يتفحص بناظريه كل البستان. يلاحظه. كان ثمة أطفال صغار مرضى جُرْب قُرْع كثيرون، متناثرين فى كل مكان.ولكن لم يكن لأفسانه من أثر...

وضع جاويد مال ثريا خانم فى أيدى من خصصته لهم... وسأل زوجة المرحوم على أكبر الزاعقة، التى كان اسمها صديقة سلطون[1]، وامرأة عجوزاً على رأسها منديل مثلث، بدينة تبدو مهملة غير مرتبة، ألم يأت أحد من طهران عندكم؟ فقالت صديقة سلطون، كما لو أن اتهاماً وجه إليها:

---

(١) محرف: سلطان.

ـ «لا».

ـ «ألم يجلبوا لكم أحداً؟»

ـ «لا...».

ـ «ألم يضعوا أحداً عندكم؟».

ـ «لا. أفهذا نزل قوافل؟».

ـ «بنت صغيرة... ألم يضعوها عند أحد هنا؟». فقالت صديقه سلطون:

ـ «إش! أوقعوا على رأسى كل المصائب، ولكننى لم أصر بعد مربية بلا أجر لأحد».

وغاصت آمال جاويد شيئاً فشيئاً فى الظلمات.

ألقى الأسئلة نفسها على مش قربون... وتلقى الأجوبة نفسها تقريباً.

بقلب أكثر يأساً من عينى أمه فى ذلك اليوم المطير عاد فخرج من باب البستان. وبهزة رأس ملؤها اليأس أشار لثريا خانم أنه لا أمل هنا. وطوال طريق العودة إلى طهران راح يبكى صامتاً، أو يكلم نفسه، ويعطى نفسه وأفسانه وعوداً وهمية بشأن بستان ملك آرا الآخر فى كن.

ـ ٢٥ ـ

ولكن فرصة مثل تلك لم تتح لجاويد بقية ذلك الصيف... إن ما كان يشغل أفكار وألسنة أهل البيت صيف هذا العام أكثر من غيره هو ضغوط وكلام ملك آرا من أجل شراء بيت ثريا خانم. لم تكن ثريا خانم ميالة لذلك، وكانت عائلة زوجها تخالف هى الأخرى. كان البيت تذكار نزهت الدولة، وكان ذلك مما يبعث على الأسى... ومع أنه، من الناحية القانونية، لم يكن للأمر علاقة قانونية بهم، ولم يكن لهن سهم فيه.

لم يكن يدرى أحد قط لماذا كان ملك آرا يريد بيت ابنته. مع كل تلك الأملاك والثروة الطائلة التى يمتلكها لماذا كانت عينه على «خرابة» ابنته، مع أن بعضهم كانوا يقولون أن ملك آرا تملّكه العناد مع ابنته، التى كانت تقوم أخيراً بأعمال تخالف حكم أبيها وذوقه. فى ليالى الجمعة، بعد الروضة الأسبوعية. كان ملك آرا يحتفظ بثريا خانم ساعات على الإيوان أمامه، يحدثها ويناقشها. وحتى فى إحدى الروضات الشهرية التى كانت تقيمها ثريا خانم أيضاً مطلع كل شهر، جاء ملك آرا بنفسه (الأمر الذى لم يقع قط أثناء السنة الأخيرة). وبعد الروضة جلّس ملك آرا وأجرى بحثاً وأقام دعوى ومرافعة حقيقيتين.

قال إن البيت خرب هار، وقال إنه يخشى أن يتداعى السقف ذات ليلة على رأس حفيدته، التى هى أعز عنده حتى من حدقتى عينيه، فيتهدم فوقها. طلب أن يشترى البيت حتى بقيمة مائتين وخمسين تومانا، مع أنه لم يكن يمتلك المبلغ وكان يريد أن يقترض من المصرف الملكى، التابع للانكليز، ليشترى المنزل. كان يفكر فى هدم بنايتى الجانبين فيسوى

مكانهما باحة بيته. كان يريد أن يبنى عمارة جديدة فى القسم الشمالى، لأنه كان مقرراً أن يعود ولده كيومرث خان من بلاد الفرنجة، وكان ملك آرا يريد محلاً مستقلاً لمعيشة ابنه وزوجته الفرنجية... وكانت ثريا خانم تقول إن هذا البيت تذكار زوجها...

كان جاويد يجلس عند باب حجيرته فى نهاية البستان، يحتضن ركبته، ويدع رأسه على الجدار، فيشهد على حياة هؤلاء... ويفكر فى أفسانه، كما كان يفكر أحياناً فى ملك آرا أيضاً.

كان ابن ملك آرا، الذى هو ابنه الحى الوحيد ـ كيومرث خان ـ يقضى ذلك العام سنته السابعة عشرة فى فرنسا. يقولون إنه صار دكتوراً صيدلانياً، وإن له زوجة وطفلة وحياته الخاصة. كان كيومرث ملك آرا جزءاً من إحدى أولى مجموعات طلاب دار الفنون[1]، وبعد إتمام دراسته فى تلك المدرسة أرسل ـ بمعونة صديق ملك آرا، على نقى خان اعتضاد السلطنه، الذى كان حينذاك رئيس دار الفنون، وعلى نفقة خزانة الدولة ـ إلى فرنسا، فصار دكتوراً وبقى هناك. كان جاويد يفكر كثيراً فى ابن ملك آرا هذا. كان يقارنه بالدكتور منوچهر خان نزهت ـ الذى ذهب هو أيضاً بعد ابن ملك آرا بسبع سنوات من دار الفنون إلى فرنسا ـ ولم يكن ليستاء من تلك المقارنة، كائناً ما كان،.فقد كان خيراً من ملك آرا. لو جاء الدكتور ملك آرا فلا بد أنه سيكون بالإمكان مكالمته، وربما سيكون بالإمكان أن يفعل شيئاً من أجل نجاته ونجاة أفسانه... على أية حال، كان جاويد يجلس فى زاوية ويراقب حائراً حياة أولئك فى ذلك العام.

---

(١) أول مدرسة عليا (كلية) أقامها في طهران رئيس الوزراء المتنور «أميركبير»، أواسط القرن التاسع عشر.

إضافة إلى ملك آرا، فقد كان الرجل الآخر الذى كان له ذلك الصيف نفوذ وتأثير فى حياة بيت ثريا خانم ـ ليس، بالطبع، نفوذاً مخيفاً وسلبياً كنفوذ الأمير ملك آرا ـ هو الوجود المحبوب نوعاً ما والحامى لهذا الدكتور منوچهر خان نزهت ذاته.

كانت عنده هذه السنة عيادة فى زقاق الشيخ فضل الله، وكان يكوّن لنفسه فى طهران، وخاصة فى محلات سنگلج، أسواق معير، وزير دفتر ودر خونگاه، قليلاً قليلاً، اسماً وشهرة ما. كانوا يقولون أن يده جيدة، وأنها لا تكتب وصفة ثانية. وكان فى «مجمع حفظ الصحة» الجديد لمدينة طهران ـ الذى كانت وظيفته حفظ الصحة العامة ـ أحد الرؤساء.

لم يكن الدكتور منوچهر خان يأتى بمفرده قط إلى ثريا خانم، كما أنه لم يبت الليل هناك قط. ولكنه كان يأتى، كان وجوده يصير محسوساً جيداً، وكان الجميع يرددون أقواله، يحترمونه. وكان هو نفسه ممزاحاً وأريحياً طهرانياً. لم تغيره كثيراً سنوات معيشته فى المجتمع الفرنسى، بل إنه كان لا يزال مسلماً بالغ الورع. كان يأتى إلى روضات ملك آرا الأسبوعية وروضات ثريا خانم الشهرية دوماً، حتى ولو لمدة ساعة فقط.

كان جاويد يحس أن الدكتور منوچهر خان يكنّ لثريا خانم، أرملة أخيه المرحوم، احتراماً خاصاً ـ أو ربما أكثر من احترام زوجة أخ متوفى. وثريا خانم نفسها، مع أنها كانت أسنّ قليلاً من الدكتور الشاب، كانت تنظر إلى الدكتور نزهت بوصفه أحد كبار أفراد عائلتها، وإذا ما طرأت مسألة ـ خاصة هذه السنة حين كان لملك آرا مع ثريا خانم دعاوى ـ فقد كان سرعان ما يطرح اسم العم الدكتور، وكانت ترسل جاويد فى طلبه، لا فى طلب ملك آرا أو رجال آرا ـ أو حتى تاج

ماه خانم. لم يكن ملك آرا يرتاح إلى الدكتور منوچهر خان، وكان جاويد يرى هذا النمط من التفكير منعكساً في سلوك وروحيات خدم ملك آرا أيضاً.

لم يشهد جاويد نفسه سوءاً من الدكتور منوچهر خان نزهت، وكان يرتاح إليه. كانت في الدكتور الشاب ملامح إنسانية خاصة تميزه عن دنيا ملك آرا الشريرة المعتمة المرائية عديمة الإحساس. كان الدكتور منوچهر خان هو من شجّع جاويد كثيراً على مطالعة الكتب، كان هو في الحقيقة من راح ـ عندما رأى أن لجاويد ولعاً بقراءة الكتب ـ يجلب الكتب لجاويد من مكتبة دار الفنون ومن مكتبته الشخصية... وكان هو من قدّم لجاويد جزءاً من معجم ماركو للتعليم الذاتي للفرنسية، وحضّ جاويد على قراءة الفرنسية، وقاده في الطريق إليها.

طبيعي أن ما كان يطلبه جاويد ذلك الصيف من ربه هو العثور على أخته أفسانه. كان قد اطمأن للدكتور الشاب وعرض عليه على نحو خاص موضوع أخته المفقودة. كان الدكتور قد قال له ألا يقلق، ووعده بأن يرسل ـ عندما تتاح الفرصة ـ أحد رجاله إلى بستان ملك آرا في كن، ويتحرى. فكان جاويد بين صبر وانتظارات ويأس هذا الصيف ينتظر خبراً يأتي من جانب الدكتور الشاب أيضاً، ولكنه لم يأت.

كان يعد نفسه كل يوم بالغد... ثمة طريق، سيعثر عليه. لم يكن يسمح لنفسه ولا لثانية واحدة أن يجعل هذا الأمل والنور يعتمان. فبستان ملك آرا في كن، مهما كان، هو مكان. وأفسانه هناك، وسيذهب جاويد أخيراً إلى كن، ويستدل على ذلك البستان، فيجد أفسانه.

وكان ذلك الصيف أول صيف حار وطويل لجاويد في طهران ينتهي على ذلك النحو: أن يكون متصنتاً منتظراً سماع خبر أو متحيناً فرصة

العثور على أفسانه. كانوا يقولون أن ملك آرا يحس بآلام الظهر والخصر، وقد صار أسوأ خلقاً مما كان عليه. كان ملك آرا غير راضٍ عن الضرائب التى فرضتها الدولة وإدارة المالية الجديدة عليه وأبلغته بها، وقد ارتفع ضغط دمه، كما ارتفع ضغطه هو من أجل شراء بيت ثريا خانم، وكان الآن ـ بعد وفاة أمه بى بى گوهر تاج خانم ـ قد أوعز بإخلاء غرف منزله وحتى سراديب بيته المجاورة لجدار باحة ثريا خانم، فهيأوا البيت لأعمال البناء، الأمر الطبيعى بعد التعلل ظاهرياً بأن مبنى الباحة الخلفية لا قيمة له وأنه يمكن أن ينهار فى أى وقت. فى هذه الباحة كانت ثريا خانم تقاوم، وفى تلك الباحة كانت ثمة دعوى دائمة بين تاج ماه خانم وملك آرا بسبب ليلا ـ أحرق الله روحها ـ لأن ملك آرا قد نقل ليلا أخيراً إلى بستان أوين، صارت ليلا ضرّة تاج ماه خانم، وكانت تاج ماه خانم ترى هذا البلاء نتيجة غير مباشرة لأعمال ثريا خانم. وكانت الأم قد زعلت على ابنتها، تدعو عليها ليل نهار، وكانت تبحث عن فرصة تصيب فيها ليلا المحروقة ببلاء. كان الزعل والكدر والدعوى ودعاء السوء هو ما انعجن بساعات الحياة، وحتى بالألسنة الصائحة، وبأنفاس الجميع ، فكان ينقضى شهر رمضان، ويسقط الصيف اليابس فوق البساتين، ويتقدم مثل السرطان، وكان معبر وزير دفتر بطوقه وأسواقه الصغيرة معلقاً بين لفح الحر والغبار والتراب، وتنقضى أوقات ظهر ومساء المساجد فى صلاة الجماعة وأداء الطاعات ومجالس التعزية. كانت مدينة طهران لا تزال تغط فى السبات القاجارى الدائخ...

وكان هذا هو الصيف الذى انتهى بالحادث السيىء فى بيت ثريا خانم، فجلب آلاماً جديدة ومن نوع مغاير، لجاويد.

-٢٦-

في منتصف الليل قفز من نومه على صوت زعيق النسوة. كان أول ما صادف ناظريه ألسنة اللهب التي كانت ترتفع من نوافذ وأبواب غرف يسار البيت، الكائنة في طرف جدار بيت ملك آرا.

كان جاويد لا يزال ينام لياليه في البستان أمام الحجيرة. قفز من مكانه وراح يجري نحو سلالم المبنى - نحو سلالم السطح - لأنه كان يدرى أن ثريا خانم وهما كانتا ما تزالان تنامان على السطح داخل الناموسية، كما كانت تنام فاطمة بگم قريباً منها خارج الناموسية. مع أن السطح الذى كن نائمات فيه لم تبلغه النار بعد، ولكن ممر سلالم كل الأسطح كان واحداً، وكان هذا القسم منذ الآن غارقاً في دخان النار ولهيبها.

كانت المرأتان يقظتين كلتاهما، تزعقان وتصرخان. بلغ جاويد بين العتمة والنار والدخان إلى أعلى السلالم الضيقة الملتوية حيث كانت ثريا خانم محتضنة طفلتها وقد استولى عليها الرعب وراحت تبكي. أخذ الطفلة من ثريا خانم (كان يحاول ألا يقع نظره على جسد ثريا خانم نصف العارى في قميص النوم). وهبط إلى أسفل وراح يشجعها على النزول. نزلت ثريا خانم على عجل فلحقت بجاويد وابنتها داخل الباحة حتى بلغت الحوض. هنا أعطاها جاويد الطفلة، وركض هو مرة أخرى نحو فاطمة بگم، فأنزلها هى أيضاً، وأوصلها إلى مكان آمن، ثم جلب لهما غطاءً. ثم نظر إلى النار. لم يكن يدرى ما يفعل. ركض فجاء بدلو ورشاش ماء، وبينما كان يصرخ وينادى على الجيران، كان مشغولاً بجلب الماء وصبه على النوافذ وداخل الحجرات. كانت كل الحجرات قد

مستها ـ كما لو فجأة وفى وقت واحد ـ النار، ولحسن الحظ لم يكن فيها أحد.

جاء سريعاً بعض الجيران وأهل المحلة ممن استيقظوا، للمساعدة، فساعدوا على إطفاء النار. كان الناس يمتحون الماء من الحوض، بضجيج وصخب، منادين يا على ويا أبا الفضل ـ بالدلاء والأباريق والقدور والكاسات ـ فيصبونه على النار. بعد بضع دقائق نشف ماء الحوض الكبير، فهجم الناس ـ بقيادة جاويد ـ نحو حنفية خزان الماء، أو ساقية الماء فى الزقاق، واستمر السعى لإخماد النار ومنع سريانها لمبنى ثريا خانم المواجه للقبلة. (لم يكن ملك آرا تلك الليلة فى طهران، فقد كان ذهب بعد عيد الفطر إلى بستان أوين المصيفى ليقضى يومين أو ثلاثة، إلا أنه لم يعد بعد). الليلة، حملت جدية جاويد وحميميته وقيادته الحاسمة ـ بين أناس اضطربوا تحت وقع الحادث ـ حملت الجميع على الانقياد له. كان هو نفسه فى كل مكان، وقد قام بكل أنواع الجهد والتضحية. وبدون شك، فإن فدائيته هى التى أنقذت البيت من الدمار الكامل دفعة واحدة. وقد أرسل فى الوقت نفسه أحد أولاد غلوم على الصغار للدكتور منوچهر نزهت كى يخبره بضرورة مساعدة النسوة. كانت الحروق الطفيفة ووقع الصدمة والخوف قد أرعبهن.

تلك الليلة، قبل أن يسيطر الخدم والجيران وأهل المحلة على النار فيطفؤنها، احترقت كل غرف الجبهة اليمنى من بيت ثريا خانم بأثاثها وأبوابها، وشبابيكها، كما انهار جزء من السقف ايضاً. وانهار كذلك سقف المجاز بين هذه الغرف والمبنى المواجه للقبلة، بما فى ذلك سلالم السطح. كان الكل يسألون من الكل، ولا أحد يدرى من أين ولا كيف بدأ الحريق. ففى هذا البيت، فى هذه الليلة من أواخر الصيف، لم تكن ثمة

نار في أي مكان، ولم يكن ثمة حتى مجمر أو نار سيجارة أو غليون. ولكن البناء التهب فجأة وانفلتت النار مسرعة، فاحترقت الغرف الثلاث معاً. كما لو أن الجن خرجوا زاحفين من بين سواد الليل، فصبّوا النفط على الغرف الثلاث وأشعلوا فوقها عود كبريت. ولكن جاويد لم يكن يؤمن بالجن. وكان باب البستان مغلقاً طوال الليل أيضاً. لم يكن بمقدور أحد، غير خدم ملك آرا، أن يأتي عن طريق سراديب البستان الأصلي إلى هذه الباحة ويشعلوا النار. لقد احترقت حتى أطر الأبواب والشبابيك، واستحالت البناية كلها إلى قطعة فحم واحدة. كما سبق لملك آرا أن تنبأ ذات يوم – فأخاف ثريا خانم. كان انهدام هذا القسم من منزل ثريا خانم الليلة هائلاً وكاملاً. كان أهل البيت في رعب الفزع والخوف. حتى في ذلك البيت، في بيت ملك آرا نفسه، بل أن تاج ماه خانم قفزت من نومها وأصابها الفزع لرؤية ألسنة اللهب، فانقبض قلبها، وأغمي عليها.

قبيل السحر، عندما خمدت النار أخيراً، وانصرف الخدم والجيران وأبناء المحلة الذين كانوا جاءوا للعون، ولم يبق غير واحد أو اثنين من المقربين، وغاص كل شيء في الظلمة وفي الدخان، أغلق جاويد باب الباحة، وجلس وسط الباحة عند أسفل سلالم غرفة الجلوس، لكي يكون جاهزاً إمّا دعت الحاجة إليه. كانوا قد نقلوا ثريا خانم وهما إلى غرفة الجلوس. كانوا قد أوقدوا الفوانيس. كما أوقد السماور وأعدوا الشاي. كان الدكتور منوچهر خان نزهت لا يزال هناك. وكانت فاطمة بگم ورقية بگم لا تزالان هناك أيضاً. وكانت فاطمة بگم تحتاج إلى العلاج أيضاً. وسمع جاويد أن الدكتور أعطى ثريا خانم وطفلتها وفاطمة بگم شاياً محلّى بالسكر أذاب فيه أقراص مورفين.

بعد بضع دقائق، احتضنت فاطمة بگم، التى كانت نائمة، فراحت إلى إحدى الغرف الخلفية ونامت هناك مع الطفلة. كانت ثريا خانم جالسة بين رقية بگم والدكتور، ويبدو أنها كانت لا تزال تبكى. نتيجة للشاى ومورفين الدكتور نزهت. كانت مثل روح تتكلم وسط الخدر والماليخوليا. كان شادر صلاتها، الذى بلون القشدة المورّد، قد انحسر إلى مؤخرة رأسها، وكان شعرها الأشعث متناثراً على زاوية من جبهتها وعلى كتفها وفوق صدرها. وكان قميص النوم الأبيض يبرز جسدها السمين الأبيض. كانت الليلة جميلة على نحو عجيب مثير للخيال - كما تبدو وجلة بلا حامٍ أيضاً. كان الدكتور ورقية بگم يطمئنان خاطرها.

جاء جاويد فجلس أدنى السلالم. كان هو نفسه متعباً محبطاً. كان النوم يغلبه، بوجهه ويده المدخنين، وإصابات الحروق فى عدة مواضع من بدنه. تنفس الصعداء لأن هذه الليلة العجيبة، كائنة ما كانت، قد انقضت بدون موت ومصيبة مريرة لهذه العائلة.

كان محتاراً يفكرفيما إذا كانت النار قد أشعلت عمداً من قبل أحد ما. وإلا فكيف؟ ما الذى سيحل من الآن فصاعداً فى هذا البيت المحروق؟ فى هذا الوضع، أستعيش ثريا خانم الآن هنا مع القلق؟ أم أنها ستبيع البيت أخيراً لملك آرا وتنتقل إلى بيته أو إلى مكان آخر؟

ولكنه كان الليلة، أو عند انغلاق هذا السحر المشؤوم، متعباً مسحوقاً جداً. رأى أن ينتظر حتى الغد ليرى ما يكون. سمع من بعيد، وهو وسنان، الدكتور نزهت يقول لرقية بگم، فى غرفة الجلوس، أن تصب قدح شاى ساخناً آخر لثريا خانم. وأعطاها أيضاً حبتى مورفين كى تذيبهما فى الشاى وتعطيهما إياها. لو أعطوه هو أيضاً، حبة مورفين، أو أية حبة أخرى، فما كان ليستاء. ولكنه عزم أن يبقى الليلة حتى الصباح

يقظاً مصغياً جاهزاً للخدمة. نهض فجاء إلى حافة إحدى الجنينات، ومن ماء أحد الأباريق الذى كان قد بقى فيه قليل من الماء غسل يديه ووجهه. وجاء إلى حجيرته، قرب فراشه، وتمدد مستنداً على أحد عضديه، وراح يحدّق فى غرفة الجلوس والناس الذين فى غرفة الجلوس.

كانت السماء مضيئة ملآى بالنجوم. والقمر يلمع منتصفاً. وكان نسيم بارد يهب من ناحية جبال الشمال، فيهز رؤوس أغصان أشجار البستان.

فى غرفة الجلوس، لم تعد ثريا خانم الآن تبين لجاويد. يبدو أنهما أعدّا لها مناماً هناك، فأناماها. خفضت رقية بگم ضوء السراج وخرجت من الغرفة وراء الدكتور، نزل هذان الاثنان، بين ظلال الباحة المظلمة، السلالم واتجها نحو باب الباحة وهما يتجاذبان الحديث.

وعند الباب صرف الدكتور رقية بگم فذهبت إلى البيت. (وهو أمر كان جاويد يرغب ألا يحدث، فقد كان يريد أن تبقى إحدى النسوة الليلة عند رأس ثريا خانم). ولكن الدكتور نفسه، على أية حال، لم ينصرف الليلة. عاد، وكما لو كان قد نسى شيئاً، أو أنه انصرف عن الذهاب، فألقى نظرة على بناية ثريا خانم شبه الظلماء. ثم ألقى نظرة باتجاه حجرة جاويد، فرأى جاويد وهو فى محله، ولكنه لم ينبس بكلمة. ظنه نائماً. وبقى جاويد على حاله، نصف ناهض، منتظراً. كان ينتظر أن يناديه الدكتور، أو أن يأتى فيكلمه، أو يصدر إليه أمراً، أو أن يطلب منه على الأقل أن يغلق الباب بنفسه وراء رقية بگم. ومرة أخرى اجتاز ظلمة الباحة من أمام القسم المحترق المسود، وعاد نحو غرفة الجلوس. رقى

السلالم، دخل الحجرة الكبيرة، وأغلق الباب. وأغلق النوافذ المفتوحة أيضاً، ثم خفض شعلة السراج أكثر. غرقت غرفة الجلوس فى الظلمة، وبقى الدكتور فى الغرفة.

وخارجاً من البستان، كان السحر يتكشف ذرة فذرة على الأفق فوق المبنى المحترق لثريا خانم. وكان الليل ينصرف متمهلاً زاحفاً. وتغيب النجوم. وتصيح ديكة ننه أحمد من الباحة الخارجية لملك آرا. وكان جاويد متعباً حزيناً فى زاوية الباحة ــ التى كانت تبدو عابسة ببقايا المبنى المحترق بالقمامة والأوساخ ــ ينظر إلى الليل الذى يفقد لونه رويداً رويداً وينمحى.

لم يدر هو نفسه متى غفى، ولكن عندما تحرك كانت الدنيا مضيئة، ورأى هيكل الدكتور منوچهر خان من وراء وهو يخرج من باب الباحة ويغلق الباب وراءه.

لم تتح الفرصة لجاويد أن ينهض فيتقدم ليسأل الدكتور عن أحوال ثريا خانم ــ فكيف بالسؤال عن الوعد الذى قطعه له الدكتور بشأن بستان ملك آرا فى كن، وعن خبر أو أثر لأفسانه...

- ٢٧ -

في اليوم التالي للحريق كان بيت ثريا خانم في فوضى وغم وحيرة وهرج ومرج، مما كان متوقعاً. منذ الصباح الباكر، منذ الساعة التي خرج فيها الدكتور منوچهر خان من الباب، نهض جاويد فاستل آهة وانصرف إلى العمل. جرجر عقبيه وانكب على التنظيف والترتيب، وكنس الباحة.

لم يكن ذلك عمل شخص أو اثنين. ولكنه على أية حال بدأ العمل، وبعد أن ارتفع النهار رويداً رويداً، وجاء خدم ملك آرا وهذا وذاك واحداً بعد الآخر، كنسوا التراب والأنقاض وألقوا بها خارجاً. وأخرجوا الأثاث المحروق ونصف المحروق من الحجرات وجلبوا كل شيء حسب أوامر ميرزا أصغر خان - الذي كان واضحاً أنه هو أيضاً كان تسلم أوامر من مصادر أخرى - فألقوا به خارجاً، أو - إن كانت ما تزال له قيمة - باعوه للدلالين المتجولين الذين غصّ بهم الزقاق قبل أن ينتبه إليهم أحد أو يعرف كيف علموا. كما وقعت سرقات صغيرة أيضاً.

لم تصحُ ثريا خانم حتى الظهر، أو أنها لم تخرج، مع أن سائر أهل المنزل الداخلي - فيما عدا ملك آرا وليلا بالطبع - خرجوا جميعهم، فاختلطوا مع الجميع، وكان الكل في كل مكان.

قبيل الظهر جاءت حتى تاج ماه خانم نفسها، التي كانت زعلانة مع ابنتها، بالشادر والسروال الفضفاض، لاهثة، من باب الباحة، فذهبت إلى غرفة الجلوس لرؤية ابنتها. كان يبدو أن الممر تحت الأرض بين الباحتين قد تخرب الان، أو أنه كان مسدوداً، أو أنه كان يعدّ غير

مـأمون. وجـاء آخـرون أيضـاً لزيارة ثريا خـانم ـ من بينهم فروغ زمـان وزوجها هوشنگ خان.

بعد الظهر، إذ خرجت ثريا خانم نفسها، مرتدية شادراً ونظارة، من غرفة الجلوس وألقت نظرة على وضع الباحة، لاحظ جاويد أن لون وجهها أبيض كـالجص وأن حـول عـينيـهـا، حـتى منتـصف الأنف ـ الذى كـان ظاهراً من تحت الشادر ـ حلقتين سوداوين. كان صحن منتصف المنزل نصف المحروق، بسقوفه المنهارة، وأماكن الأبواب والشبابيك الخالية والحيطان السود المعفرة بالهباب، الآن، منظراً يبعث على الأسى. وعند العصر، عندما جلس الجميع فى الإيوان، يبدو أن الحديث والاقتراحات كانت تدور على ذهاب ثريا خانم يومين أو ثلاثة عند أمها تاج ماه خانم، حتى يتاح إكساب هذا البيت وضع ومظهر أفضل، أو يتضح ما ينبغى فعله له.

وعند المغرب بالضبط جاءوا بخبر مقدم ملك آرا نفسه من بستان المصـيف. وبعد أن جـاء الخدم أولاً ـ حسب العادة الجارية كلما أراد ملك آرا أن يأتى ـ فـأعلنوا الخبر وهيأوا المكان، وأبقوا الباب مفتوحاً، دخل آرا بين السلام والتعظيم والتكريم والهتاف بحياته. عندما وصل منتصف الباحة وقف، ودفع يده داخل نطاقه، وراح ينظر... وهز رأسه. كان يرتدى لباساً أزرق مطرزاً، وبنطلوناً وحذاءً رماديين أنيقين، ويعتمر غطاء رأس طويلاً فيروزى اللون يحمل ريشاً، كان يضفى عليه اليوم مظهراً بعيداً عن الحياة الدنيا. ثم ذهب إلى أعلى الإيوان، قرب ابنته، فجلس على كرسى هناك إلى جانبها. نهض الجميع عند قدمى ملك آرا، وردّ ملك آرا على تحيات الجميع بصوته العالى المفخم، وسأل بعضهم

عن أحوالهم، وتفقد الجميع، ثم جلس وأذن للجميع بأن يجلسوا، فجلس الجميع عدا تاج ماه خانم، التى نزلت ـ متغضبة عابسة متنحنحة ـ وذهبت إلى بيتها. كان واضحاً أن أمراً ـ لا بد أنه لا يزل أمر ليلا ـ يعكر العلاقات بين ملك آرا وتاج ماه خانم، فلم تكن لدى الزوجة والزوج الطاقة على رؤية أحدهما الآخر.

جلس ملك آرا زمناً فوق الإيوان، متحدثاً إلى ثريا خانم. كان جاويد يراقبهما من زاوية الباحة، من حيث كان يجلس أمام حجيرته. لم يكن يسمع كل كلامهما، فيما عدا بعض كلمات وأصوات ملك آرا الجهورية. كان للهجة ملك آرا وكلماته دور الأب الحنون ورجل المدينة الوجيه ذا الاعتبار الذى خف لمساعدة ونجدة ابنته الأرملة.

ثم جاءالدكتور منوچهر خان أيضاً. ذهب قريباً من الناس الذين كانوا داخل الإيوان، فقبّل يد ملك آرا، وجلس، سائلاً ثريا خانم عن حالها. كانت ثريا خانم، تحت الشادر، متحفظة هادئة لا تتكلم كثيراً ـ كما لو أنها كانت هى أيضاً متعبة ميتة الفؤاد قد غلبتها أوضاع حياتها. وسرعان ما أثمرت الاقتراحات السابقة فتقرر أن تذهب ثريا خانم يومين أو ثلاثة إلى بيت أبيها حتى تستقر الأوضاع. ويبدو أن هذا ما استقر عليه الرأى.

ألقى ملك آرا ـ قبل أن ينهض ـ نظرة طويلة متأنية، ولا بد أنها نظرة مشترٍ، على الباحة من أولها إلى آخرها. ومع أنه كان يهز رأسه، وكان يتحسر على الخسران والعبث والقضاء والبلاء، ولكن حالة شيطانية كانت واضحة فى عينيه، كانت تقول لجاويد بالحاسة السادسة أن الأمير القاجارى سعيد. ربما خصوصاً عندما وقعت عينا ملك آرا فى

زاوية باحة الخربة على جاويد الذى كان سيظل من بعد حبيس هذا البيت الخالى منفرداً.

كانت ساعتان أو ثلاث من الليل قد انقضت عندما جاءت ثريا خانم وابنتها وخادمتها ـ بعد أن ذهب الضيوف ـ فودّعن جاويد، وسلمته البيت وذهبن، فوجد جاويد نفسه وحيداً منفرداً فى زاوية من البيت. لم يبق له من أنيس غير الظلمة وصوت الخنافس. وأقفل خدم ملك آرا باب هذه الحديقة من الخارج.

تلك الليلة، بعد أن بقى جاويد وحده، راح يرتب حجيرته زمناً، ثم أغلق بعد ذلك بقية أبواب البيت وفتحاته. لم يكن يدرى ما يفعل فى وحدة الليل وعبوسه. جلس فى زاوية البستان على بساطه ولحافه العتيقين. كانت ما تزال تصل أنفه من حيطان البستان وأرضية روائح الدخان والاحتراق التى كانت تختلط بروائح الخراب والوحدة. كان لليلة المظلمة حالة مشؤومة من الاختناق وانعدام الصوت والعمى. كانت أول فكرة خطرت بباله أن يقفز ليلاً من الجدار إلى الخارج، فيذهب ويبحث ليجد، بأية وسيلة كانت بستان ملك آرا فى كن. وبقليل المال الذى لديه فالعودة إلى يزد ممكنة.

كان لا يزال فى هذه الأفكار والخيالات عندما سمع صوتاً يفتح باب الباحة من الخارج ويدخل. كان ميرزا أصغر خان. وكان أبو تراب الحوذى القزم، بلحيته وشاربيه متداخلة البياض بالسواد وأنفه المهروس، وراء ميرزا أصغر خان.

تجول ميرزا أصغر خان طويلاً فى الباحة، تفحص الوضع الهادئ والأبواب المغلقة وكل شىء، فاطمأن. ثم جاء فوقف أمام جاويد. عندما

تكلم، كان صوته يحمل لهجته الإبليسية الدائمة تلك ونفاذه القوى، وكانت تتناثر من كلامه تلك الخصيصة الخبيثة الحاذقة الأبدية. أوصى جاويد، إن كان يحب حياته وحياة أخته، أن لا يبتعد قيد أنملة عن حيطان هذا البيت، أن يلازم هذا البيت، أن يحرس هذا البيت. قال إن «السيد» مسرور لأن جاويد أظهر قدرة وبذل ليلة أمس فى صيانة هذا البيت، وأنه ربما سيعفو فى المستقبل القريب عن الغلام وأخته ويعيدهما إلى يزد... ولكنهما ينبغى أن يبقيا فى الوقت الراهن. وتباً له ولأخته إن عصى أو صار فضولياً. إن هذا الملك منذ الآن فصاعداً هو ملك الـ «سيد»، وجاويد مسؤول، بأمر «السيد»، عن صيانة كل واحدة من آجر خرابته. كما أن ثريا خانم تطلب ذلك أيضاً. «لهذا أيها الغطاة، أيها الخوخة الجافة. لك الويل إن أخطأت... لك ولأختك الويل.. أليس صحيح يا أبا تراب خان؟ فأنت أيضاً سمعت أوامر حضرة الأشرف!... أنت أيضاً تدرى».

لمعت عينا أبى تراب فى الظلمة. وهز رأسه رويداً رويداً:

– «أوهوم، أوهوم». كانت تتلاطم فى عمق عينيه الضيقتين والسوداوين ظلمة وقسوة قلب عريقين كان جاويد يخشاهما دائماً. قال جاويد:

– «على عينى... أنا منتبه...». فقال ميرزا أصغر خان:

– «خير لك أن تكون كذلك». وقال أبو تراب:

– «تباً لجدك وآبائك إن لم تكن كذلك».

– «أنا كذلك».

عندما انصرفا وأقفلا الباب من الخارج، تملك جاويد البكاء. جلس

على طرف لحافه العتيق. احتضن ركبتيه، وراح يفكر. أفسانه، أفسانه، أفسانه. ليس تقصيرى. وليس تقصيرك أيضاً، يا عزيزتى. كلا. ليس تقصيرك. إنّ قدرنا هكذا. كل حياتى رهينة بخلاصك. كل مصيرى مرتبط بك إذ لا أدرى ما فعلوا بك. ولكننى سأجدك. أقسم باليمين الذى حلفته لأمى أن أجدك.

نظر إلى السماء التى كانت منيرة بالنجوم والقمر اللامع. وطلب من أولئك الذين كانوا فى زاوية السماء شهوده وحماته أن يساعدوه. لقد انضم أبوه وعمه إليهم أيضاً. كما انضمت أمه إليهم أيضاً. أفانضمت أفسانه إليهم أيضاً؟ أم أنها لا تزل حية؟ كان لا بد أن يعثر عليها فيطمئن. الليلة ينقضى أكثر من سنة على اليوم الذى جاء فيه إلى طهران. واستعرض نحوس وحكايات تلك السنة.

لو كان يدرى منذ ذلك اليوم الذى انطلق فيه من يزد ما يدريه اليوم من شرور هذه الدنيا، وبخاصة من شرور هؤلاء الناس، فماذا كان سيفعل؟ كم كان سيكون رائعاً لو أنه كان يعرف كل شىء منذ اليوم الأول. لماذا ينبغى أن يكون ثمة شر وكذب؟ لو أنه عثر على أبيه وأمه وأخته، ولو أنهم عادوا معاً إلى يزد، فكيف كانت ستكون حياته اليوم؟ حدّق فى النجوم، وهزّ رأسه. لا، يافتى، لا تفكر على هذا النحو. لا تخف من تقلبات المصير. لا تفكر فى تقلبات إذا وإذن. لا تفكر فى أنه لو كان هكذا أو لو كان كذلك فما كان سيكون. إن الحياة لا تُعطى بيد امرىء على هذا النحو، إن الأمور لا تسحب إلى أمام وإلى وراء، لا تكن طفلاً. فكّر صحيحاً وباستقامة، وجاهد، لا تفكر إلا فى أمام. ولا تضعف. لقد اجتزت مرة حضيض السقوط، وعبرت الخوف والاهتزاز والتردد، فلا

تخف بعد. تذكر. لا تكن ساذجاً.

ومرة أخرى رفع رأسه نحو السماء.

ومرة أخرى شكر خالقه على أن إيمانه كان ما يزال مكيناً راسخاً. رفع يديه نحو السماء، وأثنى على أهورامزدا بقبضتين مشدودتين وشفتين مزمومتين: إن إله الدين الفارسي لذو لطف وخير وقد قال له ذلك الشيخ الكبير ذاته. وقال له ذلك عجوز السهل لابس الأسمال ذاته في الحلم.

نهض فجأة إلى زاوية البستان المتروك المهجورة، فأعد ناراً في المجمر الصغير. وأعد بعض الشاي في زاوية المجمر. جلس وصب قدح شاي، فتناوله مع خبز يابس. وغاص في الأفكار.

وحيداً، في زاوية الباحة الخربة ونصف المحروقة، مقفلة الباب، عاش مثل حيوان حبيس. على أية حال، كان ينهض كل صباح عند الفجر، يغتسل، ويتلو دعاءه باتجاه مشرق الشمس. وأثناء النهار كان يقرأ في الكتب التي عنده، أو يكتب خاطراته وأحاسيسه، أو يقوم فيتريض. أو يشتغل ـ كي يحافظ على سلامة جسمه وروحه وطهارتهما.

وكان يأتي أحياناً أحد خدم ملك آرا فيمر بالحديقة، ويضع قليلاً من القوت أمام «جاويد جوجو»، ومرة أخرى ينغلق الباب.

وعلى امتداد الشهر الأول جاءت ثريا خانم نفسها ثلاث مرات مع خادمتها فاطمة بگم، وأخذتا في كل مرة بعض الأثاث ولفافات الملابس... وكانت ثريا خانم هي من تهتم أكثر نوعاً ما بوضع جاويد، فتأتي له كل مرة بشيء من المال أو كتاب أو جريدة قديمة، أو ترسله كي يشتري لنفسه من سوق الخضر زاداً يهيء منه ما يريد... وتمنحه الأمل.

كان لابنة ملك آرا نفسها ظاهراً كئيباً ومريضاً. ولكن جاويد لم يكن يجرؤ على سؤالها عن أموالها.

إمّا حل الخريف، وتساقطت أول الأمطار، وانتشر الطين والمياه والقانورات المؤذية فى الباحة والمحلة، لم يتغير وضع جاويد، ولم يتغير وضع أى أحد. فيما عدا (كما كان يسمع جاويد) وضع ليلا... كان هذا الخريف بالنسبة لليلا خريف كونها محبوبة، كانت دورة صيرورتها «صاحبة» ملك آرا ـ التى بلغت سنة ـ قد انتهت، فسقطت من عينى ملك آرا، ويالبؤس من تكون فى هذه الدنيا ـ كما انتبه جاويد فيما بعد ـ ضرة لتاج ماه خانم، وتسقط من عينى ملك آرا، ويالتعاسة طالعها.

لم تعد ليلا ذلك العام من بستان أوين إلى بيت ملك آرا، أو أنها لم تعد إلى أى مكان فى محلة وزير دفتر.

لم يكن جاويد على علم باللعنة التى حلت بليلا، أو ـ بطريق أولى ـ بطردها من بستان أوين، أو حتى باختفاء أخبارها، إلى أن جاءت فاطمة بگم ذات ليلة ـ ليلة كان مطر ناعم قذر ينصبّ فيها على محلة وزير دفتر ـ من خلال ظلمات سراديب منزل ملك آرا إلى هذه الباحة، وجاءت عند عتبة باب حجيرة جاويد فجلست، وفيما كانت تسعل سعالاً رديئاً، شرحت الأمر لجاويد... ورجت جاويد وتوسلت إليه أن يساعد فى العثور على ليلا، لقد أصيبت ليلا خريف هذه السنة، نوعاً ما، بمصير أخت جاويد.

قالت فاطمة بگم أولاً أن لا أحد يعلم أين ذهب الخدم ـ بأمر تاج ماه خانم ـ بالضرة الصغيرة التعيسة، وكيف أخفوها... جلست الأم العجوز التعيسة أمام باب حجيرة جاويد، أراقت الدمع على عرض وجهها،

والتمست، وطلبت من جاويد المساعدة.. قالت إن قلبه يختلف عن قلوب الآخرين.

كان عجيباً، وإلى حد ما من سخريات الأقدار، أن يدخل حياته الليلة ـ بعد زمن طويل من الوحدة والفراغ في زاوية هذا البستان المتروك ـ اسم من كانت له مركز خواطر مريرة، وكانت بنحو ما سبب فشل فراره، والمؤدية إلى موت أمه.

تلك الليلة، هناك بالذات تحت المطر، قال لفاطمة بگم أنه يأسف لأنه لا يستطيع عملاً، قال إنه نفسه لا يستطيع من دون إذن الخدم أن يتحرك من هذا البستان كي يبحث عن أخته هو، فكيف بالعثور على ليلا التي ـ كما تقول فاطمة بگم نفسها ـ لا يعرف أحد أين هي؟

قالت العجوز بوجهها المريض وسعالها المصاب بالموت إن أبا تراب يدري أين ليلا. قالت إن هذا الخبيث هو الذي أخذ ليلا. كانت العجوز نفسها قد سمعت من هذا وذاك أشياءً عن ابنتها التعيسة ـ يعني أنها سمعت... إلى أين أخذوا ليلا ... ولكن الخوف والحياء والخزي لم يكن يسمح للمرأة المسكينة أن تأتي باسم ذلك المكان على لسانها. احترق جاويد لبكاء العجوز وتوسلاتها. كان آسفاً، وكان غاضباً لأنه غير قادر على شيء. أفهم العجوز أنه لا يستطيع أمراً، وأعادها.

في الليلة التالية، عادت العجوز مرة أخرى وسط الظلام. جاءت وجلست، بالسعال الرديء نفسه، مثل حيوان جريء سيء الطالع لا مكان عنده يموت فيه، عند باب حجيرة جاويد. جلبت معها الليلة بعض المال، نحو مائة تومان أوراقاً ومسكوكات، في منديل، كي يعمل جاويد على العثور على ليلا بهذا المال، أو يعطي لأبي تراب ويهب مع أبي تراب

فيعيد ليلا.

لم يمس جاويد المال. كلا ـ إنه لا يستطيع فعل شىء. انتهى.

أخرجت العجوز من داخل شادرها وعصابة رأسها زوج أقراط ذهبية أيضاً فأضافتها على المال الذى كانت وضعته أمام جاويد. قالت:

ـ «أنا مريضة ومسكينة. وليس عندنا غيرك.. هناك، فى تلك الحديقة، ماذا يمكننا أنا وأختى أن نفعل وسط كل ذلك الدغل والخبث؟ نحن أيضاً مثلك غرباء. إن ابنتى المسكينة مجرد طفلة وقعت فى حبائل هؤلاء الأشرار. وإذا كانت أصابتك بسوء، إذا كانت أخبرت عنك، يجب أن تصفح عنها». فقال جاويد:

ـ «سيدتى، سيدتى... اسمعى، ليست عندى شكاية على ليلا، فما جرى مضى. ولكن بهذا الخصوص، صدقى: لا يمكننى أن أفعل أى شىء أبداً». فقالت فاطمة بكَم:

ـ «نرجو أن تساعد... أحلّفك بالصديقة الطاهرة، أحلّفك بمن تعبد...»

فقال جاويد:

ـ «اسمعى، اسمعى... لا أستطيع».

ـ «لا... تستطيع». فقال جاويد:

ـ «انظرى، كما قلت لك أنا لست عاملاً جيداً لإداء هذه المهمة. أرجوك ألاّ تلمّحى أكثر من ذلك». وبعد جملة سعال رديئة قالت العجوز:

ـ «أنت يمكنك أن تكلم أبا تراب. يمكنك أن تريه هذا المال والذهب. أن تخدعه، أن تستحمره، أن تسأله أين ذهب بليلا. أعطه نصفه أولاً، ونصفه بعد أن يجىء بليلا...

أستحلفك بأبى الفضل، أقسمت عليك بالله... استحلفك بكل من تعبد،

أن تساعد».

وأخرجت سواراً آخر من صدرها فأضافته.

تكدر من قلة إيمان المرأة البائسة ومن كونها تتلاعب بقوة طمعه وطمع أبى تراب، فهزّ رأسه:

ـ «لا، لا يمكن».

أخرجت العجوز فردة قرط ذهبى فيها حجر فيروز، فوضعتها فى زاوية المنديل. وقالت:

ـ «ليس عندى مزيد. إننا نتوسل إليك».

هزّ جاويد رأسه. كان قلبه يحترق لأن هذه المرأة لا تفهم.

أخرجت العجوز فردة القرط الأخرى أيضاً من داخل ملابسها ووضعتها فى زاوية المنديل. فقال جاويد:

ـ «فاطمة بگم، فاطمة بگم، اسمعى. ليس ثمة كثير مما يقال. أى عون يمكننى أن أقدم؟ ما أنا؟ ما شغلى؟ إنهم يأكلوننى مثل ثمرة ويبصقون نواتى. صدقينى. اسمعى. يضيع منك مالك وكل ما عندك. أنا فتى ساذج من الأطراف، أسيرٌ هنا فى مصيدة القضاء والبلاء هذه... لا يمكننى أن أفعل شيئاً لك. وحتى على فرض أننى أخذت هذا المال وتكلمت مع أبى تراب، فإنه سيأخذ المال من يدى ويضربنى على رأسى، فيخطفه ويروح... وماذا يمكننى أن أفعل بعد؟ ماذا تفعلين أنت؟ فكرى...».

كانت عينا العجوز تدوران، وصار سعالها أكثر إرعاباً. قالت:

ـ «أنت تعرف، أنت ستدبر الأمر. أنت ـ ما شاء الله ـ ذكى وشاطر جداً... وأنت أملنا الوحيد»، وأخرجت إسواراً آخر فأضافته. استل جاويد آهة من صدره وقال:

ـ «لا...». وبالنسبة له، انتهى الموضوع.

بقيت فاطمة بكم مدة طويلة أخرى تتكلم، تسعل، تلتمس، وأخيراً جمعت المال والذهب شاتمة باكية مقذعة داعية يائسة، وبعد أن تأكدت أنه لم يبق ثمة شيء، صرّت كل شيء بالمنديل، وعقدته فى زاوية منديل رأسها، ونهضت ثم اختفت فى ظلمة الباحة ومطرها.

فى وحدة الحجيرة، مسح جاويد دموعه أيضاً. إن المصيبة التى حلت بهذه المرأة، هذه الأم، هزته، وحطمت روحه الحساسة.

ولكنه كان هذه السنة يفكر فى أفسانه أكثر منه فى أى شيء آخر. كان الليلة يخشى أن يتعرض أمله، فى العثور على أفسانه، للخطر نتيجة التورط فى هذا الأمر. لم يكن يريد أن يلوث نفسه بما بين أبى تراب وليلا. فقد كانت تلك حياة أولئك.

فى الظلامة، تحت لحافه الممزق، راح يتلوى.

كانت قوة أخرى تأكل الليلة داخله وتهرشه. إن أسس فكره، فى هذه الدنيا، بوصفه زرادشتياً، أن يحارب الشر. لقد ذكّره الجميع بذلك، كما أنه مذكور فى الـ «يسنا[1]» أيضاً. أفيجب أن يبقى متمدداً هنا بالذات فى ظلمة ووحدة هذه الحجيرة، خائباً، فى العبث، أم ينبغى أن ينهض، فيعمل بين هذه المكائد والشرور؟ كان خائفاً.

كان خائفاً مما يحل بأفسانه فى حالة موته. وكان العثور على أفسانه وإنقاذها هو الأمر الذى وقف عليه كل حياته وحريته وحتى روحه...

عانى الأرق طوال الليل، وكانت روحه تضطرب بين التفكير فى أفسانه[2] أخته، والأسطورة الزرادشتية، وتأملات أخرى.

---

(١) أحد كتب «أفستا».

(٢) أسطورة.

في الليلة التالية، جاءت فاطمة بگم العجوز من الظلمات. كانت هذه العجوز، رقية بگم، تعاني من قولنج[١] مزمن. وكانت بالكاد تتمكن من تحريك نفسها. قالت إن شقيقتها، أم ليلا، قد لزمت الفراش نتيجة لحمى وورم الصدر، وهي لا تستطيع الحركة، وجلست عند عتبته بالذات، في الزاوية نفسها التي جلست عندها فاطمة بگم في الليلتين السابقتين، ووضعت المال نفسه والمصاغ على زاوية بساط جاويد، وتوسلت التوسلات نفسها، وأراقت ما بدا وكأنه الدموع نفسها. ثم فكت عن عنقها قلادة دقيقة وسلسلة مزدوجة تحمل ثلاث قطع نصف أشرفي ذهبية، وقالت إن هذه هي الأشياء الوحيدة القيّمة التي تمتلكانها في هذه الدنيا و إنها كل تذكار أمهما، وإنها تضحي بها الليلة من أجل نجاة ابنة أختها التعيسة. وضعت تلك أيضاً في زاوية المنديل. التمست من جاويد أن يساعدهما. قالت لجاويد إنه فتى طاهر وبريء، وإنه يفهم كلامهما وآلامهما. حتى أنها قالت إنها حلمت الليلة الماضية أن «سيداً، يعتمر عمامة خضراء ويرتدي عباءة خضراء ويضع شالاً أخضر وينتعل نعلين أخضرين، جاء فأخذ يد جاويد ووضعهما في يد العجوز وقال إن هذا الفتى ملكوتيّ محب للخير، وإن كل آله كانوا من أئمة الدين... وإنه مورد لطف... وإنه سيساعدكما.

نظر جاويد الليلة إلى خالة ليلا العجوز المغضنة، كانت هي أيضاً كشقيقتها محروقة مكسورة عاجزة. وقد زاد ذكر حلمها ـ حقاً كان أو

---

(١) التهاب القولون.

كذباً ـ جاويد انفعالاً. تذكر أن عائلة العجوز، وأختها فاطمة بكم، قد جاءت من خراسان وكابل وتلك الأطراف، إذ كان ملك آرا قد جلب زوجهما معه من مشهد. كان قد سمع أنهم كانوا هناك نوى شأن، وكانوا يخدمون فى بساتين حرم الإمام... إن هاتين المرأتين، شأنهما شأن جاويد نفسه، قد سقطتا فى مخمصة الأحداث. على أية حال، قال جاويد:

ـ «اسمعى، يا خانم. كما قلت ليلة أمس لأم ليلا، أنا لست بأى وجه مأموراً جيداً لهذه المهمة. مع السلامة. لا تضعى قدميك على أرض لم تختبريها». فقالت العجوز:

ـ «ليس لنا أمل آخر».

ـ «لا ـ بعملكما هذا يذهب كل هذا المال والمصاغ ـ الذى لا بد أنه كامل مدخرات حياتيكما ـ هباءً... صدقينى».

بكت العجوز بمرارة. فبعد عمر من الخدمة فى هذه المحلة، فى أملاك ملك آرا، تلتجئ العجوزان الليلة إلى ولد أجنبى ومجوسى.

تنهد جاويد، وقال:

ـ «اسمعى... إذا ما قررت أن أجازف وأتدخل فثمة شروط وعهود واتفاقات».

مسحت العجوز عينيها بطرف شادرها، وقالت:

ـ «أى شرط؟... كل ما تقول».

ـ «قبل كل شىء ـ ينبغى أن تعرف ثريا خانم». فقالت العجوز:

ـ «تعرف... بالقرآن تعرف».

ـ «اذهبى إلى ثريا خانم فبلغيها سلامى، والتمسيها أن تأتى بنفسها

وتقول لى إنه لا اعتراض لديها على هذا الأمر... فهى سيدتى». فقالت رقية بكم:

ـ «على عينى... ولكن السيدة الصغيرة تدرى... لقد قالت أختى لثريا خانم... استشارتها».

ـ «وماذا قالت ثريا خانم؟».

ـ «آه... قالت الخانم إنها لا تظن جاويد يتدخل فى أمثال هذه الأمور. ولكنك تساعد. ساعد... ارحم. فيه ثواب». فقال جاويد:

ـ «إن أذنت ثريا خانم فسأبذل وسعى، لكى أفعل ما أستطيع».

ـ «على عينى... على عينى».

ـ «وأمر آخر. يجب ألا تكلمى أحداً ـ يجب مطلقاً ألا تقولى كلمة أو شيئاً لأى أحد...».

فقالت العجوز:

ـ «لا... أدرى. أفلا نعرف؟!». وقال جاويد بإصرار:

ـ «لا كلمة، لا نداء، ولا حتى ايماءة أو إشارة... وإلا، فكما يقول أبو تراب: لنا الويل جميعاً». فقالت الخالة العجوز:

ـ «لا، لا، ولا حرف... أفلم يمسّ صابون هؤلاء لباسنا؟!».

نظر جاويد إلى المرأة العجوز العليلة، ثم سأل متنهداً:

ـ «افرضى أنه تم العثور على ليلا. ماذا تريدان أن تفعلا بها بعد؟».

ـ «سنفعل أمراً، الله كبير».

ـ «لم يعد مكانها فى باحة ملك آرا...». استلت العجوز آهة مريرة، وقالت:

ـ «أفلا نعرف؟... ولكن على أمل على بن موسى الرضا... من المقرر

أن نخرجها من المدينة. فكرت أمها باللازم، ستحفظها في أمان حضرة المعصومة[1]. ستخفيها أختي أولاً بضعة أيام، ثم تأخذها فتعود بها إلى خراسان. ثريا خانم تعطى الإذن بذلك. وإن لنا هناك، ما يزال شأناً ومكاناً...» خفض جاويد رأسه، وقال:

ـ «حسناً ما فكرتما».

ـ «برجاء علي بن موسى الرضا». ونظر جاويد إلى العجوز.

قالت الخالة العجوز:

ـ «لينجي الله الجميع. ليعطي الله مراد الجميع وحاجاتهم. ليوصل الله الجميع إلى أهلهم وبيوتهم. وصدقة عن رأس الجميع أنقذ ليلا أيضاً».

وبقيت العجوز مدة أخرى تدعو. ثم تقدمت فتناولت يد جاويد، وقبلتها، وبللت يده بدموعها.

في اليوم التالي جاءت ثريا خانم بضع لحظات إلى هذه الباحة. جاءت بذريعة نقل بضع قطع أثاث، فذهبت أولاً إلى منزلها، ثم جاءت فتحدثت إلى جاويد. أجفل جاويد لرؤية شكل ووجه ابنة ملك آرا الأصفر المتورم المريض. لم يكن يدري أن هذه المرأة قد أصيبت بالمرض والألم لهذا الحد.

تقدمت ابنة ملك آرا ووقفت أمام باب الحجيرة، وردت على تحية جاويد. وبعد المساءلة عن الأحوال، قالت:

ـ «كيف الحال، ما الأخبار؟». فقال جاويد:

ـ «أدعو لك».

---

(١) أخت الإمام علي بن موسى، والمعصومة لقبها، أما اسمها فهو فاطمة، وهي مدفونة بقم.

بعد ثلاثة أشهر من ليلة الحريق وذهاب ثريا خانم إلى منزل ملك آرا، كان وجهها القمرى يبدو بلون زيت زيتون فاسد اليوم. سألت:

ـ «ألم يأت خبر عن أفسانه؟». فقال جاويد:

ـ «لا، للأسف، لم يأت بعد...».

ـ «كيف حالك أنت؟».

ـ «حي... فيما أظن». أراد أن يسأل سيدتى ما يؤلمك؟ ولكنه لم يكن يجرؤ بعد ـ كان يستحى، مع أن هذه هى المرة الأولى التى تأتى فيها ثريا خانم لوحدها وبلا تكلف، إذ لم تجلب معها فاطمة بگم. وتذكر جاويد أن تلك المرأة مريضة طريحة الفراش. كانت ثريا خانم تمسك بيدها اللفافة التى جاءت بها من حجراتها. سألها جاويد:

ـ «سيدتى، كيف حال فاطمة بگم؟ سمعت أنها مريضة». فهزت ثريا خانم رأسها، وقال:

ـ «حالها وخيمة جداً». حدّق جاويد فى وجهها ، وبقى ينتظر. قالت ثريا خانم:

ـ «إذا... لم يكن عبئاً كبيراً عليك، ساعد هاتين المسكينتين. أريد أن يتم العثور على طفلتها، كائنة ما كانت، فيعدن جميعاً إلى خراسان...».

فقال جاويد:

ـ «على عينى...».

ـ «إن فاطمة بگم، بمرضها هذا، ربما لن تصل خراسان. ولكنى على كل حال أريدها على الأقل أن ترى ابنتها، وتراها تبلغ عاقبة جيدة.

ـ «على عينى، سأحاول».

ـ «وانتبه لنفسك».

ـ «على عيني». كان يحس أن عطف تلك المرأة على خدمها، وعرفانها، كانا بلا تصنع وطاهرين.

إن كان ثمة دين وإيمان في هذه المحلة، فإن هذه المرأة عندها.

ـ «انظر أية مساعدة يمكن تقديمها... ولكن تقدم بعد تدبر».

ـ «على عيني».

ـ «واحذر تماماً».

ـ «على عيني».

ـ «أبو تراب يدرى أين ليلا... هو الذى أخذ ليلا فنقلها بالعربة من أوين، أما إلى أين نقلها فأبو تراب نفسه قال لمش خداداد ـ حوذى هوشنگ ميرزا ـ أنه نقل ليلا، ولكنه لم يقل إلى أين. لا أدرى ما الذى جرى فى أوين، وما الذى فعلته محروقة الروح تلك حتى أمر أبى أن يأخذوها حتى لا تعود أمام ناظريه... الخلاصة: أبو تراب يدرى بكل ما هناك».

أصغى جاويد بانتباه لكلام ثريا خانم، وقال:

ـ «على عينى، سأكلم أبا تراب سراً». فقالت ثريا خانم:

ـ «كن على حذر تام».

ـ «لا تقلقى، يا سيدتى».

ـ «إننى أخاف قليلاً».

ـ «وأنا أيضاً أخاف».

ـ «لست أدرى لم ينبئنى قلبى بالشر». فقال جاويد:

ـ «تنصلح. لا تقلقى».

كان فى عينى ثريا خانم ظلمة وخمود، وربما ألم جديد. كما كان

جسدها تحت الشادر أكثر امتلاءاً وأكثر انتفاخاً مما هو. تناول جاويد اللفافة من يدها وحملها لها. قال لها إن لها أن تطمئن فاطمة بگم إلى أنه سيبذل كل وسعه ـ وأقسم.

شكرته ثريا خانم، وودعته. حمل جاويد اللفافة إلى باب الباحة الخارجية لملك آرا، وهنا تقدم أبو تراب بقامته القزمة من أمام العربة، حيث كان يقف عند أقدام الخيل تقريباً، وتناول منه اللفافة. عندما كان يناول أبا تراب اللفافة، قال له من بين أسنانه أن يأتيه عند المغرب، إن كان عنده وقت، فإن عنده له شيئاً. قال إن عنده شغل معه. تفحصه أبو تراب بعينيه الضيقتين الشكاكتين. ثم ضحك. خفض جاويد رأسه بلا كلام آخر، وعاد إلى البستان المهجور، فدخل وسمع أبا تراب وهو يقفل باب البستان من الخارج.

ـ ٣٠ ـ

كان الرجل الوحيد الذى يعتبره جاويد عدوه فى هذه الدنيا ـ بعد ملك آرا ـ هو أبا تراب الحوذى.

إن أبا تراب لم يتقدم قط مستقيماً، كما غلوم على وميرزا أصغر خان، كى يضربه، ولم يضربه على رأسه بالهراوة ليلا، ولم يسرق ماله، ولم يصبه بجرح فى أى مكان من جسده. ولكن، على أية حال، كان ثمة فى داخل جاويد دائماً إحساس مشؤوم لا يُسمى ومكتوم، عن أبى تراب. ربما لأن أبا تراب كان قصير القوام أشوه، وهو يختفى دائماً كالجن بين الظلال أو وراء شىء ما ـ يقف بعيداً حتى ينادونه. كان أبو تراب فى الأصل من معاركى سكاكين طهران وأوباشها القدامى جداً، وكان ابن قصاب فى محلة پامنار. وأحد أخوته، عسگر خان، كان فى الأصل «أمير غضب[1]» الـ «نظمية[2]». وهو ما يزال يقطع الرؤوس فى ميدان الإعدام لأهل النظمية. (كان جاويد يتذكر ما سمعه عن قطع عسگر خان للرؤوس من أفواه أطفال غلوم على، وكيف أنه يحمل الشخص المحكوم، داخل الميدان، صباح الإعدام، على الجلوس راكعاً على الأرض، ثم يأتى هو من وراء فيضع أصبعيه (بعد أن يغمرهما بالزيت) فى أنف المحكوم، فيجر رأسه إلى أعلى ويقطع رقبته من الوريد إلى الوريد). كان يقال إن أبا تراب هو الأخ الأصغر والأكثر لؤماً، وإنه فى شبابه يُخلى ـ بحمله قدارة[3] بيد وزجاجة من عرق الكشمش باليد الأخرى ـ أزقة پامنار

(١) جلاد

(٢) دائرة الشرطة.

(٣) سيف عريض ذو حدين.

لنفسه. وبعد ذلك، إذ دخل خدمة ملك آرا، سيطر ملك آرا على شروره، وأعطاه مالاً، وجعله يقيم الصلاة، وعلّمه، وصيّره ـ كما يقولون ـ عبداً مطيعاً. منذ سنين عديدة وأبو تراب يخدم ملك آرا. وكانت جملته الشهيرة قوله: «إذا تفضل السيد بالأمر بأن أطرح أخى الصغير عند حافة الحوض فأقطع رأسه، فلست رجلاً إن لم أقطعه». وهو قد اكتمل الآن فى خدمة ملك آرا، فهو فى حدود الخامسة والأربعين أو الخمسين من عمره، قزم، أهبل، ملتح. ساكت، سيء التركيب، كما الجواسيس. (كان هو من أتى ـ ليلة حريق منزل ثريا خانم، حسب أمر ملك آرا ـ خفية عن طريق السراديب فأراق النفط على أبواب وشبابيك هذا الطرف من الباحة وأشعل النار وفرّ من الطريق نفسه، وقد سمع جاويد هذا الأمر بعد سنوات من أبى تراب ذاته).

مع موجود كهذا كان مقدراً لجاويد أن يجرى «معاملته» الأولى مع بشر دنيا ملك آرا. فى أول الليل جاء أبو تراب. انفتح باب الباحة، ثم انغلق، ثم بلغ صوت خشخشة «كيوه[1]» أبى تراب، التى تنسحب متلصصة على التراب، ما وراء حجيرة جاويد. ضرب أبو تراب الباب برأس رجله ففتحه. كان يلبس فروة داكنة على قبائه عديم اللون. وفى حين كان أصبعه لا يزال إلى آخره فى بإحدى اسطوانتىْ أنفه، كشّر وقال:

ـ «ما فى رأسك، جاويد جوجو؟». فجامله جاويد أن يتفضل، ويجلس. قال إن عنده عرضاً.

كشر أبو تراب تكشيرة حلقية أخرى، ولكنه، على أية حال، قال:

(١) حذاء يحاك وجهه من القطن ويكون نعله من جلد مدبوغ بمواد طبيعية.

ـ «آه، يا على»، وجلس على أطراف أصابع رجليه متكئاً على الجدار. كان أصبعه لا يزال فى أنفه. قال:

ـ «لم نمت فرأينا الخراء يفتح فمه. جاويد جوجو عنده عرض».

صمم جاويد أن يمسك الثور من قرنه، ويطرح الأمر الذى تولى مسؤوليته مستقيماً صريحاً. كان يريد أن يرجو أبا تراب، بعد أن يسمع كلامه، ولم يرد التدخل، أن يعتبر نفسه لم يسمع شيئاً، ولكنه لاحظ أن هذا الرجاء من أبى تراب عبث، وكلام لا معنى له.

أخرج المنديل، الذى جاءت به رقية بگم ليلة أمس وأعطته إياه، من جيبه وفتحه أمام أبى تراب. كان جاويد قد ترك فى المنديل الليلة نصف مال ومصاغ الأختين الخراسانيتين... وقد شق فى الحقيقة الأوراق النقدية نصفين. (وقد لف بنفسه النصف الباقى من كل شىء، ودفنه فى محل من البستان). قال:

ـ «اسمع. هذا نصف النقد والمصاغ الذى تعطيك إياه خادمتا ثريا خانم كى تخبرهما فقط أين هى ليلا. ونصفه الآخر أنا نفسى أتعهد أن أسلمك إياه فى حينه ـ الباقى فى متناولى، ولكنه ليس عندى». كان أبو تراب يصغى فاغر الفم، متحير العينين، وقد انتترت أذناه الطويلتان واقفتين من تحت غطاء رأسه الجلدى. لم يسبق له قط أن رأى هذا المقدار من المال والمصاغ فى عمره كله، حتى ولا فى المنام... والأوراق النقدية المشقوقة من منتصف صورة أحمد شاه.

ـ «لا تريد هاتان المسكينتان إلا أن تأخذا ابنتهما فيخرجانها من هذه المدينة. ولن يبلغ الموضوع أذن أحد غيرى وغيرك. مسكينتان... أمها مريضة وبائسة، وخالتها عليلة مفلوكة. هيا» وافعل هذا الثواب فى

سبيل الله... وهذا المال والأشياء لك...».

كانت عينا أبى تراب الضيقتان السوداوان تتفحصان الحجيرة، كان يتحرى كل زاوية. فطمنه جاويد قائلاً:

ـ «النصف الباقى من هذه الوديعة ليس فى هذه الغرفة. قلت إنه فى المتناول، ولكنه ليس عندى. قم بتفتيش كل مكان، كل ثقب، تريد...»، وانتظر كى يستقر قوله هذا، اقتراحه هذا، فى ذهن أبى تراب، فيستوعبه.

وضع أبو تراب أصبعه المختار فى أسطوانته المحبوبة، وانكب مدة على البحث والاستخراج. لا بد أن هذه طريقة تفكيره.

وسأل بلا مبالاة:

ـ «من قال إننى أدرى أين ليلا؟». فقال جاويد:

ـ «على أية حال، فهاتان المسكينتان ترجوان». قال أبو تراب بصوت أعلى:

ـ «لا يصير». واختتم قوله الأخير بتقطيبة. وحك صدره وإبطه.

ضرب جاويد على عِرْق أبى تراب الآخر. قال:

ـ «كنت فى شبابك فتى المحل..كل بلطجى فى المدينة، كان يحسب لك حساباً، ولكنك لم تخش قط مساعدة البؤساء والضعفاء».

ـ «خشية؟»واغتاظت عينا أبى تراب مرة أخرى. فقال جاويد:

ـ «الكبار لا يخافون أحداً، وهم ملجأ المساكين وحماهم». فقال أبو تراب:

ـ «نعم، وحق المولى[١]، كان على ملجأ الضعفاء والأرامل وحماهم».

(١) علي بن أبي طالب.

وحك قفاه وشعر مؤخر رأسه. فقال جاويد:

ـ «عشت». وقال أبو تراب:

ـ «كل من، كل عديم دين يريد أن يؤذى ضعفاء الإسلام أفنيه بنفسى». فقال جاويد:

ـ «إذن فستساعد هاتين المسكينتين». فقال أبو تراب:

ـ «هذا الأمر لا يصير، له تشعبات». ولكن لحن قوله لم يكن بإحكام وتقطيبة المرة الأولى.

ومرة أخرى ذهب أصبعه إلى داخل أنفه.

أخذ جاويد زاوية المنديل، وسحبه نحوه مسافة شبر، قائلاً:

ـ «ينبغى إذن أن نعيد هذه... كى يعطياها لشخص آخر». فقال أبو تراب:

ـ «لنفرض أننا جئنا وعرفنا أين هى تلك العاهرة، قلت ماذا تريدان أن تفعلا بها؟». فقال جاويد:

ـ «طبيعى أنهما لن تجلباها إلى منزل ملك آرا... سيأخذانها من هنا إلى خراسان، هما قالتا ذلك».

ـ «خراسان... ها؟».

ـ «نعم. عندهما فى خراسان أهل وأقارب ومعارف». فقال أبو تراب:

ـ «إذا فهم الأمير فسيسلمهن جميعاً ليذبحن بالـ قمه[1]». فقال جاويد:

ـ «صحيح ما قلت، وصحيح فهمك. ولكن هاتين المرأتين ليستا طفلتين ترضعان هما أيضاً. لقد مضت عليهما عشرون أو ثلاثون سنة

(١) سلاح ما بين الخنجر والسيف طولاً، ذو حدين عادة.

فى هذا البيت، وهما تعرفان أين ينبغى للقطة أن تبيض، سينطلقن ليلاً باتجاه خراسان».

كان أبو تراب يطارح فى ذهنه المال والمصاغ الغرام. ثم عندما كانت يد جاويد تمتد مرة أخرى نحو المنديل، قال أبو تراب مكشراً:

ـ «أنت أيضاً لئيم جداً وداهية... ابن المحروق، حيّال. اسحب يدك الميت صاحبها عن المال. لا توالى سحبها من أمامى. وإلا فسأقوم وأسلمك صفعتين شديدتين». كان يلين فأراه جاويد كفّى يديه، وقال:

ـ «أنا من الأول وضعت كل شىء أمام السيد».

ـ «نعم، وروح ثديى عمتك... أين نصف المال والمصاغ الآخر؟».

ـ «موجود...».

ـ «من أين أعرف أنك، يا ابن الحرام، لم يخطف بعضه؟». فوقف جاويد فى وجهه. وقال:

ـ «انظر. تكلم صحيحاً. إننى لا أخاف من الموت، ولا أخشى أحداً. انهض فاقطع رأسى، ولكن افهم ما تقول. كل ما موجود فى هذا المنديل، نصفه الآخر، أو متممه، سيتم تسليمه لك فيما بعد. فيما عدا ذات ثلاث قطع من نصف الأشرفى لم تنصف وبقيت صحيحة».

فقال أبو تراب:

ـ «تكذب كالكلب». فقال جاويد:

ـ «ليس فى عقيدتى وجود للكذب. الكاذب عدو الله». فقال أبو تراب ساخراً:

ـ «عقيدتك؟ هه. أنت مجوسى. ختنك الأمير فصيّرك مسلماً. تمام».

قال جاويد:

ـ «فكر كما تشاء...». ثم أعاد الحديث إلى الموضوع الأصلى. لم يكن يريد أن يطيل الحديث.

لم يكن يريد لهما أن يتخاصما. قال:

ـ «الأشياء التى أعطياها لى سأعطيك إياها. وهى كثيرة أيضاً».

بهتت عينا أبى تراب على المنديل، وكانت أذناه عندما يقوله الفتى. كان يجمع ويطرح فى ذهنه. وخمن جاويد مع نفسه أن المجموع يبلغ خمسمائة تومان، ببساطة، وكان ذلك رأسمالاً ـ رأسَ مال كامل حياة امرأتين عجوزين. قال جاويد:

ـ «يكفيك أن تدلنى على مكان هذه البنت... فقط».

ـ «أنت؟...».

ـ «تدل من إذن؟ فليس لهاتين العجوزين العليلتين المريضتين القدرة على اللف والدوران فى طهران». فقال أبو تراب:

ـ «إذا فهم الأمير فسيجعلك قطعة قطعة. ثم يسلمنى فيقتلعون أظافر يدى ورجلى واحدة واحدة... الأمير لا يحب الخيانة. على الخصوص أن يخونه خدمه البلهاء». فقال جاويد:

ـ «أنا لا أخاف». فقال أبو تراب جاداً:

ـ «لنصرف النظر عنى، إن أبى وجدى تنعدم مرارتهما لخيانة الأمير». فقال جاويد:

ـ «إن ما جرى لليلا كان شراً وظلماً وجوراً... إن من يقف أمام الظلم والجور والشر لا يرتكب خيانة». فصاح أبو تراب:

ـ «انكتم، خيانة».

ـ «ليست خيانة».

ـ «أنا أقول خيانة... أنا أعرف أحسن أم أنت أيها الخوخة اليابسة؟.
كان قد رفع صوته أعلى. فقال جاويد:
ـ «معلوم أنت. أنت تعرف أفضل».
ـ «إذن فانكتم مخنوقاً...».
ـ «على عيني...». لم يكن يريد لأبى تراب ـ وقد راح يلين بعد ألف رحمة وعناء ـ أن يغير لونه ورأيه مرة أخرى، قال:
ـ «متى ما رأيت الوقت مناسباً. أنا حاضر». مرة أخرى انطلق أصبع أبى تراب نحو أنفه. قال:
ـ «أين بقية المعاملة؟». وأشار بعينه وحاجبيه نحو المنديل. فقال جاويد:
ـ «فى مكان يمكننى فى أى وقت، ضمن مدة شرب قدح شاى، أن أهيئها. والأوراق ألصقها لك بنفسى بورق حفيف. وقد اشتريت الـ سريش[1] أيضاً من سوق الخضر. كل شىء جاهز».
وضع أبو تراب يديه الآن أمام سرواله وراح يحك أسفل بطنه. ثم قال:
ـ «يا على[2]». ومد يده كى يرفع منديل المال والمصاغ. أمسك جاويد بيده، وقال:
ـ «سؤال أو سؤالين آخرين فقط. أنت تعرف مكان ليلا، صحيح؟».
فقال أبو تراب متأففاً:
ـ «أفآخذ المال عبثاً إذن؟ أنا آكل مالاً حراماً؟ أفلم أكن من أخذها

(١) مادة لاصقة، تستخرج من نوع من الأشجار الشائكة، ويستخرج بديلها من ثمر وأقماع الـ «بامياء».
(٢) يقولها عادة من ينهض استعداداً للانصراف.

من أوين؟».

ـ «أنت أخذتها؟».

ـ «أفأخذتها ماما إذن؟ لقد خدمنا الأمير ثلاثين سنة من عمرنا، نحن نخدمه. إن قال لي أن أضع رأس أخي عند رأس الحديقة وأقطعه فلست برجل إن لم أقطعه، لأنه أمير، أمير...»، فسأله جاويد:

ـ «أقال لك الأمير أن تأخذ ليلا؟ أم تاج ماه خانم؟».

ـ «لا ـ الخانم الكبيرة أمرت». نظر إليه جاويد، ثم قال:

ـ «آخر كلمة ـ بعد أن تدلني على مكان ليلا... يجب ألا تقول حرفاً لأي شخص. ولا تعود لك علاقة بالأمر».

ـ «معلوم نعم».

ـ «أتتعهد؟».

ـ «قلت نعم»، صاحها بلا سبب ودون اهتمام، فقال جاويد:

ـ «حسن جداً. خذ كنزك... وأنا أيضاً حاضر».

حمل أبو تراب منديل المال والمصاغ، ورفعه إلى كف يده فنظر إليه، نظر إليه، مدققاً من أمام، ثم طوى المنديل داعكاً إياه، وحشره في جيبه. نهض واقفاً. وقال:

ـ «ابق هنا، حتى أجيئك آخر الليل، يا خوخة يابسة».

تنفس جاويد الصعداء وفكّر: لقد أدى عملاً إيجابياً، تأهيل وتطويع أبي تراب، من أجل عمل خير. قال:

ـ «ليس عندي مكان أذهب إليه».

ـ «أعني لا تنكبّ كالموتى حتى أعود».

ـ «على عيني، على عيني. سأنتظر».

بعد أن ذهب أبو تراب، نهض فرفع مؤخر كيوته محتذياً إياها. كما ارتدى المعطف العتيق، الذى كان عنده، أيضاً فوق صدرته وقميصه. وجاء فجلس أمام الحجيرة فى ظلمة البستان، منتظراً. ومفكراً.

لقد اقتضاه حفنة مال، ونصف ساعة كلام، كى يغرى خادماً خدم الأمير ملك آرا ثلاثين سنة بأن يخون (كما قال هو) سيده. وعدا عن هذا، فلو كان هو أيضاً، جاويد، عنده المال، فبمقدوره أن يشترى أبا تراب، يرضيه، كى يدله على مكان أفسانه!

لو... لو كان عنده المال...

تنفس فى قلبه نور الأمل.

ـ ٣١ ـ

مرت ساعات الليل واحدة بعد الأخرى، دون خبر من أبى تراب. كما لم يأت حتى ثلاث ليالٍ تاليات. وفى النهار أيضاً لم يكن أبو تراب يبين فى البستان. وقد جعل الانتظار والحيرة الجديدين ساعات وليالى جاويد ونهاراته عبوسة مريرة. والأسوأ من ذلك أن رقية بگم العليلة كانت تأتى كل ليلة، فى آخر الليل، مثل شبح ملعون، من الظلمة، فتجلس القرفصاء فى زاوية الغرفة، وتنتظر... ولكن لم يكن عند جاويد، لسوء الحظ، خبر لها أو لأختها المريضة المنتظرة الآيلة للموت. لقد أخذ أبو تراب المال، وراح، لا بد أنه أكل كل ما كان هناك، وشرب فوقه ماءً أيضاً، ولن يعود مرة أخرى. ولن يكون لجاويد، ولا للمرأتين التعيستين، ولا حتى لثريا خانم الجرأة على فتح شفاههم والشكوى من سرقة أبى تراب هذه.

فى الليلة الخامسة، عند أواخر المساء، سمع جاويد صوت فتح قفل باب الباحة.

قفز من الحجيرة خارجاً، وجاء إلى أمام الباب. كان هيكل أبى تراب الشبيه بالبوم المتدحرج، بالسترة الجلدية القذرة نفسها، بالقبعة الجلدية نفسها، بالگيوه الواسعة نفسها ولفافة المعصم السوداء. والليلة أيضاً جلب معه تكشيرة بين لحيته وشاربيه القذرة. قال:

ـ «كيف حالك، جاويد جوجو؟». كان سكراناً، وكانت رائحة العرق وحموضة معدته تتصاعد من أنفاسه.

كان جاويد، كل ليلة، مرتدياً لباسه وجاهزاً. قال

ـ «بانتظارك».

- «أين باقى النقود، يا جوجو؟».

- «عندما نعود، أقدمها لك».

- «لا يصير».

- «لِمَ لا... عندما نعود...».

- «إذا أطلت الكلام الليلة سأقطعك إرباً». ودخل الحجيرة مترنحاً، وهنا قال بصوت أعلى:

- «أين بقية دخلنا؟».

حدّق جاويد - الذى كان قد جاء الآن فى أعقاب أبى تراب - ببساطة وهدوء فى عينى أبى تراب. قال:

- «لقد اتفقنا تلك الليلة هنا. بقية الدخل فى وقته، على عينى... وأنت أيضاً تعهدت بأن تساعد الضعفاء والمساكين. هيا وقم بعمل من أعمال ذوى المروءة». فقال أبو تراب:

- «يا من موتاه كلاب... ادفع بقية النقود أولاً». وقذف شتيمة بذيئة. كما صفع جاويد وجهه عدة صفعات. تحمل جاويد. كان يتذكر لياليه الأربعة الأخيرة. قال:

- «آخر الكلام هو ما اتفقنا عليه تلك الليلة. نصف المال أولاً، وبقيته عندما أجد مكان ليلا».

أخرج أبو تراب من مكان ما فى سترته «دشنه[1]» طويلة، وقال:

- «الآن، أهذر بلا معنى»، ورفع الدشنة إلى أعلى. قال جاويد:

- «... قلت إننى لا أخاف الموت. ماذا عندى فى هذه الدنيا كى أخشى الموت؟. إن الموت بالنسبة لى سعادة أبدية، لو كنت تفهم. وما الذى تستفيده أنت من موتى؟ لن يصيبك إلا مسؤولية القتل...». فوضع

(١) نوع من الخناجر، مستقيم.

أبو تراب السكين تحت حنجرة جاويد:

ـ «أين بقية المال؟ محتال ابن المحروق». فقال جاويد:

ـ «قلت إنها ليست عندى. ولكن عندما نعود، هنا، لن يستغرق غير مدة تناول قدح شاى، سأقدم لك كل شىء فوراً. إننى أقسمت على هذا. وأقسم عليه مرة أخرى. أنا حاضر. فتفضل لننطلق».

حدّق أبو تراب فى عينى الغلام. لم يكن يستطيع التفكير، ولا التصميم، من شدّة السكر. لم يكن إلا ليريد المال. خفض السكين. قال جاويد:

ـ «هيا قدم المساعدة. أفلا تريد مالاً كثيراً؟ دلنى فقط على مكان طفلتيهما. إن لم أسلمك بكلتا يدى، عندما نعود، كل شىء، فاقطع رأسى بهذه السكين نفسها، من الأذن حتى الأذن... ليكن دمى أحلّ عليك من حليب أمك... ثم، أفى مساعدة امرأتين مسكينتين سوء؟ ليس عليك إلا أن تدلنى على المكان. من سيعرف؟ ولن يؤثر الأمر على حالك أيضاً. فيما عدا أن المال سأضعه فى يدك بعد ساعة واحدة».

كان أبو تراب لا يزال ينظر فى عينيه. كان هيكله واقفاً يهتز.

ـ «إنك لمن أبناء المحروقين المجربين».

ـ «أنا حاضر».

ـ «دنىء مجوسى آكل اللقمة الحرام».

ـ «أنا خادمك».

ـ «هيا نذهب، يا آكل اللقمة الحرام». خرجا من البستان المخروب. انطلقا.

كان المساء بارداً قارساً، فاجتازوا الأزقة المظلمة الملتفة الملتوية

كشبكة لينتقلا من گذر وزير دفتر إلى بازارچه قوام الدولة، وبعد گذر معز السلطان إلى جنوب فغرب طهران.

كان أبو تراب يتعثر، ويتوقف أحياناً فيسب ويلعن. ولكنه كان يبدو مطمئناً من حيث معرفته للطريق. بعد زقاق معز السلطان مرّا في زقاق طويل مشجر، ووصلا أخيراً فضاءً واسعاً عريضاً قال أبو تراب إنه «دروازه[1]» قزوين... وكان دماغ جاويد يؤشر الطريق، يسجله.

في إحدى الزوايا العميقة لميدان قرب مسجد صغير، دخلا منحدر زقاق فيه سلم يؤدي إلى أسفل، اتضح أنه كان مدخلاً لزقاق ضيق آخر، يلتف ويلتوي. كان جاويد يمشي حذو النعل للنعل مع أبي تراب. كان كل مكان مظلماً ساكتاً بارداً. كان ضائعاً في معطفه العتيق العريض، ولم يكن يمنحه إحساس الأمن والصلابة إلا سدرته البيضاء.

كانا قد تجاوزا منتصف الليل عندما مات صوت أقدام أبي تراب. كانا قد توقفا أمام باب خشبي لبيت ما. كان البيت يصل الزقاق بسلّمتين، ثم يسيل في أرض الزقاق. كان للبيت جدار خفيض منطوٍ على نفسه ومزراب قراضة. حدّق أبو تراب في الزقاق من أوله إلى آخره. ثم أمسك مطرقة الباب فطرقها خفيفاً عدة مرات. قال لجاويد «هيس» وأشار له بأصبعه على طرف أنفه أن يلزم الصمت. كان جاويد يفكر في ليلا، ولم يكن يدري ما ينتظره.

في الظلمة، انفتحت ظلفة الباب، وتحدث رجل، أصفر الوجه معتاد على الـ «شيره[2]»، بضع كلمات مهمهمة مع أبي تراب. ثم أفسح لهما الطريق.

---

(١) دروازه تعني بوابة، فيكون الاسم: بوابة «طريق » قزوين. بعدما زالت البوابات التي كانت تفتح على أبواب سور طهران بقيت أماكنها، وصارت محلات، تحمل نفس الأسماء.

(٢) عصارة فضلات الأفيون المستعمل، تهيأ وتدخن.

عبرا مجازاً طويلاً ثم دخلا باحة كبيرة، ولكن عديمة النظم والترتيب. كانت الباحة بلا نور، فيها حوض مربع لا ماء فيه، حُديقات عديمة الذوق جافة، وشجرتا دلب وشجرة غرب ضخمة شائهة، لها جميعاً فى هذه الليلة الخريفية منظرحزين كابوسى. حول الحوض، وفى زوايا الباحة، كان ثمة تخوت للجلوس ولكن كانت كل التخوت خالية وقد تشققت أخشابها وانتفخت. وكانت الزجاجات الفارغة وقشور الفواكه وقشور اللب والفستق تملأ كل الباحة فتجعلها تبدو كوجه مجدور مليء بالجروح. فتّشت عينا جاويد الباحة. لم يكن فى أى مكان من أثر ليلا، لم يكن يبدو من العدد القليل من الغرف إلا نور قليل.

كان أبو تراب يحدث ذا وجه مدخنى الشيرة هاساً فى زاوية الباحة. وكان ذو وجه مدخنى الشيرة يجيبه بأصوات مكتومة وحركات عنيفة بيديه، ويبدو وكأن بينهما نزاعاً. كان ذو وجه مدخنى الشيرة يشير على الدوام إلى إحدى زوايا الباحة. ثم ذهبا إلى أحد تخوت الباحة فجلسا عليه، وواصلا بحثهما ونزاعهما. كانا يتحدثان... وكانا أحياناً بين الشتم والعراك يتبادلان التعريضات والمزاح المبتذل، فلم يرتح جاويد لضحكهما الذى كان يسمع أحياناً. أما هو نفسه فكان يقف فى هذه الزاوية المظلمة، ضائعاً فى معطفه الضخم. وكان غاضباً على نفسه أن جاء إلى هذا الجحر فصار أنيس هذه المخلوقات. بعد بضع دقائق، من زاوية الباحة الأخرى ظهر رجل آخر، كان هو أيضاً يتعثر. ذهب الظل نحو ذى وجه مدخنى الشيره، تكلم معه، فنهض ذو وجه مدخنى الشيره، ودخل الدهليز معه.

عندما بقيا لوحدهما، أشار أبو تراب لجاويد أن يتبعه. انطلق جاويد

بمعية أبى تراب نحو غرف زاوية الباحة، حيث سبق للظل أن خرج قبل بضع دقائق. وقف أبو تراب عند أسفل سلمتين صغيرتين بلا حاجز، وأدار رأسه. كشّر نحو جاويد، ثم قال:

ـ «لا تنس أن تقول باسم الله[1]». فذهل جاويد فى عينى أبى تراب. وسأل:

ـ «هنا؟».

ـ «أفكنت تريدها على حافة ماء الكوثر إذن؟». بقى جاويد متردداً. فقال أبو تراب:

ـ «لا يتطلب النظر إليها مالاً».

هزّ جاويد نفسه. كانت يداه فى عز البرد قد عرقتا فأخرجهما من جيبه. صعدا السلمتين بقدمين مرتجفتين. وبدون أن يفتح باب الغرفة. نظر من شق الباب.

كان داخل الغرفة مضاءً. وكان فى أرضية الغرفة «جاجيم[2]». وفى إحدى زوايا الغرفة كان ثمة لحاف وحشية، مرآة، وصينية تحمل بقايا طعام وشراب. وفى زاوية الغرفة الأخرى، الخالية، كانت تجلس ليلا، مطأطأة الرأس. كانت ليلا تلبس جوربها. كانت مرتدية قميصاً طويلاً وردياً، يكشف عن عنقها وصدرها. كان رأسها حاسراً وشعرها منكوشاً، وكان وجهها منتفخاً وأحمر من البكاء، أو من الضرب، أو من كليهما.

طار جاويد هابطاً السلم، أو سقط عن السلم. فقال أبو تراب:

---

(١) تقال عند دخول مكان فيه نسوة محجبات.

(٢) نوع من البُسُط، منقوش كالسجاد.

ـ «ألا تريد أن تدخل فتسلم؟... إن السلام عليها لا يقتضى مالاً».

فاستدار ونظر إلى القزم الملتحى الخبيث بغضب.

ـ «لا... لنعد».

ـ «أين أدبك ولطفك ومحبتك، يا مجوسى؟».

ـ «يكفى، انطلق».

ـ «أهو، أهو»، وأحدث بشفتيه ولسانه صوتاً مهيناً عالياً.

انطلق جاويد. قال:

ـ «إن كنت تريد مالاً، صار عليك سم أفعى، فتعال خذه». ومضى.

كان يمضى إلى أمام طوال الطريق بين الأزقة الباردة الظلماء إلى منزل ثريا خانم. كان ينبغى أن يتوقف هنا وهناك، ينتظر، كى يتسنى لأبى تراب ـ الذى كان الكبر والسكر والتعب تُضلّه ـ أن يلحق به.

ـ ٣٢ ـ

عندما عادا إلى حجيرته فى زاوية البستان، أجلس أبا تراب، وصب له قدح شاى متخلف من «قورى» فى زاوية منقله، ثم خرج إلى حفرة البستان نبش منها النصف الباقى من المال والمصاغ فجلبه لأبى تراب.

وعندما كان يعود وسط ظلمة البستان كان مستاءً لأنه ينبغى عليه أن يجلب كل أموال وممتلكات امرأتين عجوزين فيعطيها لهذا الرجل. تراءى له أن يذهب فيقف أمام الشيخ السكران الخبيث، فيضربه على رأسه، يقتله، لكى يكون للعجوزين المسكينتين على الأقل ما تعودان به إلى خراسان، وتنظف الدنيا أيضاً، مهما كانت، من شر هذا. (ولو أنه علم تلك الليلة بالسر الذى كان مقدراً أن يعلم به بعد سنوات من أبى تراب فلم يكن ليتردد فى تلك الساعة عن قتله). على أية حال، لم يكن ذلك ليصح الليلة، كما أنه كان يفكر فى قسمه وعهده مع أبى تراب.

جاء بالمال والمصاغ وألقى بهما بكلتا يديه أمام أبى تراب. كان أبو تراب قد تمدد كالدب على الأرض، وقد شرب شايه مع العرق الذى كان فى جيب سترته الجلدية، وها هو يحتفل الآن بانتصاره ـ وها هما عيناه تتراقصان مفتوحتين. كشّر، لرؤية المال، تكشيرة مسمومة أخرى. فحصه. ثم مد يده إلى جيبه فأخرج الأنصاف الأولى للأوراق النقدية ووضعها أمام جاويد كى يلصقها. ومد هو ساقيه، ونام مرتاحاً.

فبدأ جاويد.

عندما أتم عمله ورفع رأسه كان الوقت لا يزال قلب الليل. كان شخير أبى تراب يهز جو الحجرة. كان هو نفسه متعباً ميتاً. جلس وراح ينظر

إلى هذا الرجل البلطجى فى نومه وسكره. كان كل المال ونصف المصاغ أمام يديه، والعدو الأبله سىء الطوية أمامه نائماً لا يدرى عن الدنيا شيئاً. كانت قبضة دشنة أبى تراب ظاهرة من تحت زناره، ولا بد أنه لن يفيق حتى الصباح. فحزم رأيه.

نهض، وتقدم. ركل أبا تراب على رأسه أولا بقدمه. اكتفى أبو تراب بأن نخر فى حلقومه وهو نائم، لكنه لم يتحرك أصلاً. جمع منديل المال وحشره فى قبضة أبى تراب، ثم استل الدشنة من وسطه، ووقف عند رأسه، نظر إليه مدة، ثم أودع الدشنة فى جيب معطفه هو، وخفض فتيل مصباح الحجيرة، ثم خرج.

توقف أمام باب الباحة، ونظر فى اتجاهى الثكنة. كان كل مكان مظلماً خالياً، وكان الليل قد ازداد برودة. كانت ريح صرصر ـ فكّر جاويد أنها لا بد ريح أول ثلوج شمال المدينة ـ تهب داخل الأزقة. ألقى نظرة أخرى على البستان والباب المغلق ثم انطلق.

أسرع مجتازاً وزير دفتر والأزقة الأدنى نحو بازارچه قوام الدولة فدروازه قزوين...

كان يفكر بليلا فى الطريق. العجيب أنه حتى الليلة لم يكن يحس نحوها بشىء. كانت ليلا فى ذهنه مكاناً عزيزاً وطيباً، كانت قد تركت أثراً فى دماغه، رسماً، ولكن هذا الأثر شرع فيما بعد بالتفسخ والانهيار، ولم يتوقف قط عن التفسخ والانهيار ـ وبقى مكانه محكوكاً، وبمرور الزمان صار أعمق وأكثر فراغاً...

عندما وصل أمام المنزل إياه، وقف وأخرج يديه من جيبيه. نظر إلى جدار السطح. لم يكن ليطيق رؤية ذى وجه الشيره. كان الوقت قبيل

الفجر. أمعن الفكر فى وضعه والزمان والمحلة والبيت ـ بجدرانه الخفيضة وباحته الخالية وسطحه الخالى ـ لم يكن لازماً أن يقرع الباب. قفز فتسوّر الجدار الخفيض. بدا ذلك لناظريه أسخف عمل ـ ولكنه كان داخل الباحة الخالية فى اللحظة التالية.

كانت كل الحجرات مظلمة، وكذلك الباحة كانت كالمقبرة عمياء. جاء جاويد إلى الحجيرة التى فيها غرفة ليلا. كان يخاف، إلا أنه كان يدرى أين يريد أن يذهب. وكان يدرى لماذا يذهب. رقى السلمتين الصغيرتين العاريتين. نظر أولاً من شق الباب. لم يكن داخل الغرفة صوت. فتح الباب ودخل. كان فضاء الغرفة ومحتوياتها فى ذاكرته، وكانت عيناه قد اعتادتا، أثناء هذه السنة، على الظلمة. تقدم. كان قد أخرج الدشنة من جيبه، شهرها، لكى ـ إن كان ثمة فى الغرفة رجل ـ يكتم أنفاسه، أو ـ إذا لم ترد ليلا أن تأتى معه ـ أن يجبرها.

وصل زاوية الغرفة عند فراش ليلا. كانت ليلا نائمة وحدها. كان رأسها على الوسادة خارجاً من تحت اللحاف. وضع جاويد الدشنة فى جيبه. نادى ليلا. لم تتحرك ليلا. وضع جاويد يده على رأس ليلا، وهزه.

لم يسبق له قط أن كان على هذا القرب من ليلا، وكانت هذه المرة الأولى التى يلمسها فيها. لكنه لم يحس شيئاً ـ غير أن يخرجها من هنا بأسرع وقت. هزها هزة عنيفة، فاستلها من نومها.

عندما انفتحت عينا ليلا، وبقيت مذهولة فى الظلمة، حملها جاويد على السكوت بأصبعه. لم يكن واثقاً مما ستفعله ليلا، ولا من رد فعلها. كانت ليلا لا تزال مذهولة وسط سواد الحجرة عيناها تتراقصان. كان وجهها لا يزال مضروباً باكياً مزرقاً.

ـ «مَنْ؟ مَنْ؟».

ـ «أنا جاويد. أتيت أعيدك إلى عند أمك».

ـ «أنت؟». كان الذهول والحيرة يتماوجان فى نبرة صوتها. قال:

ـ «جئت من طرف أمك وخالتك... لقد أنفقتا كل حياتيهما كى يعيداك».

ـ «إلى أين؟».

ـ «إليهما، هما عازمتان على العودة إلى خراسان... قومى».

نهضت ليلا فجلست، ولكن صوت بكائها ارتفع وسط الظلمة. فقال جاويد:

ـ «اسكتى». ونظر إلى شعرها الأشعث.

استمر بكاء ليلا الصامت. فعاود جاويد القول:

ـ «أتيت لآخذك. أنقلك سراً إلى عند خالتك وأمك، لتلتقين جميعاً. إن أمك على أسوأ حال من المرض وهى على شفا الموت...». فهزّت ليلا رأسها:

ـ «لا». فقال جاويد:

ـ «انهضى».

ـ «هل فهمتا أين أنا؟... أفهمتا ما فعل بى أبى تراب وغلوم على؟ أفهمتا أين جاء بى؟».

ـ «إنهما لا تعرفان إلا أنهما أبعداك عن عينى تاج ماه خانم، وألقياك فى أحد بيوت المدينة».

ـ «فقط؟».

ـ «فقط».

ـ «لا!».١٠٨

ـ «انتهى الأمر... قومى».

ـ «أتعلم ما عانيت شهراً ونصف شهر، أو حوالى شهرين، هنا؟... إن محمد على مدخن الشيرة هو الذى...». فصرخ جاويد بصوت مكتوم:

ـ «اسكتى!... لا ينبغى أن أسمع. لا ينبغى لأحد أن يسمع. انتهى. لا تتحدثى عنه ـ أبداً... انهضى».

ـ «لا!».

ـ «أفكان ذلك ذنبك؟ أفجئت بارادتك؟». وقبل أن ينتظر كى يسمع كلمة من فيها أجاب هو نفسه جواباً عمومياً:

ـ «هكذا جرى القدر، هكذا أراد... قومى».

رفعت ليلا رأسها. نظرت إلى وجه جاويد، ولأول مرة رأت عينيه. قالت:

ـ «ولكنك تدرى أين جاءوا بى». لم يخفض جاويد رأسه، قال:

ـ «أنا لا أريد غير أن أعيدك إلى عند أمك». هزّت ليلا رأسها مرة أخرى، وقالت:

ـ «أنت؟... بتمام الشرور التى ألحقتها لك...».

ـ «وما أهميتى أنا؟ وأنت لم تسيئى لى، لم يكن ذنبك، انهضى، لا وقت عندنا. كما أن الوقت ليس وقت هذا الكلام». كان الوقت يتقدم.

ـ «لن أجىء».

ـ «يجب... لا تتكلمى».

ـ «أخاف».

ـ «قومى، لا تخافى». أخرج الدشنة من جيبه، وأراها لليلا، وقال:

ـ «لقد جلبت هذه معى، وأريد أن أعيدك إلى أمك، وكل من حال دون عملى هذا سأقتله... ولو كنت أنت نفسك... انهضى. إن لم أتمكن من

إعادتك حية، فسأنقلك ميتة إلى أمك... حتى يرتاح بالها. أقسم على ذلك، أقسم». فنظرت إليه ليلا، وقالت:

ـ «يا قمر بنى هاشم[1]، إنك لا تمزح». فلم يقل جاويد إلا:

ـ «انهضى، قبل أن يضىء الصباح». فقالت ليلا:

ـ «ما أدرانى...».

رفع جاويد شادرها الأبيض من زاوية الحجرة وألقى به أمامها، كى ترتديه. ثم أخذ كفها، وسحبها من الفراش ردىء الرائحة. لم تتعاون ليلا فى النهوض.

ـ «دعنى إذن أشد لفافتى».

ـ «لا... لا تجلبى أى شىء من هنا... أى شىء».

ـ «وا... يجب أن أذهب فأجىء بحذائى من تلك الغرفة أيضاً».

ـ «لا شىء... تعالى حافية... ليس الطريق بطويل.. والدنيا ليل وليس فى الأزقة من أحد».

ـ «وا...».

ـ «ضعى فقط شادرك على رأسك...».

ـ «حسناً...»، وانطلقت على مضض.

ولكن فى آخر لحظة عادت، ورفعت لفافة صغيرة من زاوية الرف. قالت:

ـ «فيها وسائل[2] صلاتى»

ـ «لنمض...». وفى الدقيقة التالية صارا خارج الحجرة.

---

(١) هو أبو الفضل العباس.

(١) المقصود ما يشبه المنديل توضع عليه الـ «تربة»والمسبحة والخ...

كانت الليلة الباردة والطويلة، الخريفية، عوناً لهما أيضاً. كان الظلام لا يزال سائداً، فاجتازا الباحة مثل لصين. كان جاويد يعرف طريق الدهليز، لأنه قد اجتازه منذ سويعات، كان قد هيأ دشْنته لمواجهة ذى وجه مدخنى الشيرة، ولكن كل الباحة والدهليز كانا مثل مغتسل الموتى: باردين مظلمين وخاليين.

لم يطلق يد ليلا حتى أول الطريق. طوى تحت رجليه سريعاً نصف المدينة بين الأزقة والحوارى، حتى أعادها إلى كذر وزير دفتر. وكانت المدينة كلها ملفوفة ببردٍ وظلمةٍ مغتسل.

فتح باب البستان، ودخلا كلاهما البستان المظلم متلصصين. أخفى ليلا وراء جدار الحجيرة، وأطل هو كى يرى وضع أبى تراب وما صار من شأنه. لم يكن أبو تراب قد تحرك، كان للآن مثل عظاة سمينة، وسط وحل سيّارة مظلمة، نائماً ملتفاً على نفسه، وقد رفع فضاءالليلة، بشخيره المشع، على ما فوق رأسه. تقدم جاويد على رؤوس أصابعه، أخرج الدشنة من جيبه ووضعها مرة أخرى فى جيب سترة أبى تراب الجلدية ثم خرج.

أخذ معه ليلا ـ التى كانت الآن تبكى من البرد والحفاء، إلى خارج البستان. كانت ليلا تخاف، ولم تكن تريد أن تذهب على تلك الحال إلى أمها، فإن رآها أحد الخدم أو الخادمات أو أى شخص آخر فإن دمها حلال. كما أن جاويد نفسه لم يكن يرى فى ذلك صلاحاً... فعزم على إخفاء ليلا، هذه الليلة، فى مكان ما.

أخذها معه إلى أحد السراديب الخالية فى آخر الباحة، وأخفاها فى إحدى الزوايا الخالية. طلب منها أن تبقى هناك. ألا تتحرك من مكانها، أن تنتظر، وقال إن أمها أو خالتها لا بد ستأتى، على أية حال، كما فعلتا فى الليالى الماضية. كانت ليلا تخاف الوحدة والظلام. ومن شدة برد السرداب. ولكنه قال لها إنها إن كانت تريد أن تبقى حية فمن الخير لها ألا تخرج من هنا، وهدأ من روعها. رضيت ليلا، وقبل أن يتركها جاويد أمسكت بكمّه، وشكرته. سحب جاويد يده. لم يكن الشكر لازماً، وما كان ليريده. لم يكن يريد من ليلا شيئاً. وكان يرجو ألا يضطر بعد الليلة أن

يلتقيها قط. ولكنه قبل أن يخرج من السرداب، توقف لحظة أخرى، وراح ينظر إلى ليلا فى الظلام. قال:

ـ «أتتذكرين أفسانه؟». رفعت ليلا رأسها بحدة، وقالت:

ـ «مَنْ؟ ماذا؟».

ـ «أختى الصغيرة... أفسانه الصغيرة، أتذكرينها؟».

ـ «ماذا؟».

ـ «لم يتم العثور عليها بعد». فأطلقت ليلا آهة، وقالت:

ـ «أعندك خبر عنها؟».

ـ «لا ـ وبعد تعاستك هذه، فقد ازددت قلقاً عليها». خفّضت ليلا رأسها، فسألها جاويد:

ـ «أتدرين أين أفسانه؟».

ـ «أنا؟...».

لم يكن يرى وجه ليلا جيداً فى الظلام، ولكن لهجة ليلا كانت كما لو أن إهانة وجهت إليها، أو أنها اتهمت بالكذب.

ـ «أنا؟ أنا المسكينة أنّى لى أن أدرى...»، وراحت تبكى.

ـ «سألت فقط»، وتركها وحدها، وخرج.

عندما صار وحده فى الباحة، جاء إلى صنبور خزان الماء، تجرد وغسل رأسه وبدنه ـ وهو عمل عجيب كان قد عوّد نفسه عليه كل صباح فى برد وحر هذه السنة الأخيرة. ثم ارتدى سدرته، وشد حزام مصارعته، وصعد. كان الوقت سحراً عندما جاء فأعدّ ناراً صغيرة فى زاوية البستان. ثم وقف على حصيرة كانت فى جانب الباحة... كان نور الفجر يلفع ظلمة البستان الأجرد.

وقف يدعو. وأمضى مدة طويلة أخرى في المناجاة. «أستويه رئنام ونگهوئيم مَزده يَسنيم، فرسپا نيدا سَنسى نيشام خيت ودَسام آشيونيم». إنى أمجد الفكر والقول والخير، وعندى إيمان ثابت بالدين الأهورائى مبعد الحرب تارك النائمين، دليل التوحيد والمعرّف الطهر...

نظر إلى السماء المنيرة. طلب من أجداده هناك أن يغفروا له عمل الليلة الفائتة، الذى قام به من أجل إنقاذ وسكينة روح إنسان... (أهورائه مَزدائه وَيسفا وهَى چهنمى). كل الظواهر هبة أهورامزدا. وأحس أنه يسمع تأييدهم وقبولهم.

كما كان إحساس طيب دافئ أيضاً من النار يتموج تحت جلده البارد وباطنه الخالى المتعب. وقد جعلته «فَرورتَه» صلاته أخف، ومنحته سكوناً جديداً. كان أثر حوادث الليلة الفائتة ينمى فى ذهنه رويداً رويداً.

أدار رأسه ونظر إلى داخل الحجيرة حيث كان أبو تراب لا يزال نائماً. من أجل العثور على أفسانه يمكنه أيضاً الاستفادة من أبى تراب. كان العرق الحساس لهذا الرجل ـ كائناً ما كان ـ الآن فى يد جاويد. كان جاويد واثقاً من أن أبا تراب يدرى أين أفسانه. وكان يدرى أنه ينبغى عليه أن يهيء أبا تراب بأسرع ما يمكن للعثور على أفسانه ـ قبل أن تمضى السنوات اللعينة واحدة إثر الأخرى، وتكبر أفسانه. كان يرتجف مقشعراً من التفكير فى أن ما حلّ بليلا قد يحل بأفسانه.

سمع صوتاً، ومرة أخرى عطف رأسه نحو ممرات السراديب. من بين سواد سراديب الجانب المحروق، رأى ظلاً يتحرك ويتقدم على وهن. كان بدن رقية بكم الضئيل العليل، وهى تمسك بالجدار بكلتا يديها، وتنطوى على نفسها وهى تأتى. عندما اقتربت، لاحظ جاويد أن عينى

العجوز كانتا كأسى دم ودمع. قبل أن تتاح الفرصة لجاويد أن يعطى العجوز الخبر الطيب الذى كانت تريد، أنّت:

ـ «أمها... أمها... تحتضر». فقفز جاويد وأجبرها على السكوت.

ـ «س س س... أبو تراب هنا. نائم». فقالت رقية بگم باكية:

ـ «أمها... أمها... تنازع».

ـ «ماذا؟». نهض جاويد خشية نحس جديد، وأخذ العجوز إلى وراء. أفهمها أن أبا تراب فى حجرته، وأن رؤيتها هناك خطر.

كانت رقية بگم قد جلست الآن، وقد دفعت يديها فى حالة تضرع.

ـ «أمها تحتضر... جفت مآقيها بانتظار طفلتها...».

جلس جاويد قرب العجوز. وقال بصوت مكتوم:

ـ «اصمتى، انتهى كل شىء. اذهبى إلى وراء الجدار، كى أقول لك».

قطعت العجوز كلامها. وزحفت على الأرض على يديها ورجليها. اختفت وراء الجدار.

ـ «اسمعى... ليلا هنا ـ فى السرداب الصغير». فقالت العجوز محشرجة:

ـ «ها؟».

ـ «هناك، هناك تحت. اذهبى تريها».

ـ «يا قمر بنى هاشم...».

ـ «جلبتها ليلة أمس... انهضى ولا تبكى... هنا. أتفهمين؟».

أضاءت عينا العجوز بين الدمع. لطمت صدرها بلكمتى يد... وشكرت الله ألف «كرور(١)» مرة. قال جاويد:

ـ «انهضى واذهبى إلى داخل السرداب كى تريها... بهدوء تام... ثم

---

(١) خمسمائة ألف، هندية الأصل.

اذهبى فبشرى أمها. وينبغى أن تنطلقن الليلة، أو على الأبعد مساء الغد... هنا خطر عليكن جميعاً...أتفهمين؟ البقاء هن خطر مميت». فقالت العجوز ملهوجة:

ـ «أدرى، أدرى». وتناولت يد جاويد، فقبّلتها. ثم ذهبت وهى تزحف على الأرض وتستند على الجدار.

كان إحساسه الطيب الدافئ لا يزال تحت جلده. بعد نصف ساعة، كانت الشمس قد أشرقت لتوها عندما خرجت العجوز مسرورة فأرسلها جاويد مرة أخرى إلى الباحة الثانية. ثم ذهب فأيقظ أبا تراب وصرفه هو الآخر، الذى كان لا يعرف ما يفعل من شدة فرحه. وقبل أن ينصرف أبو تراب كلّمه جاويد على نحو مبهم بشأن أخته. اقترح موعداً واتفاقاً. وفيما كان أبو تراب يزرر أزرار جاكتته الجلدية ويحكم تثبيت غطاء رأسه، قال:

ـ «أعط المال والمصاغ، ثم نجلس فنرى هذه المرة ما يمكن أن نفعل، يا جاويد جوجو... هه ههه».

بقى إحساسه الداخلى حتى الظهر. انشغل بأعماله اليومية وأعمال تنظيف الباحة.كان يفكر فى الشقيقتين الخراسانيتين اللتين أحيطتا علماً بنجاة ليلا. كان يفكر فى الليلة التى ستأتيان فيها فتأخذان ليلا ويهربن معاً من هذا الجحر. كان يفكر فى ثريا خانم، التى كانت هى الأخرى ولا شك مسرورة لرحيل ليلا والأخريان. وكان يفكر فى أبى تراب الذى قال نجلس فنفكر ما يمكن أن نفعل...

كان يفكر فى أن نور الخير كان يشع قليلاً فى كل مكان، وأن بشرى مطلع تحسّن الأمور تأتى ـ لأن قليلاً من النور والبشرى قد تنفس فى روحه هو... ولكن بعد الظهر، من وراء حائط بستان ملك آرا، سمع

صوت بكاء وعويل اثنتين أو ثلاث من خادمات تلك الباحة، ثم سمع من يقول إن فاطمة بگم ماتت... ومرة أخرى رأى أن هنا، حتى أتفه بارقة نور أمل وسحاب كاذبة، خصوصاً للمساكين المنحوسين، أمثال ليلا وأم ليلا وخالة ليلا.

كان محالاً الآن أن تتمكن رقية بگم العليلة حتى أن تأخذ ليلا للتسول، فكيف بأن تأخذها وتهرّبها مساءً فتنقلها إلى خراسان؟!.

ـ ٣٤ ـ

باختفاء ليلا فى سرداب البيت الخالى (وبوصمة العار التى تحملها ليلا) وموت أم ليلا فى بيت ملك آرا، وكون رقية بكم عليلة لا نفع يرتجى منها، وهى سند ليلا الوحيد، لم يكن وضع جاويد عصر ذلك اليوم مما يسر. سرعان ما سيفهم أبو تراب أن ليلا قد أخرجت من المنزل إياه ويترتب على جاويد أن يقدم أجوبة كثيرة.

كان هذا أول اشتباك معقد له مع حيوات هؤلاء. جلس، وبقى ساكناً مع طبعه الطاهر البسيط. أهمل وجود ليلا هناك فى قعر السرداب، ولم يفعل غير أن أوصل لها مرة قليلاً من الطعام والشاى. انتظر أن ينصرم النهار كى يأتى المساء، فلربما ستأتى ثريا خانم أخيراً وتعنى له ما ينبغى أن يفعل. كان عويل النساء والخادمات وصراخهن فى تلك الباحة ـ وخاصة عندما أخرجوا الجنازة ـ دليلاً على أن ملك آرا لم يكن فى البيت. ولهذا اتخذت أحداث تلك الباحة وتشييع الجنازة ودفنها، من قبل أفراد ملك آرا، مسارها الطبيعى.

كان يتذكر أن الموت هنا كان دائماً ما يعزل الناس زمناً عن حيواتهم الاعتبارية الشبيهة بحياة الديدان. إن الموت، أى موت، يرفع أهل البيت والمحلة بأجسادهم وأرواحهم الدنيوية، ويرمى بهم وسط مجموعة من المراسم، التى لم يكن منها مفرّ، والتى كانت تشغل الجميع زمناً. جلس جاويد ساكناً، وراح ينتظر... كان لا يرجو إلا أن لا تَطّلع ليلا، وهى فى قعر السرداب، على وفاة أمها، لأنه لم يكن معلوماً ما الذى سيقع أن قامت بفعل مجنون.

وزن جوانب الوضع. فى البدء كان يأمل أن يرى ثريا خانم، أن

يلتمس منها مساعدة ليلا وخالتها... كانت ثريا خانم الفرد الوحيد الذى يريد، والذى يقدر، أن يساعد ـ فقد كان يكفى أن ترسل ثريا خانم رسالة حتى يأتى مش خداداد، حوذى هوشنگ ميرزا، فيأخذ ليلا وخالتها من هذه المحلة، أو كان بمقدورها أن تطلب من الدكتور منوچهر خان أن يساعدهما... ولكن لم يكن عنده الليلة خبر من ثريا خانم. حتى أنه لم يكن يدرى إن كانت ثريا خانم ـ الآن مع موت خادمتها وكون رقية بگم عليلة ـ على تماس بعائلة زوجها السابق أم لا. لم يكن جاويد قد رأى الدكتور منوچهر منذ ليلة الحريق. وكانت المسألة الغامضة الأخرى هى أن جاويد لم يكن يعلم هذه الأيام ما الذى يجرى لثريا خانم، ما كان مرضها ومم كانت تتألم. لو أن ثريا خانم مرضت هى الأخرى وسقطت طريحة، فما الذى سيجرى؟.

ثم إن جاويد كان يفكر فى الجيران الآخرين أيضاً ـ الجيران الذين كان بمقدوره أن يتصل بهم عن طريق الجدار أو السطوح.

كان بالإمكان الاستعانة بأحمد ومحمد ولدى غلوم على، ولكن لم يكن لهذين أساس وجذور أخلاقيين يعتمد عليهما، وكانا منحرفين، وكان يمكن أن يفضحاه لأى سبب وبأية ذريعة. كما أنه لم يكن ليعلق أملاً على بيت الحاج رجب على ـ مقابل التكية ـ إنه كان متديناً جداً معتزلاً الناس... وكان ثمة الكثير من الشيوخ والعجزة أو الشبان الكسبة وأولاد السوق... ومن بيت ما وراء بستان ثريا خانم ـ حيث بيت مصطفى خان القريشى. أحد رؤساء وزارة المالية ـ كانت ترتفع دائماً أصوات دعوى وصراخ لعب نساء وبكاء وعويل أطفال صغار، لم يكن جاويد ليجد شخصاً قادراً على العون أو مستعداً له. حتى من داريوش ـ الابن الأكبر للسيد قريشى والذى كان إلى حد ما صديق جاويد، والذى كان

أبوه قد اشترى له حديثاً حماراً فكان داريوش يتبختر فى المحلة من فوق حماره الأنيق، يطارد به ويهجم على كل مكان. أما البيت الذى وراء بيت مصطفى خان قريشى فهو منزل آية الله لواسانى، الذى كان سيداً ومجتهداً وإمام مسجد گذر وزير دفتر، وكانت كل الأعمال والمراسم الدينية والعقود والوفيات والمعاملات تجرى بواسطته، وبواسطة صهره السيد آقا رضا مشير. كان جاويد قد فكّر بالاستعانة بهذين، ولكن بوصمة العهر السيئة، التى التصقت بليلا، لم يكن جاويد ليأمل بالكثير من الاستعانة بإمام المحلة...

وأخيراً، إن لم ينجح أى من هذه الخيارات، فقد كان بمقدور جاويد نفسه أن يفعل شيئاً، أن يأخذ رقية بگم وليلا ـ مهما كلف الأمر ـ ليلاً فيكسر قفل باب الباحة وينقلهما إلى منزل الدكتور منوجهر خان نزهت ويستعين به. إنه طبيب كان فى أوريا، ومهما يكن فهو أفضل من ملك آرا وأفراد ملك آرا.

كان بين اليأس والخوف والرجاء عندما فتحت ثريا خانم لوحدها الباب، ودخلت. ارتجف فؤاد جاويد فرحاً. كانت ثريا خانم تلبس السواد، وكان وجهها قبيل الغروب يبدو أكثر إرعاباً من الأسبوع الماضى مرضاً واصفراراً، خاصة مع البكاء الذى لا بد أنها بكته اليوم على مربيتها العجوز... كانت حقاً مكسورة ذابلة.

جاءت فوقفت أمام حجيرة جاويد، وسألته أولاً عن حاله. طمنها جاويد أن حاله على ما يرام، وأن وضعه ليس بالغ السوء. أطلعته ثريا خانم على وفاة فاطمة بگم ودفنها. كما أطلعته على أن رقية بگم سقطت عليلة عاجزة، وأنها فقدت الأمل فى كل شىء، ثم سألت أين هى ليلا.

فأخبرها جاويد بمحل اختفاء ليلا. قطبت ثريا خانم. وقالت:

ـ «عمل خطير جداً... عمل سيء جداً. لا يمكننا أن نحتفظ بها هنا حتى ولا ليلة واحدة...».

ـ «نعم».

ـ «إذا علموا فسيرونك الموت أولاً... ثم يمزقونها إرباً».

ـ «متأسف».

ـ «أنت متأسف؟».

ـ «ماذا أفعل؟». فتنهدت، وقالت:

ـ «عجيب...». ضربت إحدى يديها بالأخرى، كان الهواء البارد العاصف الذى يلتف فى البستان يشعث شعرها من تحت عصابة الرأس.

ـ «أهى تدرى أن أمها ماتت؟».

ـ «لم تعرف بعد... تركتها هناك صباحاً عند الفجر... لم تخرج حتى الآن. لا أحد يدرى أن ليلا هناك ـ عدا خالتها».

ـ «لا يصح أن نحتفظ بها هنا حتى دقيقة واحدة... سيجرى الدم حتى الركب. لقد جاء أبى، وهو الآن هناك. لو طرق سمعه، فالله يعلم أى دم سيريق بطبعه ذاك...». كان همها وخوفها ينفذان إلى ما تحت جلد جاويد أيضاً.

نظر إليها جاويد. كان يتمنى لو كانت عنده غرفة دافئة، ولو كان بمقدوره أن يؤويها من هواء البستان وريحه داخل غرفته. ولكى يكون قد أعانها، قال:

ـ «ربما كان بمقدور الدكتور منوچهر خان... أن يساعد... أو فروغ

الزمان خانم». فهزت ثريا رأسها:

ـ «هؤلاء على خصام مع ملك آرا، إنهم على غير ما يرام فيما بينهم.. منذ يوم ذهابى إلى ذاك البستان لم يأت أحد منهم إلى هناك.. ليس ثمة أمر صحيح». فقال جاويد:

ـ «يمكننى أن أذهب إلى منزل الدكتور منوچهر خان،إنه يساعد. إنه يختلف عن هؤلاء».

ـ «كيف يساعد؟».

ـ «يمكنه أن يرسل مش خداداد، صباحاً عند الفجر عندما يكون الجميع نياماً، أو أن يرسله خلف التكية، عند رأس زقاق چاله حصار، لن يفهم أحد... وسأساعد أنا، أجعلهما تركبان... وإن تفضلت أنت باللطف فساعدت وأعطيت مش خداداد شيئاً، فينقلهما مش خداداد مستقيماً إلى قم..أو إلى خراسان... بمشيئة الله».

حدقت ثريا خانم فى عينى جاويد، وهى تستمع، ثم تنهدت، قائلة:

ـ «ليت الكل من فى هذه المخروبة مثل فكرك وقلبك». فقال جاويد:

ـ «هذا من خيرك». فقالت ثريا خانم:

ـ «أين تعلمت كل هذه المعرفة بالحياة؟». فطأطأ رأسه، وقال:

ـ «منك... أنت يا سيدتى علمتنى الكثير من الأمور».

ـ «أنا؟». أراد أن يقول: عندك قلب رحيم وإيمان خالص، إلا أنه اكتفى بالقول:

ـ «اغفرى لى جسارتى وفضولى، يا سيدتى».

ـ «أنت لم تتجاسر، بل أبديت لطفاً... لقد عرضت روحك وحياتك للخطر من أجل فتاة ـ فتاة؟ ماذا أقول! من أجل عظاة ـ أعرفُ كم

تشمئز منها وتنفر».

ـ «إننى لا أنفر من أحد، يا سيدتى...ثم أن ليلا طفلة».

ـ «وعديمة الفهم ـ وعظاة».

ـ «مهما كانت».

ـ «حسناً، ذاك مضىٰ». فقال:

ـ «سيدتى... ما عرضته بشأن ذهاب ليلا وخالته بمساعدة الدكتور نزهت ممكن الإجراء... إن أذنت».

فكرت ثريا خانم ملياً، ونظرت إليه. كان الهواء يهز عصابة رأسها وشعر مقدمة جبهتها المصفرة. وكان البستان اليابس والمبنى المحترق من ورائها يضفيان عليها كآبة مشؤومة مسفوعة بالريح. قالت:

ـ «أتعلم ـ إننى، بنحو من الأنحاء، أعتبر مسؤولة ومذنبة فى هذا الموقف».

ـ «أنت؟...».

ـ «أنا التى أرسلت ليلا إلى ذلك البستان عند خالتها ـ عندما علمت بأنها سرقت مسكوكاتك ودلّت على مكان فرارك». كان جاويد يذكر.

ـ «على هذا ففى رقبتى أنا أن أخلّصها من هذا المستنقع والقذارة، مع أنها ـ بلاها الله ـ قصّرت كثيراً فى أوين... ولكن، على أية حال...». وبقيت ساكتة، فقال جاويد:

ـ «لم ترتكبى ذنباً من هذه الناحية». فقالت ثريا خانم:

ـ «على أية حال». كانت هى أيضاً قد اتخذت قرارها:

ـ «اذهب إلى بيت الدكتور، الليلة. أبلغه سلامى، ثم قل له أن يرسل صباح الغد، عند السحر، مش خداداد كى يأتى إلى منزله هو ـ أمام

عياداته هو ـ أفهمت؟ على هذا النحو يكون أقل خطراً وأكثر هدوءاً. ثم أنك أنت نفسك، صباحاً عند السحر أيضاً ـ عندما تكون الدنيا ظلماء بعد ـ خذ رقية بگم وليلا، وسلمهما لمش خداداد. سأقول الليلة لرقية بگم أن تأتى الليلة، مهما كلف الأمر، عن طريق السراديب، الى هنا. وسأعطيها شيئاً تعطيه لمش خداداد. يأخذهما مش خداداد إلى قم، يأخذهما هناك إلى منزل حاجٍ باسم الشيخ رضوى فيتركهما. يعرفه مش خداداد. يعود هو. تبقى ليلا ورقية بگم هناك، لكى أجد لهما حلاً بعد ذلك». تنفس جاويد الصعداء:

ـ «على عينى، على عينى». فقالت ثريا خانم:

ـ «ولكن لا ينبغى أن يعلم أحد بالأمر حتى الغد... وإلا فواويلاه...».

ـ «نعم يا سيدتى».

ـ «لا أحد... قل للدكتور أيضاً أن لا يقول لأحد أى حرف».

ـ «على عينى...»

ـ «لا أحد».

ومن أجل إحكام الأمور طلبت من جاويد أن يأتيها بورقة وقلم رصاص أو قصبة كتابة ودواة. ذهب جاويد راكضاً ، أشعل أولاً مصباحاً نفطياً على عجل، ثم جلب وسائل الكتابة التى يمتلكها. كان يحس الخجل لأنه لم يكن عنده كرسى أو شىء تجلس عليه ثريا خانم. كتبت ثريا خانم، واقفة، رسالة للدكتور، أوضحت فيها الأمور، وأوصته. ثم طوت الرسالة وأعطتها لجاويد، كى يأخذها بأسرع وقت إلى عيادة الدكتور منوچهر خان.

لم تذهب لرؤية ليلا. عندما سلّمت جاويد الرسالة، أحكمت

شادرها، وجاءت إلى أمام الباب، وقالت لأحمد ـ ابن غلوم على، الذى كان واقفاً وراء الباب ـ أن يسلم مفتاح باب البستان لجاويد، فجاويد من الآن فصاعداً أمين وفى الطريق القويم، وهو الذى يحرس البيت. بدأ أحمد يمنمن، وذكر أمر حضرة الأشرف المؤكد. فأمرته ثريا خانم ألا يزيد فضوله. قبل أحمد على مضض، ووضع المفتاح فى يد جاويد، إلا أنه أعد له دسيسة.

كان الوقت أول الليل عندما أغلق جاويد البستان، وراح يجرى نحو زقاق الشيخ فضل الله عيادة الدكتو منوچهر خان. كان الهواء قد اشتد برودة، وكانت حبات متناثرة من الجليد تتطاير فى الجو. عندما بلغ عيادة الدكتور، علم أن الدكتور منوچهو خان لم يكن هناك. قال له خادمه، السيد على ـ الذى كان جاويد يعرفه ـ إن الدكتور ذهب لتناول العشاء فى الخارج. متى يأتى الدكتور؟ لم يكن سيد على يعرف. لم يكن أحد، فى أى وقت، يعرف أى شىء. ما عليك إلا أن تنتظر لترى ما يجرى.

كان مضطراً أن يجلس هناك، حتى يعود الدكتور. لم يكن يمكن القيام بشىء آخر. صار الجليد الآن سريعاً وكثيفاً أيضاً، وجلس هو خارج منزل الدكتور، وانتظر. استحسن تفكير ثريا خانم وبعد نظرها، وكان مسروراً لأن المفتاح عنده، ولأن أحداً من الخدم لم يكن يستطيع أن يدخل البستان الخرب.

- ٣٥ -

أمضى ساعتين أو ثلاثاً فى انتظار الدكتور منوچهر خان، دون أن يحصل على نتيجة. كان يجلس على سلالم منزل الدكتور تحت الجليد، وكان يحس بالبرد. كان يفرك يديه إحداهما بالأخرى، أو يفرك بهما أذنيه. لم يسمح له سيد على بدخول البيت قط، لا بد أنه سمع بأنه زرادشتى، أو كان زرادشتياً. كان جاويد نفسه يحس القلق على ليلا أيضاً، ومن أن يحدث شيء ما. كان ممكناً أن تخرج ليلا من السرداب، بفعل الخوف والوحدة، فيراها أحدهم فى الباحة. لم يكن جاويد يدرى كم يتعين عليه أن ينتظر بعد ويصبر، كان سيد على قد قال إن السيد قد ذهب مع اثنين من السادة الصحاب خارجاً للعشاء، ولا بد أنهم انشغلوا فى مكان ما بالمشروب أو لعب الورق أو القمار.

بعد انتظار ساعتين أو ثلاثاً على غير طائل، عزم على أن يمر بالبيت ويعود فوراً. قرع الباب، وأفهم سيد على بنيّته، وذكّره أن عنده رسالة مهمة من ثريا خانم يحملها معه.

من بين الأزقة التى كانت تمتلئ وحلاً وطيناً بفعل الجليد، ركض إلى البيت.

لم يكن ثمة أمر بعد. عثر على ليلا فى زاوية من السرداب، قرب منقلة، مطوية على نفسها تبكى مقهورة جائعة تنتظر. أعطاها جاويد الجبن والخبز والقليل من الفاكهة التى اشتراها فى طريقه وجلبها معه. وأخبرها بعزم ثريا خانم على إرسالها مع رقية بكم إلى قم. وأخبرها بعد ذلك، بعد مقدمة ما، وبقدر ما أمكنه من تعاطف ورقة، أخبرها أيضاً

بوفاة أمها. إن ليلا، التى كانت قضت الأربع والعشرين ساعة الأخيرة بالبكاء والوحدة، انكسرت على شكل مريع لوفاة أمها. قال لها جاويد إنه ينبغى عليه أن يعود بأسرع وقت إلى منزل الدكتور نزهت. وقال لليلا أن تبقى فى مكانها، وتتحمل بضع ساعات أخر. قال لها أن لها أن تشكر الله على أن أمها ـ مهما يكن من أمر ـ قد سمعت قبل وفاتها بأن ليلا قد نجت. لقد رحلت تلك المرأة مكلومة الفؤاد عن الدنيا براحة بال وهناء. وقد فهمت أن ابنتها سرعان ما ستذهب من طهران إلى مكان آمن أفضل. لم ترفع ليلا رأسها، لم تباله، بل واصلت بكاءها.

بعد ذلك الكلام ترك جاويد ليلا وشأنها، خرج من باب البستان وعاد جرياً إلى زقاق الشيخ فضل الله. كانت الأزقة خالية ساكنة تحت الجليد. ولكن مرة أخرى، عندما وصل منزل الدكتور لم يكن هذا قد عاد بعد... فجلس مرة أخرى على السلالم، وانتظر.

كان ينظر إلى حبات الجليد، ويفكر فى ليلا. كل مرة كانت تدخل فيها ليلا حياته، كانت حياته تلتف وتنطوى التفافاً عجيباً وسيئاً ويقع نصب وبلاء. كانت ليلا طلسماً. منذ ليلة أمس دخلت ليلا حياته مرة أخرى. ومع مجىء ليلا كانت قوى الشر والنحس هى التى تتماوج، مرة أخرى، من قلب السواد وتأتى. كان طلسم منحوس قد وقع عليه من هذه البنت، أو هذه المرأة، أو هذه التى كانت ما تكون. تذكر ليلة جاءت فيها ليلا كى تساعدهم على الفرارم ن منزل ملك آرا. انتهت تلك الليلة بموت أم جاويد. وليلة أمس هلكت أم ليلا نفسها...

كانت ساعات الليل تنصرم. لم يكن جاويد يدرى كم الساعة. إن لم يأت الدكتور الليلة فماذا سيكون؟ أيبقى كل شىء للغد؟ ألن يقع شىء آخر؟

كانت حبات الجليد تتساقط وهو يقرأ كل ما يعرف من دعاء وفَرورَتَه وينفخ فى الفضاء المتجمد لزقاق الشيخ فضل الله. كان قلقه الأكبر فى هذه الأثناء على ثريا خانم ـ وكان يأمل أن لا يؤدى حدث ليلا الحالى إلى آلام لتلك السيدة. لقد عانت ثريا خانم فى الأشهر الأخيرة متاعب أكثر مما تستحق. وإن مرضها الغامض الأخير أيضاً ـ كائناً ما كان ـ بدأ منذ نفس ليلة الحريق تلك إياها ـ تلك الليلة التى ساءت فيها حالتها فأعطاها الدكتور نزهت بضعة أقداح شاى ومورفين كى تنام. ما الذى جرى تلك الليلة؟ والليلة، أين هو هذا الدكتور؟

رأى ظلّىْ شخصين يتقدمان من رأس الزقاق. كان كلا الرجلين يعتمران قبعتين بلا حافة ويلبسان معطفين، وقد فتح أحدهما مظلة سوداء فوق رأسيهما. قفز جاويد من مكانه واقترب منهما. كان حدسه صحيحاً، فقد كان أحدهما، ذاك الذى يحمل المظلة، الدكتور منوچهر خان، يتقدم ضاحكاً مع صديقه فى الزقاق المغطى بالجليد، وكان الرجلان ثملين مرحين.

تقدم جاويد فحيّى. قال إن عنده رسالة هامة من السيدة... وأخرج رسالة ثريا خانم ـ التى كان أخفاها تحت معطفه ـ فأراها للدكتور، ثم وضعها مسرعاً مرة أخرى تحت إبطه كى تبقى جافة. نظر الدكتور مدهوشاً إلى الغلام... فى الحقيقة، بدا كما لو أنه ذهل لرؤية جاويد، والرسالة الغامضة فى الزقاق المظلم. أشار له أن يأتى، وقاده متعثراً إلى داخل البيت.

عندما صار لوحده مع جاويد فى إحدى الغرف، خلع قبعته ومعطفه، وغسل رأسه ووجهه، وجففهما، وأشعل سيجارة، ثم أخذ الرسالة.

ولكن بعد أن قرأ الرسالة، ضحك ضحكة سكرى عالية وقال:
ـ «ها...». فجلس على كرسى، وقال:
ـ «إذن، فالموضوع يخص ليلا الوسخة، عشيقة الأمير الصيغية، التى تريد ثريا خانم أن تهرّبها من طهران... أىّ بابا، لقد أخفتمانى... قلت لا سمح الله أن حادثاً وقع للسيدة...»
فقال جاويد:
ـ «لا... لم يقع حادث للسيدة». فاستأنف الدكتور ضحكاته السكري. وقال جاويد:
ـ «هى فى بيت ملك آرا». وأراد أن يضيف إنها ربما كانت مريضة مرضاً وخيماً، ولكن مرة أخرى منعه خجله الفطرى.
فرح هو أيضاً لسرور الدكتور. قصّ على الدكتور على عجل وفى إجمال، أحداث الليالى الأخيرة. أصغى الدكتور بانتباه زائد إلى كلام جاويد. كان واضحاً أنه مستعد لتقديم أى نوع من المساعدة.
بعد أن سمع الدكتور كلام جاويد، نادى فوراً على سيد على فأرسله إلى منزل فروغ زمان وراء مش خداداد. وأعطى هو نفسه جاويد خمسة أوراق من فئة تومان كى يعطيها لخالة ليلا. ومنح جاويد نفسه تومانين، وكان ذلك مبلغاً كبيراً. كان سخاء الدكتور وكرمه جديدين على جاويد، فكان من الطبيعى أن يحتسب ذلك على ألطاف الكحول وكراماته.
وبعدئذ قرر الدكتور أن يأتى هو أيضاً إلى وزير دفتر. قال إنه يريد أن يذهب لرؤية السيدة بسبب وفاة فاطمة بگم، مع أنه يكره بيت ملك آرا، ولا يريد أن يلتقى الأمير، ولكن كان من واجبه أن يأتى لزيارة زوجة أخيه والسؤال عن حالها، وصلة الرحم. ومهما كان الوقت متأخراً، فلا عيب

فى ذلك. قال إن فاطمة بگم كانت عزيزة جداً على ثريا خانم، وإن أمثال هذه الأحداث ليست بالصدمة البسيطة لها ولحالتها النفسية، وربما كان يلزم أن يعطى السيدة دواءً.

كان الجليد لا يزال ينهمل على الأزقة عندما عاد جاويد بمعية الدكتور إلى گذر وزير دفتر. إن نور الأمل الذى كان يتراقص فى روحه منذ الغروب حتى الآن فيضىء ويعتم، استمر إلى الـ «گذر» وأمام بستان ثريا خانم... ولكن ليس أكثر.

فى تاريخ جاويد، ابن فيروز آقا اليزدى، فى بيتى ملك آرا وابنة ملك آرا، التى كان مقدراً لها أن تستمر ثمانى سنوات، كانت الليالى المرعبة والشريرة كثيرة. ولكن فى لوح ذهنه قلّ أن وجدت ليلة لها شرّ ونجاسة هذه الليلة الغريبة ـ الليلة التى صارت مبدأ أكبر تغيرات حياته.

وهذه خلاصة رواية أحداث تلك الليلة:

عندما وصل جاويد والدكتور منوچهر خان إلى تكية گذر وزير دفتر، كان الجليد قد استقر فى كل مكان، ولكن باب بستان ثريا خانم كان مفتوحاً، وأمام الباب كانت جهنم قائمة. كان عدد كبير من خدم ملك آرا والجيران، وحتى اثنين من مأمورى الأمن يحملون العصى والبنادق، قد انهالوا فى الزقاق عندما وصل جاويد والدكتور، رأى جاويد هيكل ملك آرا ذاته وهو يعود فيدخل باحة بستانه. لم تكن ثمة جلبة كبيرة. كل ما كان هناك وقع على نحو غير عادى ومشؤوم وساكت وسريع.

رأى جاويد ليلا، ببدنها الدامى فى زاوية الزقاق، وقد سقطت تحت شادرها صغيرة ووحيدة، مثل حيوان تم اصطياده، ممرغة بالدم وقد خرج مغص الموت الأسود من عينها. وكانت رقية بگم أيضاً فاقدة

الوعى، فى جانب من الزقاق، لا بد من شدة الضرب. كان أبو تراب لا يزال واقفاً على رأس ليلا والسوط فى يده. كان ميرزا أصغر خان يأمر أفراد الآمن أن يعيدوا المرأة القذرة إلى بيتها فى قعر المدينة، وأن يفهموها أنها يجب ألا تعودمتلصصة فتدخل بيوت الناس، فتزاحمهم، كما أمر أبا تراب أن يساعد السيدتين رجلىْ الأمن أيضاً. ثم قال لغلوم على أن يأمر زوجته بأن تأتى فيأخذان رقية بكم ويعيدانها إلى الباحة الخارجية، وينبغى أن يضرب جاويد الآن ضرباً مبرحاً بالفلقة كى لا يظهر فى أعماله تمرداً، ولا يمارس هذه الأعمال القذرة... وانتهى الأمر. هيا، ليتفرق الجميع. تفضلوا، يذهبوا كى لا يبقى مزيد من الصخب والجلبة أكثر أمام بيت حضرة الأشرف...

ولكن كان مقدار تلك الليلة، بمجىء ثريا خانم إلى الباب وتدخلها، وكذلك بمساعدة وتدخل الدكتور منوچهر خان نزهت، أن ينجو جاويد من الفلقة، و ـ لا بد ـ من الموت أيضاً. وأبدى الدكتور منوچهر خان نزهت استعداده أيضاً، بناء على رجاء ثريا خانم، أن يلقى نظرة على جسد ليلا، قبل أن يأخذ رجلا الأمن الفتاة البائسة، ليرى إن كانت ميتة أم حية. كان ميرزا أصغر خان وأبو تراب ورجلا الأمن يصرون على تنفيذ الأمر الفورى لملك آرا. فمع أن هذه المرأة ابنة إحدى خادمات هذا البيت، إلا أنها اقترفت سرقة من بستان أوين، فأُخرجت من البيت، حيث تركت فى بيت جنوبى المدينة، كى تقوم بالخدمة تأديةً للغرامة، ولكنها الآن كسرت القانون، ففرت وجاءت إلى هذا البيت متلصصة.

بعد بضع دقائق، وبكلام ثريا خانم ورجاءاتها وتوصيات الدكتور ـ الذى كان له هو أيضاً بعض الشأن والأهمية ـ تدجن الخدم ورجلا

الأمن ورضوا بالمساومة. وفى الحقيقة، فإن الدكتور منوچهر خان نزهت ـ بناء على رجاء ثريا خانم ـ قرر أخيراً أن يرفع بنفسه مع أبى تراب ليلا، فيداويها، وبعد الاطمئنان من أنه ليس ثمة موت، ليأخذوها بعد ذلك أينما يكون.

وقف جاويد وراح ينظر. رفعوا ـ حسب أمر الدكتور ـ جسد ليلا الذى كانت لا تزال به بقية روح، ونقلوها إلى حجيرة جاويد التى كانت فى زاوية البستان وقريبة الوصول. كما وقفت ثريا خانم وراحت تنظر. فحص الدكتور ليلا. لم تكن عنده وسائل كافية. كان أبو تراب ورجلا الأمن خصوصاً لا يزالون مصرين على تنفيذ كل أوامر ملك آرا، مواصلين توجيه الأوامر والنواهى للدكتور أن يسرع وينتهى. كان الدكتور يقول إن هذه البنت إن ماتت فسيكون المسؤول عن ذلك الخدم ورجلى الأمن، الذين لا يسمحون بمداواتها.

كان جسد ليلا بالقميص الوردى، تحت شادرها الأبيض الذى كان مضمخاً بالدم هو أيضاً، ضعيفاً يبعث على الأسى. وكان وجهها مجروحاً فى مكانين أو ثلاثة. ومعجوناً، وكان رأسها أيضاً بشعره الأشعث، غارقاً بالدم ـ مثل خروف مروره حياً داخل مفرمة لحم. كانت ثريا خانم لا تزال واقفة تنتظر، وشأنها شأن أية امرأة أخرى فى هذه المحلة والزمان، لا أذن لها ولا إرادة. ومع أن الدكتور نزهت قد غسل بنفسه، بناء على رجاء زوجة أخيه، جراح ليلا، إلا أنه لم يكن مستعداً لأخذ هذه المرأة إلى بيته وإنقاذ روح وحياة هذه المرأة كلياً.

كان جاويد لا يزال واقفاً فى ركن، متأملاً فى ما يمكن أن يفعله هو من أجل ليلا. لقد كان غلاماً صغيراً خادماً زائداً عن الحاجة. كان فى

هذا المحل رقعة غير مناسبة وعديم الجدوى. لكنه كان واقفاً يأكل نفسه. كانت غريزته، طبعه، يمليان عليه أنه ينبغى أن يفعل شيئاً. ولكن لم يكن بمقدوره أن يفعل شيئاً الليلة.

كان ينظر إلى ليلا، كانت البنت المسكينة التى ماتت أمها اليوم، والتى هى على حافة الإلقاء بها مرة أخرى فى الماخور، تجد لجثتها ـ تحت يد هذا وذاك ـ مدّعين كثيرين. ولكن عمر ليلا تلك الليلة كانت به بقية. بعد جدل وتوسل من ثريا خانم، تقرر أن يأخذ أبو تراب ورجلا الأمن ليلا أولاً إلى عيادة الدكتور، كى يعالج جروحها، ويبقوها ليلة، فلربما عندما تخمد عصبية ملك آرا سيغفر لها، ويسمح بإخراجها من المدينة وإرسالها إلى خراسان عند أقاربها. وقبل الدكتور منوچهر خان ـ الذى لم يكن مرتاحاً كثيراً من هذا الوضع ومن الاحتفاظ بليلا فى عيادته ـ من أجل خاطر ثريا خانم. وانتهت الليلة على تلك الحال بأن أخذ رجلا الأمن ـ بمساعدة جاويد ورقية بگم ـ ليلا إلى بيت وعيادة الدكتور منوچهر خان نزهت، وأناموا الفتاة نصف الميتة فى زاوية ما، كى تتم معالجتها، ويروا أى أمر جديد سيصدره غداً ملك آرا، الذى كان شاكياً. وبقى جاويد ورقية بگم هناك.

لم يغفر ملك آرا لليلا، وقبل أن تنقضى ثلاثة أيام لم يترك رجلا الأمن ليلا. لم يكن جاويد يدرى ما الذى فعلته ليلا فى بستان أوين، أى عمل سوء قامت به فأثارت هذا الحقد عند ملك آرا. كان الجدال بين ملك آرا وابنته والدكتور منوچهر خان وميرزا أصغر يستمر. وفى خضم البحث والجدل واستطالة الوساطات والمرافعات، والحديث عن إثم ليلا وأعمالها القبيحة، عن القانون والشرع، عن الشرف والاعتبار، عن كلام

التهديد والسماح والتوبة، والعناد والبخل والالتماسات وغيرها وغيرها وغيرها، كانت القضية تقترب مراراً من الحل إلا أنها تنتهى أخيراً إلى زقاق مسدود أقذر من الأول. وأخيراً كان جاويد هو من أنقذ ليلا من إرسالها مجدداً إلى بيت محمد على مدخن الشيرة. كان جاويد هو من قام بالعمل الوحيد الذى كان يمكن القيام به فى ذلك الوضع لليلا.

كان ذلك أكبر، ولعله أشأم، أفعال حياته: وكان يعرف أنه بعمله هذا لا بد سيفقد ابنة عمه پوران. فى مغرب اليوم الثالث من المرافعات والتعليقات، تقدم جاويد إلى الأمام، تحدث إلى الجميع، ثم ـ بمساعدة ومعية الدكتور منوچهر خان نزهت وسيد على ورقية بگم وغلوم علي ـ حمل ليلا فنقلها إلى أمام باب منزل السيد آقا رضا مشير، صهر آية الله لوساني... لأن شهر محرم كان يقترب، فقد رقّت القلوب. ألقى كلام وتعهدات ومواعظ، قدمت توبات ومساهمات وجزيات ومصاريف وخطب. فى الحجرة الخلفية، أراق السيد آقا رضا مشير بيده ماء التوبة والطهارة على رأس ليلا. كما ألقيت خطب أخرى.

أُنكحتُ وزوجتُ. وصارت نسخة من القرآن صداق ليلا. وتكرم الدكتور منوچهر خان نزهت بإعطاء مبلغ ثلاثين شاهى للسيد أجرة تلاوة العقد.

فى تلك الليلة، بعد مراسم العقد الخفية، بعد أن جلب ليلا ورقية بگم إلى المنزل دون جلبة، أنامها فى حجيرته قرب منقل النار. على الفراش التافه الوحيد، وخرج هو إلى البستان. وتحت القمر والنجوم التى كانت تلمع فى السماء المثلوجة أشعل ناراً، وجلس. خفض رأسه، وأخذ وجهه بين يديه. من أين جاء وإلى أين وصل!.

كان قد جاء إلى هذه المدينة سعياً وراء أبيه. ومن أجل العثور على أخته أقام. ما الوقت الآن؟ من هو؟ فى هذا الشتاء، فى هذا المستنقع، أين وصل؟ أين الغلام الزرادشتى ابن الخمسة عشر عاماً، لامع العينين، ابن أخ دستور بيت النار الأهورائى العجوز، من زوج المصلحة، ولكن الشرعى، لليلا خراسانى؟ مثل أى وقت كان يحس فيه ضيقاً روحياً جلس، واستعرض فى فكره كل أسلافه وأجداده وجذور وأسس دينه ومذهبه، وكان الليلة يسائل نفسه فيما إذاكان عِرْق حياته لا يزال مربوطاً بأولئك.

كان زرادشتياً أخفى عقيدته (وذاك حرام). وأسلم لشريعة أخرى. كان غلاماً لا يستطيع الانتقام لدم أبيه وأمه (وذاك أدنى من الرجولة). وكان أخاً لا يستطيع انقاذ أخته (وكان ذلك جبناً). لقد وضع اسمه على امرأة كانت السبب فى وفاة أمه واجتازت تجارب قذرة... امرأة لم يردها قط ولم يلمسها أبداً، ولن يفعل، ولم تصر تحت قيمومته إلا بخطبة ومراسم تخص ديناً غير دينه (وكان هذا عذاباً شيطانياً هو الآخر).

رفع رأسه نحو زاوية الأفق المظلم. كان لا يزال يخجل من النظر ملء العين إلى السماء، نحو أسلافه. مع أنه يحس بأن باطنه كان لا يزال ثابتاً طاهراً.

شكر الله على أنه الليلة، مهما حصل، لم يسقط (مثل أول شهرين أو ثلاثة، حينما أتوا به إلى هذا البستان مكسور الساقين) فى ورطة اليأس والفراغ الروحى.إن بإمكانه أن يتحمل كل ألم وعذاب، عدا ذلك العهد ـ حين كان فقد ذاته.

جلس حتى قبيل السحر، وطهّر فكره وروحه بالفكر والصواب والاستقامة، فتوصل إلى الرأى والعزم التاليين: لم يتغير شىء قط. أنا

جاويد بن فيروز آقا. كان عندى واجب وشغل هنا ـ ولا يزال عندى. أبقى، أتحمل، حتى العثور على أفسانه، ثم أعود إلى يزد، وأبدأ من جديد. يا زرادشت، يا أشو زرادشت، أنت قلب ضيائي روحى ـ كما قلت أنت نفسك لى تلك الليلة فى السهل. ما دمت عندى مُحال أن أضيع أو أصل إلى خاتمة سوء. وإن فقدتك فمحال أن أتمكن من الابتداء.

بعد الدعاء، ذهب لينام فى البستان الصغير. فى الزاوية التى قضت فيها ليلا ليلة ونهاراً، وتمدد. فكّر فى ليلا ورقية بكم، وبما وقع لليلا. كان يتأمل فى إرسالها مستقبلاً إلى خراسان. وكان يتساءل ماذا كسبت ليلا من تجربة الشهرين فى منزل محمد على مدخن الشيرة. كان يرجو أن تكون ليلا قد أصابت أخيراً حظاً من الفهم والعقل.

فى تلك الزاوية ارتطمت يده باللفافة التى أخذتها ليلا، ملهوجة، ليلة خروجها من ذلك المنزل، من تلك الغرفة، وقالت إنها وسائل صلاتها. فتح اللفافة الملآى والثقيلة. كان فى اللفافة كل شىء، فيما عدا وسائل صلاة. فعلاوة على الكثيرمن النقد والمصاغ، كان ثمة عدد كبير من الكماليات ومواد الزينة والأناقة النسائية ـ من تلك التى يهديها الرجال للنساء ـ أو من المواد التى يمكن بيسر تبديلها إلى نقد... شد اللفافة ورماها فى زاوية وأطلق لعنة.

ثم نهض فرفع اللفافة مرة أخرى (ومع أنه كان يعرف أن هذا الكنز يمكنه أن يصير بيسر وسيلة العثور على أفسانه عن طريق أبى تراب) ذهب بقدمين ثابتتين فى الظلمة من ممر السرداب إلى المرحاض. ألقى اللفافة فى الحفرة وسكب فوقها بضعة أباريق ماء.

أثناء الأسبوعين التاليين أخذ رقية بكم وليلا إلى مكان أعده لهما فى أحد سراديب ثريا خانم الصغار، وجعله قابلاً للسكن ببساطة

ومصباح وكرسى وبعض الأثاث. وضع تحت تصرفهما حياة مستقلة وبسيطة. وعاد هو نفسه إلى حجرةٍ قربَ باب البستان حيث مكانه الدائم، وأقام وحيداً.

فى تلك الأيام، التى كانت أيضاً العشرة الأولى من شهر محرم، لم يهتم أحد بهم كثيراً، وكان هو أيضاً قليل الخروج من البيت. ها هى مجالس قراءة الروضة ذات الأبهة تقام حالياً فى باحة ملك آرا. فقد سقفوا كل البستان بالعمد والألواح والحصران والجوالات، وفرشوا الأرضية بالسجاد الكبير النفيس، وغطوا الجدران بالأعلام السود، وحتى أنهم جلبوا إلى الصالة علَماً وحصاناً. كان فى بيت ملك آرا، طوال النهار، قراءة روضة ومجلس عزاء وتردد ناس. أثناء الليل كانت ثمة قراءة «نوحة» ولطم صدور. وعند الظهر والعصر كانت القدور الكبيرة فى الباحة الخارجية تحمل الرز والـ «قيمه» والـ «شله زرد» والحلوى على النيران. كان الطعام يطبخ، فصلا ففصل، ويقدم للمعزين ولاطمى الصدور... وعلى هذا ، فوراء هذه الجلبة والمظاهر، لم تكن توجه عناية أو اهتمام لوجود جاويد الساكن، حتى مع المرأة والعجوزاللتين يحتفظ بهما فى زاوية باحة خربة ثريا خانم.

فى هذه الفترة كانت ليلا، مع خالتها العجوز، تحيا مسرورة، ممتنة وهادئة، وإلى حد ما مطيعة فى البدء. لم تكن تقول شيئاً عن عدم اهتمام جاويد واعتزاله إياها ـ هو الذى كان زوجها زعماً. ولكنها بدأت بعد ذلك بالزعل والمناكدة، ثم غاصت أخيراً فى نفرة داخلية وسوء تفكير ردىء صامت. كان جاويد قد قال لها منذ الأيام الأولى إنه لن يبقى فى طهران بعد العثور على أخته، وإنه سيذهب بعدئذ إلى يزد. وإن ليلا حرة، لها حق الاختيار، إن أرادت فيمكنها أن تأتى معه، وإلا فبمقدورها أن تذهب

إلى خراسان أو أى مكان تشاء. كانت ليلا تستاء من هذا الكلام ومن بقية حديث جاويد العجيب الفخم ورسومه وعاداته، وكانت تعتبرها آيات كذب وعلائم عناد وأدلة على نفوره منها.

كانت تظن أن جاويد يريد واحدة أخرى، أو عنده أخرى، أو يحتفظ بأخرى. مع أنها لم يكن تقول شيئاً أمامه، فإنها كانت وراء ظهره (سواءً أكان يسمعها أم لا) تتكلم عنه بسوء وتدعو عليه وتشتمه ـ خاصة كلما جاءت إحدى نسوة الباحة الأخرى لزيارتها وزيارة رقية بگم. كانت تعتبر أفعاله، من قراءة كتب وكتابة أشياء واستحمام عند السحر وصلواته داخل البستان قرب النار، جنوناً وبلاهات، وكانت تسخر منه وراء ظهره، تذلّه. وعندما كانت تدرى أن جاويد يسمع، كانت تسأل خالتها ناقّة شاكية ماذا يريد بعد؟ أو ما همّه الآن؟ ماذا ينبغى أن أفعل الان؟ ماذا بعد؟ إلهى ليزدد عرجاً وذلاً، كى أرتاح. ولم يكن جاويد ليهتم. فقد كان غفر لليلا بمرور الأيام، وكان يحس نحوها عطفاً ومحبة أخوية ـ مع أن ليلا كانت حسوداً ولم تكن عندها قابلية لاستيعاب المحبة، والقدرة، بأى مقدار، على إبراز المحبة. منذ الأيام الأولى بالذات (خاصة منذ أن قال لها جاويد إنه ألقى لفافة المال والمصاغ فى المرحاض) كانت تعتبر كل كلام جاويد كذباً وملعنة. ولكنها على أية حال. بما أنها لم تكن تستطيع شيئاً فى تلك الفترة، كانت هادئة وإلى حد ما مطيعة، وكانت تفعل كل ما يقول جاويد.

... إلى أن وقع حادث شؤم ثريا خانم.

- ٣٧ -

فى أواخر دورة شهرى محرم وصفر، عندما سمع جاويد بأن ثريا خانم رضيت فجأة بأن تبيع بيتها لأبيها، وسمع أن ملك آرا استقدم الحاج السيد آية الله لواسانى والسيد آقا رضا مشير إلى بيته فسجل البيت باسمه، أعطى ثمنه لابنته، أحس أنه لا بد ثمة سبب وشؤم جديدين. كانت ثريا خانم قد قالت إنها لن تبيع قط بيت زوجها التذكارى. تذكر جاويد مرضها الأخير وسمنتها الغريبة. أفكانت ثريا خانم تحتضر؟

مهما كانت إزعاجات وجود ليلا عند جاويد، إلا أنه كان مفيداً من حيث أنه يحيط جاويد علماً بأخبار الحياة فى باحة ملك آرا سواء أكان ذلك عن طريق ثرثرة الخادمات (القادمات إلى هذه الباحة، أو عن طريق ذهاب رقية بگم أحياناً إلى تلك الباحة ورؤيتها ثريا خانم. (لم تكن ثريا خانم نفسها قد مرت بهذه الباحة طوال أكثر من شهر). كان جاويد يراقب بدقة تامة حياة ملك آرا الداخلية والخارجية، يتتبعها. وكذلك عن طريق صحف «شفق سرخ[١]»، «إيران» و«إتحاد ملّى[٢]» ـ التى كان يأخذها من هذا وذاك ويقرأها ـ كان يسمع أنه من مخالفى الحكومة فى المجلس. كان ملك آرا يعارض، بوجه خاص، المستشارين الأميركان الذين قدموا لخدمة إدارة المالية، فراح الحديث يدور عن استيفاء الضرائب المعوقة ومنع تبذير بلاط شاه والأمراء والطفيليين أبعدين

(١) الشفق الأحمر

(٢) الاتحاد الوطني

وأقربين. كانت دراسة ملك آرا والمعرفة الكاملة به مهمة لجاويد، كما أن معرفة العدو أمر مهم لكل امرئ حرب. كان حتى الان قد شهد غضب ملك آرا وسوء أخلاقه، شهد حرص ملك آرا وطمعه، رأى بخل ملك آرا وحسده، رأى عدم معرفة ملك آرا الله (لا إسلاميته)، شهد عداء ملك آرا وحقده، شهد حب ملك ارا للدنيا، شهد حب ملك آرا لنفسه، شهد كون ملك آرا حماراً، رأى ملك آرا على الأكل، رأى تبذير ملك آرا عديم الحساب عديم الفائدة، رأى جحود ملك ارا، رأى دناءة ملك آرا، رأى استهتار ملك آرا، شهد بخل ملك آرا، ولكن ما فعله ملك آرا تلك السنة مع مرض ابنته الجديد جعل جاويد يقف على أعماق روح وطبيعة هذا الشيطان.

عندما سمع جاويد بسبب مرض ثريا خانم من فم ليلا «التى سمعته هى أيضاً من رقية بكم، التى كانت ذهبت إلى تلك الباحة» كان طبيعياً ألا يصدق، ولم يرد أن يصدق. ثريا خانم؟ فيما يتعلق بأية امرأة أخرى كان هذا الحادث يدل على نزقها وانعدام أخلاقها. ولكن ليس ثريا خانم. كان هذا العمل غير ممكن منها، محالاً. ثريا خانم؟ إبنة ملك آرا؟ ثريا خانم نزهت، الأرملة ابنة الثلاثين سنة، صاحبة طفلة ابنة الأربع السنوات؟... كانت ابنة ملك آرا طوال عمرها، فى كل العائلة والمحلة، نموذج الطهر والنجابة. كيف يمكن التصديق؟

وأية امرأة أخرى من مقام وشأن ثريا خانم، عندما تظهر علائم فضيحة كهذه فإنها لن تنبس بحرف أمام الجميع، إنها تتكلم، تكذب، وتتخلص من الأمر بنحو من الأنحاء ـ ولكن ليس ثريا خانم. وقد رأى جاويد هذا الطبع وهذه الطينة الطاهرين، هذه الشجاعة الأخلاقية

الداخلية، هنا عند هذه المرأة فقط، وهو يراها الآن. كان بمقدورهم أن يحبسوها فى البيت، أن يبقوها ساكتة، حتى أن يضربوها على رأسها، وأن يحرموا مالها ويوقفوه ـ بوصفها أرملة وابنة رجل شهير ـ إلا أنهم لم يكونوا قادرين على إفناء إحساسها الأنثوى وأخلاقها الباطنية.

عندما أحست ثريا خانم أنها (دون أن تدرى من أين وكيف) حامل، قالت لوالدتها، وأرادت أن يجلبوا قابلة لتتأكد. فجلبوا قابلة المحلة (قابلة النحاسين) خفية. أيدت الأمر، وقالت إن ثريا خانم حامل فى شهرها السادس ـ منذ أن احترق بيتها فجاءت إلى بيت أبيها...

عندما سمع جاويد بالموضوع أول مرة ذهب إلى حجرته، وضرب الباب والجدار بجمع يديه حتى أدماهما وبكى... فى تلك اللحظة لم ينتبه إلى عينى ليلا الكارهتين ملوثتى التفكير، التى كانت تراقبه عن بعد، من داخل البستان. لم يكن يخطر باله أن يصير هو موضع اتهام، أو أنه صار فعلاً.

بعد أن هدأ غضبه وهياجه الداخليان، خرج فذهب - دون أن يهتم لليلا ـ إلى السرداب وراح يسأل رقية بگم عن كل ما سمعته من هذا وذاك ـ حرفاً بحرف. بكت رقية بگم ذات الوجه المتغضن والعينين اللتين نزل فى إحداهما الماء فأصابها بالعمى، وحدثت جاويد بكل ما سمعته من تاج ماه خانم وثريا خانم نفسها. لم تكن عيناها تنظران إلى جاويد نظرة سوء ولا تنطويان على أفكار شريرة.

وللأسف كان ذلك البلاء والعار حقيقيين. ولم يكن أحد يعلم كيف ولا بفعل مَنْ. طوال الشهور الستة الأخيرة، التى عاشتها ثريا خانم فى حجرات ما فوق المطبخ الجديد فى الباحة الأخرى، لم يكن معها غير

ابنتها وخادمتها الجديدة التى جلبتها من بستان نياوران. ولم تكن ثريا خانم قد خرجت من البيت حتى ولا ليلة واحدة. حتى أنها لم تذهب إلى قم، ولم يأت لزيارتها أحد، كما لم يكن أحد يحيا فى تلك الباحة غير ملك آرا وتاج ماه خانم والخدم.. ويا للويل عندما يبلغ هذا العار أذنى ملك آرا.

فى الشهور الأولى عندما صارت ثريا خانم سمينة جداً، وساءت حالها، كانت هى وأمها وشاه باجى خانم العجوز وبقية الخدم يظنون أن المرأة التعيسة أصيبت بنفخ، أو أن عندها مرض معدة وأمعاء، أو أنها مصابة باختلال غريب عجيب من أورام الرحم. ولكن بما أنها لم تكن تحس حمى ولا ألماً، فإنها لم تراجع طبيباً. وحتى بعد أربعة أشهر، بعد أن أحست وكأن شيئاً يتلوى فى بطنها، ظن الجميع أن فى بطنها دوداً. ولكن فى الشهرين الخامس والسادس، عندما ظهرت عليها الكثير من حالات حملها الأول، أخبرت أمها بالأمر، وطلبت أن يستقدموا قابلة النحاسين، التى كانت صديقة تاج ماه خانم وهى التى استقبلت إلى الدنيا كل أطفال عائلة ملك أرا. وقد أيدت قابلة النحاسين منذ المعاينة الأولى شائعة الشؤم ـ وفى البدء لم يعرف الأمر غير النسوة..

كان جاويد يريد من صميم فؤاده أن يرى ثريا خانم ولو لبضع دقائق، ويظهر لها تعاطفه ـ ويرى إن كان بمقدوره أن يفعل شيئاً لها؟ ولكن ذهابه إلى ذلك البيت كان محالاً. كما لم يكن فى الذهاب سراً من صلاح. فأوصى رقية بگم أن تسلم له على الخانم وتسألها إن كان عندها أمر له. لأنه كان يعرف إحساس ثريا خانم الباطنى نحوه، فقد كان يعرف بأن مجرد هذه الرسالة ستذكرها بأنه جاهز للخدمة والتضحية

من أية نوع وإلى أى حدّ كانا.

في أول الليل عندما ذهبت رقية بگم مرة أخرى إلى ذلك البيت وعادت، كان جاويد ينتظر. لم يكن عند ثريا خانم عمل لجاويد ـ عدا أنها أرسلت تبلغه أن يحيا بهدوء، وأن ينتبه لنفسه.

ماذا كان يدور من حديث حول «سبب »حمل ثريا خانم؟ آه... ماذا يدرى المرء أىّ ألم وبلاء أسود حل بروح المرأة المسكينة!... لا شيء.

لم يكن موضوع «قول الكذب» أو «انعدام العفة» يدور فى أى مكان، ولا فى ذهن أى كان. لأن الجميع كانوا يؤمنون بثريا خانم، ويحتفظون بلطفها فى صدورهم، فلم يكن أحد، حتى فى أعتم زوايا خياله، ليظن أن هذه المرأة تكذب. لم يكن أحد ليتصور فى أعمق زوايا ذهنه أنها أتت عملاً إدّاً وراحت تكذب وتتظاهر بعدم الفهم.

ولكن هذر النسوة وثرثرتهن كانت فى الأفواه. كانت شاه باجى زوجة الطباخ تقول إنه من فعل الجن والملائكة، وكانت تقول إن الكثير من هذه الأقدار والبلايا وقعت بحيث تحبل امرأة أو فتاة بريئة فى نومها من شيطان أو جنىّ. وعندما يأتى ابن الحرام إلى الدنيا فسيأخذه الجنى. وهذه الأحاديث مكتوبة حتى فى كتاب كلثوم ننه، ولكن رقية بگم، التى كان قلبها إزاء ثريا خانم أنظف، كانت تقول إن ثريا خانم مثل مريم العذراء طاهرة، منظور فى وجهها. وإن الطفل يخص الأئمة. إن الطفل يخص الإمام على بن موسى الرضا نفسه، إنه خير، أراده الله. وعندما يأتى الطفل المنظور فى وجهه إلى الدنيا يكون حليق الرأس مختون الآلة، فينبغى أن يوقف لحرم حضرة الإمام. حتى ليلا كانت تقسم على عفة ثريا خانم. (مع أن باطنها كان يشك فى جاويد ويسىء

الظن به). ولكنها الآن تجلس وتقول إنك حتى لو قتلتها فستقول إن الخانم وقع لها ذلك فى الحمّام. كانت ليلا قد سمعت من كثيرات أن عدة من النساء اللاتى يذهبن إلى الحمامات العمومية ـ حيث يذهب الرجال فى الصباح الباكر والنسوة طيلة النهار ـ ربما يغتسلن فى خزينات[1] استعملها الرجال صباحاً فيحبلن.

أصغى جاويد زمناً لهذا الهذر، ثم نهض فجاء إلى عند باب حجيرته الخالية الباردة فجلس وراح يفكر. فى ذهنه، لم يكن الشيطان والجن سبب حبل ثريا خانم. كما أن ثريا خانم لم تكن مريم العذراء. كما لم يكن جنينها ابن أئمة الإسلام وحضرة الإمام الرضا. إن ثريا خانم قد حبلت ـ دون أن تدرى ـ وهى نائمة، هذا صحيح، ولكن لا بواسطة الشيطان أو الجن. لقد انعقدت نطفة جنين ثريا خانم من صلب رجل دنىء عديم الإيمان.

وتصور جاويد أنه يعرف ذلك الرجل.

فيما كان جالساً فى سكون حجيرته نصف المعتمة، فهم أن فكرة عدم الإيمان هنا لم تكن حكراً على ملك آرا وخدمه ونسله.

(١) حوض ماء واسع في الحمامات العمومية التقليدية، يستعمل مشتركاً.

ـ ٣٨ ـ

كانت قد مضت ساعتان أو ثلاث عندما نهض فأحكم شد حزام المصارعة على سدرته وأحكم لبس گيوته، وخرج. أقفل باب الباحة من الخارج، وانطلق. وبلغ زقاق الشيخ فضل الله بخطى سريعة ثابتة.

فتح سيد على الباب، وبعد أن سأله جاويد وعلم أن الدكتور فى البيت، دفع سيد على جانباً ودخل دون استئذان أحد. ذهب باتجاه عيادة الدكتور. كان الدكتور منوچهر خان نزهت مع رجل آخر ـ نفس صديق ليلته تلك ـ فى غرفته، مشغولاً بالحديث والضحك. وقف جاويد عند الباب وحيّا، وقال إنه جاء فى عمل خصوصى، ومهم للغاية ـ سرى.

فقال الدكتور منوچهر خان ضاحكاً:

ـ «ادخل... ياعريس، كيف حالك؟ كيف هى حياة التأهل؟». فقال جاويد بصوت محكم وأعلى:

ـ «عندى شغل خصوصى وسرى يتعلق بثريا خانم... وفورى جداً».

فقال صديق الدكتور:

ـ «منوچهر، أتريدنى أن أخرج دقيقة...؟» فقال الدكتور:

ـ «لا، ابق أنت، سأذهب لأرى ما شغل العريس، وسأصرفه فوراً وأعود فنذهب إلى لاله زار[١] كى نتعشى». وجاء بنفسه مع جاويد إلى الغرفة المجاورة وأغلق بابها.

فى هذه اللحظات التى أغلق فيها الباب، وجلس على كرسى وثير، وصالب ساقيه، ثم أخرج سيجارة من علبة سجائره الذهبية، حدّق فيه

---

(١) أول شارع أقيمت فيه المطاعم والمقاهي، ثم الملاهي، ثم دور السينما في طهران.

جاويد. كان يرتدى بدلة سوداء، أنيقة، مع معطف طويل مؤخر رقبته ومقدم صدره من المخمل ـ اللباس نفسه الذى كان يرتديه ليلة الحريق وجاء به إلى بيت ثريا خانم. حدّق هذه الليلة فى الدكتور.

وضع الدكتور السيجارة فى زاوية شفتيه، أشعل ثقاباً فأولع السيجارة، وقال بتقطيب ونفاذ صبر:

ـ «ماذا؟ ماذا جرى مرة أخرى؟...». فتقدم خطوة وقال:

ـ «ثريا خانم...»، ولم يكن يدرى، من فرط حيائه وخجله، كيف ولا من أين يبدأ.

ـ «ثريا خانم ماذا؟».

ـ «ثريا خانم منذ مدة مريضة وسيئة الحال ـ والآن... كانت رقية بگم اليوم فى تلك الباحة، قالت إنهم جلبوا قابلة... وقد عاينت القابلة ثريا خانم...». سكت وحدق فى عينى الدكتور. كانت عيناه الدقيقتان الضيقتان،تحت نظارته عديمة العضد، وسط وجهه الأسمر الحاد، مسمّرين كعينى سمكة رنكة[1].

ـ «قابلة؟». فقال جاويد:

ـ «قالت القابلة إن ثريا خانم حامل فى شهرها السادس... لا يعرف أحد من أبو الجنين. إن ثريا خانم وكل النساء مستاءات وقلقات. ولأن أحداً لا يشك أبداً فى عفة وطهر واستقامة ثريا خانم، فقد شاع أن ذلك وقع لها أثناءالنوم... أظنهم يريدون إسقاط جنينها بالسحر والشعوذات والأدوية المنزلية، ربما سيقتلونها». فصرخ الدكتور:

ـ «ها؟». وقال جاويد:

---

(١) نوع من الساردين

ـ «لم يعرف ملك آرا بعد. ولكنه سيفهم أخيراً. وعندما يفهم فليكن الله فى عون هذه السيدة المسكينة».

نهض الدكتور من مكانه. لا بد أن ذكر اسم ملك آرا كان ضربة هازّة. ارتجفت السيجارة فى يدى الدكتور، وفرّ لونه. ولكنه قال معبساً متظاهراً بالغضب:

ـ «أصلاً ما علاقتك أنت بهذا الفضول الزائد؟... من أنت أصلاً كى تجىء فتقف أمامى وتهرف كثيراً وتتطفل على ناموس الناس... عار عليك!». فقال جاويد:

ـ «جئت فى خدمتك... لأن بمقدورك أن تساعد ثريا خانم. كانت ثريا خانم على الدوام، كلما يصيبها سوء فأول ما ترسل عليك... إننى فى ليلة الحريق تلك ـ »وترك جملته ناقصة، وسكت مرة أخرى. نظر إلى عينى الدكتور. فكّر أن من الأفضل أن يتصرف باللين والسياسة، لأن هدفه مساعدة ثريا خانم. ثم قال:

ـ «لكنها لم ترسل عليك هذه المرة، لأنه لا بد أن الحياء والخوف لا يسمحان لها. إنك لا تزال أخو زوج هذه السيدة الطاهرة النجيبة، المرحوم وقد كانت تحترمك وتقدرك، ولا تزال... وهى تحتاج إلى المعونة الآن. وينبغى أن تساعدها...»، ثم أضاف:

ـ «أرجوك». فقال الدكتور:

ـ «إذا قمت فألقيت بك إلى الخارج رفساً فما أنت فاعل؟». ونظر إلى عينى الغلام، وبقى ينتظر، لا بد لكى يفهم ما الذى سيقوله جاويد بعد، وماذا يريد. قال جاويد:

ـ «إنك لا تفعل هذا العمل».

ـ «ماذا لو فعلته؟».

ـ«سأعود».

ـ «إذا ما ألقيت بك فى تهلكة... فلن يكون بمقدورك أن تعود». فقال جاويد:

ـ «سيدى الدكتور... لقد جئت إلى هنا على إيمان ورجاء بأنك ستساعدها. ولكنك تردد نغمة سيئة. إنك تتصرف كما لو أن ثريا خانم ارتكبت سوءاً. وتتصور أننى جئت هنا كى أنّم عليها، كى أقوم بعمل سيء». فقال الدكتور:

ـ «لم أقل إنك فعلت سوءاً ـ». فنظر إليه جاويد. وقال الدكتور:

ـ «قلت عار عليك»، وصرخ عند كلمة «عار».

فغر جاويد فاه فى وجهه. إنه أحط مما كان يظنه جاويد منذ أول الليل حتى الآن. أراد أن يبدأ فيقول إنه يتذكر أعمال ذلك الفجر وأقداح الشاى وأقراص المورفين الكثيرة، وإن حقيقة عودة الدكتور إلى الغرفة، عندما أغفت ثريا خانم، بقائه هناك ساعة أو اثنتين لا تزال فى باله ـ ولكن لأنه لم ير شيئاً عدا ذلك بعينيه، فلم يكن ضميره ليسمح له بأن يذكر اتهامه بلسانه، كما أنه كان يحس الان أن الدكتور منوچهر خان نزهت غير أهل لمزيد من البحث والحديث. وقال:

ـ «يا دكتور، إنك تعرف ما الذى تجرعته على يد هذه العائلة حتى اليوم، ولا بد أننى سأتجرعه بعد. ولا بد أن ملك آرا سيلصق تهمة هذا العمل أيضاً بى. ولكننى لا أفكر فى هذه الأمور. إننى أخاف فقط مما سيقع لثريا خانم. صدقنى إننى أخاف من أجلها كثيراً ـ وكل ما أستطيع أن أفعله سأفعله كى تساعدها».

ـ «أتجبرنى؟».

ـ «نعم».
ـ «ماذا تفعل؟ ماذا يمكنك أن تفعل؟».
ـ «أرجو ألا نصل زقاقاً مسدوداً».
ـ «أى زقاق مسدود؟».
ـ «اشتباك سىء».
ـ «انهض ولّ.. من أنت أصلاً؟ من أين أعرف أنه ليس فعلك يا ابن الحرام ابن المحروق، والان وقد فاحت رائحته حميت فركضت من خوفك وجئت هنا... أيها الفأر الميت... ألم أفعل لك خيرا؟».

تظاهر جاويد بعدم سماع اتهامه، وقال:

ـ «لنترك، الليلة، ما مضى جانباً... أنا ممنون لما فعلته لى ألف مرة، نعم، على عينى. وقد فعلت ثريا خانم أيضاً خيراً لى. ولكننى لم أجئ الليلة من أجل نفسى. وأنت تعرف، لقد جئت من أجل ثريا خانم. وأقسم على أننى لن أتردد حتى آخر قطر دم عندى فى مساعدة هذه السيدة... وينبغى أن تفهم وتعرف». فقال الدكتور:

ـ «مثلاً، أى خراء يمكنك أن تأكل؟». كان لا يزال صعب المراس وسخ الفم. قال جاويد:

ـ «إننى أسكت عن الأمور التى أذكرها عن ليلة الحريق إلى الأبد، إلى الأبد، يعنى ما دمت أنت حياً وما دمت أنا حياً. ولكننى قلت لنترك ما مضى جانباً... فقد ولّى. ينبغى أن تساعد ثريا خانم». وحدّق فى عينيه. ثم قال:

ـ «قبل أن يفوت الوقت، ينبغى أن تساعدها الليلة بالذات. الآن بالضبط».

نظر الدكتور مدة فى عينى جاويد المنيرتين، اللتين كانتا مثل سهم فى عينيه هو. وكان واضحاً من نظرته أنه كان يستعرض فى ذهنه تلك

الليلة، ولا بد أنه قد فهم أن جاويد كان هناك متمدداً فى الباحة، وأنه رآه فى غرفة الصالة حيث كانت ثريا خانم. قال:

ـ «قم، اذهب ولِّ. لا تهرف». نظر إليه جاويد ساكتاً:

ـ «سخيف أبو الخراء». فقال جاويد:

ـ «إن أخرجتنى يائساً من هذا البيت فإنى سأعود. وأقسم أننى سأعود وأقتلك ذات ليلة هنا بالذات ـ بيدى. ثم أكتب رسالة أقول فيها الحقائق كما أعرفها لكل الدنيا...».

أخيراً، جلس الدكتور منوچهر خان نزهت. قال:

ـ «يا لك من سمج عنيد ابن محروق عجيب». وضع سيجارته بين شفتيه، سحب عدة أنفاس قوية ونظر إلى جاويد. كان يفهم أى إنسان هو خصمه.

ـ «ماذا تريد الآن؟ ماذا أفعل فى رأيك؟». فقال جاويد:

ـ «لا شىء. ولكن لثريا خانم...» خفض الدكتور رأسه وانشغل بالتفكير زمناً. أتم سيجارته. ثم نهض مرة أخرى. قال:

ـ «قم لنخرج... نتكلم فى الحديقة. هنا فى هذه الغرفة، بجدرانها الرقيقة، ليس محل هذا الكلام، للجدران آذان». فقال جاويد:

ـ «على عينى». فهم أن الدكتور كان فى قبضته.

لم يطل كلامهما فى الحديقة. قال له جاويد ما ينبغى عليه أن يفعل، لأن ذلك كان فى رأيه الطريق الوحيد لمساعدة ثريا خانم وإنقاذها. وقبل الدكتور مكرهاً.

شكر الدكتور. وتناول يد الدكتور التى امتدت لتوديعه، وضغط عليها بأمل. وخرج بأدب. وفى الظلام عاد إلى البيت.

ـ ٣٩ ـ

في الليلة التالية، حين عادت رقية بگم من باحة ملك آرا أخبرت جاويد أن ثمة أخباراً اليوم في منزل ملك آرا! أخبار طيبة، ولكن غريبة ومخلوطة ومشوشة، ومنتشرة في كل مكان.

ذهب عصر ذلك اليوم الدكتور منوچهر خان وأخته فروغ زمان وهوشنگ ميرزا، بعد أن كانوا أرسلوا خبراً، لزيارة تاج ماه خانم وملك آرا. وجرى حديث طويل ـ مع أن أحداً لا يدري للأسف بما جرى حقاً. ولكن يبدو أن هؤلاء يريدون خطبة ثريا خانم للدكتور منوچهر خان نزهت! إن شاه باجي خانم، التي قدمت لهم الشاي، سمعت بأذنيها أشياءً. وثريا خانم نفسها جاءت بالشادر فجلست دقيقة واحدة. كان رأسها يوجعها جداً، كانت حقاً مريضة. لم تسأل الدكتور، ولا حتى فروغ زمان، التي كانت من صديقاتها القديمات، أو أي أحد آخر، عن صمته. في الحقيقة، كانت باردة عديمة الاهتمام بالجميع، وجواباً على الخطبة طلبت ألا يذكروا الموضوع أصلاً، وقامت فانصرفت.

لأن جاويد لم يستطع أن يتأكد من حقيقة الموقف من لسان رقية بگم، نهض مرة أخرى آخر الليل فذهب إلى زقاق شيخ فضل الله. رأى عربة هوشنگ ميرزا، التي كانت لا تزال أمام باب المنزل، فلم يتقدم. انتظر ساعة في زاوية، حتى خرج هوشنگ ميرزا وفروغ زمان، وركبا فذهبا، ثم جاء هو فدقّ الباب.

كان الدكتور منوچهر خان نزهت لا يزال في غرفة الجلوس، وكان

يرتدى بدلة زرقاء بالغة الأناقة، ووردة عنق، ويضع منديلاً فى جيب سترته، وساعة ذهبية، وفى أصبعه خاتم، ويحمل مبسم سيجارة طويلاً، وغير ذلك. وقف جاويد، فى أدب، وسلّم، وسأل أية خدمة بمقدوره أن يؤديها. مع أن الدكتور كان الليلة، الان، متعباً وسنان وكأنه ثمل قليلاً، إلا أنه تصرف مع جاويد ببشاشة ومجاملة، ورجاه أن يجلس. شكره جاويد إلا أنه لم يجلس. أشعل الدكتور سيجارة، وحدث جاويد بوقائع خطبته، كما لو كان يساراً خادماً كتوماً.

كان أغلب ما سمعته رقية بكم من هذا الفم وذاك صحيحاً ـ باختلاف أن الدكتور دخل فى كل تفاصيل الخطبة، وأضاف أنه طلب بنفسه من تاج ماه خانم وثريا خانم أن يجرى إعلان الخطبة سريعاً، ولما كانت الأيام أيام عيد فقد كان يريد السفر إلى شيراز، وكان يريد أن يأخذ معه ثريا خانم والعزيزة هما. وأخيراً صالب الدكتور ساقيه، وقال:

ـ «الخلاصة: للأسف لم يمض الأمر جيداً... فثريا خانم نفسها تعارض بشدة. معك حق، إنها غير مرتاحة جداً جداً». فسأل جاويد:

ـ «هل تكلمت معها، معها شخصياً، على انفراد؟».

ـ «لا... إنها حتى لم تكلم فروغ زمان...فذهبت إلى غرفتها وأغلقت بابها».

ـ «وماذا عن ملك آرا وأمها؟».

ـ «إنهما لا يعارضان ـ تحدثت على انفراد مع الأمير شخصياً... الأمير موافق».

نظر جاويد بانزعاج إلى الدكتور الشاب الذى كان يجلس ببرود. كان المحذور والمشكل اللذان يحيطان بالدكتور صغيرين عديمى الأهمية للدكتور. لا شك أنه لم يبذل جهده بتمام روحه وإيمانه. إن الخطبة الباطلة المهدورة، التى قام بها اليوم، قد مرت بالنسبة له دون أهمية، كما لو كان قد وضع دواءً عديم الأثر أمام شيخ محتضر، أو كما لو كان أصدر جواز دفن عجوز فى الثمانين من عمرها.

قال جاويد:

ـ «جئت لأقوم بأية خدمة». فقال الدكتور:

ـ «أدرى يا فتى. أفلست أنا أريد المساعدة؟... حسناً، ينبغى أن نصبر الآن لنرى ما يمكن أن يقع غداً أو بعد غد أو فى الأسبوع القادم... ماذا تعنى بأية خدمة؟». فقال جاويد:

ـ «يتعلق ذلك بخطوتك التالية ـ ماذا ستكون؟». فقال الدكتور:

ـ «اتفقت وأختى أن تذهب فروغ زمان وحدها هناك صباح الغد، فتجلس مع ثريا خانم، وتحدثها جيداً...». فقال جاويد بقلق وبصوت مختنق:

ـ «أتعرف فروغ زمان خانم بواقعة الحمل؟».

ـ فروغ؟ لا... إن علمت فروغ فسيعلم هوشنگ ميرزا، وعندما يعلم هوشنگ ميرزا الثرثار سائب اللسان (وخفّض صوته) إن ثريا حامل فى شهرها السادس فغداً لا كل مدينة طهران المليئة بالناس وحدها، وإنما سيبلغ الخبر أذنى الخواجه حافظ شيرازى[1] أيضاً... لا. لا أحد يدرى بأى شىء».

---

(١) كناية ايرانية رائجة، عرف حتى حافظ شيرازي بالخبر (وهو ميت منذ زمن): إشارة إلى شيوع الأمر.

بقى جاويدساكتاً مدة، ثم قال:

ـ «إذن فثريا خانم لا تدرى أنك جئت تساعدهاعالماً بالحقيقة والواقع؟». فقال الدكتور:

ـ «لا... ثريا لا تدرى. من أين لها أن تدرى؟». ثم رفع حاجبيه إلى أعلى، وسأل:

ـ «ما العلم بالحقيقة والواقع؟».

ـ «بالواقعتين...».

ـ «أيتهما وأيتهما؟».

ـ «إنك تدرى بأن ثريا خانم حامل ... ثم إن الجنين منك». فقال الدكتور ببرود:

ـ «لا... لا تدرى». فقال جاويد ببساطة:

ـ «ينبغى أن تقول لها».

ـ «لمن؟».

ـ «لثريا خانم. ينبغى أن تفهم وتعرف... ينبغى أن تعرف كل شىء...». فقال الدكتور:

ـ «كيف؟ إنها لا تفسح الطريق أمام أحد إلى غرفتها أصلاً».

ـ «ينبغى أن نطلعها الليلة...».

فنظر الدكتور مرة أخرى إلى هذا الذى كانت كلماته وأعماله كلها مثل شهاب منقذف ـ تستقر مستقيمة فى قلب الهدف. قال جاويد:

ـ «إذا كنت تريد، وتأذن، فسأقوم بهذا عن طريق رقية بگم... ولكن هذه ليست طريقاً جيدة. الأفضل أن تسمع منك شخصياً». فقال الدكتور:

ـ «أفـأنت أعـمى؟ أأنت أصم؟ أفلم أقل لك أنهـا لا تكلـم أحـداً، لا تفسح الطريق لأحد إلى غرفتها؟». فقال جاويد:

ـ «إذن فبواسطة رسـالة قل لهـا بصـراحـة وبسـاطة، وقل إنك تريد وأن من دواعى فخرك أن تساعدها، وليبق موضوع كون الجنين منك فى طى الكتمـان الآن، ولكنهـا ينبـغى أن تفـهم فـوراً أنك مطلع على واقع حملها وتريد أن تخرجـها من ذلك البيت ـ وتمنحـها وَهُمـا راحة الحياة وهناء المستقبل. وأن مسألة الذهاب إلى شيراز وإجراء العقد فوراً فكرة جـيدة جداً أيضـاً. أبارك لك امتـلاكك هذا العـقل والحكمـة واسـتفـادتك منهما».

تنحنح الدكتور وارتخى مبتسماً على كرسيه الوثير. أشعل سيجارة جديدة، وقال:

ـ «إذن فلست على ذلك القدر من التفاهة والإرعاب، ها يا جناب؟».

كـان جاويد يدرى أن كل سـعى الدكتـور المقتسـر كـان من أجل أن يخرج ذيله من المصيدة، ولكنه كان راضياً، قال:

ـ «اكتب لها رسالة... إنها سيدة بسيطة طيبة القلب، يمكن التحدث إليـها بيسر. وطبيعى أنها أيضـاً تريد الخلاص من هذه البلوى السيئة المرعبة...».

ـ «رسالة؟».

ـ «نعم... رسـالة، اكتب بالشكل الذى تراه، رتّبـها، قل إن انزعاجها انزعاج لك، انزعاج لعائلتك، التمس أن ترضى، من أجل هُمـا، من أجل خاطرها هى، أن تتعاون معك ـ الخلاصة: رتبها أنت».

ـ «لا أردى...».

ـ «ليست على هذه الصعوبة... بالنسبة لك».

وتجاذبا الحديث مدة أخرى طويلة. أخيراً رضى الدكتور. نهض فذهب وراء منضدته حيث جلس، وأشعل سيجارة أخرى، أخذ ورقة وقلماً وكتب رسالة. عندما أتمّها رفعها ونظر فيها، ثم تلاها لجاويد. كان متن الرسالة يحتوى إلى حد ما على نفس الأمور التى اقترحها جاويد ـ ولكن بتنفج وفخامة، وكانت إلى حد ما جيدة. وطبيعى أن الدكتور لم يذكر فى أى مكان من الرسالة أنه كان نفسه مسؤولاً عن كارثة هذا الحمل. وكان فى ذلك صلاح ـ فلو كانت ثريا خانم سترضى بأن تسمح لرجل أن يساعدها، فإنها ستسمح لرجل ذى جوهر وإيمان... لا لخائن، جاء كاللص فى ليلة مظلمة فتجاوز على عفتها.

أخذ جاويد الرسالة من الدكتور، وخرج مفعماً بالأمل من بيت الدكتور عائد إلى بستانهم.

جاء إلى حيث كانت ثريا بگم وليلا نائمتين تحت الكرسى[1]، فنادى على رقية بگم وأخرجها إلى البستان، حيث سلمها الرسالة. طلب أن تذهب فوراً، ولكن بحذر واحتياط، إلى تلك الباحة فإلى غرفة ثريا خانم، وتُقرئها سلام جاويد وتقول لها أن هذه الرسالة بعثها لها الدكتور. كان يتمنى من صميم قلبه أن يقوم هو بهذا العمل، لأنه كان يخشى أن تقع الرسالة فى يد شخص آخر، ويفتضح السر المرعب الذى كانت ثريا خانم وباقى النسوة يحتفظن به لأنفسهن. ولكنه لم يكن يمتلك حيلة أخرى. فأوصى رقية بگم كثيراً، وكان يحس أن بمقدوره أن يعتمد عليها. وضعت رقية بگم الرسالة فى كيس شدته بخيط داخل لباسها تحت ثوبها

(١) وسيلة تدفئة، هي عبارة عن مصدر نار فوقه بطانية، أو لحاف، ينشر فينام تحته، أو يجلس من يريد.

وشادرها. طلب منها جاويد أن تأخذ منها جواباً أو رسالة فتجلبها، وعندما تعود تبلغه النتيجة... قالت رقية بگم على عينى، ودعت ربها، وقالت باسم الله وذهبت.

عاد جاويد إلى حجيرته. تجرد من ملابسه وجاء فغسل يديه ووجهه وساقيه، وراح يدعو. تناول الخبز والحساء الذى كانت ليلا أو رقية بگم قد تركته له فى طرف صينية على الرف. نهض فخفض ضوء السراج. وارتدى ملابسه مجدداً وجاء فجلس على عتبة الباب، وراح ينتظر.

كانت الغربان لا تزال تنعب بين حشد أشجار الصنوبر القديمة. كان الهواء ربيعياً مناسباً والليلة لطيفة. كان جاويد يتأمل ما الذى تفكر فيه ثريا خانم، وما الذى تظنه فى حملها الغريب. كان قد سمع أن الحمل فى هذا العالم أمر مهم وحساس... ولكن كيف يكون عندما لا تعرف المرأة أبا جنينها؟

تذكر أمه وأفسانه. عندما كانت أمه حاملاً بأفسانه، كان يسمع أمه تقول دائماً إنها تحس نفسها فى حالة سماوية. كانت أمه تحس أنه سُمح لها بموجب أمر ورسم إلهى أن تساهم فى إدامة خلق هذا العالم، الذى هو عليه أهورا مزدا... ولكن ماذا بشأن ثريا خانم؟ عندما لا تدرى المرأة إن كان أبو جنينها جنياً، إبليساً أو أى رجل خائن، كيف يكون الأمر؟ عندما لا تدرى حتى كيف انعقدت نطفة جنينها فىَ رحمها، كيف يكون؟

عندما رأى شبح رقية بگم فى آخر البستان قفز فى محله، وركض باتجاهها.

ـ «هل أعطيت الرسالة بيد الخانم؟».

ـ «نعم، سلمتها بيدها».

ـ «ماذا حصل؟». فاستلت رقية بگم آهة:

ـ «ما أدراني... قرأتها وبكت... ثم وضعت الرسالة فوق السراج فأحرقتها».

نظر جاويد إلى العجوز فى الظلمة. مسحت رقية بگم دموعها هى بزاوية شادرها.

ـ «لم تكتب جواباً؟».

ـ «لا».

ـ «قالت شيئاً؟».

ـ «لا».

ـ «لم تقل أى شىء؟».

ـ «... ما الذى كتبه الدكتور فى تلك الرسالة بحيث أحرق فؤاد الخانم الصغيرة إلى ذلك الحد؟».

ـ «لا عليك».

ـ «أتدرى أنت؟».

ـ «اذهبى فنامى».

كان بكاء ثريا خانم بسبب بلوغ عارها أسماع الآخرين ـ أسماع أخى زوجها المرحوم، الدكتور منوچهر خان نزهت.

قالت رقية بگم:

ـ «ماذا سيجرى الآن؟». فقال جاويد:

ـ «الله يعلم». تحسرت رقية بگم بمرارة وقالت:

ـ «أوه يا إلهى... أواه، يا إلهى أية سنة كانت هذه التى مرّت. لا عاد

الله يجعلها من نصيب أى مجوسى ـ لا عاد الله يجعلها من نصيب أى ذئب صحراوى». فقال جاويد:

ـ «اذهبى نامى، يا رقية بگم». فقالت رقية بگم:

ـ «يا قمر بنى هاشم». وقال جاويد:

ـ «فى أمان الله» فصرف العجوز.

وراح هو أيضاً فنام مدة... علاوة على خوفه على ثريا خانم، كان قلقاً على حاله هو أيضاً، إذ كان يمكن ـ عندما لا يجدون جداراً أوطأ منه ـ أن يكسروا كل الصحون والأطباق على رأسه ويعلقوا كل شيء فى رقبته، وها عاد القلق والتفكير فى أفسانه يأكل روحه من أعماقها مرة أخرى. واستاء من نفسه لأنه سمح لأحداث الليلتين الأخيرتين المختلفة أن تبعده عن التفكير فى أفسانه.

ومر اليوم التالى، كما انصرمت ثلاثة أيام أخرى، ولم يحدث شيء عدا أن الدكتور نزهت جاء بنفسه مرة أخرى مع هوشنگ ميرزا، لرؤية ابنة ملك آرا الأرملة، وعاد دون طائل. اقترحا صداقاً مبالغاً فيه. قال لهما ملك آرا إنه لا اعتراض لديه، ولكن ثريا خانم غير موافقة، (كانت ثريا خانم قد انطوت تماماً الآن فى شرنقة وحدتها وصمتها)، وقال إن ابنته تبدو وكأنها ترهبّت، زهدت الدنيا والحياة، وهى تستاء من كل شيء. وقالت تاج ماه خانم إن ثريا خانم قالت لها إنها تريد من صميم فؤادها أن تذهب إلى كربلاء فتجاور هناك، ولا تعود بعد قط، ولكنها لا تفعل ذلك من أجل خاطرها.

وكان جاويد، فيما يتعلق بكون ملك آرا لم يعلم بعد بما جرى، مسروراً ومتعجباً بنفس الوقت. مع هذا الحشد من الخدم والخادمات

نوى الأفواه السائبة والجواسيس الأشرار الذين يمتلكهم ملك آرا، كان مما لا يصدق أن تقع هذه الفاجعة الكبرى فى بيته هو، تحت شاربيه هو، فلا تبلغ مسامع الأمير الغافل. وطبيعى أن ثمة احتمال بأن يكون ملك آرا يدرى، ولكنه يكذب، فيتظاهر بالجهل - أنه لا بد أن منفعته ومصلحته لم تكونا فى أن يعرف. ولم يكن هذا بالبعيد من ملك آرا أيضاً.

لم يكن شىء يستبعد من ملك آرا.

على أية حال، فى أثناء الثلاثة أيام التى مرت، والحدث كخزان بارود يزداد خطراً وظلمة، لم يقع تغيير جدير بالانتباه. لم تكن الأخبار التى كان يتلقاها جاويد من الدكتور نزهت، ولا الكلام الذى يسمعه من رقية بكم، مما يبعث على الرجاء، ولم يكن ليقع تقدم.

كان الربيع قريباً. وفى الحقيقة لم يكن بقى على عيد النوروز أكثر من عشرة أيام، ولكن أصغر شىء مما يدل على حرارة وتجدد الحياة لم يكن لبيدو فى قلب جاويد، ولربما فى أى مكان. كان الخدم والخادمات فى الباحة الأخرى يقومون بالتنظيف الموسمى للبيت، وكانوا عملياً مثل أسرى وعبيد سنة فارغة: يرفعون الكراسى فيركنونها ويأتون بالسجاجيد فينفضونها، يجلبون صحون الفضة والصينى فينظفونها، يفرغون ماء الحوض ويملأونه ماءً جديداً، ولكن أهل البيت كانوا ساكتين ميتى القلوب. وفى هذه الباحة أيضاً قامت ليلا ورقية بكم بتنظيف سردابهما الصغير وأثاثهما التافه. (كانت ليلا لا تزال، دأبها مخاصمة لجاويد عابسة، ولا بد أنها تعتبره مسؤولاً عن حمل ثريا خانم... وكانت تُطيّر على الدوام شيئاً ما بالكناية ولسعات اللسان، وتقول له كل ما تهوى. كانت

تقول إنها هى نفسها تعرف لِمَ لم يكن يريدها هى ولماذا أخذها مكرهاً، ذلك أنه يظن أنه قادر أن يأخذ لقمة أكبر من حلقه، يعنى أن يأخذ ثريا خانم، التى تصلح أن تكون أمه. ولهذا يغلى فؤاده الآن مثل الثوم والخل[1]، لأنه كان يدرى أى عمل كبير أتى».

كان جاويد لا يزال يجهل بما يدور فى فكر ثريا خانم. كان يسمعهم يقولون إنها تخشى الوحدة والظلمة فى الليل، وحتى فى النهار. كانت تترك المصباح منيراً أثناء الليل حتى الصباح. ومن الناحية الأخرى، فلم تكن تريد أن يقترب منها أحد. لم تكن تريد أن يدعو لها أحد، ولا أن يقوم بإبطال السحر عنها، وكانت تخاف من كل من حولها، حتى من طفلتها، ولا بد أنها كانت تهوى نحو اختلال الحواس فالجنون.

فى مساء الجمعة عندما ذهب جاويد إلى بيت الدكتور نزهت، كانا يفكران ويتداولان فيما إذا كان يتعين أخيراً أن يخبرا ثريا خانم بكل ما جرى أم لا؟ كان الدكتور مخالفاً بشدة للاعتراف بموضوع التجاوز على ثريا خانم... كان يقول : ليس الأمر أنه ينكر قيامه بذلك العمل، ولا أنه يخاف ثريا خانم لهذا السبب، بل - كان يقول - إنه يخشى أن تهرب منه ثريا خانم كلياً، وأن تتحطم حياتها. كان جاويد يتفهم حساسية الموضوع، وكان يعطى الدكتور الحق فى ذلك، كان الدكتور يبدو الآن مائلاً جدياً إلى حل الموضوع. كان يحس هو أيضاً بأن الوضع أكثر اضطراباً مما يمكن إبقاءه طى الكتمان، إذ كان يمكن أن ينفجر فى أية لحظة.

ولكن ولما كان بالإمكان بعدُ إنقاذ روح وحياة تلك المرأة. كان جاويد يتصور أنه إن تقدم الدكتور فقدم نفسه ببساطة وصدق على أنه

---

(١) كناية عن القلق والاضطراب، والجزع والخوف.

أبو الطفل، وقال لثريا خانم إنه فى لحظة غفلة وجهل افتتن بجمالها، وإنها كانت عسيرة المنال بالنسبة له دائماً، بحيث أحبها، فلربما ستغفر له ثريا خانم. وكان ينبغى أن تفهم ثريا خانم وحدها، وأن ترضى.

على أية حال، لم يكن الدكتور نزهت موافقاً الليلة. قال:

ـ «اسمع، يا ولدى العزيز، إنك تريد أن تساعدها. وأنا أيضاً أريد أن أساعد، حتى يزول هذا البلاء. ولكن ليست هذه هى الطريقة. فلا تلح علىّ كثيراً. لا تلحّ على الجميع. لقد بذلنا وسعنا كله، ولكن ثريا خانم لا تريد... بما أنها لا تريد فدعها لا تريد. تريد أن تذهب إلى زاوية معزولة، فتلد طفلها سراً. دعها تذهب أينما تريد. وأنا أعطيك أنت ما تريد. أنا أعثر بنفسى على أختك الصغيرة، فأضعها فى يدك، وتعودان أنتما أيضاً بالسلامة فتذهبان أينما تريدان».

نظر إليه جاويد. ارتعش فؤاده من شوق مفاجئ. ولكنه قال:

ـ «إننى أريد أن أساعد ثريا خانم ـ ولكننى لا أريد أن أساوم على هذا الأمر».

ـ «أفلم تقل إن عملك هنا هو العثور على أختك فقط؟». أراد أن يقول إن عملى هو الخير ومكافحة الألم و الشر أيضاً. ولكنه خشى أن يسخر الدكتور منه. فقال:

ـ «لا أريد غير أن تبلغ الخانم الأمان والاستقرار الفكريين، فقط».

فقال الدكتور:

ـ «ستبلغ، ستبلغ. نحن أيضاً بذلنا جهدنا. وهى نفسها تدرى. ثم إنه لن يحدث سوء. لن يحدث شىءوالآن إذا كانت تريد أن تحتفظ بالطفل، أو لا تريد أن تحتفظ به، فهى المسئولة عن ذلك... ما الذى

نستطيعه نحن بعد؟ أنا وأختى وزوج أختى، جميعاً، كم سعينا، كم رجونا، وأنت كم حاولت؟ والله! اترك». كان جاويد لا يزال ينظر إليه. قال:

- «كأنك تغسل يديك وتبتعد». فقال الدكتور:

- «لا يمكن القيام بعمل آخر. كما إنه لا صلاح فيه». فقال جاويد:

- «لا يمكنك أن تتركها. ينبغى أن تعرف كل شىء». فقال الدكتور:

- «لا. ذلك الموضوع - لا. كما أننى لا أرى فيه أى صلاح. أنت نفسك تعرف أنه ليس فيه صلاح. سيجعل كل شىء أكثر خراباً».

- «ينبغى أن نقوم بشىء».

- «أفضل شىء هو ألا نقوم بشىء... وأنت أيضاً لا تغلى لهذا الحد بعد، سينصلح يا فتى، لا تصر صحناً أسخن من الحساء[1]. اذهب إلى بيتك، فكر بعيدك ونوروزك. إن عيد النوروز والحفل القديم وتذكار جمشيد، أنتم جعلتموها موضة، فلا تتركها الآن لتأتينى هنا كل ليلة وتقف فتغلى وتنق وتصعد وتنزل، راكضاً وراء حياة الناس الخصوصية...».

مرة أخرى راح جاويد يحدق فى عينيه الشبيهتين بعيون سمك الرنكة. كالمعتاد، كان يأخذأمراً جزئياً فيعالجه بالكذب والرياء والمداورة. قال:

- «إنها الآن لا تفكر إلا فى هذه الآكلة الروحية: من الذى تسبب فى صيرورة جنينها...».

- «بابا، رح واتركنا لحالنا...»، فقال جاويد:

- «إن لم تقل لها، أو تكتب لها، سأكتب لها أنا شخصياً. ولكن إذا

(١) مثل ايراني سائر، وكنايته واضحة.

كتبت أنا، وسمعت منى هذه الأمور فلن يكون لذلك ـ للأسف ـ أثر طيب، بالنتيجة فلن يتحقق الخير الذى نريد. ولن يكون خيراً لك أنت أيضاً».

ـ «لا، والله».

ـ «إنك لن تفعل ذلك».

ـ «إن اضطررت....».

ـ «لا!».

ـ «الآن وقد جئت حتى هذا الحد، وأعددت الأرضية، فأتم العمل».

ـ «قلت لا. هذا الموضوع بالذات لا. ولا بأى وجه من الوجوه. وقد قلت تلك الليلة أيضاً إننى مستعد للمذاكرة وأخذ زوجة أخى الأرملة، التى حبلت فى بيت أبيها، من أجل حفظ ناموسها وحفظ ناموس عائلة أبى وأخى. وقد تقدمت أيضاً. وبذلت كل جهودى ومساعىّ. ولكن هذا الموضوع لا...» فصرخ جاويد:

ـ «يجب!.... مع أن هذا الرجل قد اعترف ـ عملياً ـ بفعله القذر، ولكنه لا يزال يفتقر إلى الشجاعة الأدبية للاعتراف بخطأه ودناءته. قال:

ـ «ينبغى أن يتم هذا العمل، لأنه ليس ثمة طريق آخر لتطهير فكرها». فقال الدكتور:

ـ «لا». ولكن فى كل مرة كان يقول: لا، كان إصراره وقوته يتناقصان.

استفاد جاويد من ضعفه، قال:

ـ «إذن فاكتب لها على نحو مبهم، أبلغها بشكل غير مباشر».

ـ «ماذا؟».

ـ «اكتب بنحو مبهم أنك تعرف أبا جنينها، قل إن أبا جنينها ليس

شخصاً غير معروف، ولكنك لا تريد إفشاء اسمه. قل لها إن أبا الجنين من عائلة نزهت الدولة، وإنه كان يهواها منذ القديم، وإن هذا الشخص، ذات ليلة، عندما كانت لا تزال فى بيتها القديم قاربها أثناءالنوم، ثم هرب وندم على عمله، وإنه يريد الآن أن يجبر غفلته وخطيئته، لكنه يخاف ولا يستطيع أن يتقدم فيقرّ علناً...

الخلاصة: اكتب فى صورة تؤثر فى قلبها وروحها، وتضطرها إلى الصفح والغفران...».

كان الدكتور نزهت يجلس حائر العينين يستمع إلى كلام جاويد. كان متعباً، وقد مضى هزيع من الليل وقد انهار من هذا الوضع ومن إصرار الصبى الذى كان أكثر إلحافاً من الليلة الظلماء... ولأن حديده هو كان على النار. فقد سلّم أخيراً.

أمر سيد على فجلب شاياً جديداً. ومرة أخرى جلس وراء منضدته. كتب الرسالة، على النحو الذى اقترحه جاويد، بفخامة وأسلوب معتنى به. ضمنها كل الأمور التى ذكرها الصبى، ثم قرأها لجاويد. صارت الرسالة فاضحة وفى نفس الوقت سنداً مبهماً وجيداً. وأضاف الدكتور نزهت أيضاً أموراً من عنده، مع أنها كانت كذباً إلا أنها جعلت الرسالة أكثر إثارة للهموم. كتب جملة مؤداها أن الشخص الذى تجاوز على ثريا خانم ندم بسرعة جداً على فعلته فانتحر، ولكنه قبل موته كتب رسالة للدكتور، اعترف بها ـ وعن هذا الطريق اطلع هو على السر والحدث. صارت رسالة من ثلاث صفحات محمّلة بالهم، كما لو أن الدكتور منوچهر خان انتزعها من وسط إحدى روايات القرن التاسع عشر الفرنسية وترجمها إلى لغة زمان القاجاريين الفارسية ـ العربية.

كان الوقت آخر الليل عندما عاد جاويد برسالته الجديدة من زقاق الشيخ فضل الله إلى كذر وزير دفتر والبستان المهجور.

قبل أن يوقظ رقية بگم ويرسل بواسطتها الرسالة إلى ثريا خانم، ذهب لحظة إلى غرفته هو، وأخرج قلمه ودواته هو، وجلس على الأرض، فشطب من الرسالة الجملة المتعلقة بانتحار ورسالة ندم المتجاوز على ثريا خانم للدكتور، وترك مكانها أسود. لم يكن يريد أن تقال ذرة كذب لثريا خانم. كانت الوقائع المبهمة بحد ذاتها رديئة ومرعبة ـ وهى توصل ما ينبغى إيصاله.

ولكن عندما عادت رقية بگم بعد ساعة، وقالت له إن ثريا خانم قرأت الرسالة، وأحرقتها، ولم تفعل غير أن بكت مرة أخرى، ولم تعطها جواباً، فهم جاويد أنه ليس ثمة أمل مشرق كبير. وفى مساء اليوم التالى أيضاً، عندما سمع أن الدكتور نزهت ذهب مرة أخرى لرؤية ملك آرا وتاج ماه خانم وثريا خانم، ولكن موضوع العقد والزواج لم يبلغ نتيجة مرة أخرى، فهم أن ثريا خانم عرفت بدون شك المتجاوز على عرضها، وأنها الآن قد غاصت أكثر فى أعماق وحدتها وتعاستها.

جلس طوال الليل فى حجيرته المظلمة، وكان البوم ينعب فى المبنى المحروق الخرب. كان بوم الليل أيضاً يعرف بأن الوضع سىء وخراب ـ فذلك واضح من عويله. وكان جاويد يعرف أيضاً أن الوضع سيىء وخراب ـ مع أنه لم يكن يعرف تلك الليلة إلى أى حد.

-٤١-

مع اقتراب ليلة العيد، كان الشهر الثامن عشر لتورطه وابتعاده عن يزد يحلّ.. دوره هو فيها خادم بالاكراه، بل فى الحقيقة أسير ورهينة عن أخته أفسانه فى طهران لدى ملك آرا. لم يكن عنده خبر من الرسالتين اللتين كتبهما ليزد، لم يكن قد تلقى جواباً عنهما، لأنه لا بد أنه لم يكن ثمة فى البلاد بريد وارتباط سالمين. وعلاوة على ذلك، فإن مسير وقائع حياته هو، وأفعاله وأفكاره وكلامه هو، وَضَعه هنا فى قيد زواج مصلحة ببنت خادم معقدة مستباحة. فى هذه المدينة، وفى عاصمة البلاد أيضاً، فى هذه النقطة من تاريخ إيران، حيث أجلسوا آخر ملوك القاجار على رأس البلد الشاهنشاهى، حيث الأمراء التافهون - بتحللهم وفسادهم الأخلاقى من جهة، وسيل أقاربهم الأقذر منهم من الجهة الأخرى، يتمسكون جيمعاً بقبعاتهم بيد ويسرقون الدولة والملة باليد الأخرى، خدشوا وخربوا دين الإسلام. يبكون عند الغروب على سيد الشهداء، وفى أول الليل يسكرون بعرق اليهود الذى يسلّم إليهم عند الباب، وفى آخر الليل يستحوذون على بنات الخادمات بزواج المتعة، يفسدونهنّ، وفى اليوم التالى يغتصبون أموال بناتهم الأرامل.. وليس عندهم أى إدراك أو إحساس للحياة والألم والمصائب التى تمر فى العِرْق الداخلى لبيوتهم.

فيما كان جاويد متمدداً فى ظلام حجيرته يستمع إلى صوت الغربان المشؤوم بين أشجار الصنوبر وأنين البوم النوّاح[١] فى نهاية

(١) بوم يصيح طوال الليل.

البستان، كان يتساءل ما ستكون خطوته اللاحقة بالنسبة لورطة ثريا خانم.

في الأيام الأخيرة كانت تاج ماه خانم قد قالت لملك آرا إن مرض وانطواء ثريا خانم وآلالمها ناشئة عن أن معدتها وأمعاءها طرحت ديداناً، وأنها انتفخت، وقد أضيفت البواسير إلى ذلك أيضاً، وأنه ينبغي مداواتها ومعالجتها بالطب المنزلي. ويبدو أن ملك آرا قد وافق، وأنه قد ذكر مرض ثريا خانم هذا للدكتور نزهت، مع أن الدكتور لم يحرم فقط من الحصول على إجازة معاينة بنت ملك آرا، بل لم تتح له الفرصة حتى للتحدث إليها.

كان جاويد، الذي كان الصدق والاستتقامة من أعمدة دينه ومذهبه، يتألم من هذا الوضع المظلم القذر الشائك. كيف كان هؤلاء الناس يتمكنون ـ بدلاً من العلاج واستئصال النجاسة والقبح ـ من اللجوء إلى الكذب؟! إن الكذب جذر كل إثم ومصدر كل الشرور وخصلة الشيطان. ينبغي استئصال كل نوع من أنواع الكذب... كان قلبه يريد أن ينهض ويذهب فيصرخ بسبب وعلة تعاسة ثريا خانم في كل مكان. كان قلبه يريد أن يفتح الجرح القذر بالمشرط، فيهدر القيحُ والصديدُ إلى خارج، ولكن إمكانية توفير الهدوء والنجاة لثريا خانم عن هذا الطريق لم تكن لتتوفر براحة بال.

وإما انصرمت أيام السبت والأحد والاثنين من الأسبوع الأخير للسنة أيضاً، ولم يصل خبر عن اتضاح وضع حمل ثريا خانم واستئناف عقدها، ذهب مرة أخرى إلى منزل الدكتور منوچهر خان نزهت (للمرة الأخيرة في هذا الحدث) وتكلم إليه.

كان الدكتور نزهت يرى فى جاويد قذى عينيه هو ليل نهار، فمع أنه كان فى الظاهر مثل صبى محتال يخشى معلمه، إلا أنه يعرف أن جاويد يمكنه أن يفضح فى أى وقت خيانته الكريهة لابنة ملك آرا. كان يصغى إلى كلامه، ولكنه كان يضيق به ذرعاً شيئاً فشيئاً. كان يأمل فى البدء ـ حقاً ـ أن تحل هذه القضية على نحو من الأنحاء بزواج مصلحة، دون أن يفهم أحد شيئاً. ولكنه يرى الآن، فى حديثهما مساء الاثنين، أن جاويد يصر على أن تعرف تاج ماه خانم وحتى ملك آرا بموضوع الحمل ومسؤولية الدكتور نزهت عنه. فى رأى جاويد، فى هذه الحالة فقط هذان سيجريان العقد حتى ولو بالقوة إن تطلب الأمر، وبهذه الصورة كان سرطان روح ثريا خانم سينفتح جرحه، تزول هيبته وهوله، فتتمكن المرأة المسكينة أن تتنفس.

قريب الظهر من يوم الثلاثاء ذهب الدكتور منوچهر خان نزهت مع فروغ زمان لرؤية تاج ماه خانم وثريا خانم. لم يكن ملك آرا موجوداً، فتكلم الدكتور ساعتين أو ثلاثاً مع تاج ماه خانم (ولمدة بحضور ثريا خانم)، ولكن لا ليعترف بإثمه، وإنما لكى يرتاح إلى الأبد من شر اتهام جاويد. (حدثت ثريا خانم عن هذا اللقاء بعد سنوات).

فى ذلك اليوم لم يحصل جاويد على خبر مما جرى فى هذا اللقاء حتى المغرب، وأرسل رقية بگم بعد الظهر إلى الباحة الأخرى لجلب الأخبار. استغرقت رقية بگم عدة ساعات ـ لا بد أنهم أبقوها هناك. وعندما عادت كانت مضطربة جداً،، ثقيلة الرأس وعابسة الوجه نحو جاويد. قالت إن ملك آرا لم يكن قد عاد بعد إلى المنزل ، ولكن مجىء الدكتور منوچهر خان نزهت وفروغ زمان، وحديثهما مع تاج ماه خانم

وثريا خانم كان سيئاً جداً وانتهى بزعل وشجار ذكر فيه اسم جاويد كثيراً... وإن الخادمات أيضاً يتحدثن بكلام كثير.

لم يكن جاويد يدرى بعد عم تتكلم رقية بگم، وكيف ورد اسمه هو فى هذا الصدد. سأل رقية بگم:

ـ «أتحدثت إلى ثريا خانم نفسها أيضاً؟»

ـ «نادتنى الخانم نفسها، سألتنى عن أشياء».

ـ «ماذا سألت؟».

ـ «عن الليلة التى احترق فيها هذا البيت... عن آخر الليل عندما كان الجميع قد انصرفوا».

ـ «وكان الدكتور قد جاء؟».

ـ «نعم... نعم... ولكن لا تضع فى فمى كلاماً... يعرف الجميع ما وقع تلك الليلة...».

ارتعش فؤاد جاويد. يعرف الجميع ما وقع تلك الليلة. إذن فقد توفرت الشجاعة الأدبية أخيراً للدكتور منوچهر خان... قال:

ـ «ماذا سألتك ثريا خانم؟».

ـ «سألتنى: تلك الليلة عندما أعطى الدكتور الخانم شاياً ودواءً إلى أى وقت بقيت أنا هناك. فقلت: حتى أغفت الخانم. ثم سألت: فى أى وقت خرجت من تلك الباحة فجئت إلى هذه، فقلت: مع الدكتور. وألقت أيضاً نوع آخر من الأسئلة. قلت إن الدكتور خفّض السراج وإننى خرجت برفقة الدكتور، وإن الدكتور أغلق باب القاعة. وإننا خرجنا معاً...».

جدد جاويد ذكرى تلك الليلة فى ذهن العجوز. قال:

ـ «ولكن الدكتور لم يخرج معك... أنت وحدك ذهبت... والدكتور بقى».

فقالت رقية بكم:

ـ «لا تضع في فمي كلاماً... طيب، صحيح، أنت تقول الصدق فلماذا أكذب. وقد قلت ذلك. نعم، ذهبت وحدى، وقال الدكتور إنه يريد أن يمر مرة أخرى بالخانم، ليطمئن إلى أن كل شيءعلى ما يرام، ثم يذهب إلى منزله».

ـ «بقى داخل البيت، وأغلق باب الباحة».

ـ «هوم، لا أدرى». فقال جاويد:

ـ «اسمعى... ألم تسألك ثريا خانم أيضاً عن هذه الأمور؟».

ـ «لِمَ لا. سألت».

ـ «بِمَ أجبتها؟».

ـ «بكل شيء».

لم يكن جاويد يدرى أى أشياء قالتها حقاً، وأية أشياء قالتها على شكل خاطئ. رأى ليلا تقدمت من زاوية البستان. كانت ليلا حتى تلك اللحظة واقفة فى تلك الزاوية تصغى إلى كلامهما. شأنها دائماً.

قالت ليلا:

ـ «ماذا تريد هذه العجوز المسكينة بعد؟ أتريد أن تضع هذه المسكينة تحت الساطور أيضاً؟».

فقال جاويد:

ـ «لا... اخرسى أنت، لا تتدخلى. أرجوك». فقالت ليلا:

ـ «كل ما فعلت، فعلته أنت... فلا تجرجر قدم هذه المسكينة».

ـ «قلت اخرسى. إن قصدى فقط أن يتبين الحق من الكذب».

ـ «إيه، وما علاقة هذه بالأمر؟».

ـ «إن رقية بگم هى الشاهد الوحيد على هذا الأمر». فقالت ليلا:

ـ «حسناً جداً، حسناً جداً، اذهب وسلّم هذه للقتل أيضاً. ضع جميع التقصيرات على عنق هذه. أخالتى العجوز هى التى أحبلت الخانم الصغيرة؟».

ـ «أغلقى فمك!».

ـ «أنت الذى فعلت... أنت أغلق فمك». فصرخ جاويد:

ـ «اخرسى!». واتجه إلى رقية بگم:

ـ «قلت إن ثريا خانم سألتك عن الدكتور وعن تلك الليلة، وإنك قلت لها شىء على حقيقته؟».

ـ «هوم».

ـ «قلت إن الدكتور بقى فى البيت عندما ذهبتِ؟».

ـ «هوم. ما أدرانى؟».

ـ «وقلت إننى كنت جالساً فى زاوية البستان؟».

ـ «نعم، سألت الخانم عن كل هذه الأمور... كلا، كما لو كانت تعلم...». ثم حدقت فى عينىّ جاويد، الذى كان قد شحب لونه.

ـ «جيد جداً، اذهبى فاستريحى. ممنون لأنك قدمت العون».

وأرسل رقية بگم إلى السرداب كى تنام. كما أرسل ليلا أيضاً ـ التى أرادت أن تبقى، لا بد لكى تناقره وتتشاجر معه ـ وراءها. قال إنه ينبغى أن يبقى وحده.

كان المساء قد خيم. جاء فجلس وحيداً على حافة الحوض، وعندما غسل يديه ووجهه ورجليه من أجل صلاة المساء، كانت يداه ترتعشان. وقف وتلا صلاته. كان داخله منقبضاً حزيناً، وكان يحس نفسه وحيداً

أجوف بلا مأوى. كانت ليلة ربيعية باردة وملأى بأصوات الطيور الصاخبة فى أول الليل. فى هذه البضعة الشهور الأخيرة كان كلما انقبض فؤاده وأحس اضطراباً شديداً فى الليل، كان يتذكر ليلة وفاة عمه فى الجبال المظلمة المنفردة قرب قم ـ ويتذكر دعاءً محزناً علمه إياه عمه تلك الليلة. كان ذلك الدعاء مأخوذاً من أحد أقسام كتاب «گاتها»، يضم حديث زرادشت مع أهورامزدا، وهو حسب قول عمه أول وأطهر وأعزّ تراث أخلاقى للبشرية. «امنحنى عونك الغالى... أدرى أننى معدم، عندى قطيع لا يحسب له حساب، وصحابى قليلون... أصرخ عند أعتابك أن تكون عونى، يا أهورا. امنحنى عونك الغالى».

عندما انصرمت من الليل ساعتان أو ثلاث كان جاهزاً للحركة نحو بيت الدكتور منوچهر خان نزهت إذ وقع فجأة ما كان يحس منذ الغروب خشيته ورعشته، وفى الليلة الربيعية انفجرت كل واقعة حمل ثريا خانم المشؤوم فى منزل ملك آرا.

جعله وقع الكلمات والركلات الشديدة المنهالة على باب البستان يفزّ عن زاوية حجيرته. كان أحدهم فى ظلمة الليل يقتلع باب البستان القديمة من مفصلها ـ أو كأنه كان فوجاً من الناس. جرى ففتح الباب. انكب عليه غلوم على وولداه الكبيران: أحمد ومحمد، مثل دببة مصابة بجراح. كان قد مضى وقت على جاويد لم ير فيه غلوم على، كان قد سمع أنه يحتضر من آلام الخصية والفتق، التى اختلطت فيما بعد بالإمساك. ولكن غلوم على كان الليلة رغم كل مرضه مثل الأجل المعلق، وراء الباب، وكان لوجهه المنتفخ الأصغر حالة شؤم عجيبة.

طبيعى أن جاويد خمّن أن موضوع حبل ثريا خانم قد بلغ مسامع ملك آرا ـ لا بد أن تاج ماه خانم أخبرته، أو سمعه خارج البيت، من آخرين ـ أو كلا الأمرين. قال غلوم على:

ـ «اقفز تعال ـ يريدك السيد، عنده شغل معك». فسأل جاويد:

ـ «معى؟». فقال غلوم على:

ـ «مع من إذن؟ مع أحمد شاه؟ إمش».

لم يكن جاويد قد واجه ملك آرا بعد موت أمه، قبل سنة ونصف، فيما عدا بضع مرات عن بعد، وبتحيات ونظرات عابرة. لم يكن ملك آرا قد طلبه، لم يكن قد تحدث إليه. ولكن جاويد كان يرى الليلة حتى فى ظلمة السماء أن ثمة بلاءً جديداً فى الجو.

خرج من البيت، وذهب وراءهم إلى الباحة الأخرى. كان أهل المحلة

قد جمعوا أكوام الحطب فى الأزقة وفى التكية، وأشعلوا ناراً. كانوا يقيمون «حفل ليلة جهار شنبه سورى[١]»، التى هى من مراسم أهله التاريخية فى يزد، ولكن كان واضحاً أن غلوم على وابنيه لم يكونوا يأخذونه إلى مراسم حفل ليلة الأربعاء.. إلا إذا كانوا يريدون أن يلقوا به حياً فى لهيب النار... وهو أمر تمنى فيما بعد لو كانوا فعلوه.

وراء غلوم على عبر الممر المظلم، فدخلا البستان، وصعد سلالم الإيوان. كانت هذه هى المرة الأولى التى يضع فيها قدميه فى إيوان ملك آرا وصالته.

كانت الصالة الكبيرة، بأبهة وجلال السجاجيد ومعلقات الجدران الإيرانية، والستائر والمتدليات الإيطالية، والنجف والمصابيح والأسرجة والرسوم والأثاث والكراسى والمناضد الروسية، ومصابيح الكهرباء ـ التى أمر ملك آرا فنصبت له حديثاً ـ تعمى العيون بالنسبة لجاويد. وفى أعلى الصالة. كان يقف ملك آرا، واضعاً قبضتى يديه فى حزامه. كان يخطو بعصبية، وكانت ثريا خانم وتاج ماه خانم تجلس كل منهما فى زاوية أمام وسائد ذات وجوه من سجاجيد حريرية، وقد غطتا وجهيهما. وكانت هما الصغيرة جنب أمها أيضاً فى الصالة.

حيا جاويد الأشخاص الكبار الثلاثة. لم يرد على سلامه غير ثريا خانم. وأمر ملك آرا الخدم أن يخرجوا، ويغلقوا الأبواب.

عندما أغلقت الأبواب، تقدم ملك آرا، بعينين مثل كاستىْ دم، من جاويد. وصرخ:

ـ «يا ابن الكلب ولد الزنا أكان خيرى عليك قليلاً؟ ألم اؤويك؟ أفلم

(١) حفلة ليلة الأربعاء، يقام عشية الأربعاء من السنة، حيث توقد النيران ويعبر الناس من فوقها قافزين. رسم زرداشتي قديم لا يزال حياً، ويمارسه كل الإيرانيين بصرف النظر عن ديانتهم.

أزوّجك؟...».

فقالت ثريا خانم:

ـ «يا أبى العزيز، قلت مائة مرة: أرجوك ألا تزعج نفسك... ليس الأمر من تقصير هذا المسكين أصلاً، وأبداً... لا تتعب نفسك... وإن قلبك وضغط دمك أيضاً وضعهما سيء».

فصرخ ملك آرا:

ـ «اخرسى! انكتمى!».

ـ «أبى العزيز!».

ـ «قلت اختنقى...»، وأشار نحوها بأصبعه مهدداً.

سكتت ثريا. وقالت تاج ماه خانم:

ـ «ذليل الأموات ولد الحرام، أيصدر هذا العمل عن قدّه الذى لا يتجاوز نصف شبر؟». كان ملك آرا لا يزال محدقاً بابنته. ثم نظر إلى جاويد، وقال:

ـ «لقد تركت تمام ذلك البيت الضخم تحت يدك ويد تلك الليلا القحبة. قلت عيشا ... ولكن أية خدمة وعرفان جميل تقدمهما لى بلا مقابل؟أن تنتهك ناموس ابنتى الأرملة المسكينة».

فتح جاويد فمه ليقول إن أذنت فإننى سأروى كل شيء. فصرخ ملك آرا:

ـ «اختنق يا ابن الزنا المجوسى عديم الدين. قبل أن أمسك أنا نفسى بيدىّ هاتين فأخنقك فى هذه الغرفة بالذات، أسلمك فيخرجون لك عينيك، ويقطعون آلة رجولتك القذرة بالسكين ويحمرونها بالزيت فأعطيك اياها كى تتسمم بها...». مرت أخرى انتحبت ثريا خانم:

ـ «أبى العزيز... أبى العزيز... لقد قلت لك، ليس ذنب هذا، أفلست أدرى أنا؟ اترك هذا الطفل، دعه يذهب. لقد تعذبت بما يكفى، أستحلفك بكل ما تعبد، لا تضع دم هذا الطفل أيضاً على روحى وضميرى... ما الفائدة؟». فقال ملك آرا:

ـ «أولاً أقطعه إرباً إرباً، ثم أخنقه بيدىّ هاتين».

ـ «لا، أرجوك... أتوسل إليك...». فخزر ملك آرا ابنته بعينيه:

ـ «وأنت أيضاً أخنقك بيدى هاتين».

ـ «افعل، اقتلنى، اخنقنى، أنا أستحق». وبكت. وراحت هما أيضاً تبكى.

ـ «أخنقكم جميعاً».

كانت يدا جاويد وساقاه ترتعش... قال:

ـ «إذا سمحت فإننى سأشرح كل شىء، إن ثريا خانم بريئة، وصحيح ما تقوله من أنك ينبغى أن تعرف المذنب الأصلى... إن رقية بگم شاهد حى...». فصرخ ملك آرا:

ـ «واخنق تلك القحبة أيضاً». فقالت ثريا خانم:

ـ «يا أبى العزيز يكفى أرجوك...». فصرخ ملك آرا:

ـ «انكتمى ما دمت لم أخنقك حتى الآن». وقالت تاج ماه خانم:

ـ «اسكتى يا ابنتى... لا تقطعى كلامه، دعى عصبيته تنام... أنت تعرفين أخلاقه...».

لم تهتم ثريا خانم لأمها. قالت:

ـ «إذا ما قتلت هذا الطفل البرىء، فإننى أقسم أننى سأتناول السم وأقتل نفسى... لقد طالما تحملت جميع أنواع العذاب كل هذه المدة،

ولكنى لا أريد أن أصير أيضاً السبب فى موت هذا الطفل البرىء، الذى أنزلنا على رأسه كل آلام وظلم وقهر الزمان، لا أريد لضميرى وروحى أن يكونا تحت وطأة موت هذا الطفل أيضاً... ليس ذنبه، ليس ذنبه، ليس ذنبه!... كم مرة أقول؟». واحتضنت طفلتها، فهدأتها.

ـ «إنه من فعل هذا الضئيل ابن الكلاب». فقالت ثريا خانم:

ـ «يستحيل أن يكون هذا الطفل قادراً على القيام بذلك». فقالت تاج ماه خانم:

ـ «أفلم تسمعى ما قاله الدكتور منوچهر؟ أفلم تسمعى قوله إنه عندما انصرف كان هذا الفأر الميت تلك الليلة جالساً فى الباحة...».

التفت جاويد وراح ينظر إلى تاج ماه خانم. لم يكن يفهم ما كان قصد امرأة ملك آرا، لأنه لم يكن يدرى أية أكاذيب نثرها الدكتور عليهم ذلك اليوم. وقالت ثريا خانم:

ـ «لا، لا، لا! أفأنا أدرى أحسن أم أنتم؟». فقالت تاج ماه خانم:

ـ «ما أدرانى والله...» واستدار ملك آرا نحو جاويد صائحاً:

ـ «إن كبدى هذه تلتهب... يا ابن الكلب، لقد كانت هذه المرأة سيدتك، كانت فى مقام أمك... فى سن أمك». ولطم جاويد يميناً ويساراً، ثم لكمه على نحو متوالٍ على رأسه ووجهه.

قالت ثريا خانم:

ـ «ليس ذنبه».

ـ «ذنب ابن الكلاب هذا». فصرخت ثريا خانم أخيراً:

ـ «إننى أدرى ذنب مَنْ، أقول لكم ذنب مَنْ. اتركه».

تجاهل ملك آرا كلام ابنته ـ أو أنه لم يرد أن يسمعه. قال:

ـ «ذنب ابن الكلاب هذا».

وضع يديه وراء ظهره، ومشى بضع خطوات. ثم توقف، ومرة أخرى حدّق في الصبي. قال:

ـ «منذ اليوم الذي وقعت عيناي على عيني المجوسي عابد النار مثيرتيْ الفتن علمت أيّ ابن كلب ابن محروق يمكن أن يكون ـ فهمت أية نار يمكنه أن يؤججها في حياتي، إنه أسوأ من أبيه الجسور ذاك ولسانه الطويل...». تقدم إلى أمام فوقف. كانت عيناه الدقيقتان السوداوان في وجه جاويد.

فجأة وثبت يدا ملك آرا فتناولتا حلقوم الصبي، وبعد ثوان كانت أصابعه وأظافره مثل كلاّب من حديد حامٍ تضغط حنجرة الغلام. كان جاويد بين يديه حملاً صغيراً لا شأن له. كانت حنجرته وحلقومه ولسانه تحترق جميعاً. كانت عيناه على وشك أن تخرجا من محجريهما. هزّه ملك آرا، وطرحه أرضاً. كان جاويد يرى النجف، ومعلقات الجدران الحريرية، واللوحات الملونة الروسية، وهي تمر أمام ناظريه. ثم سمع صوت ثريا خانم تبكي وتتضرع إلى أبيها. ثم رأى بدن ثريا خانم مكشوف الشادر وهي تهز ملك آرا، تمنعه من قتل الصبي الطفل، تقول إن هذا حرام، تقول إن هذا العمل جزاؤه كفارة دم وعذاب جهنم... وكانت هي في الحقيقة من سحبت يدي ملك آرا عن عنق جاويد، فأبعدتهما.

ولكن ملك آرا كان لا يزال مثل كورة نار. كان الغضب والكراهية قد جعلا وجهه القبيح أكثر كدراً.

صرخ طالباً أبي تراب... في الثانية التالية دخل أبو تراب وغلوم علي، اللذين كانا كأنهما يأجوج ومأجوج بالضبط قد اختفيا في ظلال

الإيوان. قال لهما ملك آرا:

ـ «خذا ابن الكلب ابن الزنا هذا من هنا...»، ثم أصدر حكماً هزّ جذور روح جاويد ونفسه...

وبقيت كل التماسات ثريا خانم عديمة الفائدة وبلا جدوى.

لم يتقدم أبو تراب وغلوم على، ولكنهما استدعياه إلى خارج الصالة بالإشارة وفاحش القول.

عند باب الصالة ألصقاه ثم أخرجاه إلى الإيوان بالركلات واللكمات، وعلى هذا النحو أنزلاه عن السلالم. اجتاز به البستان. كان أول الليلة الربيعية لا يزال لطيفاً ومليئاً بأصوات الطيور بين أغصان الأشجار. جلبه أبو تراب وغلوم على، مجرجرين إياه إلى السرداب الخالى خلف المبنى المحترق، الذى كان الليلة مضاءً قليلاً بمصباح هوائى[1] واحد. تجاذب أبو تراب وغلوم على حديثاً بينهما، ولكن من قَدْر ما نال جاويد من ضرب على رأسه ومن قدر ما أصابه من الدوار، لم يفهم شيئاً منه. سمع فقط غلوم على يرسل أحد ولديه فى طلب عسگر خان. فقد كان هذا العمل عمل عسگر خان.

فى السرداب المظلم الخالى، طرحاه على الأرض، وبالركلات والهراوات أبقياه هناك. ثم فجأة، دون أن يفهم، أو دون أن يرى ما الذى سيجرى، سحب غلوم على، من وراء، سرواله الأبيض حتى أخرجه من رجليه، كما لو كان هو وجده وآباؤه أساتذة فى هذا العمل. جلب أبو تراب حبلاً ربط به كتفيه وعضديه. وشد غلوم على ساقيه معاً بإحكام أيضاً. ثم جلسا كلاهما وراحا ينتظران... راحا يتكلمان، وينتظران عسگر خان. تمازحا وهذرا، وسخرا منه باستهزاء. «آكلة ابن الكلب»،

---

(١) مصباح مغلف بجدار زجاجي إضافي ليمكنه من مقاومة الريح.

«إنها ليلة حفل الأربعاء، كيف بأن نشغله؟!» «ليهيلوا التراب على رأسك المجوسى، إنك لم تتمكن بعد من حساب نتائج أعمالك»، «بنت الأمير ملك آرا، ليست ورقة شمندر!»، «رحم الله ملك الحمير، الذى أنت جناب ولى عهده»، «أيها القرد الحمار، الناموس لا يصير لبناً رائباً». و«لن يعود بمقدوره أن يجلس فى آخر ذلك البستان بلا عمل فيعد ذباب خصيته».

وأية أعمال لم يفعلاها به.

بقى مدة طويلة عارياً، مقيد اليدين والرجلين، ووجهه على الأرض السوداء. كان محتاراً يفكر، بعد أن ينهيا عملهما معه أسيبقى حياً... أم لا؟ كان يخاف، ولكنه كان يفكر أكثر فى أفسانه، ويعانى بأساً من أنه لم يحقق عمله فى هذا العالم. كان يفكر فى حياته وسفره ونهايته. مرّ يوم مراسم «لبس السدرة» بذهنه مثل برق فى السماء. كان عصراً إيرانياً نيّراً. مرّ فى بيت النار. ثبت أنه رجل زرادشتى فى هذا العالم وشهدوا له بذلك.وما معنى أن يكون المرء إنساناً؟ الإنسان أفضل موجودات الأرض جميعاً. مم فضلُنا؟ فضلنا من قوة عقل أهورا ورحمته... أين كان؟ متى كان؟ أين هنا؟ ما الوقت؟

عندما جاء عسگر خان ـ الذى كان فحل غول بلا قرنين وبلا ذيل ـ جاء هؤلاء الرجال الثلاثة عند رأسه، وسأل عسگر خان.وهو يشحذ سكينه:

ـ «كم يعطى الأمير؟». فقال ميرزا أصغر:

ـ «تومانا واحداً».

ـ «تومانا واحداً؟».

---

(١) سكّر مقولب على شكل مخروط يزن نحو كيلو غرامين.

ـ «حسناً، سأضيف عليه رأس قند[1] أيضاً». حك عسگر خان قذاله عابساً، وقال:

ـ «لا يكفي. ثمة ألف نوع من النفقات والأتعاب بالنسبة لنا. إنه لا يكفي نفقات رواحنا ومجيئنا».

فقال ميرزا أصغر خان:

ـ «يكفيك إنك تقص رأس الآدمي للشرطة لقاء خمسة هزارات(١)».

ـ «في هذا متاعب».

ـ «لا متاعب فيه».

ـ «خذ فلساً واخص كلباً، ادفع ثلاثين فلساً واذهب للحمام»(٢).

فقال غلوم علي:

ـ «تكفي هذه الألاعيب. إنه أمر كلبيّ الدين هذا».

كان جاويد لا يزال عارياً مقيد اليدين والرجلين ينظر إليهم من أرضية المطبخ ـ وهم يواصلون المساومة والاستهزاء والهذر.

أخيراً تهيأوا ـ جلس عسگر خان بهيكله الضخم على ركبتي جاويد. أمسك عضو بدن جاويد الرقيق في قبضته، وسحبه. دفع رأسه هو إلى وراء، وقدم السكين إلى أمام، وقال بسم الله، وبلا مبالاة وعدم اهتمامٍ قصابٍ متعب من قصابي أدنى السوق، في ليلة عبوس، قطع اللحم وفصله ـ فار الدم بحرقة لاسعة ـ وتنفذ حكم ملك آرا على جاويد: لم يعد بمقدور جاويد أن يجعل امرأة تحبل.

---

(١) يعني نصف تومان.

(٢) مثل شبه مندثر، ودلالته واضحة: هذا العمل لا يكلفك شيئاً.

ـ ٤٣ ـ

فى أواسط الليل عندما استيقظ، كان مرة أخرى فى حجيرته القديمة. كانت رقية بگم وليلا تنام كل منهما فى زاوية ملتفتين على نفسيهما. كان كل جسده يوجعه، وبين ساقيه (فيما عدا الخرقة المتهرئة التى حشروها هناك، والتى كانت مخضلة بالدم مشدودة بخيط) لم يكن ثمة شىء. كانت بطنه وساقاه توجعه بحرقة. وضع يده على وجهه، وبكى. لقد كان منذ البدء، فى هذه الدنيا، صغيراً دقيقاً ولا شىء، وها هو بمرور الأيام ينقص، استدار نحو الجدار وراح يبكى بصوت عال.

فى الظلمة أحس يداً على كتفه، وقال صوت:

ـ «يكفى».

أدار رأسه، ونظر، كانت ليلا. تذكر الليلة التى استيقظ فيها ـ بعد واقعة ختانه ـ فوقعت عيناه على عينى أمه، فكلمته تلك المرأة الرؤوم. أما الليلة، فقد كان وجه ليلا شاحب اللون، بارداً، شأنه دائماً مغضباً سىء الخلق، وعيناها حاقدتين شامتتين. سألها جاويد:

ـ «أنتما مرتاحتان؟».

ـ «ماذا؟».

ـ «لم يفعلا بكما أمراً؟». فقالت ليلا:

ـ «ما شأنهم بأى أحد آخر؟ كل النيران أنت أحرقتها».

أدار جاويد رأسه، ونظر إلى رقية بگم، التى كانت تنام مطمئنة، يبدو أنهم لم يؤذوا العجوز. وضع يديه على وجهه، فغطاه. قالت ليلا:

ـ «هذا جزاؤك...». فأغمض جاويد عينيه أيضاً. لم يقل أى شىء.

ـ «هذا جزاؤك. ارتاحت كبدى. كنت أتمنى دائماً ـ إنك ما دمت لا تريدنى ـ ألا يكون بمقدورك أن تنام مع أية امرأة أخرى، ألاّ يكون بمقدورك أن تُحبل أية امرأة أخرى... تستحقه».

فقال جاويد:

ـ «أرجوك». فقالت ليلا:

ـ «ارتاح قلبى». وقالت رقية بگم، التى استيقظت الآن:

ـ «اتركيه، المسكين. قلّلى مُلاحاته».

لفت ليلا شادرها حولها بإحكام. فقالت رقية بگم:

ـ «كيف حالك، يا حبيس اللسان؟». قال جاويد:

ـ «حى، للأسف». فقالت رقية بگم:

ـ «فى الأقل، رح اشكر رب أبى الفضل على أن جسدك سالم... ولم يفعلوا بك ما فعلوه بأولئك الآخرين». لزم جاويد الصمت.

ـ «هذا جزاؤه...»

فقالت رقية بگم:

ـ «وا... قلت اخرسى أيتها الذليلة التى لم تمت. ما شأنك به حبيس اللسان هذا؟ لماذا تلاحيه؟ إنه لم يفعل سوءاً».

ـ «لم يفعل سوءاً؟ من الذى قال إنه رمى لفافة المال والمصاغ التى أعطانيها ملك آرا فى المرحاض؟ ألم يكن يكذب؟ يكذب. لقد أخذها وأخفاها وأكلها». فقالت رقية بگم:

ـ «كان ذلك المال حراماً... كائناً من كان الذى أعطاك إياه، أنّى جاء به، كان حراماً. إن الإنسان ينام غداً فى شبر من مكان وينبغى أن يجيب على أسئلة نكير و منكر...».

أدار جاويد رأسه نحو الجدار، وسعى ألا يسمع قولهما.

ولكن كلامهما تلك الليلة وغَدِها، وفى الأيام والليالى بعدها، وإلى أسابيع وشهور بعد، كان ملحاً على جروح بدنه وقروح روحه.

فى الصباح التالى، خرجت ثريا خانم ـ لأول مرة بعد أشهر ـ من البيت فمرت به. مرة أخرى كانت هذه المرأة هى التى أنقذته من الموت. نظر إليها جاويد. حتى تحت الشادر الأسود الذى كانت ترتديه، كان جسدها يبدو سميناً منتفخاً. من تحت لحافه الممزق، نظر إلى وجهها المصفر المنتفخ. كانت فى عينيها عروق دم، وكانت الحلقات الدكناء المتورمة تحت جفنيها أكثر ورماً من أى وقت كان. كان يتساءل: أيهما أشد، ألم روح هذه المرأة أم آلام جرح جسده؟

لو كان غير هذا الوقت لكانت ثريا خانم جلبت معها الدكتور منوچهر خان. ولكنها اليوم أمرت بطلب حكيم. وبعد أن صرف هذا الرجل النسوة من الغرفة، فحص جرح جاويد.

بعد انتهاء العمل وانصراف الحكيم، جاءت ثريا خانم فقعدت بضع دقائق عند رأس جاويد.

ـ «أتحس وجعاً شديداً؟».

ـ «لا».

ـ «سيبقى الألم شهرين أو ثلاثاً، ثم يتحسن».

ـ «كنت آمل أن تنجىْ أنت من الألم والهم». نظرت إليه ثريا خانم. وقالت:

ـ «كنت تحاول تلك الأيام أن تساعدنى».

ـ «سعيت أن أرد بعض خيرك...»، فوضعت ثريا خانم يدها على رأسه.

ـ «أيها الطفل المسكين، لم أوقعت نفسك إلى هذا الحد فى وجع الدماغ والبلاء... ما علاقة همومى بك؟ أفعذابك وبؤسك قليلان»؟.

من هذا اللطف القليل الذى يلمسه هنا غص بعبرته، فتلوى البكاء فى حلقومه وأنفه. وشكرها.

ثم قالت ثريا خانم قولاً كان كالزيت يراق فوق النار، جعل روح جاويد المعذبة تلتهب. قالت:

ـ «أتريد أن أهيء لك الوسيلة كى يعيدونك إلى يزد؟».

يزد!... مضت سنة ونصف على صيرورة هذه الكلمة، وفكرة العودة إلى يزد وحياته الأولى، أمنية واحدةٍ واحدةٍ من خلايا بدنه. ولكن الآن، تملكه البكاء مرة أخرى.

فقالت ثريا خانم:

ـ «ماذا؟ لماذا يبكيك هذا الكلام؟ لم أعهدك رقيق الفؤاد؟».

ـ «لا، لست كذلك، يا خانم...».

ـ «حسناً، لا تريد؟...».

ـ «أريد من ربى أن أعود إلى يزد. لقد كانت أمنيتى الدائمة أن أعود...».

ـ «حسناً، فماذا إذن عندما قلت لك يزد، بكيت؟». فقال جاويد:

ـ «لا أستطيع العودة...».

ـ «ليس الآن... عندما تتحسن...».

ـ «لا!».

ـ «لماذا؟». جفف دموعه بكم سدرته، وقال:

ـ «أختى... لا أدرى أين».

فخفضت ثريا خانم رأسها، واستلت من صدرها آهة كانت بالغة الغيظ والحسرة، وفى الوقت نفسه، تامة العجز. ودعت بالسوء. ثم تكلمت إليه مرة أخرى، طيّبت خاطره، وبعد أن أعطته مقداراً من المال، ودّعته ونهضت.

بدلاً من التوديع، منح جاويد نفسه الجرأة فسألها:

ـ «أنت... كيف حالك، يا خانم».

شدّت ثريا خانم شادرها، وحاولت أن تبتسم. قالت:

ـ «نحن النساء غليظات الجلود... نتحمل. لا تقلق بشأنى، أفهمت؟ وتذكر، مهما يقع لى فأنا لا زلت ابنة الأمير ملك آرا...»، ثم انطلقت. قرب عتبة الباب أدارت رأسها، وحدّقت فى الصبى تحت الخرق المدماة، وقالت:

ـ «لم تكن تدرى كم هم سيئون سود القلوب أهل هذا المكان، أكنت تدرى؟...» فهز جاويد رأسه نفياً، وقال:

ـ «لم يكن الناس سيئين سود القلوب فى الأصل».

ـ «متأكد؟».

ـ «نعم».

ـ «ألا زلت تظن هذا؟».

ـ «لم يكن ناس هذه الديار هكذا... كان الناس أطهاراً يعرفون الله...»، كان قلبه مليئاً جداً، ويدرى أن ثمة قول كثير... ولكنه مرة أخرى لم يكن يريد أن يعطل هذه المرأة، فهز رأسه رويداً رويداً، وقال:

ـ «ذات يوم كنت أظن أنه إن كان ثمة فى هذا البيت دين ومذهب وإيمان إنسانى فهى فى روحك أنت. وأنا اليوم واثق أنها فيك أنت فقط

وفقط. لا أتمنى إلا أن يراعى الآخرون إسلامهم مثلك، أن يكونوا مثلك».
وخفض رأسه. فقالت ثريا خانم:
ـ «إن هؤلاء الذين فعلوا بك هذا ليسوا بمسلمين. هؤلاء لا دين لهم ولا إيمان صحيحين طاهرين عندهم... لا تبال، سيجزيهم الله جميعاً».
لم يرفع جاويد رأسه.

- ٤٤ -

كان أسوأ ربيع نوروز يتذكره، وما وقع له قبل العيد بيومين أو ثلاثة، كان آخر فعل كريه قدّر له أن يحل به فى هذا البيت.

على أية حال، فى أوائل الربيع سارت حياته، بفعل عطف ولطف ثريا خانم - طبيعى أنه ما دامت تلك السيدة فى بيت ملك آرا - ببساطة وبأقل احتياجات الحياة وأكثرها أولية. كانت رقية بگم وليلا، وفق أثر خانم، قربه. ولم تكن ليلا لتظهر نحو جاويد - الآن وقد صار أشوه عديم الفائدة - كثيراً من الزعل والنفور، بل كانت تعامله وكأنه شىء زائد عديم الجدوى، مثل خرقة مسح صحون، ذليل عديم الجدارة. ومع أن جاويد قد أعطى مصروف البيت ومفتاح باب الباحة المخروبة لرقية بگم العليلة - بمساعدة ثريا خانم وأمرها - إلاأن ليلا كانت فى الحقيقة هى من يدير البيت... وأثناء الشهر الأول الذى لم يكن فيه جاويد قادراً على النهوض من مكانه، كانت ليلا هى من تُحكم لف وجهها بالشادر وتخرج من البيت للشراء.

فى أواسط فروردين[١] من تلك السنة أخذ ملك آرا ابنته وحفيدته معه إلى فرنسا، فتركهما عند ابنه كيومرث خان، وعاد هو فى أواسط شهر خرداد[٢]. كان قد سافر عن طريق إحدى البلاد المهمة المجاورة - وفى الواقع بمساعدة سفارة تلك البلاد - كان ملك آرا قد دبر أموره دائماً على ما يرام مع تلك السفارة ودبرت السفارة أمور مع ملك آرا. فى أوائل خدمته السياسية لدى بلاط مظفر الدين شاه، كان ملك آرا الكل بالكل فى موضوع اقتراض مبلغ مجموعه ثلاثة وثلاثون مليون روبل ذهباً

(١) أوائل شهر ابريل/ نيسان

(٢) أوائل حزيران /يونيه

على دفعتين، وقبل ذلك كان ملك آرا قد عزّز ظهر حياته منذ تلك الأوقات وفى تلك الأماكن نفسها. ولكن تلك السنة كانت بالنسبة لملك آرا آخر أيام قدرته وقوته وغناه، وبداية إدباره.

فى أواخر فروردين، مع حلول الأيام التى صار فيها قادراً على النهوض من فراشه والخروج من البيت، كان يسمع أن فى طهران وقائع وتبدلات كبرى تجرى، خُلعت الحكومة والسلطنة عن أحمد شاه ـ الذى هو نفسه فى أوربا ـ وفى الحقيقة أزيلت سلطنة آل قاجار، وتسلم رضا خان قائد الجيش ورئيس الوزراء آنذاك ملْك البلاد وأعمال الحكومة باسم رضا شاه پهلوى، وبدأ عصر جديد.

ولكن ذلك الربيع، لم تأت التبدلات فوراً ومثل البرق إلى محل وزير دفتر. بدّلت الحياة فى بيت ملك آرا، وحياة جاويد ومن حوله فى زاوية الباحة المخروبة، شكلها ببطء. كانت حجرات هذه الباحة خالية. (قبل أن تسافر ثريا خانم ثم نقلوا أثاثها إلى تلك الباحة). كان البيت جاهزاً للبناء. كان التبدل البارز الوحيد هو أنه فى شهر خرداد، قبل أن يعود ملك آرا نفسه من أوربا. جَلب البناؤون والفعلة والنجارون وسائر العمال، بأمر ميرزا أصغر خان المباشر وتحت نظر ميرزا إسماعيل خان كبيرالمعمارين وبمقاولة معه، فبدأت التعميرات الكلية للقسم الأصلى من المبنى وهدم القسم المحترق وإعادة بنائه مجدداً.

وكان هذا الربيع مبدأ أفكار وإرادات جديدة لجاويد أيضاً.

كانت إرادته هذا العام أن يسعى، يشتغل، يجمع مالاً بقدر ما يستطيع، ويضع كل ما عنده فوق ذلك، فيشترى بذلك أبا تراب ومحل إخفاء أخته... ويعود إلى يزد. كان منذ الان قد جمع مقداراً من المال

يبلغ خمسين أو ستين تومانا ـ ولم يكن ذلك بالمبلغ القليل. ولكن إن أمكنه يحصل على عمل فيجعل هذا المبلغ خلال سنة أو سنتين مائة تومان!... كان عنده رجاء هو أمنية. أينما كانت أفسانه فعمرها خمس سنوات. كان جاويد يأمل أن تكون أخته حية ما تزال. كان يحس أنها لا تزال حية. إن كانت ماتت لكان قد عرف. أفلم يكن ليعرف؟

بعد عودة ملك آرا إلى طهران، أطلع جاويد، عن طريق رقية بگم، على أخبار ثريا خانم... لقد ولدت في فرنسا بنتاً، وقد احتفظت بابنتها، بضعتها. كانت حال الأم والبنت جيدة... وقد صممت ثريا أن تبقى وطفلتيها مدة في فرنسا كي تعود مع أخيها الدكتور كيومرث خان متى ما عاد إلى إيران. ولم يعد يذكر الآن موضوع الدكتور منوچهر خان نزهت ولا موضوع البلايا التي أوقعها ملك آرا على رأس جاويد. كان كل شيء ـ مثل الأوساخ والقاذورات التي تكنسها خادمة غير مرتبة وتدفعها إلى تحت السجاجيد ـ في طريقه إلى النسيان أو قد نسي فعلاً.

عندما أطل الفعلة ـ البناؤون، لغرض مباشرة البناء، على هذه الباحة، انفتح وضع وعالم جديدان في حياته وحياة ليلا ورقية بگم. ذهب جاويد ـ الذي كان نفسه بدأ يتحرك وكان له استعداد ما للنشاط ـ إلى الأوسطى إسماعيل خان رئيس المعمارين، وتحدث إليه، والتمسه أن يعطيه عملاً. ومع أن المعمار كان يراه ضئيلاً عليلاً، إلا أنه وافق لكونه طيب القلب. كما أن ميرزا أصغر خان لم يعترض. وعلى ذلك أعطوه عملاً.

بدأ جاويد من أبسط الأعمال، من عمل الفعلة ـ لقاء خمسة شاهي[1] في اليوم.

(١) كان الشاهي يساوي واحد على مائتين من التومان، فأجره كان يعادل واحد على أربعين من التومان.

لم تكن عنده قوة وطاقة، ولكن لأن وعيه وشعوره كانا جيدين، ولأنه أثرّ فى الجميع بصدقه وهمته، فسرعان ما نقلوه من شغل الفعلة إلى أعمال البناء البسيطة والدرز بالملاط وقولبة الجص، وفيما بعد، أحال الاستاذ إسماعيل خان رئيس المعمارين بعهدته حتى احتساب الأجور اليومية لكل الفعلة والبنائين وتسديدها.

كان الصيف ينقضى بالتعب والإرهاق. كان يشتغل بوجه متعب لوحته الشمس، وكان يراقب حياة رقية بكم وليلا أيضاً. وكان إلى حد ما مسروراً. صار صديقاً لكل مساعدى البنائين، وقد وجد لنفسه أيضاً محبوبية واحتراماً بين الجميع.

كان الناس العاديون الآن ـ إذا كان يعمل جيداً ـ حسنى السيرة معه، ولم يكونوا يؤذونه.

طبيعى أنه لم يكن مثلهم: لم يكن يذهب معهم فى الأماسى إلى المسجد ومجالس العزاء ولطم الصدور، وعندما حل شهر رمضان لم يكن ليصوم. ولكنه لم يكن ليتظاهر أيضاً، ولأنه كان مؤمناً ومستقيماً وبسطياً، فقد تركوه لحاله قليلاً قليلاً، كانوا يحبونه، وكانوا يحترمونه ـ خاصة عندما صارت الأجرة بيده مساءً. وكان هو نفسه يرى جمهور أهل المحلة مرحين طيبى القلب... وما لم يركبهم العناد والحمق فقد كانت الحياة معهم بسيطة طيبة.

فى المغارب كان يقف عند الباب، ويتحدث إلى داريوش، ابن الحاج عبد الله خان قريشى. كان داريوش يدرس فى مدرسة دار الفنون، وكان يجلب لجاويد بانتظام كتباً وجرائد، أو يأتيه بكتب ومجلات خارجية من مكتبة المدرسة. كانا يتناولان بالحديث السياسة اليومية: رضا شاه،

الجيش الوطني ونظام الخدمة الإلزامية الذى أقر حديثاً، وكذلك المدرسة، والدين والإيمان والله، الكتب، وسائر الأمور. كان لداريوش خال أقام فى بيته، هنا بطهران، مشغلاً لحياكة السجاد، وقد ذهب جاويد - الذى كان جده لأمه، ميرزا داود خان، من مالكى السجاد بكرمان ويزد، وكان هو نفسه يعرف حياكة السجاد - مرة مع داريوش إلى بيت خاله على محمد خان، وتعرف عليه وعلى وسائل عمله. كان يرى للمرة الأولى شيئاً يرتبط مع سنن عائلته فى يزد، فتعلق بذلك شديداً.

لو أنه حاك سجاداً وباعه، لأمكنه أن يساعد بماله فى العثور على أفسانه، فالتصق بهذا العمل، إلى حد أنه - قبل أن يكتمل شغل البناء، وإذ كان الكثير من الأعمال الصغيرة لا يزال بعهدة جاويد وآخر من الفعلة - شرع يعمل فى عمله الجديد فى المغارب والأماسى.

أقام - بعدة قطع من الخشب والألواح تبقت من زاوية الباحة - فى زاوية السرداب الصغير السابق فى الطرف الأبعد من الباحة، الذى بقى مهجوراً - أقام لنفسه مشغل حياكة سجاد صغيراً، وبسرعة علّم ليلا أيضاً الحياكة فجعلها تشتغل. أما هو فكان يشتغل نهاراً بأعمال الباحة، وفى الأماسى كان ينكب حتى منتصف الليل، وحتى الفجر أحياناً، عل حياكة السجاد... على أمل أن يتمكن حتى العيد من جمع مال أبى تراب. (فى أواخر الصيف، عندما تحدث بشأن أخته مع أبى تراب، قال له هذا: «الطاحونة لا تدور ببول فأر. حتى ما صار عندك مائتين، لا، مائتين وخمسين، هاتها فنجلس ونتعامل.. ولكن ينبغى ألا يفهم أحد...». وقد هدده أبو تراب بغلظة ألا يفهم أحد، والأهم من الجميع ألا تفهم ليلا ورقية بكم.. وإلا فتصير الحبة قبة ويبلغ الخبر أسماع ملك آرا، و: فاتحة).

كـان جـاويد يسـعـى من أجل هذا المـال، ويزهق روحـه ليل نهـار. إضافة إلى التومان الذى يتقاضاه شهرياً من ملك آرا عن حراسة البيت، ومبلغ الثلاثين شاهى الذى يتقاضاه الآن يومياً من الأستاذ إسماعيل رئيس المعماريين. فقد كان دخل السجاد الذى يحوكه يساعده كثيراً. وقد بيعت أولى سجاجيده الصغيرة بمبلغ سبعة تومانات إلى الخال على محمد خان.

كانت لا تزال عنده حتى الآن بالطبع ساعات صحو وأرق طويلات فى الليـالى الظلمـاء. كـان لا يزال يفكر فى أبيـه وأمـه بكل روح حيـاته وطاقتها، كما كان يفكر فى واجب الحفاظ على الدين الذى أناطاه به - وكان يفكر فى الشرور التى أوقعها ملك آرا على روحه ودمه. بعد العثور على أفسانه، ستحمل نوبة الانتقام من ملك آرا - والكفاح ضده. ولكن كيف؟ هو، الوحيد الضئيل، كيف يمكنه أن يحارب هذه القدرة؟

لم يكن لملك آرا هذه السنة عمل أو منصب، ولم يكن له منفذ إلى البلاط. ولكن، مع قدرته ومقامه، لم يكن يلزمه عمل. كان جاويد يسمع أن ملك آرا يرى هذه الأيام الرجال القدامى كفلان الدولة هذا وعلاّن الممالك أو اسم السلطنة ذاك، كى يهيئ لنفسه منصب وزارة أو سفارة.

كان جاويد يتمنى من قلبه لو أن رضا شاه جمع كل هؤلاء الأوباش والأشخاص المتهرئين والطفيليين، فى مكان واحد، وألقى بهم فى فهم أهريمنهم أجمعين. ولكن مما أسف له جاويد، أن لم يفعل الرجل الكبير ذلك، وما كان ليفعله، فمنح ملك آرا وأمثاله حيواتهم الدنيئة.

فى آخر هذه السنة، كان للخدمات التى قدمها جاويد فى أعمال بناء هذه الباحة - علاوة على المال القليل الذى صار من نصيبه - هذا الأثر

العام أيضاً: أنه الان فى عينى ميرزا أصغر خان، وحتى فى عينى ملك آرا، ذا لياقة وكفاية وحسن نية ما فى العمل. من بعد هذا صارت كل الأعمال الصغيرة والكبيرة المتعلقة بالبناء لهذه الباحة وتلك الباحة، وأوامر وأعمال أخرى تنهال عليه. فى أواخر تلك السنة، بعد موت غلوم على، وشرّانية ولديه ـ أحمد زاغى ومحمد[1] بنگى[2] ـ وسلوكهما الأوباشى فى المحلة مما أدى إلى طردهما معاً من قبل ملك آرا، وجلبه خادمة وخدماً جدداً من بستانىْ أوين وكن، ألقيت على عاتق جاويد أعمال ومسؤولية أكبر... إنه الآن خادم قديم يمكن الأعتماد عليه. ولكن فى الوقت نفسه، وفى أية زواية يكون فيها. كانت عينا ميرزا أصغر خان المباشر الدقيقتان، الشبيهتان بعينى العظاة، ووراءه وعينا وأذنا أبى تراب الجاسوسيتان تثقبه من وراء العربة وجدار البستان.

(١) مخفف: محمد

(٢) مدخن الـ «بنگ» أو الـ «بنج» في العربية، وهو نوع من المخدرات.

كان عمه ذلك الموبد العجوز ـ سعدت روحه ـ قد قال له ذات يوم: «الحياة مجموع الأفكار اليومية». فإن أراد جاويد أن يجعل هذا الكلام ملاكاً أو نصاباً، فإن كل حياته طيلة هذه السنوات كانت طفلة ابنة ثماني سنوات أو تسع. لم يكن يفكر بأفسانه طوال النهار فقط، وإنما كان يحلم بأفسانه طوال الليل أيضاً.

ولكنه لم يكن يستطيع أن يقوم فيلقي بنفسه إلى المعمعة ويطلب أفسانه ـ إذ كانت يده أمام ملك آرا الكبير وخدمه الكذابين خالية، عاجزة، ولا شيء، ولم تكن لتبلغ مكاناً. كما لم يكن يستطيع أن يعود إلى يزد وينسى أفسانه. كان يفضل أن يبقى هنا، يكون رجلاً تافهاً عاجزاً، على أن يفقد إيمانه ورسالته. وكان الله يعلم أنه تافه عاجز ـ أما كونه رجلاً...

كانت الشهور تكر واحداً تلو الآخر، وتراكمت السنون بعدئذ حتى صارت تلاً، ولم يكن انتظاره ومساعيه ليل نهار، العبثية، للعثور على أفسانه، لتنتهي. كان أمله يستحيل شيئاً فشيئاً إلى هالة من سراب بعيد عادم للروح. كان التعب والملال المر يزدادان رسوباً كل شهر فوق روحه. لم يكن قد بقي للعثور على أفسانه إلا طريق واحد، بواسطة أبي تراب، ومن أجل سلوك هذا الطريق كان لا بد من مال كثير، وإن المال اللعين لا يجتمع إلا بمشقة وبطء حركة الجبال.

كان البيت الجديد جاهزاً، ولكنه كان خالياً. لم يكن أحد ليعلم بعد متى سيعود الدكتور كيومرث خان ملك آرا، وزوجته وطفله، مع ثريا خانم

وطفلتيها، من فرنسا. كان جاويد ينتظر فى زاوية من البيت، كان يأمل أن تتحقق أفكار وحركة جديدة للعثور على أخته بعودة ثريا خانم، وبالخصوص بمجيء كيومرث خان بن ملك آرا. فالدكتور، ابن ملك آرا، بعد أن أمضى سبع عشرة سنة فى أوربا، لم يكن ممكناً أن يكون أسوأ من ملك آرا. ولكن لم يكن معلوماً متى سيعود هو وثريا خانم.

وكانت ليلا ورقية بگم لا تزالان تعيشان فى السرداب الصغير، وكانتا لا تزالان معه. منذ اليوم الذى قال فيه جاويد لليلا إنه يجمع المال من أجل العثور على أخته، استأنفت إساءة الأدب والطعن واللسع بلسانها على نحو جديد، وكانت تصرخ بجاويد، بسبب أعماله أو من أجل المال، مثل كلبة صاخبة مربوطة. كانت تقول لجاويد عسى أن يقتلوه لأنه أصلاً حمار وعديم الفهم، كانت تقول إنه ينبغى أن يترك الماضى والأشياء التى لا يعرفها أصلاً، وإنه ينبغى أن يسيّر أموره. كانت تقول يا للأغبر، ها قد تذكر هذه القصة المكرورة. «من أين لك أن تدرى، أصلاً، إن كانت تلك الطفلة حية؟ ها؟ أفتدرى أصلاً إن كانت حية؟ الإنسان الفاهم لماذا يصوم صوم الشك[1]؟». أو كانت تقول بشأن المال: «كل هذا الرعى فأين إليتك اذن؟ ثم، إن إعطاء المال بأيدى أناس وضيعين من أمثال ميرزا أصغر خان وأبى تراب حَمْرَنَة. أفيكفى طمع هؤلاء دانق ودينار؟ إن هؤلاء إن وضعت أمامهم الحمار بمعلفه والميت بقبره تبقى أفواههم مفتوحة بالانتظار... ويُلبسونك البردعة... نحن لا نمتلك طقم فراش ولحاف ذى شأن، ليس عندنا سماور[2] يعتمد عليه، وأنت تريد أن تجمع مائتين وخمسين تومانا، مائتين وخمسين تومانا! وتعطيها بيد ذلك

(١) أن يصوم الإنسان قبل رمضان دفعاً للشك من حلول الشهر وعدم رؤية هلاله.
(٢) وعاء كبير، قسمه الأسفل موقد، يستعمل لغلي الماء وإعداد الشاي.

القزم شارب الخمر ضرّاب السكاكين؟ تعطى المال عديم اللسان بأيدى أناس طويلى الألسنة وقحين؟ أفالمال علف وحشى؟ معلوم أنك حمار جداً جداً. عندك مال كثير. معلوم أيضاً أين يضعون الحناء الفائضة[١]...»

ولكن جاويد كان يظن نفسه قادراً على تحمل ليلا. فمهما كانت ليلا معقدة قذرة اللسان، إلا أنها على الأقل كانت معه، وكانت منضبطة، لم تعد تكذب عليه، ولم تكن تخون. كانت آكلة روح جاويد هى ملك آرا والمعاملة التى لا يزال ملك آرا يجريها بشأن أخته الصغيرة. كما أن كل هذه الخدمة وجهود السنوات العديدة عادت مهيضة وزائدة عن الحد. كان جاويد يدعو ربه أن تنتهى هذه الدورة السوداء بأسرع ما يمكن.

فى أوائل هذه السنة، عندما وصل ماله ـ ببيع ثلاث أو أربع سجاجيد صغيرة ومعلقة جدارية ـ إلى مائة وعشرين تومانا، جازف ليلة وذهب إلى ميرزا أصغر خان. انتظره فى التكية حتى خرج من منزل ملك آرا، فتقدم منه وحيّاه. قال لميرزا أصغر خان، ما يعتلج فى فؤاده. كان مباشر ملك آرا لا يزال بنفس تلك اللبادة السوداء وغطاء الرأس الأسود والقامة الطويلة العجفاء، يبدو مثل سفير يهود خيبر فى بلاط ملك آرا. راز جاويد جيداً بعينيه الدقيقتين الشبيهتين بعينى عظاة، واستمع إلى كلامه. كان جاويد يعرف أن الزمن كان مناسباً لميرزا أصغر خان لأنه كان سمع أنه، ميرزا أصغر خان، لما صار يفقد أمله شيئاً فشيئاً فى ملك آرا قعيد البيت، كان هيأ لنفسه هذه الأيام حياة وكسباً جديدين. كان ميرزا أصغر خان قد اشترى مؤخراً بيتاً وملكاً جديدين فى رأس زقاق چاله

---

(١) البخيل يضع الحناء الفائضة في مؤخرته، حتى لا تذهب هدراً! والكناية هنا واضحة: إن جاويد يضيع ماله.

مصار قرب ميدان گلو بندك، وكان يريد ـ حسب قوله ـ أن يفتح من هذا الملك بضعة حوانيت، لأن المحلة تتجه لتصير مرغوبة أكثر فأكثر.

ولكن ميرزا أصغر خان، بعد سماع كلام جاويد، وعلى خلاف انتظار جاويد، لم يبد أدنى اهتمام. فبعد أن أفرغ ـ حسب عادته ـ أسطوانتي أنفه واحدة بعد الأخرى في الزقاق، قال لجاويد، كما فعلت ليلا، إن من الأفضل ألا يقوم بأعمال حَمْرَنة، وأن لا يضيع ماله. اقترح على جاويد أن يشتري منه هو، ميرزا أصغر خان، قطعة أرض، أو منزلاً مرغوباً، يمكنه أن يستخرج منه عدة حوانيت مفيدة لها مستقبل و «سرقفلي[1]» جيدين. فهز جاويد رأسه رافضاً. كان يريد أخته.

قال ميرزا أصغر خان:

ـ «لا تقل هذا الكلام... فالأمير لا يرتاح إليه. كما أنه لا خير لك فيه. عندما يريد الأمير نفسه سيتركك. لا تزال الدنيا بأيدي هؤلاء». فقال جاويد:

ـ «لا أريد غير أختي».

ـ «اترك هذا الكلام... قلت لك متى يريد الأمير يتركك».

ـ «متى؟ في أي وقت؟». ضحك ميرزا أصغر خان بفم مزموم ضحكة دقيقة قبيحة، وقال:

ـ «قالوا للحمار متى تصل القرية، فقال الحمار سلوا من بيده المنخس. ليس المنخس بيدنا، يا ولد. نحن حمير تحميل. وأنت أيضاً حمار تحميل. متى ماأراد الأمير ستصل القرية. متى ما أراد فلا بد أنه سيأتيك بأختك، ويقول: هيا قم فاذهب إلى يزد... أو أية خرابة تريد. ولكن

---

(١) لها نفس الاسم في العراق، وتسمى (خلوّ رجل) في مصر، هي حق تخلية الملك، تدفع للشاغل.

ليس قبل ذلك ولا بعده... وأنت أيضاً إن كنت قد صرت الأن آدمياً فيجب أن تفهم أن الجرذى هنا من حذره يمشى متكئاً على عصا. إن الأمير ملك آرا يضع للبعوضة، وهى فى الهواء، نعلين ويربطها مع حصان عربته. أنت هنا، فابق، حتى يريد الله بعدئذ ما يجعل الأمير يريد. هذا هو الواقع. بُدور گه واردور[1]».

خفّض جاويد رأسه محبطاً. كان يحس خوفاً باطنياً من أن يكونوا صبوا على رأس أخته بلاءً ما بحيث يجيبه ميرزا أصغر خان على هذا النحو البارد المطلق، ويدفعه إلى اليأس. أراد أن يسأل إن كانت أخته حية أم لا؟ ولكنه خاف الجواب. كان على وشك التصميم بأن يقول لميرزا أصغر خان إن أبا تراب قال له عندما يبلغ ماله مائتين وخمسين فليأته، كى يتعاملا. ولكنه خشى أن يوتر كلامه العلاقات بين الرجلين، ولم يكن خلافاً كهذا ليعالج هم جاويد. فبقى ساكتاً. كان يريد، على الأقل، مهما حدث، أن لا تُظلِم زاوية أمله فى أبى تراب.

ولكن ميرزا أصغر خان، الذى كان يحدق الآن فى عينى جاويد، يبدو أنه قرأ أفكاره، فقال:

ـ «ولا تلعب بذيلك، يا خوخة يابسة، وإلا فستكون عاقبتك سيئة... ولا تذكر هذا الكلام فى أى مكان آخر أمام أى أحد آخر أيضاً ـ إذ ليست ثمة قبة مقامة فوق حدبه. وخصوصاً لا تقل لأبى تراب شيئاً. لا شيء، لا تعط ولا قطعة شاهى سوداء واحدة ـ لأن ذلك القواد المتحلل المحتال ما عنده مَعْنى مستقيم واحد فى بطنه[2]. إنه يصنع ألف سكين ليست لأية واحدة منها مقبض[3]، أفهمت؟ لا ترخ فتحة كيسك. لقد تجشمت فى هذا

---

(١) تركية تعني: هذا هو الواقع، وتتضمن معنى: سواء شئت أم أبيت.

(٢) و (٣) كنايتان عن المحتالين الكذابين.

البيت طوال سنتين أو ثلاثاً ـ علاوة على كل البلايا والمشقات ـ عناءً. وأرقت عرقاً، وجمعت القرش فوق القرش، وقد وضعت أباك وأمك وكل شيء فوق هذا المبلغ الضئيل. لا تبذر رأسمالك بلا معنى. ليكن عندك، أخيراً عندما تريد الرحيل عن هذه المحلة، شيء في كيسك... لا أن تعود أخيراً إلى مدينتك خالى الوفاض، في إحدى قدميك چارق[1] وفي الأخرى گيوة(٢)... لا تكن كمن صام سنة ثم أفطر على خراء كلب».

لقد أفرغ ميرزا أصغر خان بكلامه هذا فؤاد جاويد على نحو بالغ السوء. وذهب جاويد تلك الليلة إلى البيت أكثر إحباطاً منه في أية ليلة، ونام في حجيرته. كان الشك والاضطراب قد وقعا في فؤاده: ما الذي ينبغي أن يفعله حقاً من أجل العثور على أفسانه؟ أيدرى أبو تراب أين هي؟ أسيساعد جاويد؟ كيف سينتهي الأمر؟

في عشية تلك الجمعة، على إثر إصرار رقية بگم الكثير (التي كانت الآن تعامل جاويد كما تفعل جدة عجوز شفوق)، رق فؤاده ورضي أن يأخذ العجوز لزيارة صحن حرم الأمير عبد العظيم. كانت العجوز تريد أن تشد «دخيلا(٣)» في «سقّاخانه[4]» الحرم، فلربما أحلِ حضرة عبد العظيم نفسه في قلب ملك آرا.

كان جاويد قد تجاهل طويلاً هذا الكلام. وكانت العجوز نفسها تتمنى وتريد ـ قبل أن تصاب بالحمّى كأختها ذات ليلة وتسقط فتموت ـ أن تقع رجلها مرة أخرى في حرم مطهر ما. وليلا أيضاً ـ مع أنها لم

(١) حذاء ريفي، نعله قطعة جلد مسطحة ووجهه أشرطة نسيجية أو جلدية.
(٢) أوضحنا الـ «گيوه» في هامش سابق. المقصود: ليس في قدميك حذائين متجانسين ـ كناية عن الفقر.
(٣) دخيل: لاجئ، محتمٍ.
(٤) دار السقاية، أيّ منبع ماء يُستقى منه.

يكن عندها إصرار كذلك، ولكن من أجل أن تخرج من البيت ـ أجبرت جاويد أن يأخذها إلى عند باب حرم حضرة عبد العظيم. وأخيراً، أخذ جاويد فى عشية الجمعة هذه ـ بعد الاستئذان من ميرزا أصغر خان ـ حاملاً رقية بگم على ظهره، جاراً ليلا وراءه، وذهبوا مشياً على الأقدام إلى مدينة رى، كى تؤدى رقية بگم الزيارة وتشد دخيلا.

وقف هو خارجاً، وراح يتفرج، حتى خارج الصحن، عند باب الصحن، كان عدد كبير من الرجال والنساء بغدد درقية مُلحِمة متدلية، متقيحة باعثة على الغثيان، يمسحون أنفسهم بجدار السقاخانه، أو بقبضة كف نحاسية خماسية الأصابع. كان هؤلاء العدد يلصقون من كل جانب ومكان قبلات عميقة قذرة بجدار السقاخانه وبابها وقبضة المطرقة ذات الأصابع، ويأتى بعد ذلك، وراءهم، عدد آخر من الرجال والنساء والأطفال بأمراض أخرى، فيلصقون الباب نفسه والجدار والقبضة بقبلات عميقة نظيفة، أو يمسحون مطالب أخرى وينصرفون.

جلس فى زاوية وبكى. تذكر، بقلب منقبض، نار بيت النار الطاهرة. كانت ذكرى ذلك الهواء الهادىء النارى ورائحة العود والسذاب والكندر واللبان تتماوج فى صدره بانقباض عتيق.

-٤٦-

كان فى هذه السنوات أن وقع ملك آرا ـ من أجل تسديد الضرائب المتأخرة والقروض غير المسددة ـ تحت ضغط شديد من جانب الحكومة. وقد صار تشدده وسوء ظنه بوضع جاويد أشد، ربما لأنه كان يخشى ألا يكون هذا ـ إذا ما صدر قرار توقيفه هو وجرّ الأمر إلى الاستنطاق وما أشبه ـ نقطة مضيئة فى صالحه. وكان فى هذه السنوات أن شرع جاويد بالجلوس أحياناً وكتابة كل ما يدور فى رأسه. كان يريد أن تكون هذه الكتابة لا بصورة خواطر وإنما على هيأة وثيقة تشرح حاله. كان يريد أن يشرح كل شيء، يسجله، ويضعه فى زاوية ما، حتى ـ إذا ما وقع على رأسه بلاء ما ذات ليلة ـ يكون حساب إراقة دم أبيه وأمه وما جرى لأخته، معلوماً.

فى أوائل سنة ١٣٠٧[١]، عندما اضطر الجميع ـ حسب أمر حكومى ـ أن يراجعوا للحصول على دفتر نفوس، أخذه ميرزا أصغرخان معه، بمعية ليلا ورقية بگم، إلى إدارة السجل المدنى فى شارع جليل أباد، قرب نقطة الشرطة رقم ثمانية، كى يستحصل لهم دفاتر نفوس. قال إن سن جاويد ـ حتى بذلك القد الدقيق والوجه الطفولى ـ ثلاثون سنة، فسجلوه، وذلك كى يُعفى جاويد من الخدمة الإلزامية، التى كانت قد أقرّت حديثاً لأبناء التاسع عشرة ـ ويبقى فى البيت. لم يستطع جاويد أن يمنع هذه الكذبة، لأن مأمورى السجل

---

(١) مارس /آذار ـ ابريل/ نيسان ١٩٢٨.

المدنى كانوا يحسبون لميرزا أصغر خان حساباً. قال لهم ميرزا أصغر خان إن الشاب قروى ناقص العقل ومن الخدم القدماء جداً لدى الأمير ملك آرا. ولكن جاويد تمكن أخيراً، بعد إصرار، أن يحصل على دفتره باسم جاويد پور فيروز[1]، فحافظ على الأقل على اسمه وماضيه. وحصلت ليلا ورقية بگم على دفترين بلقب خراسانى. وسجلت ليلا منذ ذلك التاريخ زوجته الرسمية.

كانت لا تزال عند جاويد تصميمات وأمانى كثيرة، تتعلق بأين يذهب وماذا يفعل فى المستقبل.. ولكن كل شىء كان يصل زقاق عدم العثور على أفسانه المسدود.

ذات مرة، رأى فى محلة درخونگاه أحمد، أحد أولاد غلوم على، الذى صار الآن يعرف باسم أحمد زاغى، السكير المُعارك بالسكاكين الشهير. تحدث إليه جاويد ساعة أو ساعتين، وسأله عن أخته وما فعله بها خدم ملك آرا. كان أحمد زاغى سكراناً، فتكلم كثيراً، ولكن كان واضحاً أنه ما من خبر عنده، وكان يقول الحق. بقدر ما أسعفته الذاكرة فربما كان أبو تراب، بمعية شخص آخر، فى الليلة التى ماتت فيها أم جاويد، أخذها إلى بستان أوين.. ثم أنه سمع أنهم نقلوا الطفلة إلى بستان كن. ولكن بعد ذلك، عندما ذهب أحمد وعائلته فى الـ «سيزده بِدَر[2]» إلى بستان كن، وتراكضوا طوال النهار فى طول البستان وعرضه، وأكلوا التوت، ولعبوا الاستغماية، لم تكن ابنة فيروز خان فى

---

(١) جاويد آل فيروز.

(٢) «يوم» «الثالث عشر في الخارج»: هو آخر أيام احتفالات النوروز «السنة الجديدة»، حيث يقضي الإيرانيون نهارهم «خارج» البيوت، في أحضان الطبيعة. وهو ما يزال تعطيلاً رسمياً.

بستان كن. لا بد أنهم نقلوا مكانها مرة أخرى. لا بد أنهم كانوا أعادوها مجدداً إلى بستان أوين. لا أحد يعلم.

كان جاويد يعلم الآن، كان واثقاً أن أفسانه ليست فى بستان أوين أيضاً. كان قد ذهب هو نفسه مرتين سراً، بحجة المشتريات، إلى أعالى المدينة وإلى أوين، وقام بتحر واستفسار شاملين... لم تكن أفسانه هناك. وعلى هذا، فقد وصل للمرة الألف إلى نفس تلك النقطة الأولى من الدائرة العابسة.

الآن وقد تهيأت له حرية عمل أكبر، وصار بمقدوره أن يفر ذات ليلة، أية ليلة، من هذه المحلة والمصير المشؤوم، يخرج، كان التفكير فى أفسانه يقيده. كانت نهارات وليالى حياته تنقضى بين الظلمة والغبار، بالتشبث بحبات نور الأمل التى تتطاير فى السماء السوداء...

يا للدنيا الخاوية. أفيعثرعلى حياته؟ أو يواصل السعى من أجل أفسانه؟ هو أم أفسانه؟ أحياناً عندما كان يقرأ فى الليل كتاباً تحت ضوء السراج النفطى، كان يفكر فى لحظة من كتاب عن تاريخ العالم (كان أخذه من داريوش قريشى فقرأه). كان يفكر فى التاريخ الأول للمسيحيين فى روما، حيث كان الرومان يرمون النساء والأطفال والرجال المسيحيين الأسرى، عراة، أمام الأسود الجائعة المفترسة، فى حفرة كبيرة، ويجلسون هم حول الحفرة ليشاهدوا ـ ضاحكين متسلين، بتحلل وعدم اهتمام، وهم يأكلون الحلوى ويشربون الشراب ـ منظر تمزق الأسرى وصيرورتهم إرباً إرباً.

كان جاويد فى التاسع عشرة، فى ليالى الوحدة العابسة الخربة والعقيمة هذه، يفكر فى هذا المنظر واللحظة المظلمة... كان يرى نفسه

فى حفرة يتمزق إرباً بين أسود كوابيسه وآلامه الباطنية. وكان أهل بيت ملك آرا وكل أهل محلة وزير دفتر، المتفرجين المتحللين عليه ـ ولكن مع هذا الفرق، هو أنه كان عنده عزيز بين أولئك المتفرجين يبكى. أين كانت حواسه؟ أفينظر إلى روحه وحياته؟ أم يركض وراء أخته؟ أيضع عينيه على الأسود التى كانت تمزقه أم بين المشاهدين الذين انكبوا على أخته بينهم وراحوا يعذبونها؟

وبين الأحلام المضطربة للياليه تلك (الأحلام التى كانت تتكرر دائماً) كان يعود كل ليلة إلى سهول الصحراء. من القناة الطويلة الممتدة تحت السهل وأرض إيران إلى انتهاء الأفق والزمان، كان يشرب ماءً. كان الماء اليوم غير طاهر، وملوثاً بالسم. كان يحتضر، يموت، إلا أنه لا يبقى ميتاً. كان النزع التدريجى والموت المستمر قد حلّ فى جهاز دورته الدموية...

وانقضى عامان آخران على هذا المنوال.

ـ ٤٧ ـ

في ربيع سنة ١٣٠٩ الشمسية[1] عندما كان جاويد في الثانية والعشرين، وعندما كان مقرراً أن يعود ابن ملك آرا الدكتور كيومرث خان وثريا خانم من فرنسا، لم يكن وضع ملك آرا قد تحسن. شاع في المدينة أن قرار توقيفه قد صدر، وأنه سرعان ما سيلقى عليه القبض، ويحاكمونه بسبب الضرائب والديون المستحقة عليه للحكومة. كانت هذه الشائعات قد انتشرت في السنة أو السنتين الماضيتين أيضاً، ولكن ملك آرا ـ بمراجعة هذا وذاك في وزارتي العدلية والمالية، وكذلك في إدارة الشرطة العامة ـ حافظ على نفسه حراً منعماً مرفهاً. وللتظاهر بانعدام المال، باع الخيول السقيمة الآيلة للموت والعربات القديمة، وفصل من خدمته أبا تراب العجوز السكير، الذي صار الآن وجع دماغ.

وأشيع أن ملك آرا قدم طلباً لجواز سفر، للذهاب لزيارة كربلاء المعلاة والنجف الأشرف، إلا أنه لم تتم الموافقة على زوجه. كان عند ملك آرا جواز سفر قديم، إلا أنه يقال اليوم إن الجوازات القديمة لا اعتبار لها، أُبطلت. فأشغل ملك آرا ميرزا أصغر خان ـ بالركض ورشوة بضعة نفر من معارفه في جهاز الحكومة وسعى آخرين ـ بالحصول على جواز سفر جديد.

خارج أسواق وزير دفتر ومعير ودرخونگاه الصغيرة، كانت مدينة طهران تكتسب الآن صورة جديدة. كانت شوارع جديدة، مرصوفة بالحجر محددة بسواقي الماء، وحتى بالإسفلت وأشجار الدلب والمباني

---

(١) = ١٩٣٠ ميلادية

الجديدة، تنشأ. وكانت مستشفيات ومدارس، وحتى بضعة متاحف، تبنى، وكانت الثقافة الإيرانية التاريخية القديمة يجرى تذكارها. حتى أنه، بأمر رضا شاه، ألزم الناس بخلع العباءات واللبادات والعمائم العربية والهندية العجيبة الغريبة وإلقائها جانباً، ولبس ملابس بسيطة موحدة الشكل، كانت تشمل سترة وبنطلونات وقبعة پهلوية(١). حتى ملك آرا أيضاً ـ مع أنه كان يعتبر الوضع والحكومة الجديدين عدوى حياته ـ صار فى الظاهر بلون الجماعة والسياسة الجديدتين. جلب خياطاً، أسلمه قماشاً، فأعد له بضعة أطقم ـ بلون أسود ونيلى وأزرق وقهوائى ورمادى ـ أنيقة، فكان يلبسها، وراح مرتين أسبوعياً فيصلح رأسه ووجهه. كان ملك آرا بقبعته الپهلوية، ذات الحافة، الباذخة، والنظارة السوداء والعصا المرصعة، يُرى أحياناً فى المحلة، وكان وراءه دائماً ميرزا أصغر خان أو أحد الخدم. لقد وجد ملك آرا شكلاً وتصويراً جديدين فى تاريخه وتاريخ المحلة والمدنية.

كان جاويد يدرس هذه التغيرات بدقة وكان، كشأنه دائماً، يراقب ملك آرا، الذى صار الآن أكثر ليناً حتى مع جاويد، إذ توقف عدة مرات فتكلم مع جاويد، يعنى، لينصحه.

أما حياة جاويد نفسه فلم تصبها تغييرات كثيرة، كان لا يزال يقاوم، وكان مشغولاً يجمع المال، مترصداً أية فرصة تسنح للعثور على أفسانه. لقد بلغ ماله الآن حدود مائة وستين تومانا. وخوفاً من ليلا وبقية الخدم، لما كان سمع فى أواخر سنة ١٣٠٧ بافتتاح «بانك ملى إيران(٢)»، فقد جمع ماله يوماً وجاء به إلى شارع علاء الدولة فأودعه فى المصرف.

---

(١) هي الـ (كاسكت) الفرنسية: طاقية مدورة لها مقدمة هلالية صلبة للوقاية من الشمس.

(٢) المصرف الوطني الإيراني ـ ولا يزال موجوداً بنفس الاسم.

قبل عودة الدكتور كيومرث خان وثريا خانم، أمر ملك آرا أن يأتى جاويد وليلا ورقية بگم إلى فناء باحة منزله، فيستقروا فى حجرات غلوم على وننه أحمد القديمة. وأرسلوا عبد الرحيم، الخادم الجديد، إلى تلك الباحة. وعلى هذا، فقبل أن تعود ثريا خانم كان جاويد قد ترقى إلى المنصب الجديد: شغل الخادم المخصوص لملك آرا.

فرشوا كل غرف تلك الباحة مجدداً بسجاد جديد، واشتروا أثاثاً وموبيليا أنيقة غالية وأنواع لوازم المعيشة. وصار المبنى القديم فى الباحة خاصاً لثريا خانم، والمبنى حديث البناء خاصاً بكيومرث خان.

عندما وصلت ثريا خانم والدكتور كيومرث خان أخيراً، بعد مدة من التأخير والانتظار، جمع ملك آرا كل الأقرباء (عدا عائلة نزهت الدولة) وكل الخدم فى باحة منزله، وأعطى الجميع مسكوكات ذهبية، إنعاماً وبشرى.زيّن كل الباحة والتكية بالأنوار. أمر فذبح اثنا عشر خروفاً فى الزقاق تحت أقدام المسافرين العائدين.

كانت ثريا خانم أكثر نحولاً وانكساراً، إلا أن لونها ووجهها كانا جيدين ومظهرها أنيقاً ـ بربطة الرأس السوداء ،المعطف الأسود. وقد جلبت طفلتها الصغيرة معها بالطبع، وبناءً على أمر ملك آرا كان الجميع يقولون إن ثريا خانم أخذت الطفلة من دار أيتام رفيقة لعب هُما. كانت الطفلة فتاة صغيرة حسناء باسم ژيلا، وكانت تلعب مع هُما، التى كان عمرها الآن عشر سنوات أو إحدى عشرة.

وكان الدكتور كيومرث خان يشبه ملك آرا، ولكنه نحيل مرتب أوروپى المظهر ـ وكان بشاربه الدقيق الخيطى، ووردة العنق، أنيقاً وعلى الموضة للغاية... وكان يفوح عطراً وماء كولونيا عجيبين. (الأمر الذى

صار منذ ذلك اليوم جزءاً من رائحة وطبع الدكتوركيومرث ملك آرا الخاص والدائم. عند الصباح، حتى قبل أن يقف للصلاة، كان ينبغى أن يجلبوا لهو وعاء ماء ساخن وحوضاً، فينظف نفسه، ثم يضع العطر وماء الكولونيا، وكانت تلاوة الصلاة واحدة أخرى من خصوصياته. لم يكن ابن ملك آرا ليترك صلاته قط، وكان يتلو صلاته دائماً فى وقتها. مهما كان ملك آرا، فإن غرس مسألة تلاوة الصلاة لدى أطفاله ومن حوله وجعل أداء هذه الفريضة من الكبر بحيث أن كل من كانت له به رابطة، أينما كان، كائناً من كان، مهما كان يعمل، فإن تلاوته للصلاة ما كانت لتنقطع. حتى ملك آرا أيضاً، حتى آخر شهور حياته، بقدر ما لاحظ جاويد من مراقبته له، لم تنقطع تلاوته الغريبة المفخمة للصلوات».

على أية حال، جاء ابنا ملك آرا وشغلا محلاً فى الباحة الثانية، مع أن الدكتور كيومرث ملك آرا لم يجلب معه زوجته الفرنسية وطفله الوحيد، اللذين قيل إنهما كانا عنده، فى هذه السفرة. كان يقول إنه جاء ليرى كيف هو وضع الحياة هنا الآن، فإن لم يجده مناسباً عاد وبقى فى أوربا.

لم يعد جاويد يرى ثريا خانم كثيراً، فيما بعد اليومين الأولين أو الثلاثة أيام الأولى بين ضيوف باحة ملك آرا. كانت ثريا خانم أغلب الأوقات مشغولة، فى حجراتها، بعملها بهدوء، وبالعناية بطفلتيها. لقد أضفت الحياة القصيرة، بضعة السنوات الأخيرة فى فرنسا، على روحية ثريا خانم حرية فكر وعمل أكبر، أو على الأقل منحتها هدوءاً فكرياً أفضل. كان يبدو أن بمقدورها الآن أن تتحمل الحياة أفضل بالكتاب ووسائل اللهو التى جلبتها لطفلتيها ولنفسها حديثاً. أدخلت هما الصغيرة

إلى مدرسة دينية فرنسية كانت فى شمالى المدينة، قرب السفارة الانكليزية[1]. وأنيطت بجاويد إضافة إلى أعماله الأخرى، مسؤولية إيصال هما كل صباح إلى المدرسة وإعادتها عصراً...

(وهو عمل كان جاويد يحبه، وكان يجده ـ بحديثه المستمر مع هما وتعرفه على نمط الحياة الأوربى ـ لذيذاً ومليئاً بالإثارات الفكرية له. ولكنه فى خلال ثلاثة شهور، بسبب أعماله الكثيرة فى منزل ملك آرا، اضطر أن يعلم عبد الرحيم إيصال هما إلى المدرسة ثم يعهد له بذلك العمل. على أية حال، فعن طريق هما والكتب التى جلبتها ثريا خانم من فرنسا، تمكن جاويد من تعلم الفرنسية وزيادة معارفه.

كانت أول مرة تحدث فيها إلى ثريا خانم، فى أوائل عودتها، هى اليوم الذى ذهبت فيه ثريا خانم وكيومرث خان إلى الباحة الأخرى. كان جاويد قد ساعدهما فى جلب الأثاث.

عصراً، إذ انتهت كل الأشغال، كانت ثريا خانم تجلس والدكتور داخل البستان قرب الحوض الذى صفت حوله الموائد والكراسى، يتناولان طعام العصر. نادت ثريا خانم على جاويد، وسألته عن أحواله. وقف جاويد مبتسماً، ومسح عرق جبينه وتشكر من تلك السيدة.

ـ «أرى أنك للأسف لم تعثر على أختك بعد». فقال جاويد:

ـ «لا، للآن».

ـ «كم ينبغى أن يكون عمرها الآن؟».

ـ «إنها فى العاشرة الآن».

ـ «واى... فى سن هما».

---

(١) مع أن مكان السفارة البريطانية لم يتبدل، إلا أن موقعه بالنسبة لطهران تغير نظراً لاتساع هذه، فصارت الآن في وسط المدينة تقريباً.

التفتت ثريا خانم نحو أخيها. أوضحت له أن هذا هو ذاك الفتى الزرادشتى الذى سبق أن تحدثا عنه، أو الذى طالما حدثته ثريا خانم عنه. فهز الدكتور كيومرث خان رأسه، إلا أنه لم يقل شيئاً.

وسألت ثريا خانم جاويد:

ـ «ألم يأت خبر جديد؟...». فقال جاويد:

ـ «خبر قاطع؟ لا... ولكن عندى خطة ربما أصل عن طريقها إلى نتيجة سريعة». فقالت ثريا خانم:

ـ «أرجو ذلك. ألا تحتاج إلى شىء؟»

كان جاويد يعوزه مبلغ من المال ـ أربعون تومانا ـ كى تبلغ مدخراته المائتين (الرقم الذى اتفق عليه أخيراً مع أبى تراب). لا بد أن الأربعين تومانا بالنسبة لثريا خانم والدكتور كيومرث ملك آرا تعنى أربعين قرشاً ـ كما أن ملك آرا لن يتضرر إن أعطى ابنه أو ابنته مالاً لخادمه. نظر إليهما جاويد. كان رأس ابن ملك آرا خفيضاً ـ كان يقشر لنفسه، بسكين وشوكة فضيين، خوخاً. قال جاويد:

ـ «أشكرك، لا يا خانم».

فقالت ثريا خانم:

ـ «أأنت واثق أنك لا تحتاج شيئاً يمكننا أن نوفره؟». فقال جاويد:

ـ «سأدبره أنا نفسى كيفما كان...». فقال الدكتور كيومرث خان وهو منشغل بالفاكهة:

ـ «آها، إن له غروراً وكبرياءً جيدين، مثل «جمى، ىّ». كان جمى ابنه جمشيد. وقالت ثريا خانم:

ـ «فتى طيب». وقال الدكتور:

ـ «بارك الله». وواصل تقشيره الخوخ.
بقى جاويد مدة ساكتاً. ثم قال:
ـ «أليس عندك أمر آخر لى، يا خانم؟».
ـ «لا، ميرسى».
ـ «فى أمان الله».
ولكن قبل أن يعود، نادته ثريا خانم بلحن مرموز. قالت له:
ـ «أنا... لم أر أبا تراب هذه البضعة الأيام؟... أين هو؟». فقال جاويد:
ـ «كان يوم مجيئكم فى تلك الباحة بين الحشد، ولكنه فُصل. لم يعد له عمل هنا. وقد تركوا البستان أيضاً...». فقالت ثريا خانم:
ـ «أتعرف بيته؟».
ـ «لا أعرفه على وجه الدقة... ولكنى أدرى أنه جنوبى المدينة، أو أنه يسكن أدنى من ذلك فى ميدان الإعدام. يمكننى أن أعثر عليه فوراً».
فلم تضف ثريا خانم إلا كلمتين:
ـ «إنه يعرف...».
ـ «أبو تراب؟».
ـ «هوم».
ـ «يعرف أبو تراب أين أختى؟». فصححت ثريا خانم كلامها:
ـ «هو الذى أخذها. إننى أتذكر اليوم الذى وقع فيه الحادث. كنت عصبية من ليلا، لتمت ذليلة، وكنت قد أرسلتها إلى تلك الباحة عند خالتها رقية بگم. ثم سمعت عصراً أن أمك توفيت فى تلك الباحة، وأنهم ضربوك أنت أيضاً حتى سقطت بلا شعور فى زاوية ما، فقمت وجئت

إلى هنا عن طريق السرداب. أمرت فحملوك وجاؤوا بك إلى هذه الباحة، ولكن كلما بحثت لم أجد طفلة أمك الصغيرة. لم تكن فى البستان... ولم تكن فى المطبخ القديم. قالوا أن أبى أعطاها لأبى تراب، الذى أخذها إلى أحد البساتين، ليضعها عند البوابين كى يعنوا بها... ظننت أنهم يقولون كذباً. أتذكر أننى قلت لرقية بكم أن تأمر ليلا فتأتى وتفتش كل جحور الباحة والسراديب، ولكن ليلا الصرصار سريعة الحركة فلذة النار أيضاً لم تكن هناك، قالوا إنها زعلت فذهبت واختفت فى مكان ما... ثم صرفت النظر عنها. ثم سألت أين أبو تراب، فقالوا أنه أخذ الطفلة فنقلها إلى بستان خارج المدينة. ثم سمعت من فم أبى تراب نفسه أنه نقلها. ولكنه لم يشأ أن يقول إلى أين. ولم يكن ليقول ماذا جرى بعد. لا بد أنه كان عنده أمر. لم يكن ليقول لأحد، حتى لميرزا أصغر خان...».

استل جاويد نفساً طويلاً. تأكد الآن... فشكر ثريا خانم. وقالت ثريا خانم:

ـ «اذهب واعثر على أبى تراب».

ـ «نعم».

ـ «إنه مفتاح لغزك عند ابن المحروق ذاك».

ـ «ممنون يا خانم».

ـ «وتوكل على الله».

ـ «ليحفظك الله يا خانم».

ـ «فى أمان الله».

لم يرفع الدكتور كيومرث ملك آرا رأسه.

خرج جاويد، وعاد إلى حجرته. إذن كان أبو تراب. كان مفتاح

عذاباته وعذابات أفسانه وخلاصه وخلاص أفسانه فى يدى أبى تراب.

مهما كان البلاء، فإن جهوده وعرقه طيلة هذه السنوات من أجل جمع المال، فى الأقل، لم تكن فى الاتجاه الخاطئ.

فى أواخـر الليل عندمـا هجع الجـمـيع، نهض، أحكم شـد حـزام المصارعة على سدرته، وارتدى ملابسه وخرج من المنزل.

اجـتـاز الأسـواق بخطى واسـعـة. أدنى من حـمـام (قـبله گـذر درخونگاه)، توقف أمام باب باحة لما يشبه نزل قوافل. هنا كان منزل زوجة وأولاد المرحوم غلوم على. قبل أن يدخل الباحة، ألقى نظرة على الطرف البعيد من الزقاق. كانت هناك أيضاً مقهى هى، فى الليل، حجر أحمد زاغى وممد بنگى.

فكّر أن يمر أولاً بالمقهى، التى كانت لا تزال تحتفظ بجو السهر، تقدم، فتح ثنية الباب. بين دخان ال چُبُق[١]والترياك[٢]، وبخار السماورات الكبيرة وضوء سراجىْ الضغط وأنفاس الناس وجلبة صلواتهم، وأمواج صوت الحكواتى العربية والفارسية المخلوطة، مسح جاويد المكان بنظراته.لم يكن يرى من يطلب، ولكنه رأى فى زاوية وجهها مغموماً آخر يعرفه. كان صاحب وجه التعازى المغموم يجلس القرفصاء على أحد التخوت، يغلبه النوم. أشار له جاويد. لم يتحرك صاحب الوجه، بقى فى الغفوة وانتعاشة الأفيون ـ لم ير جاويد ولا إشارات جاويد. كانت العينان الوقحتان تحدقان فيه، تنظران إليه، ولكن أثر الـ چرس[٣] أو الـ بنگ[٤] ـ

(١) مبسم غليظ ضخم لتدخين التبغ.

(٢) الأفيون.

(٣) عصارة القنب الهندي ـ مادة مخدرة.

(٤) البنج ـ مادة مخدرة أخرى.

أو كل مـا يقـال إنه يدخنه ـ كـان يجـعله عـائمـاً في دوار وخلسـة. دخل جـاويد على هون، أخـذه من يده، هزّه، رجـاه أن يـخـرج مـعـه مـقـدار مـا تستغرقه شربة ماء، إذ عنده شغل واجب معه. كان الحكواتى مشغولاً بقتل سهراب[1]، ولم يكن ممد بنگى يريد أن يـخرج من مجلس الحكواتى فى هذه اللحظة الحساسة، ولكن جاويد أقنعه على أية حال وحركه من بين حشد المقهى.

فى ظلمة الزقاق وهوائها البارد، قال جاويد:

ـ «محمد آقا، اسمع... أين أحمد؟».

ـ «أحمد؟ أحمد غير موجود».

ـ «أين هو؟».

ـ «أخذوه».

ـ «لماذا؟».

ـ «فى السجن». انزعج جاويد. تساءل:

ـ «لماذا؟ ماذا جرى؟».

ـ «سجين... ألم تسمع؟ ضرب كريم الأقرع فقتله. هنا بالضبط فى المقهى. تشاجرا حول ثمن الشاى...».

فقطع جاويد كلامه:

ـ «اسمع يا محمد آقا».

كـان يريد أحـمـد زاغى، الابن اللبـيب لغلوم على، الذى كـان يعـرف منزل أبى تراب جيداً، قال:

ـ «أنت تذكر أبا تراب؟».

---

(١) أحد أبطال شاهنامة الفردوسي، يقتله أبوه ـ رستم ـ بالحيلة بعد أن يعجز عن قتله بالقوة.

كان ممد بنگی متكئاً على الجدار. كان المنديل المدلّى مرخى حول عنقه أقذر من قميصه الأسود. حك رأسه، وسأل:

ـ «من؟».

ـ «أبو تراب... حوذى ملك آرا السابق...».

ـ «نعم بابا... أفلا أعرف ذلك النسناس اللاأريحى».

ـ «أتعرف طريق بيته؟ سمعت أنه أدنى من ميدان الإعدام، بيته فى تلافيف وحفرة «زنبورك». أنا لا أعرفه. عندى معه شغل. عندى شغل واجب وفورى، هو مسألة حياة وموت، مع أبى تراب».

ـ «على عينى...».

كان جاويد قد قدم الكثير من المساعدات، خلال السنوات الأخيرة، لممد بنگی، كان قد حاول أن يجعله يترك الإدمان على المخدرات، أن يدبر له شغلاً، ولكن ممد بنگی كان مبتلى بالإدمان. بعد وفاة غلوم على، لما أخرجهم ملك آرا، كان الوحيد الذى لم ينسهم ـ من أناس الحياة القديمة ـ هو جاويد، وكان غالباً ما يأتى بمال النذور والـ (شله زرد) المنذورة، أو أى نذر آخر، إلى باب بيتهم. كان ممد بنگی وأخوه أحمد زاغی قد شهدا من جاويد جوجو السابق، أثناء هذه السنوات، لطفاً كثيراً، فصارا يكنّان له إخلاصاً خاصاً. قال ممد بنگی:

ـ «لماذا لا أحرف[1]... نعم... على عينى».

أخرج جاويد من جيبه قطعتى عشرة شاهى، ووضعهما فى كف ممد بنگی. قال:

ـ «قم بمرجلة وتعال دلّنى... أنا نفسى عندى شغل شخصى فورى

---

(١) أعرف، بلسان بنگي المخدر.

مع أبى تراب». فدفع ممد بنگى النقود:

ـ «بابا، ما هذا، أنت تأمر... من...». فأبقى جاويد المال فى يده:

ـ «تعال ـ يجب أن أجد بيته الليلة». فتبدلت تثاؤبة ممد بنگى إلى خلسة. وقال:

ـ «ماذا؟ الليلة؟».

ـ «الآن».

ـ «بابا، إنه هذه الأيام ليس فى البيت. وإذا كان موجوداً فهو شارب حتى حنجرته، مخدر بالترياك حتى حنجرته، ويحلم بسبعين سلطاناً فى نومه...».

ـ «يجب أن أراه الآن... أوقظه». حك ممد بنگى رأسه من وراء الطاقية:

ـ «وهو منذ مدة صارت أخلاقه أتعس وصار أكثر مشاكسة، إذ أن وضعه خراب...».

ـ «ماذا حصل».

ـ «لا مال عنده، مدين... والأمير لم يعد يعطيه مالاً، أصلاً طردوه... والآن إذا رحت عنده وأيقظته من نومه فدمُك على عنقك... الوقت نصف الليل». فقال جاويد:

ـ «تعال... يجب أن أراه الليلة، وليس الطريق بطويل. كل ما هنالك أننى لا أعرفه».

لم يكن ممد بنگى يدرى ما يفعل. كان قد اتكأ على الجدار، ومرة أخرى تداخلت عيناه. أخذ جاويد يده فشده. جعله، بلسان طيب، يسير، وجاء به بين الأزقة متعثراً أعوج منحنياً كيفما اتفق.

عندما كان يقارن أولاد غلوم على بأولاد وأحفاد ملك آرا ونزهت الدولة، الحرام أو الحلال، كان يقشعر...

كانت منازل أزقة منخفض (مكان الـ زنبورك) بحق وحقيق أدنى المنخفضات والحفر على الأرض. في السواد والقذارة، كانت روائح وحل مجارى الأزقة معذبة ـ وكذلك هجوم ونباح الكلاب القذرة المتوحشة. كان جاويد وممد بنگى قد أمسك كل منهما بعصا يهشان الكلاب ويطاردانها. من بين الظلمة وانخفاض وارتفاع الأزقة المعوجة الملتوية، ودوار رأس ممد بنگى، مضيا ساعة إلى وراء وإلى أمام، إلى أمام وإلى وراء، حتى وجدا ـ بعد توهم وقرع أبواب خطأ مرتين أو ثلاثاً ـ بيت أبى تراب.

قرع جاويد الباب بقبضته وبأحجار، حتى جاء أبو تراب بنفسه ففتح ظلفة الباب. فيما عدا سروال طويل من قماش أسود، كان جسده عارياً. وكان رأسه أيضاً حاسراً كبيراً مكوراً أصلع أحمر، وكانت لحيته وشارباه ـ التى تكاد تشغل كل وجهه ـ تجعله فى هذه الليلة الظلماء يبدو قرداً وحشياً قزماً ممسوخاً ومخيفاً. وكانت فى يده أيضاً سكين. سأل بالصوت المكتوم الأخن لمن صحا حديثاً من نومه:

ـ «من؟». فقال جاويد:

ـ «أنا، يا أبا تراب، جاويد. وهذا أيضاً محمد آقا، ابن غلوم على خان. أردت أن أراك، عندى شغل واجب. عندى عمل فورى». فأطلق أبو تراب فحشا مقذعاً، ثم قال:

ـ «أىْ ذوى دين الكلب، انظروا فى نصف الليل أيقظتم الكون... أبكما أُبنة؟ لا إله إلا الله...».

فقال جاويد:

ـ «اخرج دقيقة واحدة». فقال أبو تراب:

ـ «أخرج لأجعل بطنيكما سُفرة[1]». فقال جاويد:

ـ «أخرج». وأحكم قبضته على عصاه.

فتح أبو تراب الباب، وتقدم مترنحاً إلى وسط الزقاق المظلم. كان بقوامه القزم وبطنه المنتفخة مثل كوزة خرجت من تراب الليل على شكل سيء. لم يتحرك جاويد من مكانه. كان ممد بنگى قد جلس الآن أبعد، عند أسفل الجدار، ووضع يده فوق جبهته. قال أبو تراب لجاويد:

ـ «ماذا تريد؟». كان نفسه يفوح ـ من العرق وحموضة المعدة والترياك ـ برائحة جهنم. قال جاويد:

ـ «مضت عدة أيام ولم تأت إلى تلك الأطراف... وقد فهمت مغرب اليوم أنه قد حان الوقت للشروع بالعمل بخصوص المعاملة التى طالما تحدثنا بشأنها أنا وإياك». فقال أبو تراب:

ـ «كم أنت صفيع[2] بحيث تأتى فى هذا الوقت المتأخر فتقلع الباب من إطاره».

ـ «عندنا شغل».

ـ «أتظن أنك، لأنك الآن مباشر ملك آرا صرت شيئاً؟».

ـ «لا لم أصر شيئاً. قلت عندنا شغل».

ـ «فلماذا صرت قرد الموسم إذن؟ وذاك الخراء البنگى».

ـ «أنا من كنت دائماً... ولا شأن لك بمحمد أيضاً... فقد جئت به

---

(١) المائدة الأرضية، وهي قطعة قماش ـ وأخيراً مشمع ـ يقدم عليها الطعام. وجعل جسد، أو بطن، أحدهم سفرة كناية عن شقه.

(٢) صفيق، بلسان أبي تراب المخمور، والمخدر.

بالقـوة، لأننى لم أكن أعـرف الطريق. اسـمع، يا أبا تراب. كنت تريد المـال، وأنا عندى الآن المـال. حـاضـر. تعـال غداً فـخـذه، ودلّنى على المكان الذى تعرف. فتتم آخر معاملة. إذا لم تأت صباح الغد، سآخذ بنفسى إحدى بنادق ملك آرا، وأجيئك، فأفجر رأسك... أقسم على هذا».

ذهل أبو تراب فعجز عن الكلام. ولكن لمجرد أن يحافظ على هيبته، أخرج من فمه صوتاً مستهجناً، ولكن ضعيفاً بلا رنين. قال جاويد:

ـ «لقد فـهمت أنت أيضاً الآن أننى أتمسك بكلامى وقسمى». فقال أبو تراب:

ـ «هل هيأت المائتين؟». فقال جاويد:

ـ «عندى مـائة وخمسـة وستون... المـائة والستون لك... والخمسة لى كى تكون نفقة سفرى إلى يزد...

المال حاضر. تعال غداً فخذه... غداً صباحاً ـ ينبغى ألا يتأخر حتى الظهر». فقال أبو تراب:

ـ «كنت قد قلت مائتين...».

ـ «كنت قلت مـائتين... واسـتغرق منى أربع سنوات أن أجمع مـائة وخمسة وستين، ولكن عصر اليوم قالت لى ثريا خانم شيئاً لم يعد معه الصبر والتأخير جائزين».

ـ «ماذا قالت؟».

ـ «أنا الآن واثق أنك أنت الذى أخـذت أختى الصـغيـرة تلك الليلة فذهبت بها إلى بستان كن... وثريا خانم واثقة أيضاً».

ـ «ثم ماذا؟ أمر الأمير وقال أن آخذها».

ـ «وأنت تدرى الآن أين هى؟».

ـ «طبعاً، لِمَ لا؟». وابتلع ريقه.

ـ «حسناً، هو ذاك. أنت نقلتها ـ وتدعى الآن أنك تدرى أين هى. وعلى هذا، فقد انتهت التعزية. تمام. صباحاً فى أول وقت يأتى عند باب ملك آرا. ننطلق معاً باتجاه المصرف ـ فى شارع علاء الدولة. أنت أيضاً تعرفه. المال هناك. نأخذه، ثم ننطلق فى الطريق الذى تدل عليه...».

أطلق أبو تراب ضحكته الحلقومية المعروفة، وقال:

ـ «قل إى[1] شاء الله». فصرخ جاويد:

ـ «إننى أتكلم جدياً». فقال أبو تراب:

ـ «انكتم. افهم مع من تتكلم. جاويد جوجو... إنك لم تبل بعد على أرض صلبة[2]».

فقال ممد بنگى من عند أسفل الجدار:

ـ «أنجز له شغله، يا أبو لحية...».

ـ «انكتم أنت...».

ـ «أنجز له شغله، أبو لحية...».

ـ «اسمع بعض كلام أم العروس».

ـ «اسمع ـ قلت لك أن التعزية انتهت. وقد نفد صبرى أيضاً».

ـ «أتخرج لى الآن قرنيك وتتلع صدرك؟».

ـ «إننى أريد أختى».

ـ «سآتيك بها».

ـ «أنجز له شغله، يا أبو لحية...».

---

(١) إن شاء الله.

(٢) لم تجرب الدنيا، لا زلت غراً.

ـ «انكتم يا بنگى».

ـ «إما أن تأتى إلىّ غداً صباحاً، وإما أن آتيك غداً مساءً... فى أمان الله».

وترك أبوتراب، عارياً والسكين بيده، وسط سواد الزقاق، وحيداً مع نفسه. وعاد... فرفع ممد بنگى. وجعله ـ على أى نحو ـ يصعد بين حفر مكان الزنبورك العميقة. أوصله إلى بيته أولاً، ثم ذهب هو إلى بيته.

دق الباب ففتحت له ليلا. كان الوقت قريب السحر، وفى داخل الباحة الخارجية لملك آرا كان الجميع، فيما عداه وعدا ليلا، نائمين. عبر الباحة المظلمة بلا كلام فذهب إلى حجرته. كان ينفر من هذه الحجرة، ومن هذه الباحة التى بنيت قبيحة وبلا ذوق للخادمات والخدم، وكانت هذه الأيام القلائل التى جاؤوا فيها إلى هنا أكثر فترات السنوات الأخيرة إثارة للاشمئزاز.

كانت غرفتان من غرف الجانب القريب من الباحة تحت تصرفهم، وكانت ليلا تحبهما، وتكنسهما عدة مرات يومياً، فى حين كانت فى عينى جاويد ذلة وعار وعذاب كونه خادم ملك آرا، خادم قاتل أبيه، تمطر من جدار تينك الحجرتين وبابيهما. وكانت غرفتا الجانب الآخر من الباحة، مطبخاً - غرفة شاى ومرطبات، بيد شاه باجى خانم الطباخة وزوجها مشد[١] على، الخادم الخاص لملك آرا، وأمينه المزعوم. وكان الجميع الليلة نائمين.

فى ظلمة حجرته، خلع قبعته وگيوته وسترته وسرواله، وتمدد بسدرته وسرواله الأبيض الذى كان مريحاً، كما جاءت ليلا فأطفأت السراج، وذهبت إلى الزاوية الأخرى لتنسل تحت لحافها. بقى جاويد مستيقظاً وقتاً طويلاً، وراح يجر ذهنه وأفكاره فى الظلمة إلى الغد والمستقبل. مع أن الأمر يسير نحو خاتمته، إلا أنه لم يكن يدرى لماذا لا يصدق قلبه أن غداً سيتم الأمر على ما يرام، وينتهى هذا الكابوس.

---

(١) مخفف مشهدي.

لقد شهد هنا قدراً من الشر والكذب، وعانى من الألم عبثاً، بحيث لم يعد يصدق شيئاً، وحتى الليلة كان بالكاد يتمكن من قبول انحلال الأمر. أيمكن العثور على أفسانه غداً؟ ويخرج مغرب الغد من هذا البيت وهذه المدينة؟

ثم، فى الظلمة الباردة التى كانت موجودة فى الغرفة، خارجاً عنه وعن ليلا، مثل واد أسود وموهوم، راح يفكر فى ليلا. كان الخيط الذى يربط حياته بحياة ليلا أدق من شعرة ميتة، وكانت ببرودة وسواد هذه الحجرة. سألته ليلا:

ـ «أين ذهبت؟». فأجاب:

ـ «عند أبى تراب».

ـ «من أجل ماذا؟».

ـ «فى شغل».

كان يظن أنه ينبغى أن يقول الليلة ما سيكون غداً. مهما كانت ليلا فهى تحمل اسم زوجته. كان قد قطع لليلا وعداً أنه يوم يريد أن يرحل عن هذه المدينة سيعنى تكليفها وعندما تكلم، كان كأنه يحاور الظلمة. قال:

ـ «اسمعى». فقالت ليلا مدمدمة.

ـ «ماذا؟». مع أنها كانت تكرهه إلا أنها كانت تخشاه دائماً.

ـ «أبو تراب... تم الاتفاق على أن يأتى غداً فيأخذ المال... ويدلنى على مكان أفسانه». بقى ينتظر أن تقول ليلا شيئاً. سكت مدة. ثم جاء صوت ليلا قائلاً:

ـ «حمار جداً... لماذا أنت حمار لهذا الحد؟». فقال جاويد:

ـ «قالت لى ثريا خانم أمس أن أبا تراب أخذ الطفلة ونقلها ـ وأنه يعلم كل شىء، كان صنع أبى تراب. وقد أقرّ أبو تراب نفسه».

ـ «وماذا قال أيضاً؟».

ـ «أبو تراب؟».

ـ «هوم».

ـ «لا شىء...».

ـ «اتركه، لا تعاود الذهاب إلى طرفه».

ـ «قلت له أن يأتى غداً، فتتم الصفقة اللعينة. تقرر أن يأتى غداً هنا عند الباب...» فقاطعته:

ـ «لا. انسه. إن أبا تراب يكذب كالكلب فاتركه». فقال جاويد:

ـ «لا!... يأكل مالك، ويشرب فوقه ماءً أيضاً. اتركه، لا تعاود الذهاب إليه. إن ذلك الخائن الكذاب ابن المحروق هو كلب ملك آرا القذر. وقد كان كذلك دوماً».

ـ «ليس ثمة طريق آخر».

ـ «من أين تعلم أنها حية؟».

ـ «حية. قال أبو تراب إنه يدرى أين هى... وليس ثمة من طريق آخر».

ـ «حسناً، لأنه ليس ثمة من طريق آخر فأنت تظن هذا الطريق الوحيد. أقول دعه. أطرد هذه الأفكار والأوهام عن رأسك، بعيداً، بعيداً. عندك هنا حياة ومسكن، وعندك مال، عندك شغل، عندك مورد... اترك أبا تراب».

ـ «سأجدها».

ـ «لا تمت يا عنز فسيأتيك الربيع، الرشاد يأتى مع الخيار[1]».

---

(١) مثل، يضرب لمن يتعلق بآمال واهية.

فاستدار جاويد فى الظلمة ونظر إلى ليلا. لم تكن ليلا تحس شفقة أو تعاطفاً نحوه، ولا نحو أخته، ولا نحو أى كان. قال:

ـ «عندى موعد معه غداً... وقلبى يدلنى على أن العمل يبلغ نهايته. فإن بلغ، يعنى إذا عثرتُ على أفسانه، فلن تطأ قدماى هذه الباحة بعد اليوم. وأنت...» وسكت.

ـ «أنا ماذا؟».

ـ «لقد قلت دائماً إن لك الحق فى أن تفعلى ما تشائين. إن أردت فتعالى معى، وإن أردت فسأرسلك إلى خراسان. أو إن أردت فابقى هنا». فأجابت ليلا بحدة:

ـ «أنا لن أتحرك من أى مكان». فقال جاويد:

ـ «حقك ورغبتك».

ـ «حسناً».

كان لا يزال ينظر فى الظلمة نحو فراشها. مرة أخرى، مثل آلاف المرات التى حلّ بينهما الزعل والقطع والسكوت، أحس أن الرابطة بينهما قد انقطعت إلى الأبد هذه المرة وانتهت. ثم قالت ليلا، ووجهها إلى الجدار:

ـ «أذهب إلى مكان ما مع شخص أحبه». لزم جاويد الصمت. فقالت ليلا:

ـ «لا مع حمار ناقص... لا مع حمار مجنون فى رأسه أفكار وأوهام باطلة، يرى فيما يفكر فيه وما يريده قلبه الحق». فقال جاويد:

ـ «يكفى. لقد قلت ما عندى».

ـ «حسناً جداً. اذهب وافعل أية حماقة تريد».

عندما كانت تريد، كانت تلسعه أسوأ لسعات، كانت تعضه بلسعة أنه عديم الرجولة.

وعندما كانت تريد أن تصير أسوأ من هذا أيضاً، كانت تنهشه بسمّ أنها لا تحبه، أو بأنه حتى لو كان رجلاً فهى لا تحبه... وكانت غاية جراحات لسانها أن تهزأ بأفكار وعقائد حياته. لم تكن جراحات لسان ليلا فى أى وقت أقل شأناً من جراحات سكين أبى تراب أو نكبات ملك آرا المشؤومة.

لزم الصمت. ولم تقل هى أيضاً شيئاً بعد...

وضع يديه تحت رأسه، واستل آهة عميقة، وصبر، وترك الزمن يمضى. ترك ظلمة الليل تنسرب مثل سرطان أسود فوق روحه، تمر قطرة قطرة، ويأتى بياض الفجر.

بعد الاغتسال ودعاء الصباح، عندما خرج من البيت لشراء الخبز الطازج والحليب والقشدة لملك آرا، رأى أبا تراب فى الزقاق. كان الخادم القزم جالساً وراء باب البستان المغلق - وعلى جسده القباء المغبر الأشوه نفسه، وعلى رأسه الغطاء الجلدى نفسه الذى كان يلبسه طوال السنوات السبع الأخيرة، مع فرق أنه وضع سترة عتيقة فوق قبائه الملوث. حيّاه جاويد، وقال بأنه مسرور لمجيئه وبدلاً من رد السلام، أو أى كلام آخر، اكتفى أبو تراب بقول «نَيَم[1]» واحدة، وحك مؤخر رأسه وتنحنح. قال له جاويد أن يصبر كى يذهبا بعد ساعة واحدة معاً إلى المصرف.

أنجز أعمال الصباح بخفة ودقة. كانت قد مضت ساعتان من النهارعندما جاء وارتدى سترته. رتب لفافته القديمة. لفّ فى داخلها الكتاب المقدس، «خرده أوستا[2]»، وكأس مكيال عمه، وكل الكتب والكتابات وقطع الأثاث الصغيرة القديمة، وحملها معه. جاء فودع رقية بگم. ثم قال لليلا أنه جاهز للحركة. لم تردّ ليلا عليه. قالت: «إيش[3]»، وأدارت له ظهرها وواصلت كنسها حجرتها - كما لو كانت عيناها الباردتان قد رأتا الكثير من الحماقات والتوافه. على كل حال، ودعها جاويد. لم يهتم ببقية الخدم. كما لم يكن لديه عمل اليوم مع ملك آرا.

(١) = نعم.

(٢) الأفستا، مطبوعة على نحو مجزأ.

(٣) = صه! اخرس!.

خرج، إلى أبى تراب.

فى وجه خادم ملك آرا القديم، المنتفخ، وعينيه المتعبتين، كان كل شىء عتيقاً وميتاً هذا الصباح ـ فيما عدا شوق جديد لأخذ مال جاويد. أشار له جاويد أن ينهض... وانطلقا.

صعدا من زقاق چاله حصار. ومن ميدان گلوا بندك ـ الذى صار الآن مفترق گلو بندك ـ صعدا شمالاً، وإلى اليمين باتجاه ميدان التدريب أو ميدان توپخانه[1]، استدارا. من شارع علاء الدولة ـ الذى صار الآن شارع فردوسى ـ أجلس أبا تراب أمام عمارة المصرف الكبيرة الحجرية، على حافة ساقية ماء حاشية الشارع، ودخل هو المصرف.

سحب كل رصيده. وضع مأمور المصرف أمامه إضمامة صغيرة من ذوات الخمسة التومانات الخضر والتومانين الوردية، الجديدة، التى تحمل تصوير رضا شاه وقبعته البهلوية. كان ذلك حاصل سبع سنين من عمل وذلّه وأسره. وقع إيصالات المصرف وأوراقه. أخذ المال. وخرج من المصرف.

تحت الشمس الربيعية، فى هذا اليوم الجديد، وقف فى الشارع ونظر إلى أبى تراب ـ خادم ملك آرا القديم ـ الذى كان لا يزال جالساً عند حافة الساقية. ونظر إلى الأوراق النقدية التى فى قبضته. كان يذكر ليلة خريفية، قبل سنوات، جلس فيها وراح يلصق بالـ سريش أنصاف أوراق المرحومة فاطمة بگم المسكينة، النقدية، ثم يضعها ـ من أجل إنقاذ ليلا ـ فى يدى هذا الرجل، ليلا ـ التى شأنها شأن جاويد ـ

(١) «صنف» المدفعية. مع تبديل اسمه عدة مرات. إلا أن هذا الميدان لا يزال معروفاً أيضاً بهذا الاسم.

ضاعت على يدى ملك آرا. ويتعين اليوم أيضاً أن يضع كل ماله هو فى يد خادم ملك آرا ـ من أجل إنقاذأفسانه... ويعلم الله أنه اليوم مستعد لإنقاذ أفسانه.

جاء ونادى على أبى تراب. أراه النقود... مد أبو تراب يده عابس الوجه. فقال جاويد:

ـ «ليس بعد، عندما أرى الطفلة». فقال أبو تراب بلا اهتمام:

ـ «لا يمكن». فقال جاويد:

ـ «هذه المرة نلعب كما أقول أنا».

ـ «ماذا ماذا؟».

ـ «انكتم وامض ـ وإلا فسأخبر الشرطة ـ وأقسم أن أكون خشناً، أشتكى... لا تجعل صوتى يخرج، قم وامض بنا». تظاهر أبو تراب بالقبول. قال:

ـ «مقبول. لا يهم. كل شىء على ما يرام». نهض. انطلقا.

قال له أبو تراب شيئاً فشيئاً أن الطفلة فى هذه الحوالى قرب طهران. قال إن الطفلة فى بيت أم زوجته العجوز، فى الجانب الأبعد من المدينة، قرب ابن الامام معصوم. مضت سنوات على الطفلة هنا، وحالها أيضاً جيد. وقد صارت عذبة اللسان جداً. قال أبو تراب إنه كان يذهب مرةكل زمن لرؤيتها، ويأخذ لها «لواشك[1]»، ومشوى الحمّص، والكشمش، لأنها تحب الـ لواشك ومشوى الحمص والكشمش كثيراً.

أصغى جاويد لكلام أبى تراب ـ الذى صار هو أيضاً عذب اللسان لرؤيته إضمامة أوراق النقد ـ فهدأ بالتدريج، وطارت روحه سروراً. كان يريد أن ينثر هنا، فى الشارع، كل الأوراق النقدية على رأس أبى تراب

(١) ثمر المشمش المجفف فالمكبوس ليصير رقاقاً، هو الـ «قمر الدين» في سوريا والعراق.

ويفدى كل شىء لبشرى هذه الأخبار وهذا الكلام. لكنه احتفظ بالنقود فى قبضته، واستمرا...

قطعا طريقاً طويلاً على الأقدام. من شارع سپه نحو باغ شاه، ثم نزولاً نحو لشگر ودروازه قزوين، ومن ثم جاءا إلى صحارى خالية وترابية، غرباً. مشيا ساعتين أو ثلاثاً. كان النهار حاراً مشمساً، وكان قلب جاويد يرف فرحاً، وكان يمضى كتفاً لكتف مع أبى تراب...

عندما كانا يجيئان من بين الصحراء نحو ابن الامام معصوم، رفع جاويد ـ من أجل اطمئنان باله وزيادة أمنه ـ خشبة طويلة ضخمة كانت ملقاة جانباً، وحملها معه... قال لأبى تراب إنها من أجل نهر الكلاب. وقال فى نفسه: وأيضاً ربما لتأديبك، فيما إذا عنّ لك فجأة أن تمارس بعض أعمال ماضيك الحلوة. ولكن أبا تراب فهم أيضاً، فجاء خفيض الرأس. كان يبدو اليوم مدجناً مثل فأر ميت. حتى إنه أخرج سكينه من جيبه ووضعها بالقوة فى جيب جاويد، ليجعل باله ـ فيما زعم ـ مرتاحاً من كل ناحية.

كان ابن الإمام معصوم فى الحقيقة قرية صغيرة، واقعة وسط سهل منبسط، فيها بضع شجرات وأكواخ وبساتين بجدران من الطين والتبن. عندما كانا يقتربان من القرية، بل منذ أن خرجا من طهران، أفهم أبو تراب جاويد أن أخته تجرى رعايتها فى بيت أم زوجته هو، على نفقة خال زوجته، وأن ملك آرا كان يعدهما دائماً بمال كثير. وأنهما قد أنفقا الكثير على رعاية الطفلة وسلامتها ودوائها وعلاجها، فهما ينتظران مالاً كثيراً. وأفهم جاويد أنهما خلال هذه السنوات، وخاصة خال زوجته ـ أسد الله خان ـ صارا يشكّان فى ملك آرا والمال المقرر أن يأتى،

فاستحالا معاندين كثيرى التوقع، وهما يطلبان مالاً كثيراً. ولكن أبا تراب يعرف كيف يتعامل معهما. أقسم على أن المائتين تومان التى طلبها هو أولاً من جاويد مائة وثمانين منها لأسد الله، عديم الأب والأم، كثير التوقع هذا.

وصلا أوائل بعد الظهر، كانت قرية ابن الإمام معصوم ـ تحت شمس الظهيرة ـ تمتد وسط السهل منبسطة، يابسة خالية. كان قرويون فرادى يتراءون هناوهناك مع معزاة أو خروف أو بقرة أمسك أبو تراب بجاويد عند باب خفيض خشبى مهترئ. كان الباب الخشبى غائراً فى جدار البستان الطينى المرتفع المنخور. حك أبو تراب رأسه، وقال:

ـ «أقول ـ الأفضل أن أذهب أنا نفسى أولاً فأكلم أسد الله خان... فأرى ما طلباته، وكيف أتعامل معه». فقال جاويد:

ـ «ينبغى أن أرى الطفلة». فقال أبو تراب فى حيرة وصراخ:

ـ «بابا، يا لك من حمار آدمى ساذج. أ، أفهؤلاء بشر؟ إذا رأوك مع هذا المال وبهذه الوضعية، فسيعدّون أسنان أجدادك وآبائك. عدا عن أنهم لن يعطوا الطفلة، سيأخذونها ويخفونها فى سبع حُفَل[1]، وفى ذلك الـ وخت[2] يجب أن تأتى طول عمرك فتدفع لهم مالاً. طول عمرك يجب أن تأتى تدفع... إنك لا تعرف هؤلاء، لا تعلم أى مَكَرَة سيئين ظلمة أولاد حرملة[3]». فسأله جاويد:

ـ «ماذا نفعل إذن؟».

ـ «ها... اجلس أنت هنا، ودع هذه المائة والستين فى جيبك حالياً ـ أصلاً: أخفها... أدخل أنا، أتكلم معهما... أقول إن وضع الأمير خراب،

(١) و (٢) اقرأ: حفر، و: وقت.

(٣) ضابط أموي ـ كوفي، قاتل الامام الحسين.

يريدون توقيفه. صار قعيد البيت من خوفه.

الخلاصة: كلام من هنا ومن هناك. ثم أقول إن أخا الطفلة جاء من الريف، وقد باع كل ماله وملكه، فجلب مائة وعشر تومانات وهو يريد أخته. أقول إنه ليس يملك، هو مسكين سيء الحظ، وهو لا يفهم الكلام أيضاً... وإن مائة وعشرة خير من لا شيء. ولا تتقدم أنت. اختف أنت وراء هذه الدكة... إن رآك أسد الله خان ولاحظ أن شكلك يشبه أولاد أصحاب الضياع فالأمر خراب، ولن يعود يمكن التفاهم معه».

نظر إليه جاويد. كان البقاء خارجاً والانتظار مع المال عديم الإشكال. قال:

ـ «حسناً. اذهب. اعمل ما تجد فيه صلاحاً». فقال أبو تراب:

ـ «لا تذهب إلى أى مكان ها... فالقرويون عديمو الدين سيجردونك من كل شيء فوراً».

فأمسك جاويد بخشبته، وقال:

ـ «اذهب، اذهب. أنا متيقظ... أسرع».

ـ «ها ذهبنا». فقال جاويد متوسلاً:

ـ «انظر يا أبا تراب، هات الطفلة دقيقة فألقى عليها نظرة واحدة».

فقال أبو تراب:

ـ «حسناً... إلا إذا أخذ نُطف الكلاب عديمو الدين والإيمان هؤلاء الطفلة فولاً[1] وأخفوها فى سبع حُفَل[2]». فقال جاويد:

ـ «اذهب. أنا أنتظر».

قال أبو تراب: يا الله، ودفع الباب ـ الذى كان مفتوحاً ـ ودخل.

جلس جاويد وحيداً، وضع يده على صدره. كان قد لبث سبع سنوات من أجل مثل هذا اليوم. رفع رأسه نحو السماء. كانت السماء زرقاء

---

(١) و (٢) اقرأ: فوراً، و: حفر.

صـافـيـة. وكـان للشـمـس نور براق دافئ مـذهل. كـيـوم انـطلق أبوه وأمـه وأفسانه من يزد نحو طهران. حاول أن يستدعى صورة أفسانه أمام عينيه.

تساءل كيف صار شكلها الآن؟

كانت الدقائق تمضي، ولكن لم يحدث شيء. مع أن قلبه كان يتحرق، إلا أنه لم يجرؤ على النهوض ودخول البستان. كان أبو تراب قد قال له أن ينتظر خارجاً، حتى يهيء هو الأرضية. لم يكن يريد أن يجعل أبا تراب وأسد الله خان وأم زوجة أبى تراب العجوز، كائنين من كانوا، يسيئون الظن بدخوله متلصصا... ولكن لم يكن ثمة من أثر لأبى تراب، وقد طال الانتظار، وكانت كل لحظة تزداد طولاً.

أخيراً فتح الباب. وخرج رأس أبى تراب. ولم يكن مسروراً جداً. جاء فألقى بضعة شتائم مقذعة، وقال إنهما يتكلمان بالعالى. فسأل جاويد باضطراب:

ـ «ماذا جرى؟». فقال:

. ـ «بابا، إن ابنى الكلب ابنى المحروق هذين قد أكلا الحياء وشرباه وتقيآ الخجل. يقولان: أنت قلت لنا إن ملك آرا يعطى مائتين. وإنهما لعلى درجة من الصفاعة[١]. أسد الله مث[٢] الشمر[٣] واقف وقد بصقوا فى فمه مائتين فهو لا يفهم غيرها. ولن ينزل عنها بفلس. وأخته أيضاً تنق مث[٢] هذه آكلة الأكباد[٤]». فسأل جاويد:

ـ «أين الطفلة؟». قال أبو تراب:

ـ «الطفلة موجودة، ما شاء الله نشيطة ممتلئة... كم صارت سمينة،

(١) و(٢) اقر: الصفاقة، و مثل

(٣) ضابط أموي آخر، قطع رأس الحسين.

(٤) زوجة أبي سفيان وأم معاوية.

ألف ما شاء الله».

ارتعش فرحاً. كان يتآكل لأن يدخل البستان عندما منعه أبو تراب:

ـ «بابا اصبر... لا تخرب العمل».

ـ «ماذا ينبغى أن أفعل الآن إذن؟».

ـ «أما عندك مائتان تعطيها لهما؟». وحدق فى بؤبؤى عينى جاويد كأنه لم يكن يصدق أن جاويد قال له الحق، ويتصور عنده مالاً كثيراً.

وحدق جاويد أيضاً فى عينى أبى تراب الضيقتين. هنا أيضاً اغتم من عدم إيمانه وسواد قلبه. قال:

ـ «هنا، كل مالى... إنك تعرف جيداً كم عندى. مائة وخمسة وستين...». فقال أبو تراب:

ـ دعنى أعود فأكافح مرة أخلى[1]... لقد أنبت لسانى شعراً...». فقال جاويد:

ـ «أتريد أن تأخذ النقود؟... لتريها؟. فقال أبو تراب:

ـ «لا يا ولد. لا تكن حماراً مستقيماً ساذجاً. يرون النقود فيُزدهم حرسهم[2] وطمعهم، عديمو الدين جاهلون بالله». فقال جاويد:

ـ «ما ترى فيه الصلاح». قال أبو تراب:

ـ «اخف النقود حتى أعود. اجلس هنا». ومرة أخرى غاب وراء ظلفتى الباب الخشبى... مرة أخرى بقى جاويد وحيداً. شد قبضتيه، رفعهما نحو السماء، وهزهما فى الهواء. اهتز كل بدنه أيضاً. دعا، وطلب من خالقه أن تنتهى هذه الساعة أيضاً على عجل. أهورائه مزداته ويسنا وهى چهمنى... كل الخلق هبتك، أعنِّى، وأنْهِ هذه الساعة بأسرع وقت بالخير والإحسان.

---

(١) و (٢) اقرأ: أخرى، حرصهما وطمعهما.

(٣) = أبي الفضل (العباس).

ولكن هذه المرة انقضت مدة أطول، إلى أن ظهر أبو تراب مرة أخرى.

ـ «كأن الأمر ينصلح، وحق أبى الفض[٣]». فتبسم جاويد، وشكر الله. سأل:

ـ «أين وصل الأمر؟». قال أبو تراب:

ـ «حالياً شاء الله، إن وقّع تحته حضرة العباس ومهله[١]. قلت: ليس عنده أكثر من مائة وخمسين... لا يزالون يدردمان، ولكن يبدو أنهما لانا. ربما أستطيع أن أرضيهما، ابنىْ المحروق... احتفظ أنت بخمسة عشر لمصاريف سفركما...».

أخرج جاويد النقود من جيبه، ولكن فى اللحظة التى أراد أن يسلمها لأبى تراب حدّق فى عينيه.

قال أبو تراب:

ـ «بابا، لا تسىء الظن، كم يجشمنا من عناء، تحملنا إلى هنا العذاب عنك ـ فما دام التنور ساخناً لنضع الخمير[٢]».

كان جاويد لا يزال مترددا.

ـ «بابا، أين أذهب أنا الشيخ... أفلست أنت جالساً هنا وراء الباب؟ أفليست سكينى فى جيبك؟ لقد فعلت فى عمرى ألف نوع من الشل[٣] والمعاصى، أكلت مال امرأة عجوز، قتلت ناساً، انتهكت نواميس، أحلقت[٤] بيتاً، ولكننى أليد[٥] اليوم أن أفعل هذا الثواب فى سبيل الله، أستخلص هذه الطفلة من أيدى أولاد الحلام[٦] الأخساء المنكوبين هؤلاء وأجعلك تفوز بأختك، أفأفعل سوءاً إذا أحلّك[٧] المعاملة ولا أدعهم

---

(١) اقرأ: مَهَرَة.

(٢) مثل إيراني= أطرق الحديد وهو ساخن.

(٣)، (٤)، (٥)، (٦)، (٧) الشر، أحرقت، أريد، الحرام، وأحرّك. وهكذا تقرأ بقية حروفُ اللام في حديثه.

يأخذونك فيسلخونك؟...».

كان جاويد لا يزال متردداً، قال أبو تراب:

ـ «بابا، اجلس أنت هنا ولاء باب البستان... من أين يمكننى أن أهلب... أنا أستطيع أن أفلّ، أأسيتطيع؟ فى المرة التالية التى أخرج بها من هذا الباب، سأخلج مع أختك... إن لم أأت بها الملة القادمة إلق ببصقة على لحيتى البيضاء هذه... اضلبنى بهذه الخشبة على لأسى. خذ السكين فقطّعنى إلباً.».

كان جاويد ـ بالاشتياق والاضطراب الذى عنده ـ يغلى فؤاده، مد يده فأخرج مقدار المال الذى أراده أبو تراب لأسد الله خان وسلمه إياه. أخذ أبو تراب النقود، وقال:

ـ «وحال أختك جيدة... سآتى بها الآن فتلاها». فقال جاويد:

ـ «عجّ». وقال أبو تراب:

ـ «كبالك... إيشاء الله تكبلان بالخيل والبلكة...». فقال جاويد:

ـ «ممنون، اذهب، أسرع». وقال أبو تراب:

ـ «ولا تنسى حلوى بشالتى». فقال جاويد:

ـ «إذن فهات الطفلة... وهذه الخمسة عشر لك». فقال أبو تراب:

ـ «لا... لن آخذها كلها...»، ونظر إلى يد جاويد وجيبه.

فسر جاويد ورقتين أخريين من ذات الخمسة التومانات فى جيبه... وقال:

ـ «اذهب، عجّل».

ومرة أخرى، غاص أبو تراب فى داخل البستان.

على خلاف توقعه، فقد طال انتظاره هذه المرة عن المرتين

السابقتين كثيراً. كانت دقائق العصر البطيئة تنقضى، وعيناه متيبستين على باب البستان الخشبى المتهرئ. صارت الشمس أسخن. كان الزقاق الخالى ـ الذى كانت أمامه صحراء جرداء ـ يبدو محروقاً فانياً. لم يعد القرويون الفرادى الحفاة، وحتى الأبقار والماعز، ليبدون للأنظار بعد. كان جاويد نفسه متعباً عطشاً جائعاً. ولكن لم يكن ليجرؤ على الابتعاد عن باب البستان.

ظن أبا تراب مشغولاً بالحديث والمعاملة. ظن أنهم لا بد تشاجروا. صعد الدكة الكائنة وراءالجدار. وجاء فوقف أمام باب البستان. أصغى. لم يكن صوت ليأتى من داخل البستان. من فتحة الباب، نظر إلى البستان. بين الأشجار، لم يسمع غير خرير ماء ساقية ضيقة. كان لا يزال يخاف دخول البستان، لم يكن يريد أن يلخبط المعاملة. انتظر مزيداً. وقف وراء جدار البستان، تمشى، وقف، ونقل ثقله من رجل إلى أخرى.

عندما انقضت ساعة أو ساعتان أخريان ولم يحدث أمر، جاء جاويد بقلق وفتح فرجة الباب أكثر. كان يخشى أن يكون أبو تراب، أثناء العراك مع القرويين، قد أصابه بلاء ما.

انسل من فرجة الباب إلى داخل البستان. فى مقدمة البستان، لم يكن ثمة ـ فيما عدا بضع شجرات وساقية ماء ـ شيئاً. تقدم من الطريق الضيق الذى كان بين الأشجار. كان فى جانبى البستان جدار من طين وتبن. خمّن جاويد أن البيت فى انتهاء البستان. تقدم رويداً رويداً. وصل آخر البستان. وقف، وأدار رأسه إلى هذا الطرف وذاك. فى آخر البستان أيضاً لم يكن ثمة غير جدار الطين والتبن. كان البستان قطعة

أرض محصورة بين أربعة جدران طين ـ تبنية.

في زاوية من البستان، كان جزء من الجدار قد تهدم وانهار، وتكونت فيه ثلمة واسعة عريضة يمكن لشخص واحد أن يفر منها بيسر.

ركض جاويد بالخشبة والسكين نحو فتحة حائط البستان. صعد الجدار. كان وراء الجدار أيضاً زقاق خال آخر يؤدى إلى نهاية السهل الأخرى... ولم يكن ثمة من أثر لأبى تراب.

في الظلمة، في فراشه، كان قد انكب على وجهه. كانت قبضتاه مضمومتين. كان رأسه ساخناً وعيناه مليئتين بالدموع.

في الليل، كل ليلة، كان يبقى على هذه الحال، حتى يطلّ الفجر، دون أن يغلبه النوم. كان شهر كامل قد انقضى على كذبة أبي تراب والبستان الخالي في ابن الإمام معصوم... وأثناء هذه المدة، كما في هذه الليلة، لم يطرق النوم عينيه حتى ثانية واحدة.

كان قد أراق دماً سبع سنوات، ودارت دنيا التعاسات حول رأسه فحطمت أعلى رأسه. في هذه الليالي كان يجد نفسه مرة أخرى في تلك النقطة الفارغة السوداء نفسها من فرجال الدائرة. بروح فارغة، وكيس أفرغ، سقط مرة أخرى في زاوية حجرة الخدمة... والآن لم يبق غير ملك آرا... وملك آرا أيضاً لا يعثر عليه هذه الأيام، لأن خبر احتمال توقيفه ومحاكمته كان قدانتشر في المدينة.

خلال هذا الشهر كان يذهب مرة كل يوم جمعة إلى محلة منخفض محل الـ زنبورك للبحث عن أبي تراب. اختفى أبو تراب هو الآخر. لم يكن أحد قد رآه في المدينة قط. كانوا يقولون أنه ذهب إلى شاه عبد العظيم[1] فاختفى ـ لأنه ارتكب سرقة...

وفي هذه المرة أيضاً وقعت عدة وفيات: وقعت أولاً وفاة تاج ماه خانم في قم ـ كانت امرأة ملك آرا قد جاءت حرم حضرة معصومة منذ مدة من أجل شفاء سرطان صدرها. كان يقال إن ملك آرا، بعد وفاة زوجته، ذهب إلى قم سراً وأقام مجلس فاتحة ومجلس أسبوع جليلين

(١) مدينة ري.

لزوجته المتوفاة. ثم وقعت وفاة رقية بگم ودفنها الصامت. ثم وفاة مشد على العجوز زوج شاه باجي رئيسة الطباخات. إن الموت، عندما يأتي - شأنه شأن بقية التعاسات - يأتي هو أيضاً كالسيل، بلا رحمة، فيهدم البيوت.

ولكن، لا الموت، ولا الخبر القطعي عن صدور أمر توقيف ملك آرا، ولا حتى مواساة ثريا خانم أحياناً، لم يهزّ أي منها فرا غ روحه الموجع. كان لا يريد غير ملك آرا، أن يجلس معه بضع ساعات، ويسمع آخر كلام عن أخته من فم ملك آرا.

أقلّت ليلا أثناء هذا الشهر، خاصة بعد وفاة رقية بگم، خشونتها وفظاظتها معه. ففي الليلة التي عاد فيها جاويد خالي الوفاض من ابن الإمام معصوم وواقعته مع أبي تراب، تشاجرت معه ليلا كثيراً، أفحشت له في القول، وقالت إن قلبها قد تشفي وقرّت عينها. ولكن في الأيام التالية، بعد أن صارت ترى جاويد مهدماً تعيساً تماماً، لم تعد تضرب الميت بالعصا، بل تركته في قعر مصيبته.

كانت خدعة أبي تراب أهول وقعاً، بالطبع، على جاويد من مجرد سرقة مدخراته لسبع سنين. كانت النتيجة المدمرة نفسانياً لهذه الخيانة الأخيرة والجرح، في ذهن جاويد، أنه ربما لم تعد أفسانه موجودة! لا بد أنهم قتلوها... أو أخفوها. قبل هذا، سبق أن قال له الجميع إنه ينبغي أن يعتبر أفسانه ميتة، رائحة، كانوا قالوا له إنه لا ينبغي أن يذكر اسمها بعد، ينبغي أن ينساها - قال الجميع هذا، فيما عدا أبا تراب. لقد قرأ أبو تراب في أذنه أن أفسانه حية - ولم يسمع جاويد إلا كلامه... أو أراد أن يسمع كلامه. كان هو من أخذ أفسانة من البيت . وقد بقي

يقول لجاويد طوال سنوات إن أفسانه حية، وإنه يعرف أين هى. كان أبو تراب قد أفهمه أن ملك آرا أخفى الطفلة من أجل بقائه ساكتاً (بخصوص مقتل أبيه وأمه فى بيت ملك آرا). كان هو من ظل يقرأ خطة المائتين تومان، والحصول على أفسانه، فى أذن جاويد... وها هو فرار أبى تراب، وكون كلام أبى تراب ووجوده كذباً، يكاد يقتل وجود أفسانه فى روح جاويد.

فى هذه الليالى والنهارات، فى أظلم منافذ روحه، كان هذا الأمل الواهى وحده باقياً، وهو: قبل أن يسجن ملك آرا، أو يخرج من البلاد، أن يتمكن من رؤية ملك آرا، فى مكان ما، ولو لمدة خمس دقائق، أن يقف أمامه، ويسمع بأية وسيلة عن مصير أخته الصغيرة المفقودة، من فم ملك آرا. بشكل مطلق. ولكن هذا اللقاء يبدو بعيداً هذه الأيام، وصار يبدو مستحيلاً يوماً بعد يوم. نهارات طويلة، ليال رديئة، وأسابيع مُبلية للروح تنقضى وهو لا يرى ملك آرا فى أى مكان. كان المسؤول عن كل أعمال بيت ملك آرا الآن ميرزا أصغر خان المباشر. كان ملك آرا يأتى خفية أحياناً إلى بيت محلة وزير دفتر، ولكن لم يراه أحد قط. كان جاويد يسمع أنه يصرف أوقاته فى البساتين أو فى البيت الذى اشتراه فى السنوات الأخيرة بشارع بهار. لم يكن ليعرف قط فى أى وقت أين هو ملك آرا بالضبط، وأولئك الذين يعرفون كانوا إما لا يقولون وإما يكذبون.

كان ينبطح أثناء الليالى على وجهه، ويفكر حتى الصباح، وكان الأرق وأفكار السوء تلف فى ذهنه مثل نار دوارة فى يد عجوز مخبولة تديرها فى جو ليلى عاصف بلا توقف.

كان قد ناضل ـ وتلقى جروحاً ـ فى محلة وبين أناس لا يوجد فيها،

وبينهم، شرف ولا اعتبار ولا إيمان ولا استقامة ولا خشية الله. كانت عبادة الربح، والحرص، والإذلال، والسخرية من الكون، حاكمة على كل شيء. وكانت الدوافع الآنية والكذب والجهل تستولى على كل مكان. فى الماضى، كان شيوخ العائلة والديانة قد نبهوه بخوف، حذروه من البلايا والمصائد التى تتربص بكل واحد منهم فى هذه الدنيا ـ ولكن، أإلى هذا الحد؟ كان قد سمع أن الحياة، بالنسبة لكل فرد زرادشتى مؤمن، نضال مستمر مع كذب الشيطان والقباحات، وجهاد راسخ من أجل تحكيم الفضائل ـ ولكن، أهذا ممكن فى الوضع والدنيا الراهنين؟

لقد رسّخت التعليمات الأولى لسن الخمسة عشر فى ذهنه هذا الأساس الفكرى: فى هذا العالم، يوجد فى تكوين الإنسان جوهر من العدل والخير والرحمة. لقد منح الرب الإنسان (أكثر من البهائم والوحوش والزواحف والطيور) عقلاً وفكراً يجعلانه يتألم من الفعل السيء ويحس سروراً وحباً من الفعل والخير. وكان هذا هو كل الكلام. فى ليالى الأرق هذه، إذ كان فى عمق تشابك نضاله، أحس أن هذا الجوهر، إن كان موجوداً، فإنه قد مات فى تكوينه هو، أو كان يحتضر. كما أن جوهر الإنسان قد مات وصار هباءً عند أهل هذه المحلة. لقد كان عبث الدنيا الآن هو خاتمة القول. كانت خدعة الأرض هى الضياء الأخير.

كان يخاف. يخاف بلا حدود وبشكل مدهش. كان لأول مرة فى حياته يحس الخوف حقاً. كان يخاف الانهيار النهائى لأسسه الفكرية. (فى الخامس عشرة، عندما ماتت أمه، وأخذوا أخته، وسقط هو ـ بساقيه المكسورتين ـ فى زاوية بستان ثريا خانم خادماً أسيراً، كان هذا

السقوط قد حل مرة). ولكن كانت هاوية سقوطه الآن شيئاً آخر. كانت تلك الدورة انكساراً وخوفاً طفوليين. وهذه المرة يبدو سقوطه ويأسه انكساراً نهائياً. لم يكسروه هو وحده فقط، لم يعطلوا ساقيه ويسحقوه بالركلات تحت التراب فقط، ولكنه الآن يموت من داخله أيضاً. لم يعد لزرادشت اعتبار، وهذه حقيقة. ولم يكن للديانة الزرادشتية وللماضي اعتبار أيضاً. ولم يكن يرى لمستقبل الديانة الزرادشتية اعتباراً أيضاً. ولم يكن يرى للدنيا الفكرية والأخلاقية الآتية لأهل هذا الوطن اعتباراً أيضاً... وشيئاً فشيئاً راح يغوص في يأس وقنوط مطلقين.

كان التناقض يكمن في أن خوف اليأس والقنوط هذا ذاته هو الذي يتملك الناس من حوله فرداً فرداً... كان في ملك آرا أيضاً نوع من القنوط من الوضع، وخوف. في ليلا كان ثمة نوع من الأنين واليأس والخوف. كان في الجميع أنين وقنوط وخوف. يبدو أنهم، من دون أن يكون لهم في البدء إيمان صحيح، غاصوا في هذا الخوف واليأس. أم أنه كان لهم إيمان بشيء ما أولاً؟

والأسوأ من هذا، كان جاويد يخشى أن يكون هذا الخوف واليأس عالميين، وأبديين. فسواء في وجوده هو، أو في وجود بقية مخلوقات هذا العالم، كان اليأس والقنوط، الجهل، والتكذيب يصير البنية الروحية وطريقة حياة ومحكومية هذه الدنيا... كان جاويد يخشى هذا.

في آخر هذه الدورة المشؤومة، في الليلة التي قرأ فيها بعينيه هو في الجريدة أن قرار توقيف ملك آرا وجلبه فوراً قد أبلغ إلى قسم شرطة المحلة، للمرة الأولى بعد شهر ونيف من الأرق، حل أخيراً بعض النوم في عينيه... ولكن هذا الخبر أيضاً لم يكن ليعالج له ألماً على نحو

صحيح... كان ملك آرا الآن هارباً متخفياً.

وهذه المرة أيضاً كان زرادشت الكبير هو الذى خف، برسالته، إلى رفع جاويد وحمايته. لقد بقى حلم تلك الليلة، وكلام ذلك الشيخ لابس البياض، مثل ظاهر سندٍ وكتابة على مرآة، فى لوح ذهن جاويد ـ مرآة حملها منذ تلك الليلة، حتى انتهاء حياته، معه فى كل مكان.

بدأت أحلامه تلك الليلة، بنفس الكوابيس المتكررة، بخصوص أفسانه، وقناة الماء الملوث التى تمتد تحت الأرض إلى الأبدية، وهو عطشان، ويشرب وهو يموت تدريجياً. ثم، مرة أخرى جاء شيخ سهول إيران لابس البياض. والليلة، لم يحس جاويد أى شك فى هوية هذا الرجل. وانحفرت رسالة الشيخ كلمة كلمة فى لوح خاطره.

«سريعاً سترحل عن هنا».

«سريعاً ستخرج من هذا البيت السىء، وستبلغ دنيا جديدة. ستعبر من هذا المكان، الذى هو برزخ عبور، فى أيدى الـ ديو[1]. فى المكان الذى ستبلغه مستقبلاً لن يكون ثمة ديو، لأنه لن يكون ثمة كذب بعد. لن يعانى بدنك عذاباً بعد، لأنك ستكون كلّك روحاً ونفساً. لن تبقى بعد فى الظلام، لأنك ستكون نوراً جميعاً. لن ترى قبحاً، لأن عينيك ستكونان ممتلئتين بالحسن. لن تجد بعد جحود لله، لأن كل شىء سيكون أهورا».

«لقد جئت من معبد نار، جئت من عائلة وجوهر طاهرين. كانت آلام فترتك هذه من هجوم روح أهريمن المهلكة. يجب أن تكافح ضد الروح المهلكة، يجب أن تقاتل، وأن تحرس الدين الطاهر... وما إن قضيت عليها فسيزول من بعد الشر والكذب والألم والظلمة والقبح ونكران الله ـ

(١) عفريت الأساطير الفارسية: كائن في منتهى الفخامة والقبح شكلاً، وفي منتهى الشرّانية عملاً.

وستكون كل منافع الجنة، كل الحسنات والصدق والمسرات والأنوار والجمالات، التى تخص أهورامزدا، من نصيبك».

«ستجتاز هذا البرزخ الضيق: وفى عالم بلا حدود، فى زمان بلا زمان،ستحيا. ستصل ببارئك. ستتصل بخالقك الذى هو كل شىء. فى مركز هذه الدنيا المحدودة لا تخف. فى العين المظلمة لهذه الليلة الظلماء - التى زرعوا فيها بذور موتك وفنائك - لا تخف، يا عزيزى، لا تخف. ستكون من نصيبك عاقبة خير. عين الخالق عليك. هو الذى يحميك يطلب منك أن تخرج من هذه الظلمة، بالاستقامة والطهارة، أن تتحرر، وأن تبلغه فى الأبدية التى لا حدود لها. لا بد أن تبلغه. لا تخف».

عندما استيقظ من النوم، كانت عيناه مغرورقتين بالدموع، ولكنه وجد ذاته مرة أخرى، وكان يدرى - فى هذه النقطة من تاريخ العالم - أين هو، وما الذى ينبغى أن يفعله.

ـ ٥٢ ـ

منذ ذلك اليوم، لم يبق جاويد فى بيت ملك آرا إلا على هذا الرأى وهذه الإرادة: عندما يأخذون ملك آرا ويجرونه إلى المحكمة، فسيتقدم ويقص للمحققين والقضاة ماضيه وحكايته، وفوق كل شىء سيقدم إدعاء مطالبته باسترداد أخته من ملك آرا، ويطلب أفسانه، سواء كانت ميتة أم حية.

تُرك كل بيت ملك آرا الكبير الآن خالياً بلا روح، صامتاً مظلماً. كانت المداخل وأبواب الغرف الملأى بالأثاث الفخم، مقفلة. وكان باب البستان مغلقاً هو الآخر، مقفلاً. وكانت المفاتيح، مجموعة منها بيد ملك آرا نفسه، ومجموعة عند ثريا خانم، وكان ميرزا أصغر خان يمتلك مفاتيح أبواب البيت والبستان، فكان يمر أحياناً ـ مع أنه كان هو أيضاً قليل الظهور هذه الأيام. كان جاويد يذهب يومياً، عن طريق الدهليز، إلى الباحة الكبرى، وكان ينظر إلى داخل الإيوان، من وراء الزجاج، إلى داخل الصالة وبقية الغرف الأمامية، ويطمئن على البيت. كان كل شىء ملقياً ساكناً ساكتاً متربا بلا صاحب. ولم يكن فى الحوض الكبير إلا شبر من الماء الأخضر المغطى بالأوراق المتساقطة، وإذا كانت الحدائق يابسة، فقد اكتسب البستان كله منظراً محزوناً مهجوراً.

وفى الباحة الخارجية لم تعد ثمة الآن، فيما عدا ليلا، إلاّ شاه باجى. كانت الخادمة العجوز تجلس منذ الصباح حتى المساء، متعزية

ومنبوذة، أمام باب المطبخ، تلبس السواد وتدخن النرجيلة وتجر الآهات. وكان المطبخ وغرفة الشاى باردين خاليين هما أيضاً.

في اليوم الأول، ذهب جاويد إلى باب بيت ميرزا أصغر خان، كي يطلع على حال وأوضاع ملك آرا. كان ميرزا أصغر خان هذه الأيام قد دبّر لنفسه، لوقت الصباح، شغلاً إدارياً في العدلية باسم أصغر آقا مباشرى (يدّعى بإذن ملك آرا)، كما أنه مشغول في العصارى عند رأس زقاق چاله حصار ببناء دكاكينه. لم يكن عند ميرزا أصغر خان أى خبر عن ملك آرا ـ وكان ينأى بنفسه ويجيب أجوبة متعالية غامضة. وقال لجاويد إنه إن أراد بعد اليوم مالاً أو شيئاً آخر فعليه أن يتشرف بلقاء الدكتور كيومرث خان (الذى صار الآن من المديرين العامين لوزارة الصحة) أو بلقاء السيدة المصون ثريا خانم. لم يكن هو نفسه عنده أمر جديد من ملك آرا، ولم يعد يتقاضى راتباً أو أجوراً ـ ولكن مع ذلك كان لفظ «حضرة الأشرف» يلقلق فى فمه المداهن الجبان بكل فخامة.

لم يكن جاويد يريد مالاً، فقد بقى عنده قليل من مال مصروف البيت الذى أعطى له مقدماً. ولم تكن ليلا وشاه باجى كثيرتى المصروف.

وذهب عصراً إلى مغارات محل زنبورك، وتحرى مرة أخرى عن أبى تراب، لا على أمل أن يسترد ماله، ولكن ـ أكثر ـ على أن يجد أبا تراب، أن يكلمه، أن يستخرج الحقيقة من فمه. ولكن لم يكن ثمة أيضاً أثر لأبى تراب، ولم يكن ليخرج من منزل أبى تراب أيضاً كلمة أو خبر. لم تكن عند أم أبى تراب العجوز طاقة على الكلام. كان أبو تراب متزوجاً من امرأتين أو ثلاث متن جميعاً، ولم يصر ذا ولد قط. لم يكن أحد يعرف هذه الأيام أين هو. من كلام أهل البيت والمحلة، والآخرين فى وزير دفتر

وچاله حصار، يمكن الاستنتاج بأن أبا تراب، بعد المال الكثير الذى حصل عليه، وألقى بنفسه فى خضم العرق والترياك بإفراط، فأصيب بمرض وخيم، وذهب فسقط فى مكان ما... ربما نقلوه من زاوية حانوت خمّار إلى مستشفى ما. أو ربما كان قد مات فى زاوية بيت تحشيش.

مساءً، تناول العشاء فى الصمت الدائم مع ليلا. كانت ليلا أيضاً هذه الأيام قد تركت جاويد وشأنه، كانت غارقة فى أفكارها وأحلامها. كانت قد قالت له أنها لن تأتى معه إلى يزد، بل ستبقى هنا فى طهران. وهى لم تكن تطلب الطلاق حالياً، لأنه لم يكن عندها أحد آخر. كانت - بماضيها الملطخ - ذكرى تاريخها واسمها لا تزال فى أذهان وأفواه أهل المحلة القدامى ترد مقترنة بالشتم والعار. كان ملجؤها الحالى الوحيد هو جاويد. مع أنه لم يكن ثمة أى تفاهم روحى وعلاقة جسدية، إلا أن جاويد احتفظ بها ما دام ذلك بإمكانه.

فى الصباح التالى وقع أمر عظيم وجديد كان جاويد ينتظره، ولكن ليس بهذا الشكل والخشونة. عند الصباح الباكر جاء ثلاثة من مأمورى الشرطة مع رجل آخر يرتدى سترة وبنطلوناً وقبعة پهلوية، للتحقيق مع ملك آرا وتفتيشه، فراحوا يدقون الباب بشدة وإصرار. سحب جاويد الطية الخلفية لـ «گيوته» إلى أعلى لابساً إياها، وخرج من باب الباحة الخارجية، وأخبرهم أن ملك آرا ليس فى المنزل، وأنه غائب عنه منذ مدة، وعرّفهم بنفسه. أجبره المأمورون على فتح باب البستان، لأنهم كانوا يريدون التجوال فى ذلك البيت وتفتيشه. ذهب جاويد إلى منزل ثريا خانم والدكتور كيومرث، كى يطلعهما، أو لكى يجلب المفاتيح، لم يكن الدكتور كيومرث خان فى البيت، فأبلغ جاويد ثريا خانم بهدوء

بموضوع مجيء المأمورين، وأخذ مفاتيح الباحة الأخرى، وعاد سريعاً ـ إلى المدى الذى تسمح به ساقاه الموجعتان ـ إلى باحة ملك آرا، فسلمها إلى الضابط الشاب الذى كان يرأس المأمورين. ثم انضمت إليهم ثريا خانم أيضاً وعلى رأسها شادر. ولكن المأمورين ما كانوا يريدون غير ملك آرا. كانوا قليلى الكلام جديين، ومع أنهم كانوا لا يزالون يحترمون ملك آرا، ولكن كان واضحاً أنهم يتحركون من منطلق قوة، وأنهم لم يأتوا اليوم كى يأخذوا نذراً أو ثمن شاى.

فتش المأمورون وراء جاويد كل الغرف، زوايا الصناديق، المصلّيات، وحتى المطبخ وغرف الباحة الكبرى. ثم فتشوا باحة وحجرات ثريا خانم أيضاً، وألقوا أسئلة على جاويد وبقية الخدم. وأرسلوا فى طلب ميرزا أصغر خان، فجلبوه هو أيضاً، وألقوا عليه أسئلة مدققة.

قبيل الظهر أعد المأمورون محضراً بأعمالهم. ثم جاء مأموران آخران مع محقق يرتدى السترة والبنطلون. أغلق المأمورون غرف الباحة وكذلك باب البستان الكبير، أقفلوها، وختموها بالمهر الحكومى. لم يكن لهم اليوم شأن بالباحة الصغرى وغرف الخدم، فتركوا هذه الباحة حرةً آنياً. وعند العصر، فتش ضابط، كان رئيسهم جميعاً، كل زوايا الباحة للمرة الأخيرة، وترك مأموراً مسلّحاً ببندقية أمام باب البستان، ثم انصرفوا.

كانت عينا جاويد المحتارتان تريان منذ اليوم فجأة أموراً جديدة. كان يرى عدو حياته الأكبر مغلوباً مبتلى ذليلا ـ أو على الأقل كان بيته وحياته عرضة للبلية والهوان. إن الرجل الذى أعد لنفسه طيلة سنوات فى

هذا البيت، فى هذه المحلة، سلطنة، وأخذ الأرواح فى قبضته، فهصرها، بدلها، وأراق دماءً، وقام بتجاوزات، وقام ببذلٍ وهباتٍ، لم يكن اليوم غير ظلٍ هارب.

كانت ثمة شائعات بعد، ولم يكن جاويد يعرف أيها أقرب إلى الواقع. كان بعضهم يقولون إن ملك آرا قد غادر إيران. يقولون إنه ذهب إلى روسيا، أو إنه فرّ إلى العراق عن طريق كرمانشاه[1]. حتى الجرائد كانت تنشر أخبار وشائعات خروج ملك آرا من البلاد. كان جاويد يسمع أن المأمورين قد فتشوا كل بيوت ملك آرا الأخرى، وختموها ومهروها. كانوا يفتشون بيوت أصدقاء ملك آرا فيقلبونها رأساً على عقب، وفتشوا أيضاً منزل ميرزا أصغر خان. ثم أشيع أن ملك آرا اختفى فى بيت واحد آخر من الأشراف، وأن مكانه مأمون. كان الرجال البارزون يكذّبون الآن ارتباطهم ومعرفتهم بملك آرا. وأشيع أن ملك آرا فى إحدى السفارات، وأنه هو الذى ينشر هذه الأخبار كى يفرّ بعد أن يتعب الناس وتهدأ الضجة. ثم سمع جاويد، على نحو متناثر، أموراً أخافته. سمع من ثريا خانم، سراً، أن ملك آرا جعل جواز سفر الدكتور كيومرث خان باسمه، وأبقاه لديه، فكان جاويد يخشى أن يكون ملك آرا قد خرج من البلاد، أو أنه سيخرج أخيراً، قبل أن تطاله يد جاويد.

مع عدم وجود أبى تراب، وربما موته، والشائعة الحالية عن خروج ملك آرا من البلاد، كانت آمال جاويد فى العثور على أفسانه تغوص فى الظلمات.

بعد مجىء المأمورين، ذهب جاويد تلك الليلة إلى منزل ميرزا أصغر

(١) محافظة غربي إيران، متاخمة للحدود العراقية.

خان. بعد الحديث عن المنازل ووضعهم العام، طلب من ميرزا أصغر خان المساعدة بشأن أخته، قدم آخر التماساته. كان ميرزا أصغر خان متعباً متربا مشوشاً، إذ عاد لتوه من بنائه الجديد، وكانت سترته وبنطلونه الأسودان الباليان ملطخين ببقع الطين والجص. حتى مسبحته الطويلة، التى كانت مدلاة دائماً من قبضته كما لو كانت يدا إضافية، ملطخة هى الأخرى ببقع الطين والجص. قال ميرزا أصغر خان بلهجة تمطر تعباً أبدياً:

ـ «بابا، قلت لك مائة مرة أذهب، لا تعد تذكر الطفلة، وقع حادث قبل سبع سنوات، انتهى... انسها، تمام. كان أمراً، تمَّ، مضى... قل إنها ماتت، ذهبت، أو إن أحدهم أخذها فربّاها. أصلاً، اعتبرها ماتت... يعنى إننى أقول ماتت!...» فقال جاويد:

ـ «لو كان هذا وقع، لو كانت ماتت، فيجب أن أعلم... من قتلها؟ أين قبرها؟». فقال ميرزا أصغر خان.

ـ «بابا، يا لك من إنسان لجوج عنيد».

ـ «يجب أن أعرف».

ـ «الفاتحة... حسناً، اذهب واعثر عليها، اذهب وأقم لها مجلس عزاء، أقم لها مجلس اليوم السابع، أفستعود؟».

عضّ جاويد شفته. فى ديانته، لا شأن لهم بالموتى، إنهم يفكرون بالأحياء وشؤون الأحياء. قال:

ـ «سمعت أنت نفسك بأن الطفلة ماتت؟ أسمعت أين دفنت؟». مرة أخرى تنهد ميرزا أصغر خان تنهيدة تعب ونفاذ صبر، وقال:

ـ «لا، والله... لا يعلم إلا شخصان: أحدهما أبو تراب، والآخر هو

الأمير نفسه...».

مرة أخرى وصل الطريق المسدود.

كان ملك آرا الآن آخر نافذة وأمل واهٍ له للعثور على أفسانه. كان جاويد يعرف أنه ينبغى أن يرى ملك آرا ولو لبضع ثوان، قبل أن يخرج من البلاد. وإلا... من جرس وفناء فكرة «وإلاّ» المشؤومين حلّت ببدنه رعشة.

وبعدئذ بعد أسبوع، جلب الأمر الكبير للقدر والنهج ـ الذى جلب جاويد ذات يوم إلى باب منزل ملك آرا ـ جلب ذات ليلة ملك آرا نفسه إلى باب حجرة جاويد إبن فيروز آقا.

كان الوقت قرب منتصف الليل عندما أيقظه وقع أقدام من نومه الخفيف الحزين. كانت ليلة صيفية مقمرة. كان ـ شأنه كل ليلة ـ قد نام داخل الحجرة. كانت ليلا وشاه باجى تنامان فوق السطح. كان صوت وقع أقدام يأتى من الباحة الداخلية، من جهة الدهليز. نهض جاويد فجلس. ثم رأى ظلاً يأتى إلى أمام حجرته ـ مثل كابوس صار فجأة يقظة وحقيقة. كان ظل ملك آرا، وفى اللحظة التالية تقدم جسد ملك آرا السمين الضخم الملفوف بالعباءة ـ المعطف. كان ملك آرا يحمل بإحدى يديه حقيبة سوداء كبيرة، وبالأخرى مسدساً.

وقف جاويد، قفز من مكانه، تقدم، وكان كل ما خرج من فمه اليابس هو:

ـ «أنت[١]».

تقدم ملك آرا خطوة واحدة، وراح ينظر إلى جاويد بسوء ظن وبشىء شبيه بالخوف كانت له جدّة على وجه ملك آرا. ثم تطلع حول الباحة، وحتى إلى داخل الحجرات وسأل:

ـ «أين الباقون؟». فقال جاويد:

ـ «على السطح، نائمون[٢]». فسأله:

ـ «من هم؟». قال جاويد:

ـ «ليلا وشاه باجى فقط». كان ملك آرا يتكلم بصوت مكتوم.

---

(١) بصيغة المفرد، وهي تستعمل عند الالفة، أو لبيان عدم الاحترام.

(٢) لا يوجد في الفارسية تأنيث وتذكير، ولا تثنية.

ـ «لا يوجد في تلك الباحة أحد؟». فقال جاويد:

ـ «لا. أقفلوا كل الأبواب وختموا عليها بالشمع»

ـ «أدري يا حيوان».

ـ «وأقفلوا باب البستان وختموها بالشمع أيضاً... وضعوا حارساً هناك». ثم تمعن في وجه ملك آرا، وفي معطف ـ عباءة ملك آرا المعفر، وقال:

ـ «من... من أي طريق دخلت؟». فقال ملك آرا:

ـ «من جدار الزقاق الخلفي... أية ليلة!». ثم تقدم وقال:

ـ «اسمع...»، ووضع أسطوانة مسدسه داخل ثقب إحدى أذني جاويد.كان صوته جافاً ومخيفاً:

ـ «إن فعلت كل ما أقول، وكنت للسر كتوماً، فسأعطيك كل ما تريد... وإلا فسأفرغ طلقة في صدغك... أتفهم؟». قال جاويد:

ـ «نعم...». قال ملك آرا:

ـ «أعطيك كل ما تريد». فقال جاويد:

ـ «لا أريد في هذه الدنيا إلا شيئاً واحداً هو...». فقطع ملك آرا كلامه سريعاً، وكما لو أنه كان حاضراً وعارفاً بكل شيء، قال:

ـ «تريد أختك الصغيرة، أدري، أدري. هي في محل محكم. عندي. وعندي صورتها أيضاً، أخذتها لها داخل البستان بآلة التصوير، سأريك إياها. وعندما يحين الوقت سأخبرك بنفسي أين مكانها. وسأعطيك مالاً أيضاً كي تذهب فتأخذها وتذهب بها أينما تشاء، بالسلامة. ولكن ينبغي أن تساعدني ليلة أو ليلتين. لم أعد أستطيع الاعتماد على أي شخص

آخر ـ يعني على شخص له قابليتك...».

وقف جاويد مبهوتاً. لم يكن يدري كم يصدق من كلامه، أو ماذا يفعل. مرة أخرى كانوا يعطونه أمل العثورعلى أفسانه ـ الأمر الذي صار أسوأ من سراب فارغ مشؤوم. ولكن، على أية حال، كان هذا المكان هذه الليلة آخر الحظ. كان ملك آرا الشخص الوحيد الذي يمكن أن يكون عنده آخر مفتاح لهذا السر، ولا شك أنه كان عنده فجاء معولاً على أن يساعده جاويد! إنه لم يذهب حتى عند ابنه أو ابنته... جاء عند جاويد. لا بد أنه يعرف أن يده قوية ـ لأن ورقته الرابحة هي أفسانه. وطبيعي أنه كان بيده مسدس أيضاً. قال:

ـ «على عيني، بشرط أن أعثر على أختي بأسرع وقت». فقال ملك آرا:

ـ «تعثر، تعثر عليها... وستعثر على أمور أخرى كثيرة أيضاً... ماذا عاد لي؟ ماذا أريد؟ لا أريد إلا النجاة ومغفرة الله. بلغت آخر العمر، كل ما هنالك أنني لا أريد أن أموت في السجن والمحبس. لقد تغيرت الدنيا، تغيرت الحياة... ذات يوم مات أبوك بهذا البيت، إنني آسف. وفي وقته أسفت أيضاً. خفت. في تلك الأيام انتشرت أقوال سيئة في كل مكان، فانزعجت، ثم عندما جئت أنت ازدادت الأمور سوءاً. لم يكن بمقدوري أن أتركك تركض فتذهب إلى الجندرمة والأمن عديمي الفهم فتجلبهم إلى باب بيتي. أكان يمكنك ذلك؟... والآن، ما مضى قد مضى. ولكنني سأعوض. أتفهم؟ أنا أيضاً خسرت... ساعدني، وسأفعل لك خيراً. لقد وصلتُ الله. تعال، تعال معي».

ـ «إلى أين؟».

ـ «يجب أن أذهب إلى سرداب تلك الباحة. عندي شغل».قبل جاويد على مضض، وأشار برأسه أن: على عيني، مع أنه لم يكن يدري ماهي خطة ملك آرا ولا ما كان يريد منه على وجه الدقة.

ركض فجاء بالسراج النفطي الصغير من حجرته، وحمل السراج أمام ملك آرا، فذهبا. دخل الدهليز وراء ملك آرا. تقدما. كان هيكل ملك آرا الضخم أمامه، بين ظلمات الدهليز الأسود الطويل، وهو يحمل الحقيبة والمسدس، مثل غول كابوسي لدنيا جديدة يتحرك وسط الخيال.

عندما بلغ آخر الدهليز، قال له ملك آرا أن يخفض السراج، ويخفي نوره بيده. ففعل جاويد ذلك. دخلا البستان المتروك. كانا يعلمان كلاهما أن وراء باب البستان حارساً يقوم بالمراقبة. عبرا البستان متلصصين. وذهب ملك آرا نحو سرداب المطبخ القديم.

عند رأس السلم التفت ملك آرا، وأخذ بنفسه السراج من يد جاويد. أعطاه حقيبته السوداء الثقيلة، وتقدمه.

كان قلب جاويد يكاد يقف. كان هذا هو المكان الذي قالوا له في السنوات الأخيرة أن أباه وأمه دفنا في أرضه. فأمسك مرفق ملك آرا، وقال:

ـ «هس!... نعم، نعم، امش».

ـ «لا».

ـ «إن المكان الذي أريده هو في آخر هذا القسم من السرداب... خلف خزان الماء... تعال...».

ـ «لا...».

ـ «تقدم، لا تكن عاطفياً ضعيفاً ـ إن كنت تريد أختك... فليست الليلة ليلة إظهار ضعف».

فقال جاويد:

ـ «لا، ليس هنا».

ـ «تحرك، لا تخف».

ـ «لن أضع قدما هنا». فقال ملك آرا:

ـ «أسرع، ليس ثمة طريق آخر».

فاستل من صدره آهة غضبي.

صرخ ملك آرا بصوت مكتوم:

ـ «هيا لا تضيع الوقت، الصباح يقترب، إن كنت تريد المساعدة...»، وأخذ يده فسحبها.

لم يكن ثمة طريق ولا حيلة أخرى.

تحرك وهبط السلالم وراء ملك آرا.

في الظلمة حدّق بالمطبخ القديم، الذي صار بعد سبع سنوات أكثر سواداً وخراباً. ولكن روائح الرطوبة والوحل والموت، روائح الشر والكذب والخداع كانت لا تزال تتماوج في الهواء الثقيل الأسود. تقدم ملك آرا، وجاويد من ورائه. عبرا المخزن الكائن في نهاية المطبخ حيث دفن والداه. كان جاويد يحس أن سهاماً شيطانية تغوص في ساقيه.

ـ ٥٤ ـ

في انتهاء الخزان، كانت بويبة خشبية مربعة تقوم على الجدار المطل على الخزان، تنفتح عليه. توقف ملك آرا أمام هذه البويبة. فتح البويبة الخشبية المتهرئة، ومد رأسه داخلها، وقدم السراج، وطالع داخل خزان الماء بدقة. ثم استدار فأودع المصباح في يد جاويد كي يمسكه. وضع مسدسه في جيبه، خلع عباءته فسلمها لجاويد. ونزع السيف القصير ذا الغلاف الثمين للغاية، الذي كان مدلى بوسطه، وسلمه إلى جاويد أيضاً كي يمسكه له. وجرجر نفسه الآن مثل لص، إلى أعلى فداخل البويبة، وجلس أسفل إطارها. كان جاويد يقف ذاهلاً، يحدق فيه.

من حافة البويبة تناول ملك آرا المصباح والسيف من جاويد، وانطوى على نفسه داخل خزان الماء، غرز السيف ـ بغلافه ـ في ماء قعر الخزان، سبر الماء.. وقال: «لا بأس»، وبعد ثانية دخل الخزان بجزمته السوداء.

مد جاويد أيضاً رأسه، وتطلع إلى ملك آرا والمصباح بيده. كان الماء لا يبلغ أعلى من منتصف ساق ملك آرا. كان ملك آرا يتقدم نحو انتهاء خزان الماء.

كان جاويد لا يزال فتى ريفياً ساذجاً، ولم يكن ليدرك كل مشاعر وأفكار أمير نبيل من أفراد البلاط. إن الرجل الذي كان طوال سبع سنوات امبراطور عذابه في هذه المحله، والسيد المطلق لكل إنسان وكل شيء، يتواثب اليوم بسيف مطعم بالذهب ومصباح نفطي، مثل صبي شاطر، داخل خزان الماء.

كان ملك آرا قد وصل ـ وراء بضعة أعمدة إسمنتية سوداء مكسوة بالطحالب ـ إلى أقصى خزان الماء. لم يكن جاويد يراه من هنا. سمع ما جعله يتصور ملك آرا يعالج شيئاً، ويقذع في القول. ثم ناداه ملك آرا أن يأتي، داخل خزان الماء، فيساعده.

ترك جاويد أشياء ملك آرا على الأرض ودخل من البويبة ذات المتر ونصف المتر أو المترين، كان حافياً، وكان الماء البارد يبلغ ما تحت ركبتيه. كان الماء راكداً متعفناً، وكانت قدما جاويد تغوصان في وحل قعر الماء، الذي كان يعلو على ساقيه مثل بصاق بارد. وراء الأعمدة رأى ملك آرا ويده على الجدار. لم ير في البدء شيئاً، ولكنه نظر متفحصاً. كانت ثمة بويبة حديد عجيبة، كما لو أنها تغطي طريقاً أو ثقباً سرياً، أو سرداباً مخيفاً. كانت البويبة الحديد، التي لا ترتفع عن سطح الماء أكثر مما يقل عن متر، والتي كانت من حديد داكن صدئ، قد بنيت بمستوى الجدار ولونه. ولهذا السبب لم ينتبه جاويد إليها في البدء حتى من أمام: فقد صورت على البويبة أشكال طابوق محدد بالأسمنت بشكل ماهر جعلتها تبدو بشكل الجدار.

كان ملك آرا يحاول أن يفتح، بسكين كانت في يده، حافات البويبة الحديد الصدئة، ولم يكن ينجح في ذلك. استدعى جاويد للمساعدة. بمعونة أظافر جاويد، وسكين ملك آرا ويده القوية، انفتحت البويبة الحديد أخيراً.

كان يختفي خلف البويبة سرداب صغير. تسلق ملك آرا فوراً، وبيسر، فدخل السرداب. خلف البويبة، كانت ثمة ثلاث درجات سلم تقود إلى أسفل. كان السرداب يشبه غرفة خالية، فدخله ملك آرا. تقدم إلى وسط

السرداب منطوياً على نفسه، ثم وقف تحت السقف الخفيض، نظر في كل مكان، ثم هز رأسه في رضا المضطر.

قال إنه سبق أن أمر ببناء هذا السرداب أثناء اضطرابات دورة محمد علي شاه[1]، عندما كان ثمة دائماً حبس وقتل واعتقالات، لكي يكون له مكان يختفي فيه إذا ما اقترب الخطر منه ذات يوم.

كان سرداباً متواضعاً، ولكنه مستقل، كما كان جافاً ومريحاً إلى حد ما. وفي إحدى زواياه كان ثمة حتى صنبور ماء ومرحاض. كان سقفه خفيضاً جداً، ولكن أرضيته ـ بألواح الخشب والحصير فوقها ـ كانت جافة ومرضية. قال إن هذا السرداب ومتعلقاته قد بناه له المرحوم الأوسطى كامران ـ أحد رؤساء معماريي ناصر الدين شاه ـ ولا يعرف بوجود هذا السرداب السريّ غيره وبنّاء مسنّ، توفي الآن، وملك آرا والمرحوم غلوم علي، وقد توفوا جميعهم الان، ولا يدري به الآن إلا جاويد ! وهذا هو المكان الذي يحتاجه ملك آرا الآن ليختفي فيه بضعة أيام، حتى تبرد السخونة الحالية للأوضاع، وتنكتم الضجة، حتى يهيئ وسيلة سفره إلى الخارج.

بناء على أمر ملك آرا عاد جاويد وسط الظلمة فجلب من خارج خزان الماء الحقيبة الثقيلة جداً والمعطف والسيف. كان ملك آرا الان جالساً على أحد الألواح المتهرئة، التي كانت واقعة في زاوية، يفكر. أمر جاويد أن يدخل.

في داخل السرداب أمر ملك آرا جاويد أن يضع الحقيبة وسط الحصير على أرضية السرداب، وأن يفتحها. فتح جاويد الحقيبة الكبيرة بيدين مرتجفتين، فطلب منه ملك آرا أن ينظر إلى محتوياتها. تفحص

(١) أيام حركة «المشروطة»: حركة المطالبة الدستورية، سنة ١٩٠٦ ـ ١٩٠٨.

جاويد داخلها. كان آلاف التومانات من أوراق النقد الإيرانية والخارجية، من كل لون، بكل حجم، وكذلك بحر من المسكوكات الذهبية الإيرانية والروسية والإنكليزية، يستقر في قاع الحقيبة. وكانت الميداليات والمعاصم والساعات وعلب السجائر والسعوط الذهبية، والخواتم والأطواق والأسورة الذهبية ذات الأحجار الكريمة تجعل القسم ذا الأزرار من الحقيبة سميناً منتفخاً. وفي زاوية أخرى من الحقيبة، كان ثمة نطاق كبير وعجيب تنام في الطية التي تحته صفوف المسكوكات الذهبية وأوراق النقد الكبيرة. وفي منديل أصغر كانت ثمة أحجار كريمة مفردة. كما كان في زاويتي الحقيبة خنجران قبضتاهما من ذهب، مرصعان بأحجار عجيبة ملونة. كما كان ثمة قدر كبير من المستندات والأوراق المالية التي تبدو أوراقاً مصرفية أو مستندات حكومية. كانت كنزاً قيمته الملايين من الأموال في أي بلد من بلدان العالم. لم يكن بمقدور جاويد أن يضع أي حد لقيمتها الحقيقية. من أين جمع ملك آرا كل هذا الكنز؟ إن ثروة بيوت وبساتين وأثاث ملك آرا عديمة النظير كانت تبدو مثل الـ «فكة» إزاء هذا الكنز.

نظر ملك آرا إلى الصبي، الذي كان فاغر الفم أمام هذا الرأسمال أو الكنز. ثم دفع يده إلى جيبه فأخرج مسدسه. أمسك به أمام جاويد مدة. هتف بجاويد أن يقترب. تقدم جاويد خائفاً. وفجأة وضع ملك آرا السلاح، بحركة واحدة، بيد جاويد، وقال:

ـ «هاك يا فتى، خذ...».

أخذ جاويد السلاح ذاهلاً. بقيت عيناه الصغيرتان محدقتين في ملك آرا. قال هذا:

ـ «اضرب، ارم، اقتلني»

ـ «نعم؟».

ـ «إما أن تضرب وتقتلني... أو أن تصفح عني، وتقسم على أن تساعدني. إن كنت تريد أختك، ينبغي أن تساعدني... لقد بلغت آخر عمري...».

وقف جاويد متيبساً أمامه. كان ملك آرا جالساً، ينتظر تصميمه.

كان واقفاً، والمسدس بيده، على رأس قاتل أمه وأبيه وسارق أخته. كان رأسه حامياً. يداه ترتعشان. أن يفعل الفعل الذي كان لا بد أن يفعله، والذي تعني أن يتأخر طوال هذه السنوات، كان أمراً جلياً وغير قابل للاجتناب.

وضع أصبعه على الزناد. لكنه قال:

ـ «إنك تعرف جيداً ما جوابي... وإلا ما كنت لتضع آلة القتل هذه في يدي».

ـ «لك الحق والإرادة».

ـ «... أين أختي؟...».

ـ «أتقسم أن تساعدني؟...». كان أصبعه لا يزال على الزناد. قال:

ـ «من أجل إنقاذ أختي، لا بد لي». فنظر إليه ملك آرا، وقال:

ـ «إنني لم أفهم قط أي حيوان أنت، وبأي شيء تؤمن وتعتقد... ولكنني أنا أيضاً أقسم، أقسم بديني، وإيماني ـ يوم أريد الذهاب ـ سأضع يد أختك في يدك...».

نطق جاويد ـ ببساطة وبرودة ـ بأول شيء خطر على ذهنه:

ـ «إنني لا أصدق كلامك...». فنظر ملك آرا في عينيه، وقال:

ـ «إذن فاضرب، واقتلني...». فقال جاويد:
ـ «قل لي ما الذي جرى لها... أين هي؟».
برم ملك آرا شاربه. حدّق في جاويد. ثم قال:
ـ «ألم تكلم ليلا بهذا الصدد قط؟». فسأل جاويد:
ـ «ليلا؟ وما موقع ليلا في هذا الشأن؟».
ـ «لا شيء، لا شيء... لقد أرسلتُ الطفلة مع أبي تراب إلى البساتين كي تبقى مخفية عن الأنظار ـ لأنني أدري أنك، بدونها، لن تذهب إلى أي مكان. لن تفعل أي شيء... أفلستم ملتصقين جميعكم ببعض كحبات عباد الشمس؟». وسأل جاويد:
ـ «أي بستان؟».
ـ «بستان كن... ولكنني بعد ذلك أمرت فأبدلوا مكانها عدة مرات، كي لا يتم العثور عليها بيسر». فقال جاويد:
ـ «والآن أيضاً لا بد أنني ينبغي ألا أعرف أين هي...». فقال ملك آرا:
ـ «الجو هنا بارد، وأنا متعب. أقسم بالقرآن أنني في اليوم الذي سأنوي فيه الرحيل سأضع يد أختك بيدك. قول الرجل واحد. وأنت وشأنك. إما أن تقبل ـ أو أن تختم كل الغائلة الآن بضغط ذاك الزناد...».
كان جاويد يعرف أن ملك آرا الآن في قبضته... يعرف أنه لا يمكنه أن يكذب ويبقى حياً.
تنهد وأعاد له مسدسه. قال:
ـ «لن يعينك إلا الله إن كان هذا القسم كاذباً...». فقال ملك آرا:
ـ «ليس كذباً، يا ولد. ليس كذباً. لم أعد على هذه الدرجة من الحمرنة... اذهب فهات لي شيئاً... فأنت لا تريدني أن أُتلف برداً وتعباً...».

وكلمه ملك آرا كلاماً كثيراً آخر أيضاً، وأوصاه عدة وصايا. أعطاه قائمة بوسائل المعيشة، من قبيل لحاف وحشية، منقل وفحم، وقند وشاي وطعام، كي يجلبها له. وأخرج من جيبه أيضاً كثيراً من النقد فوضعه في كف جاويد. قال إنه لا ينبغي أن يعلم أحد بأنه هنا... لا أحد... لا أحد... حتى ليلا وشاه باجي ـ وعلى الخصوص ينبغي ألا يعلم ابنه وابنته أنه هنا. فهو لا يثق بهما، ولا يثق بأي أحد. حدّق في عيني جاويد، وقال:

ـ «لا يمكنني أن أثق إلا بك، لأنني أدري أن كلاً منا يحتاج إلى الآخر ـ حاجة موت وحياة... في أحابيل الحياة هذه، يقف كلانا على الصراط المستقيم».

فقال جاويد: «ربما».

وقال ملك آرا: «نعم، نعم، يا ولد».

نظر إليه جاويد، وهز رأسه.

ـ ٥٥ ـ

ترك ملك آرا في السرداب وخرج هو في الظلام. أغلق ملك آرا وراءه البويبة المعدنية. تحرك جاويد بين خزان الماء البارد الموحل، والسواد الكثيف السيال. عبر البويبة متلمساً طريقه. كما عبر خزان الماء الأسود أيضاً، الذي كان ذات يوم له ولأمه ولأخته جهنماً من كل الآلام الأبدية. كان في قلب الظلمة المطلقة يحس أن النصر قريب من مناله. ورقي السلالم أيضاً. اجتاز بستان ملك آرا. واجتاز الممشى بين الباحتين كذلك. عاد إلى الباحة الخارجية.

كان كل مكان لا يزال هادئاً، وكانت الليلة مقمرة وصيفية. جمع بعضاً مما كان ملك آرا قد طلبه ـ قدر الإمكان ـ من زوايا البيت الكبير ومطبخه، وحمله إليه في نقلتين أو ثلاث. سيشتري له الباقي غداً بالتدريج. كان ملك آرا قد جلب معه حُق الوافور وكثيراً من الأفيون. صار بمقدوره الآن، بمنقل النار والقليل من الشاي والكعك والطعام الذي جلبه جاويد، أن يصبر حتى الغد. اتفقا على أن يأتي جاويد ليلاً، في كل أربع وعشرين ساعة مرة واحدة فقط، عند رأس الساعة العاشرة. (أعطاه ملك آرا إحدى ساعاته. كان لازماً أن يجلب جاويد من السوق لملك آرا غذاءً، وأن يهيء من محلات مختلفة عرقاً وأفيوناً، وأن يجلب الصحف اليومية، وأن يطلعه على الأخبار والأحوال والأوضاع. اتفقا على أن يغلقا البويبة من كلا طرفيها. وفي زمان معين، عند ضربة معينة، يفتحاها. كان ينبغي أن يراقب جاويد دائماً، في كل ساعة وفي كل لحظة، كلتا الباحتين. لا ينبغي أن يأتي أحد إلى هذه الباحة.

وعندما نفّذ آخر طلبات ملك آرا، وتركه لحاله أخيراً وخرج، سمع ملك آرا وهو يغلق البويبة من الداخل. وقف مدة، وفي يده سراج آخر جلبه معه، خلف البويبة داخل خزان الماء، وراح يحدق في البويبة الحديد من الخارج. لقد قال ملك آرا حقاً. فقد كانت البويبة مثبتة من الخارج بمفصل. كانت المفاصل ألسنة حديدية عريضة وطويلة تتجه من مركز البويبة إلى زواياها الأربع، ولا تبدو للعين بيسر. في الزوايا الأربع لمربع البويبة، على امتداد المفاصل الأربعة ذات الرؤوس المدببة، كانت ثمة حلقات تنغرز بمهارة في الجدار. تنغلق البويبة من الخارج كما تنغلق من الداخل. كانت مأمناً وسجناً في الوقت نفسه.

أغلق جاويد المفاصل الأربعة. وخرج من خزان الماء مطمئن الفؤاد.

وسط دهليز الخزان، في النقطة التي قالت أمه أن أباه قد دفن فيها، وقف. لا بد أن قبر أمه ذاتها أيضاً في هذه الأنحاء. أمسك بالسراج فوق قبر أبيه. كان عنده كلام كثير يقوله له. ولكن عقدة لسانه وحلقه ما كانت لتنفتح اليوم. كما أن دمعه لم يكن ليخرج. لأنه لا بد لم يكن ثمة دمع. في ظلمة الدهليز الباردة قرأ دعاءً وفرورته آشم وأهورا بخوف وعلى عجل... ثم خرج.

وقف وسط البستان. كان الوقت فجراً. حدق في السماء النظيفة النيرة، ذات النجوم المتفرقة. كان نسيم بارد وملائم يهب. أرسل التحيات لروح أبيه وروح أمه، قال لهما بلسان قلبه أن وقت العثور على أفسانه واطمئنان بالهما وروحيهما قريب. وأقسم على أن يؤدي عمله، حتى الآخر، بإحسان وطهارة.

ـ ٥٦ ـ

أخيراً، ها قد حان موعد اشتباكه ومقابلته مع ملك آرا.

بقي صاحياً، وراح يفكر بكل زوايا وجوانب أقوال وأفعال ملك آرا. كان يعرف أنه ينبغي أن يرسم خطته جيداً، أن يكون ثابتاً، وأن يكون هذه المرة يعمل بمنتهى الدقة، أن يمضي على الطريق الصحيح فيصل الهدف. كان ملك آرا هناك، داخل ذلك السرداب، تحت القفل والضبة، ولم يكن يعلم بذلك أحد غير جاويد،الذي أقفل عليه. وكان ملك آرا قد قال إنه يعلم أين هي أفسانه... كان العدو في يديه. لم يعد يمكن أن يصير ضحية لخداع أبي تراب السخيف.

استقر رأي جاويد وعزمه على ألا يخرج ملك آرا من هناك إلى يوم أن تكون أفسانه أمامه حية سليمة ـ لا قبل ذلك. ولا بعده. فيوم أن يخرج ملك آرا من ذلك السرداب، سيكون ذلك أول أيام الحرب، بدء صراعه وملك آرا. وقد كان متهيئاً للعدو.

لم يكن في قاموس جاويد مكان للعفو عن المسيئين والإحسان إليهم ـ وخاصة العفو عن مسيء كملك آرا. إن أصغر تجاهل، وأتفه إغماض، مع ملك آرا، لهما جريمة غير قابلة للتصحيح. لا ينبغي العفو عن أهريمن. لا ينبغي معاملة أهريمن برحمة وشفقة. إن الصلح مع أهريمن لأسوأ الأعمال. كان ـ لسوء الحظ ـ قد أقسم أن يصالح ملك آرا، أن يداريه، أن يحفظه في ذلك المكان مدة ـ حتى يوم العثور على أفسانه. وبعد ذلك سينتهي التزامه بقسمه أمام ملك آرا. منذئذ تبدأ ساعة الثأر والانتقام.

في اليوم التالي، كان كل شيء في البيت عادياً. لم تكن ليلا وشاه باجي قد علمتا بشيء. كان جاويد قد نقل من وسائل البيت، وكذلك من لوازم مطبخ البيت الكبير، أشياء قليلة جداً ومتناثرة، كي لا ينتبه أحد. كان يفكر أن يشتري الأشياء التي طلبها ملك آرا من السوق وبمرور الوقت، فيحملها إليه... لم يكن يدري كم يوماً يريد ملك آرا أن يبقى مختفياً في السرداب. لا بد أن ملك آرا نفسه لم يكن يدري أيضاً... كان قد قال: «حتى تبرد الأوضاع الساخنة حالياً، وتموت الضجة...». كان يمكن أن يدوم هذا أسبوعاً، وربما شهوراً. صار يقضي ساعات أطول من الصباح وبعد الظهر حول المنزل.

وكان البستان الكبير لا يزال خالياً هامداً. في هذه الباحة كانت حياة ليلا وشاه باجي تنقضي بلا مبالاة ولخبطة. كان الحارس المناوب، المتعب الغافي، أمام باب البستان، يتبدل مرتين كل يوم. كما كانت كل التكية والمحلة تواصلان حياتيهما العاديتين أيضاً. لم يجعل خبر توقيف ملك آرا وضبط وختم بيته وأمواله حياة المحلة تختل وتتغير. إن نفس هؤلاء الأشخاص نفسهم والجيران الذين كانوا حتى الأمس القريب يتملقون ملك آرا وينحنون له وأيديهم على صدورهم، يلعنونه اليوم، يقذعون له القول، ويدعون للحكومة الجديدة ويثنون عليها، وينقلون عن أفعال سوء ملك آرا الأساطير.

قبيل المغرب ذهب جاويد إلى السوق واشترى كمية أخرى من المتاع والغذاء وما كان ملك آرا قد طلب، وحمله في آخر الليل، في الساعة المعينة، دون أن تنتبه ليلا وشاه باجي. كانت بويبة خزان الماء وبويبة السرداب مغلقتين كلتاهما. فتح مفاصل بويبة السرداب المربعة،

ثم ـ كما سبق أن اتفقا ـ ضرب على البويبة بجمع يده. فتح ملك آرا البويبة.

كان هيكل ملك آرا الضخم يملأ داخل السرداب الصغير، مثل فيل حبسوه في قفص. كان ملك آرا لا يزال يعتمر القبعة ويرتدي كل ملابسه، ولكنه كان قد خلع جزمته. كان يلتوي داخل السرداب سيء الخلق حامض الطبع. كانت رائحة الأفيون ودخانه قد جعلا حجر السرداب أثقل وأكثر عتمة. لم يسء، كالبارحة، الخلق أو القول مع جاويد. تناول الصحف والمتا ع والأطعمة التي جلبها جاويد: وسأل:

ـ «ما الأخبار الجديدة، يا غلام؟». فقال جاويد:

ـ «كل مكان هادئ، وعادي، حتى الساعة». فقال ملك آرا:

ـ «بارك الله... سرعان ما سيصفو الجو قريباً».

لم يقل جاويد شيئاً. كان لا يزال يقف داخل خزان الماء، عند أسفل البويبة الحديد.

ـ «ألم تحس ليلا وشاه باجي شيئاً؟».

ـ «لا».

ـ «وماذا عن تلك الباحة؟ باحة ثريا؟ ألم ينتبه أحد؟».

ـ «لا...».

كشّر ملك آرا، ترك الصحف جانباً، ووضع الطعام أمامه، فانشغل ـ كالكلب ـ يأكل بثلاثة أفواه. قال لجاويد أن يعثر له ليلة الغد على بضعة زجاجات عرق وشراب فيجلبها. ومرة أخرى رمى مقداراً من المال على أعلى درجات السلم. لم يرفع جاويد المال، إذ لم يكن موافقاً على ذلك العمل. أن يذهب للبحث عن العرق والشراب. كان فوق ما يحتمل. ثم

أن هذه لا أبالية، فمن الممكن أن يثير ذلك الشك والريبة عند الناس. ولكن ملك آرا أجبره على أن يأخذ المال، قال بأن جاويد تعهد أن يرعاه، وأن ملك آرا لا يمكنه العيش دون عرق وأفيون.

في اليوم التالي جاء مأموران آخران إلى گذر وزير دفتر. هذه المرة فتشوا أكثر في بيت ثريا خانم، وتكلموا طوال ساعات مع الدكتور كيومرث خان وثريا خانم. لم يكن للمأمورين شأن بجاويد وخدم هذه الباحة. لم يكن أحد ليفكر بأن ملك آرا، بكل أبهته ونفخته، يمكن أن يختفي عند الخدم والخادمات. وكان جاويد يلاحظ على الدوام أن الضغط يزداد هذه الأيام، من الأعالي، من المقامات الرسمية، من أجل توقيف ومحاكمة ملك آرا. فصار يفهم الآن لماذا كان ملك آرا يخاف إلى ذلك الحد. نشروا في الصحيفة قبل يومين أو ثلاثة خبر وفاة أحد الرجال الفاسدين المسنين، وكان قد توفي في السجن، أو قتلوه هناك. ولكن مكان ملك آرا كان في سرداب سري محكم ـ يدل أيضاً على مدى نبوغ ملك آرا وأي ابن كلب هو ـ ومعه ذلك الكنز الهائل الذي أخذه معه من سرقاته وغاراته، فهرب به!

وأمضى جاويد ساعات من اليومين التاليين أيضاً بالذهاب إلى أماكن في المدينة وشراء طعام وصحف وأشياء أخرى كان ملك آرا قد طلبها. كان السرداب يستحيل شيئاً فشيئاً إلى دار كسل وترف وبذخ... وهو ما كان ملك آرا يفعله طيلة حياته.

وكان جاويد يتحمل.

في الباحة الخارجية كان يحاول أن يجعل الوضع يبدو عادياً وكالمألوف. حتى ليلا، بعينيها الشكاكتين وغريزتها الأنثوية الحادة، لم

تكن قد فهمت، مع أنها كانت تبدو وكأنها تحس أن لجاويد مشغلة في مكان ما ـ خاصة وهي ترى أن بيد جاويد الآن مالاً أكثر، وتراه يتمتم لها أنها إن أرادت الذهاب إلى خراسان فهو حاضر أن يوفر لها ما تريد من مال.. لم تكن ليلا لتريد أن تعود إلى خراسان، لأنها صارت تحس شيئاً فشيئاً بالأمن قرب جاويد، ولأن جاويد إن لم يكن أي شيء فإن له مستقبلاً جيداً. كانت ليلا تحس هذا. كانت تقول إم ميرزا أصغر خان ـ الذي لم يكن له نصف ذكاء وعقل جاويد ونسبه، والذي كان في الأصل بائع خيار وخرشوف في محلة دولاب، قد اشترى لنفسه هذه الأيام عدة دكاكين وبيوت، وحتى إنه ـ عن طريق الاستفادة من شغله الصباحي في وزارة العدل ـ قد افتتح مكتباً لتسجيل الأملاك في شارع بوذر جمهري. كانت ليلا تقول لجاويد أن بإمكانه هو أيضاً ـ إن كف عن ممارسة الحمق والحمرنة، وإن أبدى شطارة ـ أن يحصل على مال أكثر من ميرزا أصغر خان بعشر مرات... وكان جاويد يستمع. وكشأنه أبداً، وللمرة الألف، كان يذكرها بأن هدفه الوحيد في هذه المدينة العثور على شقيقته. وأنه لا أمنية ولا رؤيا أخرى عنده.

في الليلة الثالثة، عندما جلب لملك آرا طعامه وسائر ملزوماته، فتح الضلفات من خارج، وقرع الباب بالطريقة الرمزية ثلاث مرات، ولكن لم يكن ثمة خبر من ملك آرا. كانت البويبة مقفلة من داخل. قرع جاويد الباب عدة مرات أخرى، حتى بدا أن ملك آرا استيقظ أخيراً، وجاء ففتح البويبة. كان السرداب عديم الهواء قد ضاع تقريباً بين الدخان وروائح هذه الأيام الأخيرة. عاد ملك آرا فتهالك عند المنقل. كانت عيناه منتفختين محمرتين دامعتين. كانت أزرار سترته وصدريته مفتوحة. كان

قد خلع ربطة عنقه وحزامه، وكانت لحيته بنت بضعة أيام. كانت قبعته القهوائية لا تزال على رأسه. في هذه اللحظة التي نهض فيها من النوم كان في غمرة المخدر ومنتعشاً. عندما تكلم إلى جاويد، وعلم أنه لا خبر في الخارج، قال ضاحكاً «مرحى للحليب الطاهر الذي غذاك». ولأول مرة بعد الليلة الأولى عرض على جاويد أن يدخل السرداب. شكره جاويد وقال إن من الأفضل أن يعود كي لاينتبه الآخرون إلى غيبته.

قال ملك آرا:

ـ «ادخل أيها الفتى العزيز. تعال انظر إلى الرُجَيْل. أنظر أين كنا وأنّى وصلنا...».

ـ «نعم».

قفز من ماء الخزان البارد إلى أعلى، وجلس على حافة عتبة السرداب، ولكنه لم يدخل السرداب. كانت حقيبة النقد والذهب والجواهر عند تلك الزاوية، والسيف فوق الحصير.

كان ملك آرا قد احتضن إحدى ركبتيه. كان قد ابتلع هواءً وراح يخرجه في زمزمة لإحدى قصائد «إيرج ميرزا[1]» عن الليل واللحن، ولا طبيب ولا ممرض. راح جاويد ينظر إليه. قبل ثلاث ليالٍ، عندما تحدث إليه ملك آرا هنا لأول مرة، أحس جاويد أنه ـ مقابل هذا الرجل ـ صغير ضائع مصاب بالدوار، وحتى في اللحظة التي أودع فيها ملك آرا المسدس في يده، كان كأنه يعرف أن حياته لا تزال رهينة في يد هذا الرجل الكبير. ولكنه يرى ملك آرا وكأنه دودة تراب صغيرة.

قال ملك آرا:

ـ «يا ولد، أكنت تدري أن الإنسان بذرة موت»؟. فقال جاويد:

---

(١) شاعر من الدورة، والعائلة، القاجارية. اشتهر بأشعاره المعادية لرجال الدين.

ـ «نعم». وقال ملك آرا:

ـ «[ما إن قطّعوني من مزرعة القصب حتى راح الرجال والنساء يئنون من نفيري]».

وراح يثرثر.

لم يكن جاويد قد رأى قط بالطبع هذا الجانب الشاعري الأريحي من ملك آرا. وها هو يسمع الآن من فم ملك آرا أن الأميرِ القاجاري محب جداً للشعر والشعراء، وحتى أنه محب للثقافة وراعٍ للمثقفين، وأن بيته وماله وبساطه كانت دائماً مفتوحة أمام شعراء وأدباء إيران والبلدان الأجنبية. إن شاربي ملك آرا المتدليين والشبيهين بقوسين يمنحان وجهه اليوم سمحة هزليات إيرج ميرزا القذرة.

ـ «نعم»...، ولم يضف شيئاً آخر.

كان ملك آرا وحيداً، فكان يريد أذنا مجانية. جلس جاويد وترك ملك آرا يباهي بحسبه ونسبه، الذي يمتد عن طريق أبيه إلى فتح علي شاه[1]، وعن طريق أمه إلى سادات الكاظمية[2] ورجال الدين فيها. ثم سمع ملك آرا يغالي في خدماته التي قدمها لمظفر الدين شاه[1] والمطالبين بالمشروطة[3]. بل إن ملك آرا عرّف جاويد على سر كبير من أسرار ملوك القاجار، لم يكن يعرفه أحد غيره وعدد محدود جداً من المقربين للسطان صاحبقران[4]... كان ناصر الدين شاه قد أصيب بالجرب منذ طفولته فكان أقرع ـ ولهذا السبب فإنه لم يكن ليمشي من دون غطاء رأس قط!.

(١) من ملوك القاجار.

(٢) مدينة شمالي بغداد، كانت زمان العباسيين مدفن القرشيين، تضم قبري الإمامين موسى بن جعفر (الكاظم) وحفيده محمد بن علي، واكتسبت اسمها من «الكاظم» أو «الكاظمين».

(٣) الحركة الدستورية.

(٤) لقب ناصر الدين شاه، وهو الآخر من ملوك القاجار، دام ملكه خمسين عاماً إلا يوماً واحداً.

ـ ٥٧ ـ

كانت أعصاب جاويد طوال الأسبوع الأول، ليل نهار، على حافة سيف. أثناء النهار كان في انتظار انقضاء أمر ملك آرا وفي متابعته لأعماله وطلباته الصغيرة. وأثناء الليل كان إما صاحياً متصنتاً وإما يأتي إلى البستان الكبير الذي كان لا يزال أسود ساكتاً متروكاً، فيتمشى هناك، ويتمشى، ويفكر.

ذات ليلة، قرب منتصف الليل، إذ كان متمدداً في غرفته بين النوم واليقظة، قفز خائفاً، وظن أنه سمع من تلك الباحة صوتاً. حمل المصباح الهوائي وجاء متلصصاً من وسط الظلمات. كان البستان خالياً، كانت ريح شديدة تصك الأشجار بعضها ببعض. كان أحد مزاريب الماء قد انكسر، فكان الهواء يصفعه بلا مبالاة على الجدار. كان المطبخ القديم خالياً أسود. وكان قعر المخزن أيضاً خالياً وأسود. نظر من البويبة. كان خزان الماء أيضاً، بشبر ماء أسود عطن، كشأنه أبداً، في مكان راكداً بلا لمعان. داخل خزان الماء. كانت البويبة الحديد خلف الأعمدة مغلقة، والضلفات ممترسة. وضع أذنه خلف الباب، كان صوت شخير ملك آرا يأتي، مثل شخير دب خونسار[١]، من وراء البويبة الحديد، فيلتف بين الجدران الخالية وسقف السرداب الإسمنتي.

وضع جاويد يده على صدره وبطنه كما لو ليمنع انفجار قلبه واندلاقه إلى الخارج. كان كل داخله قد صار، بفعل كل هذه الاضطرابات والهزات العصبية التي لا تنتهي، أسوأ من طبل خالٍ عتيق،

(١) مدينة في إيران

ومحملاً بالآلام. يا إلهي، يا أشوزرتشت، متى سينتهي هذا الألم؟ كان يكفي فقط أن يذهب مرة واحدة هناك داخل السرداب حاملاً معه قضيب حديد يضرب به على مخ ملك آرا. أو أن يرفع السيف في لحظة ما، يستله من غمده، ويغمده في صدر ملك آرا وقلبه، فيريح نفسه والجميع من يديه... ولكن ماذا بشأن أفسانه؟ أوه، أفسانه، أفسانه، أفسانه. أنت أيضاً مرة أخرى أنت دائماً. أين أنت؟ ما أنت؟

وبين هواء البستان وعاصفته، وأصوات المزراب المكسور وظلمة الدهليز، عاد إلى حجرته.

في الصباح التالي ذهب مرة أخرى إلى حفرة محل الـ زنبورك، ومرة أخرى سأل هذا وذاك عن أبي تراب. قال له أحد كسبة رأس الزقاق أنه سمع من شخص لم يعد يذكره أنه يبدو أن أبا تراب قد سقط في مستشفى فيروز آبادي، في ضاحية الأمير عبد العظيم، قرب محطة القطار، ومات، أو أنه يحتضر هناك. ولكنه لم يكن واثقاً. ولا بد أن هذا كان كلاماً أيضاً.

ذهب مساءً إلى محفر ملك آرا.

كان ملك آرا مرة أخرى ثملاً نشيطاً مرتاحاً، يجلس ـ أعلى السرداب ـ كأصيص ورد على مخدته، وقد مدد ساقيه ـ اللتين يقول أنهما توجعانه ـ وقد ترك بطنه المنتفخة كالقربة مدلوقة... وكانت عنده أوامر جديدة. فأولاً، لم يكن ينزل ماء في صنبور خلائه، الكائن عقب السرداب. فطلب من جاويد أن يوجه الماء نحو خزان الماء، إلى حد شبرين تحت بويبة السرداب. لا أكثر! فقال جاويد: على عيني! ثم كانت عنده وصفة دواء طلب من جاويد أن يأخذها فيشتري الدواء المسجل

فيها. قال إنه دواء وجع ظهره ووجع معدته وبواسيره. وقال جاويد: على عيني!وطلب أن يأخذ الوصفة إلى الدكتور نزهت. فقال جاويد هذه المرة: لا. قال ملك آرا إن دواء هذه الوصفة نادر وإنه لا يوجد إلا عند الدكتور نزهت (الذي صار الآن معاون وزارة الصحة، ومستودع أسرار ملك آرا). فقال جاويد: لا، مرة أخرى. إنه لن يذهب قط إلى ذلك الرجل. إن ملك آرا اليوم يعتبر الدكتور نزهت، السوقي الكذاب الدوني (الذي اعتدى ذات ليلة مثل لص سافل على ابنته وأحبلها) محرمه ومستودع أسراره ـ لا بد بسبب أن الدكتور نزهت كان معاون وزراة وأنه كانت له معه «سابقة نسب ومعرفة».

قال جاويد:

ـ «لن أذهب عند هذا الرجل. إنه هو الذي حطم ثريا خانم. لا!» فقال ملك آرا:

ـ «اطرح جانباً ألاعيب الصبيان هذه... ما فات فات. إنه اليوم من رجالات الدولة. وقد كانت له جرأة القيام بما قام به. إن اللص الذي يسرق النسيم هو اللص حقاً. اذهب إليه. لا تقل له أين أنا. أنقل له عن لساني، بأدب، تحياتي. قل إنني أرسلت رسالة بواسطة قاصد... وقل له ألا يقول لأحد مطلقاً أنني في طهران...». فقال جاويد:

ـ «سأعطي الوصفة لابنك». فصرخ ملك آرا:

ـ «لا، يا عزيزي الحمار. أفعند كيومرثي جرأة؟ إن كيومرث لو بال على الجليد لما أذابه. لقد كان منوچهر خان نزهت هو الذي حصل، بعد اللتيا والتي، على منصب المدير العام ذاك لكيومرث في وزارة الصحة ـ بألف وسيلة. تذهب إلى كيومرث، فكأنك قرأت الفاتحة عليّ. إنه ينتظر

أن أضع رأسي على الأرض ـ كي يقسموا إرثي وميراثي. ليمت هو! وثريا أسوأ منه. فتلك امرأة، تكليفها معلوم، ناقصة عقل. كان نبي الإسلام يعرف المرأة، إذ قال إن بمقدور كل رجل أن يأخذ أربع نساء عقديات. ماذا أفعل؟ لم أكن حسن الحظ مع الأولاد. هذا مصيري مع أولادي. أكل أحدهم ـ تحت ضربات السوط والفلقة ـ خراء الرحمة. وهذا جعلناه أولاً يُقبَل ـ بألف زحمة ووساطة ـ في دار الفنون، ثم أنفقت عليه طوال سبع عشرة سنة في أوربا. وفي الآخر لم يصر حتى ولا شيء... ولقب الدكتور كنت أنا الذي قلت له أن يضعه أمام اسمه مجاناً... ماذا أفعل؟ هكذا صار... ماذا أفعل؟ لا يمكن أن يتدخل المرء في شغل معمل الله...».

هز جاويد رأسه. لم يكن يظن أن ملك آرا ينظر بهذه الدونية إلى بنيه، مهما كانوا. لم يكن يظن، على الخصوص، أن رأيه بابنته على ذاك القدر من الخطأ والسوء. قال:

ـ «على أية حال، اشطب على الدكتور نزهت». فقال ملك آرا باستهزاء:

ـ «لا أظنك تريد أن تقتلني ببلاء وجع المعدة ووجع الظهر؟». فقال جاويد:

ـ «لا... ليس موتك مطروحاً الآن». لم ينظر في عيني ملك آرا. وفكر: إنك لن تموت بهذا اليسر. فرفع ملك آرا صوته:

ـ «إن لم يوجد الدواء متُّ...». فقال جاويد:

ـ «إن تأزم الوضع، فسأفكر بأمر». فصرخ ملك آرا مقطباً:

ـ «لا تعيّن لي ما ينبغي أن أفعل، وإلا فسأدمغ قلبك بعزيزتك. يقول

إن تأزم الوضع. إن...! نواة الإجاص! هه. إن كانت لخالتي خصية لصارت السيد خالي...». ثم غيّر الموضوع، وقال:

- «ألم يأت ميرزا أصغر خان عند الباب ليعطيك شيئاً؟»

- «كلا. إن الميرزا أصغر مشغول عصراً بالبناء. كما إنه فتح مكتب محضر وتسجيل سندات. عنده سكرتير وكاتب. وفي الصباح هو في الإدارة». فبصق ملك آرا في زاوية السرداب غاضباً:

- «ابن المحروق أعطيته ستمائة تومان ليعجل ببيع البيوت، ولكنه ماطل حتى صادرت الحكومة البيوت. الدون - أكل ستمائة توماني، وشرب فوقها قدح ماء أيضاً. لم يكن جاويد يعلم بذلك.

وقال ملك آرا:

- «موظف عدلية وصاحب محضر وسكرتير وكاتب... هه، كان لخادمنا مطيع فصار لمطيعه مطيع! قالوا للسرطان لماذا تسير يمين يسار، فقال إن تقدّمَنا هكذا. ليهيلوا التراب على رأسه الأقرع. إن لبست الذهب، إن لبست المخمل، فذاك أنت بائع خرشوف... كان بائع خيار وبائع خضر، أنا الذي جئت به فوضعت قبعة المتعلمين على رأسه الأقرع. علمته القراءة والكتابة... وها نحن الآن في مضيقة... بينما ابن المحروق ذاك صار قاطع آذان أبناء المدينة. ليهيلوا التراب...». ولم تكن الكلمة المرادفة للغائط لتفارق فمه.

صار الآن في وضع بحيث لو أنك طعنته بسكين مَا سال دمه. سحب المنقل قريباً منه. وبدأ بساط الوافور. وراح جاويد - الذي كان لا يزال واقفاً عند بويبة خزان الماء - يراقبه. كان ملك آرا يقول مدمدماً:

- «لأن قطيع الحمير كله رؤساء ينبغي أن تدلي يديك من ذنب

الحمار» وهز رأسه. كان قد سحب المنقل قريباً منه، فراح يستخرج الجمرات من تحت الرماد. قال جاويد:

«ينبغي أن أعود قبل أن يتأخر الوقت». تظاهر ملك آرا بعدم سماع كلامه، وقال:

ـ «تحمل الألم حتى تبلغ العلاج... إي، يارب» قال جاويد:

ـ «إلى مساء الغد، يا فتى. لا تنسى دوائي...». ورفع الحق والإبرة بيديه.

لم يقل جاويد شيئاً، فقال ملك آرا:

ـ «أوصه حتماً وحكماً ألا يقول لأحد إنني في طهران. أنت نفسك قل إنك لا تدري... قل له إن القاصد قال لك إن الأمير ليس في طهران... قل إنه في قم أو أصفهان. لفق كذبة ما». فهز جاويد رأسه.

وقبل أن يغلق البويبة تنهد وقال:

ـ «يا سيد، هل أعطيت أحداً في هذه الدنيا، في أي وقت، شيئاً غير الكذب؟».

استدار ملك آرا بضحكة حلقومية مسمومة وراح يحدق في الغلام، وقال:

ـ «نعم، ولا... في هذه البلاد، معملة التيوس هذه ينبغي ممارسة اليولتيكا». وهزّ الحُق في الهواء.

حدق فيه جاويد: ثم قال ملك آرا:

ـ «أي بلاء تريد أنت الآن مثلاً أن تعرف حقيقته؟... أصلاً ما الذي في هذه الدنيا منجبة السفلة مما يستحق القول؟... ها؟ ماذا مثلا؟». فقال جاويد:

ـ «هذا مثلاً: في الليلة التي أرسلت فيها أختي إلى بستان في كن... سمعت أنه كان مع أبي تراب شخص آخر في العربة...». فقال ملك ارا:

ـ «حسناً؟».

ـ «من كان ذلك الشخص؟ ألا يزال حياً؟».

دفع ملك آرا رأسه بلا اهتمام إلى وراء، وقال:

ـ «ما أدراني، يا فتى... أفكنت أتدخل في جزئيات أعمال الخدم؟ يا لك من ساذج. ما أدراني...». ثم قال:

ـ «اهتم بخزان الماء ها! ولا تنسى الوصفة».

صفق جاويد البويبة بغضب في وجه ملك آرا تقريباً، فأغلقها. أرسل ابنة طفلة للسجن، للأسر، ويصعب عليه الآن أن يتذكر كيف ومع مَنْ... والتعاسة هي أنه كان لا بد صادقاً هنا.

عند منعطف الساقية، هناك حيث كان الماء يلتف نحو الباحة الخارجية، انثنى جاويد، ركع، ومد يده فسحب الخرقة الملفوفة التي كانت تسد طريق الماء نحو خزان المطبخ القديم. وانهمر الماء باتجاه خزان الماء.

عاد، والسراج بيده، فجاء لينظر من بويبة خزان الماء. كان الماء يندلق مخرخراً من أنبوبة فخارية فوق البويبة الخشبية. وقف، وراح ينظر، انتظر طويلاً حتى ارتفع الماء إلى الحد الذي كان يريد (والذي أشّره) عند باب خزان الماء الكبير، وبحيث يبلغ شبرين تحت بويبة السرداب كما قال ملك آرا. كان الماء قد ارتفع بمقدار أقل من متر واحد، وكان يتموج، وكان جاويد لا يزال واقفاً، ينظر. كانت روحه، هي الأخرى، في أمواج الغضب وتلاطماته، والماء الأسود الذي كان يرتفع

تحت بويبة السرداب ويريد أن يغمرها ويغرقها ويفنيها، كان له تلاطم مثير للوسواس، وفي عيني جاويد كان يترجع صدى موج الموت. وقال:

ـ «لا، ليس الليلة، ليس بعد».

عاد إلى البستان وسد فتحة ماء خزان الماء.

ـ ٥٨ ـ

كان عائداً عن طريق البستان إلى الباحة الخارجية، عندما أجفلته رؤية ظل ملتف بالبياض ـ في زاوية البستان فجأة. كانت امرأة تقف أمام باب الدهليز، تحدق فيه ذاهلة. عندما تقدم ورأى الظل من أمام فعرفه، قل خوفه، ولكن اضطراباً من نوع آخر احتل مكان خوفه ورجفته الأوليين. كانت ليلا هي الواقفة بقميص النوم في تلك الزاوية، تراقبه. نظر جاويد في وجهها. وسأل:

ـ «منذ متى أنت واقفة هنا؟». فقالت ليلا:

ـ «منذ وقت طويل».

ـ «ماذا جرى؟ لماذا استيقظت؟». فسألت ليلا:

ـ «أي شغل عندك في ذلك الخزان، يا خبيث؟».

ـ «أفلم تري؟ كنت أصب الماء».

ـ «أفجننت؟ ما حاجة خزان ماء البيت الخالي إلى الماء؟». فقال جاويد:

ـ «خزان الماء يتفطر من دون ماء. ويصير مكاناً لألف نوع من الأحياء». فقال ليلا:

ـ «ليرحم الله أبا كل مجنون مختل العقل». حدق فيها جاويد زمناً. ثم قال:

ـ «عودي فانصرفي. ألا تخافين إذ تنطلقين في منتصف الليل؟! عودي لننم».

أعاد ليلا معه إلى الباحة الخارجية. عندما وصلا حجرتهما قالت

ليـلا إن رأسـهـا يؤلمـهـا، وإن النوم لا يواتيـهـا. أرادت أن تبقـى تحت كي تعد وعاء الشـاي. تمتم جاويد بما مـعناه أن تلك فكرة حسنة، وذهب هو إلى الحجرة فتمدد على الفراش.

لم يستطع أن يعرف منذ متى لحقت بـه ليلا الليلة فوقفت هناك حتى الآن. هل فهمت أمراً؟ أشكّت بشيء؟ كانت أخلاق وسلوك ليلا منذ بضعة أيام قـد لانت ورقّت، بل حـتى لكأنهـا صـارت رحـيـمـة، على نحـو جـعل جاويد يخمّن أن ثمة كذباً وكيداً جديدين يجري إعدادهما... طبيعي أنه هو نفسـه أعطى ليـلا في بضـعة الأيام الأخـيـرة قدراً كـبيـراً من المـال وشجّعها على الذهاب إلى خراسان. ولكنه لم يطمئن إلـى ليلا قط. والليلة أيضاً هو لا يدري ما الذي يجري في ذهن ليلا، وأية خطة تعدها.

كانت ليـلا نفسـهـا قد بلغت هذا العـام سنتـهـا العشـرين أو الحـادية والعشـرين ـ كـانت امـرأة سـمـراء حسنـاء الوجه والمظهر، تعنى أحـيـاناً برأسـهـا ووجـهـهـا فـتصـيـر جـمـيـلة، ولا تزال تحـتـفظ بطراوة شبابها. كان بمـقدورها أن تذهب فـتحـصل لنفسـهـا ـ في مـحل آخر بـعيـد عن هذه المحلة حيث يعرفـهـا أغلب النـاس بسوء السـمـعة ـ على زوج. كان جاويد قد تحـمـلهـا ست سنوات، على أية حال، على كتفيه وفوق روحه، والآن قبل أن يصـفي أمـوره مع ملك آرا كـان يمـيـل إلى أن يأخـذ بيـد ليـلا نحـو الاستقرار والطمـأنينة على نحو ما... كانت ليلا قد قـالت قبلاً إنها لن تأتي إلى يزد. وهنا لاشك أنهم سيفصلون المستخدمين من الخدمـة، ويختمون على باب هذه البـاحـة أيضـاً بالقفل والمـهـر، فينتـهي الأمـر. لم يكن يري صـلاحـاً في أن يطلق ليـلا، ويتـركـهـا وحـيـدة في طـهران. فمـهـمـا يكن من أمر، كان قد أسبغ اسمه وحمايته على هذه المرأة.

جاءت ليلا إلى الحجرة. وجلبت له أيضاً فنجان شايٍ. كان جاويد قد أطفأ السراج فغرقت الحجرة في ظلال ضوء القمر المنير. نهض نصفياً فتناول الشاي من ليلا، وشكرها. وضع فنجان الشاي وصحنه على الـ «جاجيم[1]» قرب يده. وعندما رأى أن ليلا قد جاءت فجلست في الزاوية الأخرى من الحجرة، استدار نحوها، واتكأ على أحد مرفقيه، كما لو كان ينضم إليها. قالت ليلا:

ـ «من ينام في قلب حرارة أربعينية[2] الصيف داخل حجرة؟ سيزداد مرضك...».

فقال جاويد:

ـ «أنا مرتاح هنا».

ـ «تحت ذاك اللحاف!...».

ـ «لا بأس...». ثم سألها:

ـ «لماذا كنت واقفة عند الدهليز ساكتة، لا تقولين شيئاً، تحدقين بي؟». فقالت ليلا:

ـ «لا شيء».

ـ «قولي الحقيقة».

ـ «لم يؤاتني النوم، نزلت لأنقع الكوز بالماء، فرأيت أنك لست في مكانك، جئت فرأيتك كالمجانين تصب الماء في خزان الماء الخالي».

ـ «لماذا إذن كنت واقفة في الظلمة تترصدين؟».

بقيت ليلا ساكتة مدة. كما لو أنها لم تكن لتريد أن تبوح بما في ذهنها. ثم قالت:

---

(١) سجاد قصير الزئبر.

(٢) أول أربعين يوماً من الصيف.

ـ «كنت أريد أن أرى ما تفعل.. لقد تغيرت منذ يومين أو ثلاثة. تخرج كثيراً، تذهب هنا وهناك. ثم، تحت رأسك، شيء. وكما لو أنك قد أخفيت كنزاً في مكان ما! عسى أنك لا تريد أن تخلي بيت ملك آرا وتتركني أنا المسكينة وحيدة وتذهب أنت».

تنفس جاويد الصعداء، وقال:

ـ «لا...». فقالت ليلا:

ـ «إذن، ماذا؟». فقال جاويد:

ـ «لن أتركك بلا سبب، ولا وأنت معدمة... اسمعي، لا يمكننا بالطبع أن نبقى إلى الأبد في هذا البيت. ينبغي في الحقيقة أن أتحرك من هنا قريباً...». فقالت ليلا:

ـ «أ؟ إذن ـ ؟».

ـ «أفسانه؟».

ـ «لا... أنا، إذن ماذا بشأني أنا؟ بعد ست سنوات أو سبع من تحمل العذاب تريد أن تتركني في الأزقة؟». فقال جاويد:

ـ «أنت ـ لقد قلت لك دائماً ـ يجب أن تحزمي أمرك. لا تريدين المجيء إلى يزد، حسناً. لا تريدين أن تكوني زوجتي ـ أنا راضٍ بذلك. إنك تريدين شخصاً يكون لك زوجاً حقيقياً. ويصير أباً لأطفالك، لا أنا. ولهذا قرري أين تريدين أن تكوني... ماذا تريدين أن تفعلي. ويقدر ما تحتاجين من المال سأهيؤه لك... أي مبلغ». فحدقت فيه ليلا بسوء ظن عجيب:

ـ «من أين تأتي به؟».

ـ «لا عليك...».

ـ «إذن فإنك حقاً وحقيقة أخفيت كنزاً في مكان ما، فأنت لم تأخذ مالك من أبي تراب».

ـ «ليس الأمر ما تظنين».

ـ «إنني أصلاً لا أدري ما أظن. إنك لم تكن تمتلك حتى الأمس فلساً أحمر... والآن تقول أي مبلغ، أي مبلغ من المال أريد تعطيني...».

ـ «فقط إلى حد أن تكون لك حياة هنيئة... حتى ثمن بيت، ومقدار من المال تضعينه في المصرف فتسحبين منه قليلاً قليلاً وتعيشين...».

نظرت إليه ليلا على ضوء نور القمر الضعيف. كما لو كانت ترى جاويد أول مرة في هذه الدنيا، بوصفه إنساناً، بوصفه رجلاً، لا مجرد رجل بمقدوره أن يعطيها كل شيء، وإنما رجل مهم لكل الأيام القادمة. قالت:

ـ «لا، لا بد أن أكون حمارة لأتركك. لقد تحملت العذاب ست سنوات أو سبعاً، والآن لا زلت أريد ـ إذ يحتمل أن نتخلص غداً من بيت القذارة هذا ـ أن أكون معك».

ـ «أمستعدة للمجيء إلى يزد؟». ففكرت ليلا قليلا، ثم قالت:

ـ «وماذا بيزد؟ أفهي أسوأ من هنا؟». فقال جاويد:

ـ «حياتنا حياة زرادشتيين». فقالت ليلا:

ـ «لا يهم، أتعلّم... إنني أصلاً لم أفهم ولا أفهم ما أنت، وما هو كلامك وإيمانك. ولكن، لا بأس. أنا نفسي لم يكن لي أبداً دين وإيمان حقيقيين. إنني للآن، بعد عشر سنوات من الصلاة، لا أعرف التشهد. بدلاً عنه أصلي على محمد ولكن، ليكن، أصير زرادشتية. سأتعلم كل ما تقوله». هز جاويد رأسه مبتسماً، فقالت ليلا:

ـ «أفلا تريد أن تأخذني معك... أفتريد أن ترميني أمام البغاة وكلاب الحارة»؟. قال جاويد:

ـ «لا... ما قلته لك من أول يوم لا يزال هو هو. أين ما تريدين آخذك، أو أرسلك».

فقالت ليلا:

ـ «لا... أنا أيضاً لا أذهب إلى أي مكان، إلا معك. أفأنا حمارة؟».

قال جاويد:

ـ «إنك امرأة بلغت لتوها العشرين. وجميلة وطرية أيضاً».

ـ «إيه... قل أيضاً».

ـ «جدياً... يجب أن تكوني في مكان ما عند زوج مضبوط، ويكون لك أطفال جيدون. اذهبي ـ ماذا أنفعك أنا؟ وعندك مال، أنا أعطيك. فكري في هذه الأمور. كوني عاقلة. أفكرت في هذه الأمور؟».

ـ «لا...».

ـ «فكري».

ـ «لا أريد. أفأنا حمارة لأتركك. لا».

رفع جاويد فنجان شايه فشربه، وفكر في ليلا. لا تزال نفس الليلا السطحية العنيدة غير القابلة للتنبؤ إياها، لقد دخل رأسها شيء وها هي تتمسك به ـ مع أن جاويد لم يكن يعلم حقاً الآن ما الذي في رأس ليلا. تذكر أنه سبق أن رأى ليلا قبل ساعة تتلصص عليه من زاوية البستان بسوء ظن. أطرق برأسه، وراح يفكر. سألت ليلا:

ـ «هل من أخبار عن ابن المحروق ملك آرا؟...». ارتعش جاويد، ولكنه لم يرفع رأسه. قال:

ـ «لماذا تسألين؟».

ـ «لا شيء... أردت أن أعرف إن كنت سمعت شيئاً أم لم تسمع؟ أقبضوا عليه؟ هل هرب؟».

فقال جاويد:

ـ «لا تهتمي لملك آرا... ولا تذكري اسمه أيضاً». فقالت ليلا:

ـ «والميرزا أصغر الكريه قد ذهب هو الآخر فلم يعد له أثر. آخر العمر صار آدمياً، لم يعد يمر هنا». فقال جاويد:

ـ «لا تهتمي له هو الآخر». فقالت ليلا:

ـ «لا أهتم بأى أحد؟ إذن فبماذا وعلى نذر من نعيش؟ فالدكتور كيومرث خان البخيل إن انتقع ماءً فهو لا يعطيك قطرة. والسيدة الصغيرة ما عندها شيء أصلاً، المسكينة تبيع أثاث منزلها من أجل مصروف مدرسة ابنتها». فقال جاويد:

ـ «سينصلح حال ثريا خانم. إنها تشرب ماء قلبها الطاهر». وقالت ليلا:

ـ «ومن أبي تراب، الذي عسى أن يموت ذليلاً، لم يأت خبر أيضاً، هل أتى؟».

عند سماع اسم أبي تراب تنهد جاويد تنهدة مريرة أخرى. نظر إلى ليلا، كي يفحصها بعينين أكثر غوراً. وقال:

ـ «سمعت أن أبا تراب متروك في مستشفى على فراش الموت». فقالت ليلا:

ـ «أية مستشفى؟». فقال جاويد:

ـ «لا تهتمي بذلك. انقضى عمره». فقالت ليلا:

ـ «آه ـ ارتاح فؤادي».

ـ «لماذا أنت؟ إن ذلك الرجل أدمى كبدي أنا المسكين». فقالت ليلا:

ـ «أنت لا تدري كم أنفر من ذلك الرجل أنا أيضاً. إنه أقذر من غلوم علي القذر ذي الفتق الرذل ذاك. أنا لا أريد أن أروي كل الأعمال التي فعلها بي ذانك الرجلان تلك الليلة ـ الليلة التي أخذاني فيها من بستان أوين إلى دروازه قزوين[1]».

ـ «اسكتي. اتركي الموضوع».

ـ «أتركه؟ ألا تريد أن أروي الأعمال التي فعلاها بي في العربة وفي الصحراء؟ كي تفهم ما تجرعته أنا أيضاً... أولاً ماذا فعل أبو تراب عديم الشرف الدب القذربي؟ ثم غلوم علي ذاك أيضاً، بتلك البطن المتدلية، وبنصف بدنه الأدنى ذاك المنفوخ وفتقه، الذي لم يستطع أن يفعل شيئاً، ماذا فعل بي، وبيديه وقبضتيه وحتى مرفقه ماذا فعل بي...».

فقال جاويد:

ـ «اسكتي، اسكتي، اسكتي! لا تذكري شيئاً». استولى البكاء على ليلا. قالت:

ـ «لا أحكي شيئاً؟ أفكانت مرة واحدة؟ أفلم يأتيا في طلبي بعدها مراراً؟». فقال جاويد:

ـ «قلت لك لا تذكري ذلك بعد!، مضى، انقضى!». نهض وجاء فوضع يده على رأس ليلا كانت هذه أول مرة يلمسها فيها بإحساس وتعاطف. قال:

ـ «اهدئي... انهضي فاذهبي ونامي».

(١) بوابة قزوين أصلاً، ثم صارت محلة كانت موبوءة بالمواخير الرخيصة.

- «كم برد فؤادي، ارتاح كبدي، لأن شارب الدم القذر ذاك يحتضر». فقال جاويد:

- «كنت أرجو أنه قبل موته...»، وترك جملته دون أن يتمها، لأنها صارت الآن فكرة عابثة. سألته ليلا:

- «في أي مستشفى؟».

- «لاتهتمي بذلك». فقالت ليلا:

- «إياك أن تذهب عنده. إياك أن تسمع له. إنه إن استطاع فلن يسلمك غير الكذب والبهتان والفتنة مرة أخرى». فقال جاويد:

- «روحي نامي».

- «لا يأتيني نوم».

- «اذهبي إلى مكانك فتمددي... سينتهي الكثير من الأمور سريعاً». وعاد هو نفسه فتمدد في فراشه.

كان هواء الصيف الحار قد التف في الحجرة. وكانت ريح عاصفة تهب في الباحة، والكلاب تنبح في الحارة. انقبض قلب جاويد مزيداً لكلام ليلا، وأحس أن سرطاناً يترسب فوق روحه. كان يفكر في الأعمال الكريهة التي يمكن أن يفعلوها في هذا الحجر بفتاة وحيدة، بفتاة صغيرة لا ملجأ لها. وضع يديه على وجهه، ضغط على وجهه وجبهته كاملين، كما لو أنه كان يريد أن يعصر فمه فيستخرجه ويرميه أمام كلاب الحارة. قالت ليلا:

- «عندما كنت تتكلم دائماً عن أختك، أتذكر؟ وكنت أقول دائماً من أين تعرف أن الطفلة لم تمت؟ ربما تكون ماتت؟ أتذكر؟». فقال جاويد:

- «أذكر». قالت ليلا:

ـ «لقد كنت دائماً في قلبي ـ كنت دائماً أقول في أعماق فؤادي ليت تلك الطفلة تكون ماتت. يعني لأنها إن كبرت وبقيت حية، فالله يعلم أين يمكن أن تقع». فقال جاويد:

ـ «لقد فكرت بذلك». فقالت ليلا:

ـ «لا... اعتبرها ماتت...».

ـ «ينبغي أن أجدها».

ـ «لماذا... سبع سنوات، طفلة صغيرة، في هذه المدينة الفلتانة، ماذا يحل بها؟ ماتت حتماً. فقط كف عن التفكير فيها».

ـ «لا. إنني أدري ما الذي أفعله... وينبغي أن أفعله».

في الصباح التالي، نهض فذهب مبكراً نحو أبي تراب الذي قيل إنه في مستشفى فيروز آبادي بمدينة الأمير عبد العظيم.وفي الطريق مزّق الوصفة التي كان ملك آرا أعطاه إياها كي يسلمها للدكتور منوچهر خان نزهت، وألقى بها في الطريق. كما يفضل أن يضع أولاً ستين ملك آرا في القبر قبل أن يذهب إلى الدكتور نزهت فيسلم عليه ويطلب دواء الوصفة.

كانت المستشفى حديثة البناء بستاناً كبيراً، وفيها عدة غرف آجرية متداعية مفتوحة في آخر البستان. تحدث جاويد مع العاملين، وسأل عن أبي تراب أو عن رجل يشبه أبا تراب. أخذوه إلى إحدى غرف آخر البستان كي ينظر بنفسه، ويبحث.

حالفه الحظ، فعثر اليوم على أبي تراب في زاوية إحدى الغرف تحت بطانية وملاءة. قالوا له إن مرض أبي تراب اختلال داخلي كلي، وإن وضعه سيء للغاية. منذ يوم جاؤوا به كان مغمياً عليه. كانوا يحقنونه

حقنة كل يوم منذ ثلاثة أيام، وكان حياً بهذه الحقن. وأطعموه قليلاً من الحساء والشاي من بين أسنانه المنقفلة. وأنه ميت اليوم أو غداً.

وكان ذلك حقاً. فإن أبا تراب لم يكن لا يسمع صوت جاويد فقط، وإنما لا يحس بالورقة النقدية التي وضعها جاويد داخل براثنه المرتخية عديمة الروح.

وقف مدة محدقاً فيه. راح يحدق في الجمجمة الحمراء الكدرة، واللحية والشاربين القذرين، وخطوط الوجه المتكسرة، وآخر أنفاس حنجرة وفم وأنف خادم ملك آرا. كان يكره كل أنواع الموت، وخاصة هذا النوع من الموت. حشر قبضة أبي تراب والورقة النقدية تحت البطانية، فوضعها على بطنه. ثم خرج.

أوصى ممرضاً، كان هناك، أن يقول لأبي تراب ـ إن صحا ـ إن جاويد من بيت ملك آرا قد جاء، وإنه سيعود، فهز الرجل رأسه وقال:

ـ «عندما تعود اجلب تابوتاً أيضاً...».

أطلق جاويد لعنة وعاد إلى المدينة.

-٥٩-

بعد أسبوع، عصر ذات يوم، ظهر مأمور الشرطة مرة أخرى. ذهبوا أولاً إلى منزل ثريا خانم، وفتشوا في كل الزوايا والأركان. ثم جاءوا إلى هذا الطرف، إلى الباحة الخارجية لملك آرا، وفتشوا هنا أيضاً كل الأركان والجحور، حتى المطبخ والمرحاض. وتحدثوا أيضاً إلى جاويد وليلا وشاه باجي.

لم يفهم جاويد إن كان بلغهم نبأ جديد، أم أن الضغط يمارس مجدداً من أعلى. وعلى أية حال، فلما كان قد صمم على ألا يقول كلمة كذب واحدة ، فقد قال جواباً على كل سؤال للمأمورين: فتشوا أينما تريدون إذ لا أحد يختفي في هذه الباحة...

كان الضابط الشاب والشرطيان، والشخص الذي يرتدي ملابس مدنية وقبعة وربطة عنق ويرافقهم، يبدون جميعاً متعبين عصبيين عاجزين. كان واضحاً أن الزمن الطويل المصروف في التعقيب اللامجدي من أجل القبض على ملك آرا قد أتعبهم حقاً. بعد تفتيش الباحة الخارجية، ذهبوا إلى الباحة الكبرى. فحصوا جميع الأقفال والأختام. ثم أمروا جاويد فجلب سراجاً، وذهبوا إلى السراديب. فتشوا السراديب المواجهة للقبلة. ثم فتشوا السراديب التي باتجاه باحة ثريا خانم. وأخيراً، وقلب جاويد يتهاوى من الخوف والنبض السريع، جاء المأمورين إلى سرداب أدنى هذا القسم من البستان، إلى المطبخ القديم، وخزان الماء القديم.

كان جاويد يمسك لهم السراج. اجتاز المأمورين المطبخ، وتقدموا. كان الضابط في المقدمة، ووراءه جاويد، وفي أثرهما الآخرون. فحصوا مخزن ما وراء المطبخ أيضاً. وصلوا بويبة خزان الماء. فتحها الضابط الشاب، جلب السراج إلى أمام، وسلط ضوءه على خزان الماء. كان قلب جاويد يكاد ينفجر: كم كان حسناً أن صب الماء ليلة أمس الأول في خزان الماء. لو أن المأمورين رأوا بويبة السرداب في الطرف الآخر من خزان الماء فما كان سيحصل؟ لا شك أن أمر ملك آرا كان سينتهي. من حسن الحظ كانت البويبة بلون الجدار ومبنية وراء الأعمدة، كان جاويد يتوسل إلى الله أن ينكتم ملك آرا ولا يتملكه هوس قراءة الشعر. حدّق الضابط الشاب عدة ثوان في ماء الخزان، ثم قذف بشتيمة مقذعة، واستدار قائلاً للآخرين إنه لا خبر هنا أيضاً.

خرج المأمورين من السرداب، وسرعان ما غادروا المنزل.

تلك الليلة، لم يذهب جاويد في الساعة المعينة ـ يعني الساعة العاشرة ـ لرؤية ملك آرا. انتظر حتى انقضت ساعتان أخريان. حتى تنام ليلا على سطح المنزل فيثقل نومها. في حدود منتصف الليل نهض فحمل المتاع، الذي كان قد هيأه، عصراً لملك آرا وأخفاه في زاوية من الدهليز المظلم، وجاء حاملاً المصباح. عند بويبة خزان الماء رفع صدريته. ولكنه تقدم بالسروال الطويل من خزان الماء الذي كان ماؤه الآن يبلغ وسط جاويد. على أية حال جاء إلى أمام بويبة السرداب.

دق الباب. فتح ملك آرا البويبة على الفور، وكان يتلوى على نفسه لأن جاويد قد تأخر عليه. أسكته جاويد. قال له إلى أية أماكن جاء مأمور الشرطة اليوم لتفتيش المنزل، وأي خطر قد تجاوزه. وقال أيضاً لملك

آرا إن ليلا يمكن أن تكون أحست بشيء. وروى لملك آرا أيضاً حادث رؤية ليلا ليلة أمس أمام الدهليز. في حين كان ملك آرا ينخر وهو يستمع إلى كلام جاويد، كان مسروراً لأن جاويد يحرسه بانتباه. سأل عن وصفة دوائه. فقال له جاويد أنه ينبغي أن يصبر كثيراً من أجلها.

ولكن ملك آرا كان مجنوناً بالزهو والفرح لأن مأواه قد خدع مأموري الحكومة، ولأنه صار في مأمن منهم الآن، ففتح زجاجة جديدة ـ مع أنه كان واضحاً أنه كان ثملاً وكان واضحاً أنه شرب حتى الامتلاء. قال صادقاً:

ـ «لقد صليت أول المساء، فأعطاني الله مرادي... والآن وقت العيش. ألق جانباً المأمور والحكومة والخادم والخادمة معاً».

ففتح الزجاجة ووضعها عند صينية الطعام والتجهيزات التي كان جلبها جاويد. قال:

ـ «كلهم معطلون بلا جدوى... لا شغل عندهم فجاؤوا يأكلون».

كان جاويد جاهزاً للانصراف حين قال ملك آرا:

ـ «اصعد يا فتى، لا تقف في هذا الماء وإلا أصابك البرد».

لم يكن جاويد يريد أن يؤنس ملك آرا. قال ملك آرا:

ـ «اصعد... وإلا فستبول فجأة، وتبطل وضوءنا. إننا نحيا بهذا الماء، نتوضأ به.تعال، عندي معك كلام، كلام مهم».

جرّ جاويد نفسه إلى أعلى، دخل، وأغلق البويبة. كان أسفل جسمه وسرواله منقوعين بالماء. نزل سلالم السرداب، وراح إلى زاوية فجلس فيها. انتظر ليرى أي كلام مهم عند ملك آرا.

كان ملك آرا قد شرب فنجاناً من العرق، فقال:

ـ «تقدم فاجلس قرب المنقل كي تجف. تعال، أصرت رجلاً كي تشرب فنجاناً؟». فقال جاويد:

ـ «لا، متشكر». فشرع ملك آرا نفسه. قال:

ـ «متشكر يعني ماذا، يا فتى؟ لماذا تتكلم بالفصحى؟ أي عشق وأي إيمان هذا الذي عندك؟ اضرب، افعل، كل، اذهب بابا. غنّ: العشق الطاهر يعني أيش العاشق مشقوق الجيب يعني أيش.

والله. يا فتى، عندي معك الليلة كلام كثير... هيا واشرب لك أنت أيضاً فنجاناً. أعرض عليك أن الإنسان... يحيا بالترف والبذخ. الإنسان ـ حي بالقدرة والفعل، وما عدا ذلك هراء. ينبغي للمرء أن يأخذ، يمتص، يأكل، يشرب، يضرب، يفعل، يجر، يكون، يصير، يذهب، يجيء، ثم يموت. قالوا لبهلول العاقل: ألحيتك أفضل أو شرج كلب؟ فقال: إن استطعت أن أعبر بهذه اللحية جسر الصراط فلحيتي، وإلا فشرج الكلب».

فقال جاويد:

ـ «الأفضل أن أعود أسرع».

ـ «ابق يا فتى، ابق». فقال جاويد:

ـ «لأن ليلا شكّت بشيء ما. سألت مساء أمس لماذا صببت الماء في خزان الماء الخالي، أفذهب عقلي؟».

ـ «وماذا قلت لها؟».

ـ «قلت إن خزان الماء الخالي ينفطر، وتتجمع فيه الهوام».

ـ «بارك الله بك، بارك الله. كنت أدري منذ البداية أن عندك مخّاً وتدبيراً. لست مثل الباقين المدعين والمتنفجين... وإنما عندك مخ». ثم قال:

ـ «إذن فلا زلت تحتفظ بليلا؟». فقال جاويد:
ـ «موجودة». قال ملك آرا:
ـ «ماذا تفعل بها؟». وصب، ثملاً، وهو يضحك من حلقومه، فنجاناً جديداً لنفسه.
كان جاويد يفهم قصده. قال:
«لقد احتفظت بليلا لأنها لا أحد لها، ولأن خدمك ورجال الأمن كانوا يريدون إعادتها إلى دروازه قزوين ـ من لطف أفضالك!». فقال ملك آرا:
ـ «حسناً، حسناً، لا تغتظ الآن وإلاّ جفّ حليبك. اترك ما مضى. انفض شكاواك على رأسي، وإنشاء الله أعوضك في عرسي. هه هه».
انصرف يرفع الغطاء الفلزي عن صحن الرز والأدام الكبير الذي كان جاويد قد جلبه ووضع كل شيء أمامه، ثم تكرم فأخذ لقمة لجاويد ومدها نحوه. لم يتناولها جاويد، قال إنه تعشى، وإنه قلق. وكان ذلك صحيحاً. فوضع ملك آرا اللقمة في فمه هو وراح يمضغها بفم مفتوح. قال:
ـ «في هذا المكان، الرعية تتبع الظلم والأمر. كم فعلت من الأفضال لهم جميعاً؟والآن أولئك أولادي ترى أنهم لا يذكرون اسمي. يلعنونني. وحكومة البلاد، التي خدمتها كل تلك الخدمات، حجزت أموالي. وذاك ميرزا أصغر الذي ابتلع أخيراً ستمائة توماني. لأن الحكومة تظلمني، يظلمني جميع الناس. للكلب وفاء، ولكن ليس للآدمي».
كان جاويد يرتجف بلباسه المبلل، ولم تكن عنده طاقة تحمل ثرثرة ملك آرا.
ـ «إنه لم يكن ثمة عمل، فأنا عائد» فقال ملك آرا:

ـ «اجلس بابا، وسأعرض على جنابك. لماذا أنت مثل تكة سروال قصيرة لا تقول متى تفلت؟ تحت هنا استولت الوحدة على فؤادنا، نخرته. أين أنت من الصباح؟ الليل طويل. الليل طويل وليس للدرويش من عمل. انظر إلى لوني ولا تسل عن أحوالي. عندي هنا ملايين الملايين من المال. وبعد بضعة أيام، حين يريد الله أن نتخلص من هذا الجحر، ستبلغ أنت أيضاً مرادك، ولكن ينبغي أن يساعد أحدنا الآخر...».

حدق فيه جاويد. كان يحس أن ملك آرا، من وراء هذا اللعب بالألفاظ، لا بد يغطي على نوع من دناءة جسدية وشهوانية جديدة. كان يبسط المقدمات. فقال:

ـ «تفضل». قال ملك آرا:

ـ «... في اليوم الذي أريد أن أغادر هذا الجحر ملعون الدين، وتبلغ أنت أيضاً شقيقتك فنصف الأموال التي في هذه الحقيبة لك... لأنك أنت الذي ساعدتني حقاً في هذه الأصباح السيئة الملأى بالمشقات، أنقذتني، وحفظتني... ولكن ينبغي أن تتم الخير بحقي». فقال جاويد:

ـ «أي نوع من الخير؟». قال ملك آرا:

ـ «الدينا يومان. ليس للدنيا وفاء. كيف أجعلك تفهم؟ الدنيا خالية. الدنيا لعبة. حيل وألاعيب، الدنيا معبر. الخلاصة: الدنيا لا تستحق ما يجعلك تهتم». فقال جاويد:

ـ «ماذا أفعل؟». قال ملك آرا:

ـ «ممكن أنك لا تفهم همّي هذا. وربما أنك تفهم». فسأله جاويد:

ـ «أي هم؟». ظن أنه يريد أن يجر الحديث مرة أخرى إلى وصفة

الدواء وألم بواسيره.

قال ملك آرا:

ـ «قلت إن هنا الملايين من الأموال، وعندي زاوية خلوة ومريحة أيضاً، وإن شمس عمري على حافة السطح، ولكن قلبي مبتئس».راح جاويد ينظر إليه ساكتاً. فقال ملك آرا:

ـ «أتفهم؟». فقال جاويد:

ـ «لا». فشد ملك آرا وجهه أخيراً. قال:

ـ «اريدك أن تذهب فتجيء لي، من مكان ما، بامرأة».

ـ «أجيء بماذا؟».

ـ «إمرأة، قطعة، أي شيء، لا يهم عدا أن تكون شابة وصغيرة العمر. من أي مكان تعرفه. سراً، كي لا تفهم من أنا. وكي لا تفهم أي أحد أيضاً. باختصار: عليك أن تدبر الأمر. لأن داخل قلبي أصابه الصدأ تلهفاً على امرأة. ومهما أردت من مال فخذ من تلك الحقيبة، هيا، الآن».

حمي الدم في مخ جاويد وعروقه. كانت رائعة صبر روحه وتحملها أنه لم يقتل ملك آرا في ذلك المكان بالسيف. صرخ:

ـ «لا!». ونهض فاتجه نحو البويبة. فقال ملك آرا:

ـ «هيْ، يا غلام! لِمَ لا تفهم أمام مَنْ أنت؟».

ـ «لا!».

ـ «لا تعاملني بالسوء وبالألفاظ الخشنة لئلا أكوي كبدك بأختك...».
قبل أن يفتح جاويد البويبة، التفت ونظر إلى ملك آرا عند المنقل وبساط العشاء والعرق. وهز رأسه.

قال ملك آرا:

ـ «انتظر دقيقة... انتظردقيقة واحدة».

انتظر جاويد دون أن يلتفت، وضع رأسه على البوبية الحديد الباردة.

قال ملك آرا:

ـ «إنك تذكر ليلا وأي بلاء وقع لها؟ أين سقطت؟ سمعت أنك أنت الذي ذهبت فجلبتها من تلك البيوت». بقي جاويد ساكتاً. فقال ملك آرا مستأنفاً:

ـ «إنها الآن طفلة. ما تزال عندها فرصة. إنك إن خرجت الليلة من هذا الباب، وعلى فرض أنك تذهب لتكشف أمري، وجاءوا فأخذوني، فاندثرت في السجن ومت، أوْلا: أطلقوا سراحي، على أية حال: ما الذي سيحل لك؟ ماذا سيحل بشقيقتك؟».

لم يجب جاويد، حتى إنه لم يلتفت. فتح البوبية، وألقى بنفسه داخل خزان الماء. كان ملك آرا لا يزال يتكلم مهدداً متوعداً. رفع جاويد المصباح عن حافة عتبة البوبية، وأمسك بزاوية البوبية بيده. قال:

ـ «بالنسبة لي، منذ البدء كان عاراً عليّ أن أقبل هذه المساومة المؤقتة. ولكن ما دمت أنت هنا فسأحميك، من أجل إنقاذ شقيقتي، إن هذا القدر من العار يكفي. ولكن الإتفاق هو هذا فقط. وسيبقى كذلك».

صفق البوبية بشدة، وسد ضلفاتها.

- ٦٠ -

هذه المرة عندما عاد إلى تلك الباحة رأى رأس ليلا عند حافة السطح وهي جالسة، تتفحصه مرة أخرى. فقال بغضب واشمئزاز صارا الآن يهدان حيله:

- «ماذا جرى؟ لماذا لم تنامي عند منتصف الليلة مرة أخرى؟».

فقالت ليلا:

- «لم يواتني النوم... ماذا كنت تفعل في تلك الباحة مرة أخرى؟. فقال جاويد بصوت مكتوم:

- «اذهبي فنامي، لا تتدخلي». قالت ليلا:

- «إنك تقوم بالكثير من الأعمال العجيبة والغريبة، وأنت لست مجنوناً كثيراً أيضاً... ماذا كنت تفعل؟». فقال جاويد:

- «سمعت صوتاً، فذهبت لأطمئن». وكان ذلك حقاً.

قالت ليلا:

- «اذهب وافعل أي عمل سوء تريد. اذهب وضيّع ما تريد إضاعته، حتى يأخذونك أنت أيضاً فيلقون بك في السجن، يحبسونك كي أرتاح».

- «اذهبي نامي».

- «إنني أدري».

- «اذهبي نامي. اسكتي». كان يدري أن ليلا لا تدري. كان يأمل ألا تكون ليلا تدري. طأطأ رأسه، ولم يقل شيئاً آخر من فرط تعبه وعصبيته.

دخل الحجرة، وتمدد على فراشه. كانت الليلة القائظة الصيفية الآن ساكتة خالية. حتى صرير الصراصير لم يكن يسمع. كانت روح جاويد ودمه لا يزالان حاميين من كلام ملك آرا. كانت روحه تبلغ شفتيه. قال متمتماً:

ـ «أماه، أماه، ليتك لم تلديني. ليتني لم آت. فأضطر أن أصير في هذه الدنيا، إلى هذا الحد، درعاً للشر والألم والانكسار وجروح الدنيا وبلاياها... أين آخرتها؟».

كانت دنيا النجاسة الأبدية، التي أوصلت روحه إلى شفتيه، ممتدة هناك في الخارج في الليل الصيفي لبيوت ملك آرا والمدينة ـ شأنها أبداً. وهنا، هناك فوق، على السطح، كانت ليلا تنام بسوء ظن وغيظ وخدع داخلية. ولم يكن جاويد يعرف ماذا تريد ليلا منه. وفي قعر السرداب كان ملك آرا ينام أيضاً بآخر عتوّه وعرقه وأفيونه وإبريقه وسجادته وماله وجواهره، ويريد امرأة، قطعة صغيرة العمر. في المنزل المجاور، كان ابن ملك آرا، الدكتور كيومرث ملك آرا، المدير العام لإحدى الوزارات في المدينة، نائماً. وكانت ابنة ملك آرا هي الأخرى نائمة مع طفلة يتيمة، وطفلة خيانة وكذب. وفي مكان آخر من المدينة كان الدكتور منوچهر خان نزهت، اللص والمتجاور على الأعراض الكذاب المخادع، ينام هو أيضاً إلى جانب امرأته أو إلى جانب امرأة أخرى، وفي أماكن أخرى من المدينة أيضاً لا بد أن ثمة أناساً أو نساءً مصابات بالبلايا كهؤلاء نائمين ونائمات... وفي زاوية من هذه المدينة ذاتها، كانت ثمة بنت، هي شقيقته المفقودة، ميتة أم حية...

مرة أخرى كانت عيناه تحرقان، وتمتم: أفسانه! كل ذلك... كل هذا، من أجلك.

عند الصباح مرة أخرى، ترك كل أشغاله، وبدون إفطار ذهب إلى مستشفى فيروز آبادي. كان أبو تراب لا يزال في غيبوبة الموت. قرفص

قرب رأس أبي تراب الحالّ به الموت. وتناول يده:

ـ «أبو تراب، أبو تراب، اسمع. أنا جاويد. أتسمع صوتي؟ لقد جئت أمس، كما جئت أول أمس، وجلبت لك مالاً، وها قد جلبت المزيد، إنك تحتضر. إنك تعود إلى خالقك. اسمع، قبل أن تموت اجعل ضميرك وروحك يتطهران ويخفّان. أتدري ماحل بشقيقتي؟ قل كلمة واحدة. ميتة أم حية؟ كلمة واحدة فقط. إنك لم تعد تستطيع أن تكذب. أرجوك. أبو تراب، أبو تراب». كان عبثاً.

عاد إلى المدينة، وتسكع بقية ذلك اليوم داخل البيت أو أمام باب الزقاق. كان كل باطنه الخالي والمتعب يغلي، وكان ذلك مؤلماً. تجنب التحدث إلى ليلا، أو النظر في عينيها. عند العصر ذهب إلى الخان الأدنى من حمام قبلة درخونگاه، حيث كان ممد بنگي وأمه ننه أحمد زوجة المرحوم غلوم علي، يعيشان مع بقية الأطفال الصغار. كان ممد بنگي ينام مريضاً في زاوية الغرفة. حاول جاويد أن يتكلم معه. ثم سعى بعد ذلك أن يتكلم مع ننه أحمد، التي صارت أسوأ من تاج ماه خانم جبلاً سميناً منفوخاً من سوء الخلق... وكان هذان أيضاً غير مجديين. لم يكن عند ننه أحمد أيضاً خبر عن حادثة أخت جاويد. قالت إن كل ما كان، كان في تلك الباحة الداخلية. هم الذين ضيعوا خبر الطفلة... قالت إنهم صنعوا من هذه الأعمال إلى حد من الكثرة بحيث تضيع هذه الواقعة وتندفن بينهما. (وكان ذلك حقاً. كانت هذه الواحدة بين الأخريات ضائعة مدفونة بالمعنى الحرفي للكلمة).

اشترى مساءً الصحف والعشاء لملك آرا. وجاء خفية فأخفاها في

إحدى زوايا الدهليز. وفي العاشرة، عندما صعدت ليلا وشاه باجي إلى السطح، انصرف جاويد إلى أعماله الليلية فذهب إلى ملك آرا. كان قد ضاق ذرعاً بهذا أيضاً. خلع كيوته عند بويبة خزان الماء. وتقدم في خزان الماء. كان في إحدى يديه سراج وفي الأخرى سموم ملك آرا. تقدم نحو بويبة السرداب.

فتح ملك ارا، ثملاً دائخاً جائعاً كالعادة، البويبة وأخذ الأشياء. سأل عن وصفته. لم يقل جاويد إلا أن عليه أن يصبر. أمره ملك آرا أن يدخل، لأن صوتهما يرنّ في خزان الماء، وإن ذلك خطر. لم يكن جاويد يريد أن يدخل، فأجبره ملك آرا، وقال إن عنده خططاً وأعمالاً جديدة.

اضطر جاويد للدخول، وأغلق بويبة السرداب. وكالليلة السابقة جلس في زاوية الحصير بسروال وساقين مبتلتين. قال ملك آرا:

ـ «ما أخبار ليلا؟ ألم تفهم شيئاً؟ ألم تفعل شيئاً آخر؟». فقال جاويد:

ـ «لا، ربما تكون أحست شيئاً، ولكن من جانب ليلا. لا شأن لك بليلا».

كان ملك آرا مشغولاً بالأكل والشرب. كان مستعداً أن يضحي برأسه ولا يضحي ببطنه. قال:

ـ «كيف حميميتك بليلا؟». فهز جاويد رأسه.

قال ملك آرا:

ـ «ها؟». فقال جاويد:

ـ «لا حميمية بيننا، ولم تكن بيننا قط. وليس هذا جديداً».

ضحك ملك آرا ضحكة من الحلقوم.

ـ «أعرف يا ابني العزيز، أعرف... إنها لم تكن قط زوجة لك. كنت قد احتفظت بها في بستان أوين، ولكن ماذا كان عليها أن تفعل؟ كان عليها أن تذهب فتخدع ابن البستاني... كان يجب أن تذهب فتهيل التراب على رأسها مع الابن الأقرع للبستاني... طردتها. لنترك ذلك الآن. إنها ليست امرأة. لقد فُرضت عليك. أنت لا تريدها. وعندما تريد العودة إلى يزد فلا بد أنك ستتركها... تمام ـ انتهى».

وأخرج من فمه صوتاً كان المرحوم غلوم علي يخرجه من حوضه.

قال جاويد:

ـ «تكليف ليلا ومستقبلها واضحان». وأشار إلى حقيبة ملك آرا.

فقال ملك آرا ضاحكاً:

ـ «خذ، خذ ما تريد. وأعطها ما تريد... أفقلت لا تأخذ؟... خذ ما تشاء الان بالذات. ومد يده فأخذ حفنة من الأوراق النقدية ووضعها في يد جاويد، فألقى جاويد المال على الحصير. قال:

ـ «في وقته». فقال ملك آرا:

ـ «ليكن، كما تشاء... سنرقص على أية موسيقى يعزفها جنابكم الكريم. أودعها في يدي. لقد قمت بعمل سوء إزاء تلك المرأة، وأريد أن أفعل بها خيراً، أن أعوض. يعني هي أيضاً فعلت سوءاً، خانت، ولكنها كانت لي ذات يوم».

كان جاويد يستمع بصمت إلى كلام ملك آرا. قال ملك آرا:

ـ «الآن. إذ أنت لا تريدها، أودعها في يدي. سأجعلها نظيفة طيبة مطهرة. كما سيخف وزن خطاياي أيضاً. آخذها مرة أخرى، على ذمتي. و ـ لا امرأة عندي، فأعقد عليها. وآخذها أينما أردت أن أذهب،

أصطحبها، وأجعل عاقبة هذه أيضاً بخير. أسلم شقيقتك بيدك، كما أنظف ليلا وأطهرها، أخفف هذه أيضاً من وزر خطاياي».

كان جاويد لا يزال يستمع. تذكر كلامه ليلة أمس عن طلب امرأة، قطعة. كان يتوصل شيئاً فشيئاً إلى ما يمكن الليلة تحت اللجة السوداء لروح هذا الرجل الكذاب الوضيع. قال ملك آرا ضاحكاً:

ـ «إنها بالنسبة لك ليست امرأة... إنك لا تعرف أصلاً من هي، ماذا فعلت. لو كنت تعرف، لو كنت تعرف حقاً، لألقيت بها أمام كلاب الحارة. وأنت أيضاً قلت أن ليلا ستكون بعد هذا حرة، قلت إنك تريد أن تعطيها مالاً وتصرفها». فقال جاويد:

ـ «ستبقى ليلا زوجتي الرسمية، إلى يوم لا تعود تريد ذلك هي نفسها، يعني إلى يوم تريد أن تذهب».

فقال ملك آرا:

ـ «لقد قلت أنا نفسى نفس الشىء ...».

ـ «حسناً». فقال ملك آرا مراهناً:

ـ «إنني لا أريد إلا أن تكون في أيدينا إن فهمت شيئاً عما يجري واكتشفت أماكن اختفائنا...». فقال جاويد:

ـ «لن تفهم ليلا شيئاً... إنني سأقفل بعد اليوم باب الدهليز من الخارج». فقال ملك آرا:

ـ «لا. لا تفعله. يمكن أن تشك. يمكن أن تجلس فتقص على هذا وذاك أشياء، وإذا بالمأمورين ورجال الامن ينهمرون مرة أخرى... يمكن انتظار أي شيء من بنت المحروق، التبن تحت الماء تلك».

لزم جاويد الصمت. ثم قال:

ـ «سأحافظ عليها».
جمع ملك آرا النقود، ثملاً، مرة أخرى، وحشرها في يد جاويد.
وقال:
ـ «هذه لك، خذها».
لم يأخذ جاويد المال. قال إن عنده بعد كثير من المال. ونهض.
فقال ملك آرا:
ـ «أقول.. الأفضل أن أكلمها أنا نفسي».
ـ «من؟».
ـ «ليلا هذه».
فحدّق جاويد في بؤبؤي عيني ملك آرا. ثم صرخ مرة أخرى:
ـ «لا!».
كانت عينا ملك آرا تتراقصان من كثرة المشروب والأفيون. قال:
ـ «لا ترفع صوتك، أيها الطفل... ولا تذهب مثل البارحة، ولا تصفق البويبة أيضاً ـ لا أظنك تريد أن تجعل كل الشرطة والعسس ينهمرون على رأسي، أنا المسكين ـ لا أظنك تريدي تخريب كل شيء». فقال جاويد مرة أخرى:
ـ «لا... ولا أيضاً فيما يتعلق بليلا». فقال ملك آرا:
ـ «لا أريد إلا أن أكلمها، لا أريد أن آكل منها شيئاً. أفأريد أن آكل منها شيئاً؟».
ـ «لا». ونهض.
ـ «أنت أيضاً قد ابتلعت أقراص لا!». فقال جاويد:
ـ «لقد قلت إن ليلا ستبقى في حمايتي. هذا كل ما هنالك. وهي

كذلك منذ سبع سنوات، ولم تقم بأي خلاف». فقال ملك آرا:

ـ «أنا لم أقل شيئاً. أفقلت إنها قامت بعمل خلاف؟ قلت فقط أن أكلمها ـ من أجل المستقبل ـ أفقلت شيئاً غير هذا؟».

مرة أخرى لم يجبه جاويد. خرج من البويبة، حمل السراج، وأغلق البويبة، وشد الضلفات.

ولكن عندما كان يأتي خلال الماء الأسود لخزان الماء نحو بويبة المخزن، تيبس وسط الماء البارد. فعند حافة البويبة، رأى ليلا جالسة وبيدها سراج، تحدق فيه.

خرج من خزان الماء. أمسك بيد ليلا وأعادها بفظاظة إلى الباحة الأخرى، قال:

ـ «سبق أن قلت لك لا عليك بهذه الباحة ولا يشغلنّك شاغل بأي شيء هنا». كان يتكلم بصوت مكتوم.

ـ «لماذا؟ هناك، داخل خزان الماء، ماذا أخفيت؟...».

ـ «لا شيء... قلت لا عليك، يا امرأة! إن كنت تريدين البقاء حية».

ـ «لقد كنت تكلم رجلاً... خلف تلك الأعمدة ثمة مكان خرجت منه... لقد فهمت. أين كان؟».

أمسك جاويد يدها، سحبها، وجاء بها إلى حجرته. كان يعلم أن إخفاء الأمر لم يعد ذا جدوى، كما أنه صار خطيراً. قال:

ـ «اجلسي. انكتمي، واسمعي. إن كنت تحبين نفسك وحياتك أقل حب، فلا تضعي رجلك مرة أخرى في خزان الماء ذاك، في ذاك السرداب، أو في تلك الباحة. إن عرفت بعد اليوم أنك ذهبت هناك، أو أنك تكلمت، فإنني أقسم، أقسم، أن أقتلك. أقتلك! أظنك قد عرفتي».

جلست ليلا في زاوية الحجرة، وقالت بفزع:

ـ «ماذا هناك؟ ماذا أخفيت؟». كانت ما تزال لا تباليه إلى الحد الذي يجعلها تسلم بما يقول دون سؤال. كما كان جاويد يعرف أنه لم يعد ممكناً ـ مع روح ليلا سيئة الظن الفضولية ـ منعها عن تلك الباحة، حتى ولو أقفل كل مكان. كان مضطراً الآن أن يحدث ليلا بقصة مخبأ ملك آرا، فيريح بالها. قال:

ـ «انهضي فاذهبي أعدي بعض الشاي... صبي لنا فنجانين وهاتيهما، واجلسي كي تفهمي وضع الدنيا».

عندما انصرفت ليلا، جلس على فراشه، واحتضن ركبتيه وراح يفكر. كان تمنى على الله ألا يحدث شيء كهذا، وأن ينتهي هذا الأمر قبل أن يفهم إنسان آخر بهذه المساومة المشينة والاضطرارية. ولكنه يرى الآن أن الأمر ليس بذلك اليسر، وأن من الممكن أن يقع أي بلاء ومصيبة كما في كل أحداث هذه السنوات المشؤومة.

عندما عادت ليلا بالفنجانين وصحفيهما، أجلسها جاويد وقال لها بالتدريج أن ملك آرا مختبئ هناك. لم يقل لها شيئاً عن اتفاقه مع ملك آرا بشأن أفسانه، لم يكن يريد أن تهزأ ليلا به وتسخر منه مرة أخرى. كما لم يقل شيئاً عن حقيبة أموال ومجوهرات ملك أرا، لأنه كان يعرف ليلا. قال فقط إنه مضطر لإخفاء ملك آرا بضعة أيام، لأن مستقبله ومستقبل ليلا متعلقان بذلك. قال إنه خلال بضعة أيام، كحد أقصى أسبوع أو أسبوعين أو شهر حين تخفت الضجة، سيذهب ملك آرا فيرتاحون من شره. وبعدئذ سيكون مستقبلهما واضحاً، وإن مستقبل ليلا مؤمَّن تماماً. ولكن لا ينبغي أن يفهم أحد أي شيء... وإلا فإن أرواحهم ستذهب عصف الريح. لأنهما خالفا القانون، إذ تعاونا مع ملك آرا الهارب...

في البدء بهتت ليلا، كانت خائفة، ولكن عندما استمعت إلى كلام جاويد إلى آخره، اقتنعت. قالت إنها لن تمد قدمها بعد إلى تلك الباحة ـ وكأن ملك آرا ليس هناك. وتمنى جاويد أن تكون ليلا صادقة، وأنها لن ترتكب خلافاً.

في صباح اليوم التالي قال لليلا إنه خارج في عمل، وإنه سيعود سريعاً. ولكنه ذهب مباشرة إلى مستشفى فيروز آبادي، حيث أبي تراب، مرة أخرى. رأى اليوم أن كل مكان مكنوس مرشوش، وقد تم تنظيف كل الغرف على خير وجه. قالوا إن السيد المعاون قادم للتفتيش. لقد حظي المرضى ببعض النظافة والعناية.

جلس جاويد ساعة قرب جسد أبي تراب نصف الميت. ناداه عبثاً. كان النفس يتردد أسوأ من الأيام السابقة في بلعوم أبي تراب. وسعى جاويد أن يجعله يتكلم بصب الحساء بين أسنانه المقفلة، ووضع منديل مبلل بالماء الساخن على جبهته المثلجة. ولكن يبدو أن تجمد الموت الذي أصاب أبا تراب صار هو الآخر كفوران حياة ملك آرا آكلة لروحه هو. وحتى عندما جاء المستخدمون والعاملون، مرعوبين متراكضين، وقالوا إن السيد المعاون يشرّف المكان بالتفتيش، لم يتزحزح هو عن أبي تراب. ولكن اتفاقاً اخر ساعده اليوم.

عندما جاء السيد المعاون المملوء كبراً وغروراً لم يكن غير الدكتور منوچهر خان نزهت، وقد صار بعد سبع سنوات أكثر سمنة وذا شعر رمادي. عندما رأى الدكتور جاويد في زاوية الغرفة وعرفه، لم يعن به في البدء، وبعدئذ ـ عندما سأل وعرف من كان المريض الذي يزوره الغلام ـ تقدم فوقف أمام جاويد، وقال له: يبدو أن السيد جاويد لم يكف بعد عن فعل الخير والإنسانية. في أي موقع آخر، كان جاويد سيبصق على وجهه، أو إذا كانت وصفة ملك آرا القديمة لا تزال تحت تصرفه لكان يمزقها ويلقيها على فك الدكتور نزهت. ولكنه اليوم نهض فوقف قرب الجدار. ضحك الدكتور منوچهر خان نزهت، وألقى أوامر ثم خرج مع

حشد مرافقيه من الغرفة. ولكن بعد بضع دقائق فعل أمر الدكتور نزهت فعله، وجاء ممرضون بالحقن والأدوية على أبي تراب المفلوك. وهو عمل كان يبدو أنه كان عليهم أن يفعلوه منذ الأيام الأولى.

في تلك الليلة ذهب جاويد في وقته إلى ملك آرا، حاملاً إليه الجرائد والطعام والمشروب والترياك. طلب منه ملك آرا، الأكثر ثملاً وثرثرة منه في أي وقت مضى، أن يدخل ويجلس ويحكي. فذاك مجلس صفاء. سلم جاويد المواد وهو واقف هناك إلى وسطه داخل الماء الأسود. لم يكن عنده كلام آخر ـ غير نهاية هذا الوضع. متى ما كان ملك آرا جاهزاً للخروج، فسيكون جاويد جاهزاً لإطاعة الأمر وسماع الكلام.

عندما خرج من خزان الماء، كان المخزن والمطبخ الليلة مظلمين خاليين. وكان بستان ملك آرا أيضاً خالياً، والباحة الخارجية أيضاً خالية هادئة. كانت الليلة الصيفية حبلى بنهاية الأمر... ولكنها كانت ساكنة. وكانت ليلا نائمة على السطح.

ذهب إلى فراشه فتمدد عليه، وبقي ينتظر مدة أخرى. راح ينصت إلى سكوت الليل السمج وصوت ابيضاض شعر رأسه.

وانقضى يومان أو ثلاثة على نحو أهدأ. احتفظ جاويد بملك آرا في مخبأه. كما أبقى ليلا - قدر المستطاع - مشغولة وتحت نظره. وواصل التظاهر بأن الحياة الظاهرية للبيت أيضاً تسير سيرها العادي. ولسوء الحظ لم تبد على ملك آرا بعد أية أمارة على الحركة.

مع أن قلبه كان يهوى أن يذهب لمدة نصف ساعة لرؤية ثريا خانم، يتحدث إليها، فيطلع على وضع حياتها ومستقبلها، ولكن حياءه الأبدي من هذه السيدة كان يردعه. كانت ثريا خانم قد مرت بهم أثناء هذه المدة بضع مرات، وأرادت أن تعطيهم مالاً، ولكن جاويد لم يقبل بالطبع، وقال في كل مرة إنه لا يزال عنده من ملك آرا مال. كان الوضع المادي لثريا خانم ومستقبلها بالذات غير واضح. إنها الآن أرملة فوق الثلاثين من عمرها مع طفلتين يتيمتين. كانت قد أبقت هُما حتى الآن في مدرسة الفرنسيين. كان جاويد قد سمع أن لثريا خانم قليلاً من المال في المصرف الشاهي. ولكن حجز أموال ملك آرا (حتى البيت الذي كانت ثريا خانم والدكتور كيومرث خان يقيمان فيه الآن لا يزال باسم ملك آرا)، وعدم وجود مصدر معيشة هو ملك ثريا خانم الخاص، كما يقلق جاويد، ولليوم الذي سيصفي فيه حسابه مع ملك آرا نهائياً فقد كانت ثريا خانم تضاف أيضاً على قائمة الطومار الذهني للناس المستحقين.

في اليوم الأخير من الأسبوع الثاني ذهب مرة أخرى إلى مستشفى فيروز آبادي. سمع اليوم أن أبا تراب، وباهتمام الأطباء الأخير، لم يبق حياً فقط، وإنما لقي تحسناً قليلاً أيضاً، مع أنه كان لا يزال في إغماءة

وغيبوبة. مرة أخرى ركع جاويد قرب سرير أبي تراب، ومرة أخرى بذل سعيه كي يخرج خادم ملك، ولو لخمس ثوان، من فم الموت الذي كان يرفض تسلّمه. جلس وراح يطارده الهموم. كان أبو تراب اليوم يحشرج، وكانت أنّات تتلوي في حلقومه، وذاك أمر جديد. وضع جاويد إحدى يديه في يد أبي تراب القذرة المكرمشة، وراح يحدق في وجهه الميت المغمض وفي جمجمته الكريهة التي صارت بلون الرمان اليابس. ناداه باسمه عدة مرات، وذكرله اسمه أيضاً، واسم أفسانه أيضاً. قال إنه إن لم يكن يتكلم فذلك لا يهم، ما عليه إلا أن يحاول أن يجيب عليه بإشارة من يده أو حاجبيه إن اسْتطاع. قال:

ـ «أبو تراب، اسمع. إن كانت أختي قد ماتت فاضغط على يدي قليلاً. وإذا كانت أختي لا تزال حية فاضغط ضغطتين صغيرتين، فقط. ميتة: ضغطة. حية: ضغطتين. أرجوك».

لم تتحرك لا يد ولا وجه ولا حاجب ولا حتى خلية من جسد خادم ملك آرا ولا حركة واحدة.

عاد إلى المدينة، وانتبه لأوضاع البيت والمدنية.

في المدينة كان الحديث عن توقف ملك آرا، وحتى اسمه، كان يزاول الألسن شيئاً فشيئاً. كانت الاصلاحات العامة للحكومة، وصدور قانون وأوامر جديدة من كل نوع يومياً قد شغلت الجميع، وكان جاويد يأمل أن يحل زمان حركة ملك آرا قريباً، في هذه الأيام.

في أول ليلة من الأسبوع الثالث، عندما ذهب إلى ملك آرا باحتياجاته، انتبه إلى تغير طرأ على وجه ملك آرا وروحيته. كان ملك آرا الليلة أهدأ، وكان واضحاً أنه أسعد، وكان جالساً ممشط الشعر

واللحية، كغول أسود نتن الوجه، على مخدة متكئاً. ظن جاويد أن تجديد الروحية هذا لا بد أن يكون ناشئاً عن بدء التفكير بالخروج من الملجأ. وعندما قال له ملك آرا أن يدخل السرداب دخل جاويد، وأغلق البويبة، وتحدث بضع دقائق لملك آرا عن وضع المحلة الهادئ، وعن العائلة المدنية. وأضاف أنه ليس لثريا خانم وضع ولا مستقبل جيدين. قال إن ملك آرا ينبغي أن يفكر بأمر هذه السيدة أيضاً. فقال ملك آرا:

ـ «في وقته، يا ولد في وقته سيصير حق كل منهم في يديه». ثم قال:

ـ «وأنت أيضاً لا عليك أن تتجرع غصة ملك آرا. احمل همّ حياة ووضع ملك آرا نفسه، يا فتى!».

خفض جاويد رأسه، وهزه.

قال ملك آرا:

ـ «وليكن سلوكك معي أحسن، أتفهم؟» فقال جاويد ببساطة:

ـ «نعم». قال ملك آرا:

ـ «إن رأيتك مرة أخرى مثل قبل بضع ليال تكلمني بألفاظ خشنة وتتمرد عليّ، سأقضي عليك بطلقة واحدة... إنني هرم ومحصور، ولكن لا يزال أمامي وقت طويل حتى أتهاوى... الأسد أسد حتى ولو كان هرماً... اسمع الكلام». فقال جاويد:

ـ «اسمع أنت أيضاً ـ منذ الليلة الأولى كان بيني وبينك اتفاق... أنا لا زلت عند كلامي واتفاقي... فينبغي أن تكون أنت أيضاً عند كلامك واتفاقك وقسمك، لا ينبغي أن يتجاوز أي منا العهد والاتفاق». قال ملك آرا:

ـ «هذا الكلام لا يقال لمثلي. ماذا تقول؟ لا تعد تشرط عليّ. لقد

أكلنا في هذه البلاد من الأفاعي ما جعلنا نصير أفعوانات[١]، فعليك أن تخشى الأفعوان. أنا ضيفك في هذه البضعة الأيام. دارني بالحسنى... حتى نرى ما يجلبه لك الغد...».

لم يخف جاويد من كون ملك آرا الليلة قد صارت له اليد العليا، وأنه اتخذ روحية التهديد والوعيد. إن ملك آرا يعرض آخر إمارات قوته. وهو قد رأى أعلى ملك آرا كما رأى أسفله. إنه وقد فشل الآن في اقناعه بجلب امرأة، بجلب ليلا، بالمال، بالمداهنة، وبالمكر والخداع، فلا بد أن هذه وسيلته الجديدة. إن مرور الأيام والليالي على ملك آرا في السرداب زادته مرضاً وضعفاً. إن حدقتي عينيه المنتفختين الكبيرتين التركمانيتين قد ظهرت فيهما عروق دم. وكانت وجنتاه الشبيهتان بالسفرجل، الصفراوين، تتدليان على شاربيه الغليظين. وكانت أنفاس فمه تبعث رائحة باطنه وبطنه الفاسدين. بحيث تجعله يترحم ألف رحمة على أنفاس أبي تراب النتنة.

قال جاويد:

ـ «لقد فعلت لك كل ما أستطيع».

كان مسروراً لأن ملك آرا، مهما كانت نكباته الليلة، فهو على الأقل لم يعد يتحدث عن المرأة، أو لم يعد يتحدث عن طلب ليلا. قال ملك آرا:

ـ «ماذا عن وصفتي؟ أرأيت الدكتور نزهت؟ ماذا حل بدواء بواسيري وإمساكي؟».

أسعفت حادثة مستشفى فيروز آبادي قبل ثلاثة أيام جاويد. فقال:

ـ «رأيت الدكتور نزهت... ولكن بشأن هذا الموضوع لا بد من الانتظار».

---

(١) مثل فارسي، ودلالته واضحة.

ـ «إلى متى؟»

ـ «إلى أن يحين وقته». فقال ملك آرا:

ـ «عجّل...».

ـ «إلى أن يحين وقته». فقال ملك آرا:

ـ «لا تعد تلعب بالحيل والأكاذيب وإلا أهلكتك. ما إن تفتح فمك اللئيم حتى أفهم ماذا تريد».

لم يبال جاويد. لم يقل شيئاً آخر. كان ينتظر فقط ليسمع إن كان ملك آرا سيقول شيئاً عن وقت حركته أم لا. أم إن عنده أوامر له بهذا الشأن أم لا. قال:

ـ «يا سيدي، لا يمكن للوضع الحالي أن يستمر طويلاً. لقد علمت ليلا، وبفمها السائب فإنني أخاف». فقال ملك آرا:

ـ «لا تخف... عندما يحل وقته سأخبرك ما ينبغي أن تفعل. اهتم أنت فقط بوضعي وسلامتي».

ـ «أنا مهتم... لقد فعلت من أجل حفظ حياتك وسلامتك كل شيء وسأفعل...».

هز ملك آرا رأسه بابتسامة ساخرة، وقال:

ـ «أي عزاء صار عزاؤنا بحيث صار غسّال الموتى يبكي!» فقال جاويد:

ـ «أليس عندك رأي أو تصميم بشأن الانتقال من هنا». فقال ملك آرا:

ـ «لمِ لا».

ـ «أي تصميم؟ متى؟». فقال ملك آرا بابتسامة هازئة:

ـ «حسب قولك، إلى أن يحين وقته...».

نظر جاويد في عينيه. ولكن ملك آرا كان قد استولى عليه الشعر فقط، فشرع يقرأ، وشيئاً فشيئاً بدأ بتعمير الوافور مرة أخرى، تمتم جاويد بلعنة ونهض فخرج. اجتاز خزان الماء، عبر السرداب والمطبخ، اللذين راحا يصيران قليلاً قليلاً الشوارع المضيئة لحياته.

عندما كان نائماً في غرفته، رأى ليلا تهبط السلالم عن السطح بتلصص، وجاءت فجلست إلى جانبه. كانت ليلا ترتدي ثوباً جديداً وردي اللون، كانت قد رتبت رأسها ووجهها. وكانت قد مشطت شعرها أيضاً وجمعته على ظهرها ـ ويبدو أنها استعملت ماء ورد وعطراً. سألت:

ـ «ما الأخبار؟». فقال جاويد:

ـ «لا شيء».

ـ «ألم يقل شيئاً جديداً؟ متى يريد أن يذهب؟ ماذا يريد أن يفعل؟».

ـ «لا...». ثم نظر في وجه ليلا. وقال:

ـ «وقد قلت لك إنه لا عليك بهذه الأمور». فقالت ليلا:

ـ «حسناً، لا عليّ».

لم يقل جاويد شيئاً آخر. قالت ليلا:

ـ «كيف يستطيع أن يبقى حياً في ذلك الجحر ـ بكل ذلك الترف والنعيم اللذين نشأ ابن المحروق فيهما؟». فقال جاويد:

ـ «يعيش. الكثير منه باق. كما يقول هو: الأسد أسد حتى عندما يهرم». فقالت ليلا:

ـ «إيه! ليكتسح الموت شكله وعينيه الكبيرتين القهوائيتين وشاربيه الطويلين. ارسم شكله على جدار الخلاء ليهرب الإبريق! إنني منذ كنت طفلة صغيرة كنت أكره عينيه، ولا زلت أكرهما. إذا كنت تريد أن تقتله

ذات يوم فأعطني إياه أخنقه بيدي هاتين».

ـ «قلت اتركيه وشأنه».

ـ «بالله، بالقرآن المجيد، إنني لأريد أن أذهب إلى وسط الشارع فأقف وأنادي: أيها الناس، يا ناس، تعالوا، فملك آرا ابن الكلب مختف في قعر خزان ماء بيته، تجمعوا عليه فأمسكوا به وخذوه إلى قسم الشرطة...». فقال جاويد:

ـ «قومي واذهبي نامي... قلت لا تتدخلي كثيراً بالأمور التي لا تتعلق بك. لا تذكريه. ولكنك لا تسمعي الكلام». فقالت ليلا:

ـ «لماذا لا، إنني أسمع... أسمع لكل ما تقول... ولكن قلبي هذا، يعني قلبي، محتقن دماً منذ سنوات من يد هذا الكذاب المحتال». فقال جاويد:

ـ «أرجوك انهضي واذهبي لتنامي... لنكف عن الكلام عنه».

ـ «لكم ارتحت لأنك جعلته أسيرك ومقيداً لك، إن الحق يبلغ صاحبه أخيراً».

ـ «قلت لنكف عن الكلام عنه».

لزمت ليلا الصمت. نظرت إلى جاويد في شبه عتمة الغرفة. وبدلاً من أن تذهب فتنصرف، وضعت رأسها هناك على زاوية لحاف جاويد، وتمددت على الـ «كليم[1]»، واستلّت آهة أخرى من أعماق صدرها.

قالت في الظلام:

ـ «عندما ينتهي هذا البلاء السخيف، ويصفو الجو، سأذهب إلى أي مكان تقول، أي مكان تريد، أو أموت حيثما تقول. أفعل كل ما تريد...».

نظر إليها جاويد. كانت هذه أول مرة تقول فيها ليلا الكلام بهذا

---

(١) بساط عديم الزئبر.

الهدوء وهذا اليسر. لم يكن قد شاهد فيها أبداً من قبل هذه الروحية الجديدة المشارِكة، ولم يكن شاهد فيها تضحية. وقد تفاءل بهذا خيراً أيضاً. الليلة، كانت هذه هي المرة الثانية. بعد ملك آرا، التي يرى فيها روحية جديدة ومتعاونة. قال:

ـ «إذا هيأت وسيلة غداً...».

ـ «لع!».

ـ «فكّري».

ـ «لع! غداً لا. قلت عندما ينتهي أمر ملك آرا».

ـ «اسمعي، اسمحي أن آخذ منه مالاً كثيراً، بقدر ما تريدين. وأضعه تحت تصرفك. واسمحي أن أرسلك إلى خراسان... فسيرتاح بالي أنا أيضاً. اذهبي أنت إلى عائلتك... فأنا لم أصر زوجاً لك... ولست صائراً. اذهبي فتدبري لنفسك حياة جديدة... في مدينتك، عيشي بين أفراد عائلتك».

ـ «لع!».

ـ «لماذا لا؟».

ـ «أريد أن أبقى، أن أكون هنا، أرى ملك آرا تحل به المصائب والموت، كي تبرد كبدي هذه...».

فقال جاويد:

ـ «دعي هذا الأمر لي ـ ليرتح بالك». قالت ليلا:

ـ «أدري، أدري...». وصمتت مدة. ثم قالت:

ـ «لقد آذيتك طوال هذه السنين، استخففت بك، ولكنني أرى الآن وأفهم ما أنت، وكم أنت طيب». ولزمت الصمت.

ـ «شعرة متفسخة واحدة منك لا أستبدلها بكل بدن ملك ارا». ثم قالت:

ـ «لقد آذيتك كثيراً طوال هذه السنوات، عذبتك وآلمتك ـ كان ذلك من حمرنتي وعدم معرفتي، صدّقني».

ـ «انسي ذلك».

ـ «ولكن ثمة شيئاً واحداً فقط لم أقله لك قط»، فاستدار جاويد ينظر إليها. قالت:

ـ «لقد أحببتك...»، فأدار جاويد رأسه. أية امرأة يمكنها أن تحبه؟ قالت:

ـ «صدق أو لا تصدق. لا تدري كم أحببتك في قلبي، ولا زلت».

ـ «نامي».

ـ «أحببتك أنت فقط. دائماً». أدار جاويد رأسه ولكنه لم ينظر إليها. ولم يقل شيئاً.

ـ «أنت فقط».

ـ «إنني متعب... اذهبي فنامي».

ـ «حسناً، أمرك».

تمدد متعباً فارغاً. وراح ينظر إلى الليلة المظلمة التي مدت ظلالها على البستان في الخارج.

لم ير ليلا تتمدد في الظلمة، وتمسك بيده... ارتعش بشكل جعل ليلا تخاف، وتترك يده مسرعة. لم يكن يتوقع ذلك وما كانت عنده طاقة تحمله. كانت يد ليلا باردة مشؤومة. كأنها يد ميت، لا بل كأنها أفعى زحفت خارجة من مخزن مطبخ ملك آرا القديم فعضته.

لم يدعها تلمسه بعد، مع أنه لم يقل شيئاً، وترك ليلا تنام تلك الليلة عند أسفل فراشه.

في ذلك اليوم، أحس ـ لما استيقظ فجراً ـ إحساساً مدهشاً وجديداً، كما لو أن نوراً ونداءً رائعين ينبعثان داخله. جاء فغسل رأسه وبدنه في حوض الماء الكبير في البستان، فتطهر. كان يحب ماء الحوض النظيف اللامع، وكان يملأ الحوض بنفسه يومياً من الماء الجاري الصافي لساقية البستان، الذي كان ـ كما تقول ثريا خانم ـ كالدمع. (كان يقشعر من فكرة استطاعة ملك آرا العيش على ذلك الماء الراكد العطن في قعر خزان الماء، فيشرب منه ويتوضأ به). في دينه، كانت الحياة بالماء القذر النتن أسوأ الذنوب. سبح، وغسل جسده، فخرج وجفف نفسه، ولبس سدرته وشد حزام مصارعته بإحكام. وتلا دعاءه الصباحي وهو يواجه الشمس.

كان الصيف ينشر نفسه في المدينة. كلما كان يحل الصيف كان يتذكر دائماً آخر سنوات حياته في يزد ـ وخاصة مراسم تلبيسه السدرة ـ ذلك اليوم الحار في معبد نار أجداده، الذين حضّروه لهذه الدنيا، وتركوه في هذا العالم. كان اليوم، في هذا الصباح الصيفي، يفكر أن السنوات الاثنتين والعشرين أو الثلاث والعشرين من عمره قد مرت بثلاث مراحل: المرحلة الأولى، كانت دورة طفولته الطاهرة الشبيهة بالرؤى، لا بد أنها كانت كالدنيا حين وجد الخلق. والمرحلة الثانية، دورة سنوات ما بعد ارتداء السدرة وهجوم المصائب وسنوات العذاب السبع. أما المرحلة الثالثة، فهي قد بدأت الآن ـ دورة الالتحام، المواجهة، والنضال ضد القوى التي كانت سبباً في تدمير عائلته ومنبع كل الشرور

والمصائب له...

بعد الإفطار، خرج من البيت. وقف في أول الزقاق. تفحص المحلة شأنه كل يوم.

كانت البازارچه قد استيقظت من النوم، وكانت شمس مشعة قد استقرت على سطوح المنازل الطينية المخلوطة بالتبن، وكان الحارس المقام أمام باب بستان ملك آرا يغلبه النوم. ورأى جاويد شاه باجي تخرج من باب الباحة تحمل لفافة أدوات الحمام وهي في شادرها وسروالها الطويل. أفسح الطريق كي تمر شاه باجي. لم يكن يرتاح كثيراً لشاه باجي، لأنها كانت ثرثارة متسكعة، وبذيئة اللسان. تركها تمر. كانت خمسون أو ستون سنة من الخدمة في مطبخ تاج ماه خانم، بين بقية الخادمات والخدم، قد جعلت فم شاه باجي ينفلت من عقاله، بدون أن ترى ذرة من الخير في أي شيء...

جاءت شاه باجي اليوم فوقفت أمام جاويد، ونادته. لم يكن جاويد قد رأى قط ذرة من أي مكان من جسم شاه باجي وبدنها، رأسها أو وجهها، أو حتى أظافرها.

قالت شاه باجي:

ـ «أقول: إسمع، أريد أن أقول لك شيئاً...».

ـ «صباح الخير يا شاه باجي، لك العافية».

ـ «أقول إنني عشت عمري بعصمة وشرف، ولا أريد الآن أن أموت مشغولة الذمة».

ـ «ماذا جرى يا شاه باجي؟».

ـ «لا شيء. لا أريد أن أتكلم وراء ظهر أحد، لا أريد أن أنمّ.

النميمة من الذنوب الكبيرة، وموقع النمام قعر جهنم وصلاته وصيامه باطلان».

ـ «إذن، فلو كنت مكانك لما نممت، لذهبت لحالي».

ـ «ولكن ثمة أموراً لا يستطيع المرء أن يتجاهلها».

ـ «أية أمور؟».

ـ «لا شيء... أردت فقط أن أقول: راقب زوجتك».

ـ «ماذا؟».

ـ «راقب زوجتك تلك».

ـ «أراقب ليلا؟». فقالت شاه باجي:

ـ «منذ بضعة أيام صارت كأشباه النساء المنفلتات، تجلس حتى تخرج قدماك من البيت».

ـ «قصدك؟».

ـ «ما إن تضع قدميك خارج البيت حتى تضع ليلا الشادر على رأسها ولا أدري من أي اتجاه تذهب حتى تختفي من البيت. ولست أدري من أين تأتي بالمال دائماً...».

ـ «ليس الأمر مربوطاً بك».

ـ «... بحيث تشتري أحمر الشفاه وأبيض الخدود فتقف أمام المرآة...».

ـ «لا يشغلنك أمر ليلا، يا شاه باجي خانم. إن لليلا حياتها ومصيرها. فانصرفي أنت لحياتك».

ـ «إنها سيدة بيت جداً. من أفضال رأس عُمَر».

ـ «يا شاه باجي، صحيح ما قلته من أن مكان النمام أين؟ في قعر

جهنم». فامتعضت شاه باجي، وقالت:

ـ «إيه... إنه يقلدني ساخراً، لم أرد إلا أن أقول ارفع قبعتك أعلى».

ـ «يكفي».

ـ «راقب فقط تجملات السيدة خفيفة تلك ـ قبل أن تفوح رائحتها القذرة...».

ـ «شاه باجي، اسمعي... اهتمي بالتفكير بزيارتك وآخرتك. إن ليلا تأخذ المال مني، وأريد هذه الأيام أن أرسلها إلى خراسان عند عائلة أمها وأقاربها... ولهذا فمع السلامة».

فقالت شاه باجي:

ـ «هو ما قلت... راقبها».

لم يعد جاويد يستمع لكلامها. لم تكن عنده اليوم طاقة تحمل هذا الكلام. كما أنه عزا ثرثرة شاه باجي لدعوى ومرافعة قد تكون نشبت بينها وبين ليلا، فلم يعد يفكر فيها.

كان يفكر في المرور أولاً بمستشفى فيروز آبادي. فانطلق سريعاً.

استأجر عربة وذهب إلى مدينة ري. وبعد ساعة كان عند فراش أبي تراب. رأى أن إحساسه الطيب عند السحر كان صحيحاً. كان أبو تراب قد ابتعد كثيراً عن الموت اليوم. فبرغم الأنفاس الموجَعة، والوجه المحمر من الحمى، كان بمقدوره اليوم أن يفتح عينيه. وقال المرضى الآخرون، الذين كانوا في الغرفة، لجاويد أنه يبدو أن حال أبي تراب قد تحسن اليوم قليلاً. لقد ظنوا جميعاً ليلة أمس أنه كان يحتضر. ولكنه اليوم لم يبق مجرد حي، وإنما حلت به روح جديدة أيضاً.

ركع جاويد قريباً منه، وناداه باسمه، وذكر اسمه هو، ووضع ورقة

نقدية أخرى في يده. قال:

ـ «أبو تراب، أبو تراب، هل تسمع صوتي؟».

كان ينزل من زوايا عيني أبي تراب المنتفختين عديمتي الأهداب ماءً، وكان عنده اليوم ما يشبه البكاء. كان حاجباه يرمشان. قال جاويد:

ـ «اسمع يا أبا تراب. أرجوك افعل خيراً وقل أين أختي...».

راح أبو تراب يهز رأسه ساكتاً. فقال جاويد:

ـ «إنك عائد إلى ربك. خفف نفسك من أجل آخرتك. قل لي أين أختي فطهّر روحك من هذا الإثم على الأقل، واكسب لنفسك رحمة».

رمش الحاجبان القهوائيان المتيبسان، ومن بينهما، انفتح شق يشبه شرخاً كابوسياً في جدار. ظهرت حدقتاه المبتلتان، وبؤبؤاه الأخضران المعتمان المتجمران ـ وهو ينظر إلى جاويد. كانت في نظرته موجة ميتة من الندم والجبن. كما لو أنه يخشى ما يريد أن يقول، يخشى أن يخنقه جاويد هنا بالذات. قال جاويد:

ـ «أبو تراب، أين أختي؟ قل...».

تلاقت شفتا أبي تراب اليابستان. كان يبكي، وكما لو أنه كان يريد بشفتيه المضمومتين المضغوطتين أن يبتسم بين البكاء، أن يقدم اعتذاراً. ولكنه لم يستطع.

ـ «تكلم، أرجوك. لا تخف، فلا شأن لي بك. أقسم أن أعنى بك... مهما يكن. قل فقط إن كانت شقيقتي حية أم ميتة، وأين هي؟ قل».

تلاقت شفتا أبي تراب اليابستان، وانفتحتا، فقال:

ـ «بستان...».

ـ «أيها؟ أي بستان؟».

ـ «بستان كن...».

ـ «عند من؟».

ـ «في زاوية قفص الدجاج...».

ـ «حية؟».

انطبقت شفتا وعينا أبي تراب مرة أخرى الآن.

أمسك جاويد أحد كتفيه فهزه، حاول جاويد أن يستل كلمة أخرى من فمه ـ لأنه لا بد لم يعد ثمة وقت. قال:

ـ «أبو تراب، لقد ذهب معك تلك الليلة إلى هناك شخص آخر. قل لي اسمه فقط. من كان ذلك الشخص؟ اسم واحد، أبو تراب... قل اسمه فقط، كي أعثر عليه إن كان حياً. حاول».

كانت أنفاس أبي تراب الآن تتداعى، وكان جاويد يرى أن سكوت الموت يهبط على صدر أبي تراب ووجهه. قال:

ـ «قل اسمه... حاول أن تقول اسمه».

بقي فم أبي تراب مفتوحاً، ترتعش الأصوات في حنجرته. مد جاويد رأسه إلى أمام. راح يحدق في فمه كريه الرائحة، القبيح. ثم قدم أذنه منه، وراح يتسمع بدقة. كانت كلمات مخلوطة مشتبكة تتلوى بين حلقوم أبي تراب ولسانه مع حرفي اللام والألف. كان يبدو أنه يقول: لا إله إلا الله. انتبه أكثر. كانت كلمة واحدة فقط تُنطق بين لسان أبي تراب وسقف فمه، تتدحرج، وتنطق مرة أخرى... وكانت هذه الكلمة أفضل مساعي نفس ميتة من أجل نطق لفظة «الله» أو شيء مثلها. ثم هبط أبو تراب إلى انجماد الموت.

نهض جاويد عن الأرض، ترك أبا تراب، وخرج من الغرفة

والمستشفى راكضاً. كانت العربة التي سبق أن جاءت به من المدينة إلى هنا في طرف الشارع لا تزال. ركض جاويد فركبها قال للحوذي أن يعود إلى طهران، وأنه سيعطيه ضعف الأجرة كي يمضي أسرع فيصل مبكراً. ومن هنا أيضاً أخذ العربة، بمزيد من المال، إلى بستان كن.

كانت العربة تجتاز، بحصانها النشيط الأسود، الجادات الترابية الخالية فتصعد وأثناء الساعة أو الساعتين اللتين استغرقهما الوصول من مدينة ري إلى بستان كن قضى جاويد أكثر ساعات عمره التهاباً... كان ذهنه يخلو من هجوم الخيالات والآمال. ولأول وآخر مرة لم يكذب أبو تراب.

أبقى العربة وركض داخلاً البستان. كان أطفال بستاني ملك آرا العجوز يعرفونه. كان البستاني العجوز نفسه قد مات قبل سنتين أو ثلاث، وكانت زوجته العمياء وأطفاله الصغار مسؤولين عن العناية بالبستان الآن.

سأل عن مكان قن الدجاج. دلوه عليه: كان كوخاً في زاوية بعيدة من البستان. وسأل امرأة البستاني العجوز إن كانوا يحتفظون في قن الدجاج بأحد، أو أنهم احتفظوا بأحد ما في أي وقت ما؟ لا، لا أحد، في أي وقت كان. عضّ جاويد شفتيه، فقد كان يتوقع هذا الخوف على نحو من الأنحاء. ركض نحو القن.

ضرب باب القن بقبضة يده. كان الحجر القذر، برائحته الرديئة للغاية، خالياً فيما عدا دجاجة أو اثنتين تنامان فوق لوح على عمود فوق البيض، راحتا تقوقئان لدخول جاويد فتحدثان ضجة وصخباً. نظر جاويد في كل مكان. لم يكن ثمة أثر لإنسان، أو لحياة إنسان.

حدّق في زوايا القن «زاوية قفص الدجاج...». كانت إحدى الزوايا تبدو وكأنها أعمق، وترابها متقعر هابط. امتلأت روح جاويد عذاباً وألماً.

أخرج الأطفال. أغلق الباب. حمل مسحاة متداعية كانت فوق الألواح، وذهب إلى زواية القن المتقعرة وانهمك في العمل. كان التراب لا يزال رخواً بعد سبع سنوات. رفع الأتربة سريعاً مسحاة فمسحاة، ورماها عن يمين وعن يسار. كان دماغه حاراً، والدموع تنهمر من عينيه.

بعد دقيقة أو اثنتين ظهرت أولى عظام الساق. ترك جاويد المسحاة جانباً، ودفع بقية التراب والطين بيديه، برقة. كان دائماً يخشى الموت ويكرهه. لقد تحمل سبع سنوات، وأكل دمه، على أمل أن يعثر على شقيقته. وها هو اليوم يتقاضى أجر سنواته السبع من ملك آرا.

عندما ظهر كل الهيكل العظمي الصغير، جلس جاويد عنده. نظر إليه. كان هيكلاً طفلياً، دقيقاً، رفيعاً، يعلوه التراب. لا شك أنهم قتلوها في تلك الليلة، أو في تلك السنة الأولى، ودفنوها هنا. لقد تعرف على قطع مهترئة من قميص أفسانه. جلس، احتضن ساقيه، وكان الدمع يحرق كل خديه وأنفه وجبينه ويهزها... أدار رأسه نحو السماء ونحو اليسار واليمين. كانت حرقة هذا الجرح الكبير الآن أكثر عذاباً لروحه وإرعاباً لها من الموت نفسه. لطم بكلتا يديه على رأسه، وبقي يضرب ويلطم ـ على النحو نفسه الذي ماتت به أمه، هكذا راح يلطم رأسه. بقي جالساً يبكي مدة طويلة.

بعد مدة، مسح دموع وجهه بكم سدرته.

لآخر مرة نظر إلى هيكل أفسانه العظمي. ولم يقل إلا:

ـ «أعذريني، يا أفسانه، لأني لم أصل قبل هذا...».

انحنى، وأهال الأتربة مرة أخرى على الجسد، فوقاه إلى حد ما من رائحة القن العطنة وقذارته. سوّى الأرض. وعندما انتهى عمله، اتكأ على الجدار. ودّع أفسانه: «آشم وهي، ازش همه وناهى أواخش وپشيمان وفه پيت هم». اجتازي الدنيا بالطهر والاستقامة، إنني ممتنعة عن أي إثم بدر مني ونادمة عليه وأسأل المغفرة...

خرج من البستان. قال للحوذي، الذي كان لا يزال ينتظره عند الباب، أن يعود إلى المدينة بسرعة الريح الصرصر - فيذهب إلى مفترق گلو بندگ، عند رأس زقاق چاله حصار.

كان جاهزاً للقائه الأخير بملك آرا.

من رأس گلوبندگ قطع كل منحدر چاله حصار والأسواق الصغيرة عدواً. وعندما بلغ گذر وزير دفتر، كان الوقت ظهراً. كانت المساجد تؤذن. وكان الحارس الواقف عند الباب يغالبه النوم.

كان باب الباحة الخارجية مفتوحاً. دخل جاويد بخطى سريعة طويلة. لاهثاً. ألقى نظرة شاملة على الحجرة. لم تكن ليلا في البيت. كما يبدو أن شاه باجي لم تعد بعد من الحمام. ناداهما جاويد. لم يسمع جواباً. كان من المألوف، هذه الأيام، أنه عندما يخرج لعمل في الصباح لا يعود إلى البيت إلا عصراً. كما أن عدم وجود ليلا في البيت لم يكن أمراً جديداً ـ لا بد أنها ذهبت إلى رأس الزقاق تشتري شيئاً، فتركت الباب مفتوح.

عاد إلى حجرته. أخذ السكين الكبيرة جداً، التي كان اشتراها وأخفاها في بقجته[1]. جاء إلى وسط الباحة فوقف. وتلا آخر أدعيته و «فرورته» النهائية.

عبر الدهليز، وأغلق باب الدهليز من الداخل. ثم اجتاز البستان أيضاً، وذهب إلى سرداب المطبخ القديم. واجتاز خزان الماء أيضاً. وراء البويبة الخشبية لخزان الماء خلع گيوته، وسحب نفساً عميقاً، ثم أمسك مقبض السكين بيده بإحكام، وبهدوء وبدون صوت، انسل إلى داخل ماء الخزان الأسود.

بلغ الماء وسطه. تقدم بطيئاً ـ ولكنه رأى فجأة بفزع ودهشة أن السقاطات الخارجية للبويبة الحديد مفتوحة. يعني، أيمكن أن يكون في

(١) البقچة منديل كبير يستعمل للف الملابس.

المرة الأخيرة، ليلة أمس، نسي أن يغلقها؟ على أية حال، كانت البويبة مغلقة. تقدم جاويد، ووضع أذنه على البويبة، لأنه كان كما لو سمع أصواتاً من داخل السرداب.

كان ما سمع صحيحاً، كان صوت قراءة ملك آرا للشعر يأتي، وصوت المرأة التي معه، وهي تضحك.

كان ملك آرا يقول:

ـ «ما الدنيا غير حلم مضطرب...»، وكان صوت ضحكة المرأة يرتفع مقهقهة تحبب نفسها، كما لو كان أحد قد دغدغها. وعرف جاويد صوت ليلا جيداً وهي تقول:

ـ «لا، لا تفعل... إيه... يقول: ما الدنيا. أأقول ما الدنيا؟ الدنيا هي هذه: من كثرة ما جئت وذهبت عبر خزان الماء هذا أصابني قولنج البرد...»، وملك آرا يقول: سأدفيء لك بنفسي قولنجك الجميل.. أفلم أدفئه؟ وليلا تقول: لِمَ لا، لقد أدفأته، ولكنني الآن ينبغي أن أعود مرة أخرى فأجتاز خزان الماء مرة أخرى فيصيبني البرد، وليس هناك من يدفئني... ويقول ملك آرا: ألا يستطيع ذلك الولد التافه مقطوع العضو أن يدفئك؟ وتقول ليلا: إيش، أذاك رجل؟ أذاك آدمي؟ ولكن على كل حال، من الأفضل أن أرجع قبل أن يعود... ويقول ملك آرا: أُبقي، أفلم تقولي أنه لا يعود حتى العصر، ما زلنا في أول الظهر. وتقول ليلا: من الأفضل أن أعود مبكرة فعمل ذلك الآكلة لا حساب له ولا كتاب، إذا ما عاد، ورآني من باب الدهليز فسيسلخ جلدي... ويقول ملك آرا: أيجرؤ؟ أريه أباه بنفسي. دعي الوقت يحين، فنحن حالياً بحاجة إليه. وتقول ليلا: إن من الأفضل ألا يعرف شيئاً، لأن ابن الكلب عنيد جداً ويمكن أن يمسك

بي فيخنقني.

كان جاويد، الحامل سكيناً، قد تحجر وسط الماء الأسود. لم يكن يدري ما يفعل. تذكر كلام شاه باجي، إذ قالت إن ليلا منذ أيام، ما إن يضع هو ـ جاويد ـ قدميه خارج الدار حتى تذهب فتغيب. إذن فليلا تأتي هنا. وتذكر زينة ليلا ولطفها أثناء هذه الأيام الأخيرة... تذكر تلك الليلة التي تناولت فيها ليلا يده فلمسته ـ تلك الليلة التي قالت فيها بدلال إنها تحبه، ونامت حتى الصباح عند أسفل فراشه. تلك الليلة كانت قد قضت عصرها هنا.

قرر أن يدخل هنا بالذات فيقتلهما كليهما. ولكنه تذكر مسدس ملك آرا وسيفه. لم يكن بمقدوره أن يقتلهما معاً. إذا ما دخل الآن ونشبت معركة فلا شك أنه هو الذي سيقتل على يدي ملك آرا، وتذهب أدراج الرياح كل العذابات، وأفكار الثأر للدماء التي سالت، وفرصة القضاء على ملك آرا، وأمل انتصاره... فلبث. قال لنفسه: لا تستعجل. فكر. لا تمد خطوة بدون تقدير العواقب. تقدم بالتأمل والتعقل. ناضل على النحو الصحيح.

وقع نظره على السقاطات. كان بمقدوره أن يحبسهما معاً في مكان واحد. أو كان بمقدوره أن ينتظر، فيقتلهما واحداً واحداً الليلة. ولكنه قرر أخيراً أنه لم يعد يريد أن يقع نظره عليهما. وكان أي موت آخر فوق شأن ملك آرا. فتهيأ للعمل.

تقدم بلا صوت. وضع أظفره أولاً تحت البويبة الجديد. امتحنها. كانت البويبة مغلقة من الداخل، كانت محكمة. وضع السكين قي يده اليسرى، وبيده اليمنى، بأفضل دقة ومرونة موجودة في تمام ذرات جلد

يده، وضع السقاطات بلين متناهٍ، ببطءِ حركةِ نملةٍ، في حلقات الجدار الحديدية... وساعدته أصوات كلام وضحكات ملك آرا وليلا. كان جاويد يتصور أفعالهما. كان يتصور أفعال ليلا بوجه خاص، إذ ـ في كل مرة تنزل فيها إلى خزان الماء ـ تذهب إلى وراء البويبة فتنادي ملك آرا. ولا بد أنها ترفع قميصها إلى أعلى كي لا يبتل. وولّد عنده تصور بدن ليلا وأفعال ليلا حالة اشمئزاز وغثيان كان مقدراً لها أن تظل تلازم ذهنه عمراً.

كان يدفع سقاطات البويبة الحديد الضخمة، بدون أدنى احتكاك أو ارتعاش، واحدة بعد الأخرى في حلقات الجدار. وفي لحظة واحدة، عندما أولج آخر سقاطة في آخر حلقة بالجدار، سمع من الداخل اسم أبي تراب. كانت ليلا تقول إنها بالغة الاضطراب لأن أبا تراب لم يمت بعد.

كانت تقول إنها تتمنى لو تعرف في أي مستشفى يرقد أبو تراب. تتمنى لو تستطيع الذهاب فتخنق ابن المحروق ذاك كي ترتاح ويطمئن بالها. ألصق جاويد أذنه بالبويبة، وراح يصغي. لم تكن آخر كلمة، تلوّت في فم أبي تراب ولم يجر نطقها بشكل صحيح، كلمة: الله... كانت كلمة: ليلا! ثم كان ملك آرا يطمئن ليلا ويطيب خاطرها إلى أن أبا تراب أيضاً لايجرؤ أن يفعل شيئاً، وأنه ـ ملك آرا ـ سرعان ما سيصفي حسابه، ويخنق حنجرته وحلقه الأسودين الممتلئين دوماً بالحديث عن أخته. ثم سأل ليلا، وطلب أن يعرف، ما الذي جرى حقاً تلك الليلة حين أخذت وأبو تراب الطفلة إلى بستان كن. ألصق جاويد أذنه بالبويبة بشدة أكبر. في الظاهر، كان هذا الموضوع هو الذي تكلم فيه ملك آرا وليلا كثيراً

طيلة هذه الأيام الأخيرة. قالت ليلا إنها لن تنسى تلك الليلة ما دامت حية. قالت:

ـ «كنت أحمل الطفلة في العربة، والطفلة تعوي. أنا نفسي كنت قد أكلت عصر ذلك اليوم علقة من ثريا خانم. يعني من أجل أم تلك الطفلة وأخيها أبعدتُ عن بيت ثريا خانم وعن أمي، فجئت إلى هذه الباحة. كان قلبي مهموماً، ولم يكن عندي تحمل. عند المغرب كنت جالسة في زاوية البستان، أبكي، عندما رأيت أبا تراب، ابن المحروق هذا، يصعد من السرداب، وهو يحمل الطفلة محتضناً إياها. صرخ أبو تراب أن أنهض فأحمل الطفلة وأذهب فأجلس في العربة، وأُبقيها ساكنة ساكتة. احتضنت الطفلة وذهبت فجلست في العربة. صعد أبو تراب وانطلق، خرجنا. قلت لك إن الطفلة كانت تواصل العواء والبكاء، ويغمى عليها. صرخ أبو تراب: اخنقيها، فنحن نعبر أزقة وشوارع... كانت أم الطفلة قد ماتت ذلك اليوم، وأخوها مطروحاً هو الآخر في زاوية السرداب غارق في دمه، وها هي نفسها مثل جروة كلبة هائجة تعوي، كان يصرخ ويهدد. وضعت يدي أمام فم الطفلة؛ كي أسكتها ـ يعني أمام فمها كي أكتم صوت أنينها وبكائها، أنا نفسي كنت طفلة، لم أكن أعرف شيئاً، لم أكن أعرف تلك الأعمال، كنت أنا نفسي قد تملكني البكاء. أمسكت فم الطفلة محكماً بيد ووضعت يدي الأخرى وراء رأسها. صمتت الطفلة. لم يعد يخرج لها صوت. ولكن عندما وصلنا أمام البستان وجاء أبو تراب يريد أن يأخذ مني الطفلة، كانت الطفلة راحت. صاح أبو تراب صارخاً: يا آكلة الحرام يا سليطة، لقد قتلت الطفلة! قال إنني عندما قلت اخنقيها أعني اقطعي صوتها... ماذا فعلت؟ وقد خاف هو أيضاً، لأنه يبدو أنك

كنت قلت له أن يودع الطفلة عند عائلة البستاني... لم أفهم بعدئذ ما فعل. أخذ جثة الطفلة ودخل البستان حيث بقي بضع دقائق، ثم عاد فهددني أن أنكتم بصدد هذا الموضوع طول عمري، ثم أعادني إلى المدينة ولا أدري أية أكاذيب قالها للجميع... أنا نفسي منذ ذلك الوقت، كلما كنت أرى جاويد التعيس الحمار هذا يبحث كالمجانين عن أخته يحترق فؤادي... التعيس الحمار المسكين، اشتغل سبع سنوات مثل الثور...».

كانت آخر سقاطة قد نزلت في آخر حلقة. وتراجع جاويد وهو يرسل اللعنات ويعض شفتيه. انسل على هون بين ماء الخزان. عاد وخرج. ثم ركض من السرداب، فجاء نحو ساقية البستان سحب لفافة الجنفاص التي كانت تسد المنفذ الذي يجري منه الماء، ووجّه الماء بأشد قوه في طريقه.

ركض، والسكين بيده، إلى السرداب وخزان الماء، فجاء إلى أعلى البويبة الخشبية لخزان الماء. كان خزان الماء يهدر، علاوة على صوت خرير الماء، بأصوات قبضات وصراخ واستغاثات ليلا وملك آرا من وراء بويبة السرداب. كانت البويبة الحديد تقاوم في مكانها بإحكام، وتتغمر بالماء تدريجياً. وقف جاويد والسكين في يده ينظر إلى البويبة الحديد، ويرسل الرحمات لروح الأوسطى كامران، رئيس معماري ناصر الدين شاه وعمله المحكم. لم يكن لقبضات ملك آرا وليلا من أثر. وكان الماء يرتفع. ربما لو لم يكن ملك آرا شيخاً ضعيفاً موجعاً لتمكنت رفساته من كسر البويبة الحديد، ولربما تمكن من إنقاذ نفسه وليلا من الموت في السرداب، ولكن الأمير كمال الدين ملك آرا لم تعد عنده قوة، كما كانت ليلا أكثر ضعفاً وهشاشة منه. وقف جاويد وراح يراقب الماء وهو يصعد

أعلى فأعلى، ويسمع آخر مساعيهما وأصواتهما وهما يختنقان قليلاً قليلاً تحت ثقل وضغط أطنان الماء، كان جاويد ينتظره طوال سنوات.

عندما تجاوز الماء البويبة الحديدية ماتت آخر أصواتهما. انتظر جاويد حتى ارتفع الماء أعلى وأعلى حتى بلغ حافة البويبة الخشبية للخزان، التي كانت أعلى من البويبة الحديد للسرداب بمتر. رمى السكين في خزان الماء، ثم خرج، وذهب إلى البستان، فسد مسير الماء.

نهض. وقف وسط البستان تحت الشمس الحارة الساطعة. فجأة صار البستان يمطر نوراً.

تطلّع في كل مكان، وتصنت. كان البيت المختوم الممهور عديم الروح ساكتاً. وكان ملك آرا أيضاً في سردابه مقبوراً. وكانت المحلة والزقاق ساكنين صامتين أيضاً. لم يكن أحد قد علم شيئاً. نظر إلى السماء، فوجدها زرقاء ناصعة. ابتسم. كان كل ما قيل له عن دينه الطاهر صحيحاً.

ـ ٦٥ ـ

عاد إلى الباحة الخارجية، فإلى حجرته. لم تكن شاه باجي قد عادت من الحمام بعد، جاء جاويد فجمع الأثاث الشخصي المتعلق بليلا وحشره في كيس كبير، وجاء به وألقاه في إحدى الحفر خلف أحد المراحيض. ثم جاء فشد بقچته الصغيرة «خرجينه[١]» القديم أيضاً، وتهيأ للحركة. العمل الذي اقتضاه أن يأكل دمه سنوات طوالاً، ما أسهل ما يتم. شدِّ البقچة وانطلق، اذهب... إلى يزد.

ولكن في آخر لحظة فكر أنه ربما يحسن ألا يستعجل. فكر أن من الأفضل أن يبقى يوماً أو يومين آخرين، أن يبدي شيئاً من الاتقان والتدبير. لقد انتظر من أجل هذا اليوم سبع سنوات، فليضف إليها يومين أو ثلاثة أخرى. وعزم أخيراً أن يبقى أسبوعين آخرين. فقد كان ينبغي أولاً أن يتحقق من بقاء ملك آرا وشريكته في مقبرة موتهما التدريجي ـ لم يكن يريد أن يفاجأ يوماً برؤية عودة ملك آرا إلى مسرح هذه الدنيا. ثم إنه كان يلزم بعض التوضيح فيما يتعلق برحيل ليلا المفاجئ، وخاصة تهيئة أذهان شاه باجي وثريا خانم والآخرين لسفره هو. وثالثاً، فقد كان ينوي أن يعود بعد بضعة أشهر إلى طهران، فيمر على السرداب ويرى بعينه فناءهما وجثتيهما.

وضع بقچته جانباً، دفأ بعض الحليب، وجلس فتناوله مع الخبز. جلس داخل الباحة، حتى عادت شاه باجي. قال لشاه باجي:

ـ «بالعافية». ثم قال إن باله قد ارتاح، لأنه أرسل ليلا في سفرتها

(١) كيس ثنائي الحاوية يوضع على ظهر الدابة فتتدلى كل حاوية على جانب.

الكبرى إياها... فقالت شاه باجي، التي كانت تشع حتى من بُعد متر رائحةَ حناءٍ رسدرٍ وصابونٍ وانتقاع عدة ساعات في الحمام:

ـ «عجباً... أرسلتها فذهبت، بهذه السرعة؟».

ـ «نعم».

ـ «أرسلتها إلى خراسان؟». فقال جاويد:

ـ «أرسلتها، إلى مكانها الأول... هي الآن في الطريق». فقالت شاه باجي:

ـ «حسناً، العياذ بالله... لقد ارتحت بأبي الفضل».

ـ «نعم...».

ـ «الحمد لله». فقال جاويد:

ـ «أنا نفسي سأعود بعد بضعة أيام إلى يزد. وعلى هذا فعليك أن تتعودي الوحدة شيئاً فشيئاً».

فقالت شاه باجي:

ـ «واه، أماتني الله...». فسأل جاويد:

ـ «أعندك أحد تعيشين معه؟».

ـ «عندي أخت...».

ـ «في طهران؟». فقالت شاه باجي:

ـ «واه! ماذا إذن، في الولايات؟ نحن، والحمد لله، أصلنا طهرانيون منذ سبعة أظهر». فقال جاويد:

ـ «اذهبي عندها... لا أقصد اليوم... وإنما بعد شهر أو شهرين، على مهلك. لقد بقي عندي بعض المال من ملك آرا... سأعطيك شيئاً ليكون نفقة حياتك... ينبغي أن نخلي هذا المكان. لا شك أنك فهمت بنفسك أن

الدولة قد حجزت على هذا المكان». فقالت شاه باجي:

ـ «لا أدري ما أفعل، أو ما لا أفعل». قال جاويد:

ـ «ابقي الآن هنا بضعة أيام... وبعدئذ ستبلغين استقراراً واطمئناناً تامّين بمشيئة الله».

في أواخر العصر، خرج هو نفسه من الباحة، وراح يتمشى بضع دقائق في الأزقة. كان كل شيء يبدو لناظريه جديداً رائعاً. الأزقة، المحلات، المدينة، كان كل مكان اليوم كوكباً جديداً. لقد جاء إلى الدنيا في هذا الكوكب ـ خفيفاً خلياً هادئاً. حتى بعد الظهر الحار الجاف كان يبدو لناظريه لذيذاً نعيمياً.

عاد عند الغروب فمر بخزان الماء. كانت بويبة السرداب مدفونة تحت الماء الأسود. لم يكن ثمة صوت. لم تكن ثمة حركة. وكان جاويد قد حسب حساب بقية جدران السرداب أيضاً. كانت الجدران السمنتية تطل من جانبين على الزقاق، ومن جانب على خزان الماء، ومن الجانب الآخر على خزان ماء منزل ثريا خانم. كان سرداب مأمن ملك آرا في الحقيقة مستقراً بين خزاني ماء، وراح جاويد يفهم الآن لماذا كان ملك آرا يحرص حتى بضع سنوات مضت على شراء منزل ثريا خانم أيضاً. لم يكن يريد أن يتعرض السرداب للوقوع بأيدي آخرين...

إن السرداب المدلل لملك آرا المدلل ملكه الليلة بالتمام والكمال.

نام الليلة كلها تحت السماء النظيفة الملآى بالنجوم هادئ البال. لم يكن يحس فقط وكأنه جاء هذه المدينة الليلة، ولكن الليلة كانت تبدو وكأنها أول ليلة في خلق دنيا جديدة. كان يحاول جاهداً أن ينسى ملك آرا وليلا، إلا أنه لم يقدر. كان يفكر دائماً في ما الذي كان يفعله ملك

آرا وليلا الآن؟ كيف يبلغان، ببطء ومذلة، موتهما؟ لم يكن عندهما طعام، وإنما قليل من القند والشاي ومقدار قليل من النفط والفحم، وكان عند ملك آرا بعض الترياك وزجاجة عرق. كم يوماً سيقاومان؟ لا بد أنهما سيمسكان أولاً بتلابيب أحدهما الآخر متجادلين متشاتمين. لا بد أن كلاً منهما سيلقي التقصير على الآخر. ربما سيقتل أحدهما الآخر. على أية حال، لن يقاوم ملك آرا طويلاً. وحتى إن بقيت ليلا حية بعد ملك آرا، فإنها لن تقاوم أكثر من شهر واحد ـ إلا إذا شرعت في نهش جثة ملك آرا الميتة، الأمر الذي لم يكن يستبعد من تلك الحية الدنيئة والمؤذية.

في صباح اليوم التالي، بعد الاغتسال والدعاء، مرّ بخزان الماء مرة أخرى. بقي طوال اليوم في البيت. يقرأ كتاباً. عند الغروب أرسلت ثريا خانم عبد الرسول في طلبه، كانت تريد أن تراه، لأنها سمعت أنه أرسل ليلا إلى خراسان، دون وداع.

ذهب إلى منزل ثريا خانم. كان كيومرث ملك آرا، مع أصدقائه، في جناحه الخاص، منهمكين. وكانت ثريا خانم في الإيوان، تجلس على كرسي خيزران وراء مائدة وسطية صغيرة، تراقب طفلتيها هما وژيلا، اللتين كانتا تلعبان في البستان. أحاطت الطفلتان بجاويد وطلبتا منه أن يبقى معهما، يلعب معهما. مع أن جاويد كن قد بلغ الثانية والعشرين، وحتى إن شعره ابيضّ، ولكن قامته الدقيقة النحيلة كانت لا تزال تضفي عليه مظهر غلام صغير. لعب بضع دقائق مع هما وژيلا، ثم صعد الإيوان نحو ثريا خانم.

كانت ثريا خانم جالسة ترتدي لباساً أزرق طويلاً بأزرار وتور أبيض، وتضع غطاءرأس أبيض ردت على تحيته، وعرضت عليه أن

يجلس. شكرها جاويد، إلا أنه لم يجلس. وقف أمام ثريا خانم، وتناول قدح المرطب الذي قدم له، وشربه شاكراً. كانت ثريا خانم نفسها حزينة منكسرة، وكانت خصلات بيضاء قد أتلعت رؤوسها من جوانب غطاء الرأس وحواشيه. كانت اليوم تدخن سيجارة، الأمر الذي لم يسبق لجاويد أن رآه منها. سألت:

ـ «سمعت أنك فجأة أرسلت ليلا فذهبت؟».

أحس جاويد عدم ارتياح، لأنه لم يكن يحب أن يتحدث إلى هذه المرأة بغير الحق والطهر. قال:

ـ «أتيحت فرصة... فذهبت ليلا».

ـ «ذهبت وحدها؟».

ـ «لا، ذهبت مع واحد من المعارف القدامى».

ـ «لن تعود بعد؟».

ـ «لا أبداً، إن ليلا لن تعود». فقالت ثريا خانم:

ـ «لقد ارتحت. ولكن أية مفاجأة؟ كنت قد سمعت دائماً تريد إرسالها... ولكن لماذا المفاجأة».

ـ «كان شخص ذاهباً، فأرسلت ليلا أيضاً معه. لم يكن ثمة وقت كي تأتي في حضورك فتودع. أنا آسف». ثم، قبل أن تلقي ثريا خانم سؤالاً آخر، قال:

ـ «وحضرتك، أما عندك خبر جديد عن والدك؟». فهزّت ثريا خانم رأسها، وقالت:

ـ «لا... سمعت وكأنه خرج من البلاد... لا بد أنه سيبقى حيث هو ولن يعود ـ بأوضاع البلاد الحالية». فسأل جاويد:

ـ «ماذا ستفعلين؟».

سحبت ثريا خانم نفساً من سيجارتها، وقالت:

ـ «نحن؟»، ولبثت تفكر زمناً، بدت وكأنها قد فكرت أيضاً بهذا السؤال، إلا أنها لم تلق جواباً. قالت:

ـ «نحن باقون... لا شيء. في الوقت الحالي لا شأن لهم بهذا البيت. كما أن كيومرث قد رأى هذا وذاك، فتم الاتفاق على أن يدبروا الأمور بحيث لا يكون لهم شأن بهذا المكان. هنا كان في الأصل باسمي ـ وقد نقلناه فيما بعد الى اسم أبي، ولكن أبي لم يكن قد سدد كامل قيمته بعد. وعلى هذا...»، فسأل جاويد:

ـ «هل مستقبلكم مؤمن؟». فابتسمت ثريا خانم بسمة عديمة اللون:

ـ «طبيعي أن مستقبلنا مؤمن. لماذا تتحمل أنت همّنا؟ أهمومك قليلة؟ لا تعد تقلق عليّ وعلى طفلتيّ...».

كانت يدها النحيلة على صدرها، وسيجارتها ترتعش قليلاً بين أصابعها، وأكثرها رماداً.

بقي جاويد ساكتاً، ينظر إلى ابنة ملك آرا.

قالت ثريا خانم:

ـ «لا يركبنك القلق بشأننا... عندنا بعض المال في المصرف... وثمة أيضاً بساتين أبي، التي لا شأن لهم بها... لم يضبطوا غير البيوت...»، ثم قالت ضاحكة:

ـ «إننا نشتهر، والاشتهار في هذه البلاد ليس قليل الفائدة... ماذا فعلت أنت؟ ماذا تريد أن تفعل؟».

استل جاويد آهة. قص على ثريا، بلهجة من يكلم شريك هموم

قديماً، حكاية عثوره على جسد أخته في بستان كن، من آخر كلمات أبي تراب على فراش الموت. لم يتمكن أن يحبس دموعه. وبكيت ابنة ملك آرا أيضاً لسماع هذه الخدعة الكبيرة القاسية، وطيبت خاطر جاويد.

بقي جاويد ساكتاً مدة، ثم قال:

ـ «أنا أيضاً، عن إذنك، سأعود إلى يزد هذه الأيام». فقالت ثريا خانم:

ـ «بالسلامة... إذن فأخيراً بلغت أمنيتك هذه مهما كلف الأمر...».

فقال جاويد:

ـ «نعم، أخيرا».

ـ «خالي اليدين، ووحيداً؟».

طأطأ جاويد رأسه. لم يكن يدري ما يقول. لم يكن يتمكن ، بفعل النور والظفر اللذين بلغهما، أن يتكلم ـ على الأقل ليس الآن، أو ليس هذه السنة. نظر في عيني هذه المرأة، وقال:

ـ «نعم، كانت هذه السفرة تجربة كبيرة لي». فنظرت إليه ثريا خانم، وقالت:

ـ «أحسنت... إنك مسلط على كل شيء بطور عجيب».

ـ «وإن تذكار ألطافك، التي لا تنسى، عليّ في روحي... لقد كنت دائماً ملجأي، عضدي ومساعدتي».

أشعلت ثريا خانم سيجارة أخرى. واستدارت إلى عيني جاويد. ثم أدارت رأسها، وسحبت من سيجارتها نفساً. نظرت مدة إلى الطفلتين. واستدارت مرة أخرى فنظرت إلى جاويد. كانت تتفحصه بدقة جديدة ـ كما لو كانت تتحسس كل الأشياء التي فقدها هذا الولد، وكذلك عذابه

الشخصي المثير للهموم أيضاً. ولد جاء بيتهم يوماً، وكان يمكن أن يصير رجلاً كبيراً ذا شأن، ولكنهم أوقعوا به جراحاً لا تلتئم.

قالت:

ـ «إن لك أصلاً وجوهراً طاهرين». فقال جاويد:

ـ «إننا جميعاً أولاد نفس الجوهر ونفس الوطن». فنظرت إليه ثريا خانم، وقالت:

ـ «لا أظن». فخفض جاويد رأسه.

قالت ثريا خانم:

ـ «هذه الأيام، وأنت تريد العودة، أي إحساس يتملكك؟».

إذا كان يريد أن يشرح إحساسه فلا بد أن يفشي الكثير من الأمور، ولهذا اكتفى بالقول:

ـ «مثل طفل جاء الدنيا حديثاً...». فابتسمت ثريا خانم، وقالت:

ـ «عشت... أحسنت»، ثم قالت:

ـ «إن أياً منا لم يفهم قط في أي وقت من الأوقات روحك وإيمانك، أليس كذلك؟».

ـ «مضى...».

ـ «صحيح ما تقول، مضى»، ونهض، فقال:

ـ «في أمان الله، يا سيدتي».

ـ «في أمان الله، يا جاويد... في أمان ربك».

خرج من بيت ثريا خانم وكيومرث ملك آرا. عاد إلى الباحة الخارجية.

وبقي اثني عشر يوماً أخرى ـ كي يرتاح باله من كل جانب. كان

كل مكان هادئاً والحياة رتيبة. كان اختفاء ملك آرا يغيب في مطاوي النسيان. كما أن «مسافَرة» ليلا أيضاً لم تترك أي رد فعل، فيما عدا ـ بالطبع ـ في روح جاويد.

بعد أسبوعين، ذات صباح مشمس لامع، بعد أن قام بآخر تفتيشاته لخزان الماء المليء. سلمّ ما كان بيده من مفاتيح بيد ثريا خانم، وودع كل أولئك، وانطلق.

كان لا يزال عنده الكثير من مال ملك آرا، أكثر مما يحتاج. ذهب إلى بوابة الأمير عبد العظيم، وانطلق نحو يزد في عربة أجرة.

جلس ساكتاً هادئاً في زاوية العربة التي كانت تضم خمسة مسافرين آخرين. لم يكلم أحداً، كان منطوياً على نفسه ـ انطواءً ووحدة وسكوتاً كان محكوماً عليه أن يعيش فيها إلى آخر عمره. كان في الظاهر شاباً دقيق القوام، شعره قهوائي فاتح طويل، حليق الوجه، وحاجباه طويلان قهوائيان يضفيان على بشرته البيضاء وعينيه القهوائيتين الحيتين الذكيتين مظهراً جذاباً. رغم جرح العضو الذي قطعوه منه ـ خفيضاً سالماً قوياً. كان جالساً يقرأ الكتاب الذي بين يديه، ويغوص في التفكير أحياناً، ويتفرج على الصحراء من حوله، فيقضي وقته.

عندما مرت العربة بالمرتفعات التي وضع جسد عمه في إحدى زواياها ذلك الصيف، كان في صدر جاويد ظل أمل، أن يطلب إيقاف العربة، أن ينزل، فيصعد المرتفعات، ويرى عظام عمه ـ ولكنه ـ من أجل المسافرين الآخرين، وإلى حد ما بسبب نفرته هو من الموت والموتى - جلس ساكتاً، وترك المرتفعات اليابسة تمر أمام عينيه. لم يكن ارتباطه بعمه في تلك المرتفعات اليابسات.

بقي تلك الليلة في قم. على جانب الطريق، خارج الخان، جلس، وانتظر يوماً أيضاً. لم تكن ثمة وسيلة سفر إلى يزد. بعد يومين حصل أخيراً على وسيلة سفر إلى أصفهان - انطلق، عازماً أن يذهب من أصفهان إلى يزد. وانقضى السفر على نحو مريح. وأوصلته عربة أخرى بعد خمسة أيام، من بين صحارى وطرق ريفية لا تعد، إلى يزد.

كان الوقت أول المساء حين رأى، في نهاية الصحراء السوداء، الأضواء الباهتة لمصابيح المدينة فقرّ فؤاده. كان قد فكّر طوال الطريق في أن يمضي أم لا؟ إن أخته الكبرى، المتزوجة، كانت هنا قبل سبع سنوات، ولكنه لا يدري إن كانت لا تزال وعائلتها هنا أم لا. لم يكن عند جاويد خبر عن هؤلاء طيلة هذه المدة. ولا بد أن بيت أهله هو قد بقي خالياً. وطبيعي أن معبد النار كان لا يزال في مكانه.

وكان يفكر في پوران أيضاً. إنها الان فتاة، أو امرأة، في التاسعة عشرة. ما حالها؟ أين هي؟ أتزوجت؟ أم أنها بقيت تفكر فيه؟ عبثاً...

معفراً، عطشاً وجائعاً مضى رأساً إلى معبد النار، الذي بدا لعينيه الليلة ـ بكل قدمه وصغر بنائه ـ فردوساً مفقوداً ومستعاداً. وقف، وراح يحدق فيه من بعيد. كما لو أنهم بعد ظهر هذا اليوم بالذات قد أجروا ملابس «إلباس السدرة».

رقي السلالم في الظلام، ووقف أمام الباب الخشبي حائل اللون. كانت الروائح الجافة للنار والبخور والعود والسذاب واللبان تنبعث حتى من شروخ الباب المسدود وشقوق الجدران. لقد عاد إلى بيته!

لم يعرفه الخادم العجوز، ولكنه أفسح له الطريق. حيّاه ولاطفه. اقترب جاويد من موقد النار الذي كان موقداً دائماً، فركع. وراح يبكي.

بعد ساعتين أو ثلاث، عندما عُلم مَنْ هو، جرى إخبار ابن عمه ـ الذي كان الآن في التاسعة والأربعين وصار دستور معبد النار ـ فجاء. تقدم الدستور مهروند ـ الذي انتخب قبل سفر أبيه، الموبد بهرام إلى طهران، موبداً ـ بلحيته الطويلة الرمادية ورجليه التي كانت إحداهما شلاّء منذ الطفولة، بفرح ولطف نحو جاويد، واحتضنه وراح يدعو. لم

يكن هؤلاء قد عرفوا قط بالطبع ما الذي حل بجاويد وأبيه وأمه، فلم تكن رسالتا جاويد قد وصلتاهم، وكان هؤلاء يتصورون أن الموبد بهرام وعائلة فيروز آقا أقاموا في طهران يعيشون فيها. لم يرو جاويد هذه الليلة كل القصة المرعبة لابن عمه. اكتفى بالقول إن بقية أفراد عائلته وعمه الشيخ قد ماتوا أثناء هذه المدة.

كان بيتهم في يزد قد بقي حتى الآن على حاله. وسأل جاويد عن أخته فأخبروه أنها تعيش الآن مع زوجها وأطفالها في كرمان. وسأل عن عائلة عمه. فنظر الدستور مهروند باسماً في عيني جاويد، وقال إنهم جميعاً بخير... وأضاف إن پوران لا تزال بانتظاره وعلى حبه وفي رباطه.

طأطأ جاويد رأسه، بألم جديد، وسكت مرة أخرى، ولكن ألم حياته المحزن، بوصفه رجلاً في هذه الدنيا، كان مقيماً. وهو باق. إن كل ما بينه وبين پوران قد كتب على الريح. أي نوع من الحياة والمصير يمكنه أن يقدمه لپوران في هذه الدنيا؟ ما كان عنده، هو الرجل العقيم المدمر الضائع؟ تلك الليلة، لم يذهب إلى بيت ابن عمه، رغم دعوته وإصراره كما لم يذهب إلى بيته هو: قال إنه يود أن يبقى طوال الليلة في معبد النار. فبقي الدستور مهروند معه، وراحا يتحدثان حتى الفجر.

في صباح اليوم التالي، ذهب إلى بيت أهله. وأخذ معه عدداً من أصدقاء الماضي وشبان العائلة الذين تحلقوا حوله.

فتح باب البيت، أطل على كل الغرف. نظر في كل مكان. كان البيت والأثاث كما تركها في آخر ليلة قبل سفره. فيما عدا أن كل مكان تفوح منه رائحة الغبار، رائحة الضياع ورائحة الانقباض. لم يكن أثاث المنزل يكلمه، بل كان يبكي معه.

فتح النوافذ. أزاح الستائر جانباً. نفض الأتربة. نظّف كل البيت بمساعدة أصدقائه فجعله صالحاً للعيش. ولكن عند الغروب عندما عاد من الحمام وكان وحده في البيت، جلس في غرفة الجلوس عند قدمي تصوير أشوزردشت، وراح يبكي ـ التصوير الكبير المؤطر الذي كانت أمه تزينه كل يوم بزهور الياس والسوسن البيض المنظومة بخيط. كان جاويد قد عاد إلى البيت، ولكن الحياة لن تعود إليه. كانت حياته، بموت عائلته وموت أشياء داخل بدنه وروحه، قد ماتت.

بعد الدعاء الأخير في معبد النار، ذهب ـ نزولاً عند إصرار الدستور مهروند خان ـ إلى بيت ابن عمه، ولأول مرة بعد يوم مراسم «إلباس السدرة» رأى پوران ـ وكان ذلك لقاءً لا يميل إليه. لقد كبرت پوران، صارت سيدة، حيته من أعلى سلالم غرفة الطعام بثوبها الطويل الرمادي عديم الأكمام، وغطاء الرأس الوردي، والشادر الطويل الأبيض، ووجهها الأبيض عديم الزينة، وعينيها المنتظرتين. رد جاويد ببساطة على تحيتها وهو ينظر إليها بأدبه ولطفه، وإذ كان يرى أن بمقدوره أن يبقى على ذلك القدر من الهدوء أمام پوران، فقد كان يحس طمأنينة مدهشة. لقد أضفت سنوات العذاب والنضال و ـ أخيراً ـ انتصاره على ملك آرا، على روحه عمقاً وآفاقَ تحمّلٍ أوسع، لم يكن يتوقعهما.

وخلال الشهرين التاليين، قام بسفرة إلى كرمان، فرأى أخته وأطفالها. وبعد العودة إلى يزد، رتب شؤون أبيه وأملاكه. سلم بساتين الفاكهة والدكان القديم ـ التي كانت الان في يدي أحد أبناء عمومته يديرها ـ لابن عمه ذاك بشكل دائمي. وفي مقابلاته القصيرة مع پوران وكذلك في مكاشفاته مع الدستور مهروند، قال لهما إنه رغم كونه بلا

امـرأة، وإنه لم يرد امـرأة قط غيـر پوران، ولكن زواجـه بپـوران، أو بأية امرأة أخرى، مستحيل في هذه الدنيا. قال لهما إنه في سنوات إقامته بطهران، أصابته جراحات روحية وجسدية عديدة، تجعله يضطر للبقاء وحيداً. وكان رأيه وتصميمه، بمعونة الرب، أن يقضي ما تبقى من حياته في معبد النار، في تعلم المزيد وخدمة الديانة الزرادشتية.

وفي اليوم التالي لعيد مهركان[١] قال لابن عمه إنه مضطر، من أجل إنجاز بعض الأعمال، للسفر إلى طهران لبضعة أيام. شدّ رحالاً بسيطة للسفر، وودع الجميع، وعاد إلى طهران.

(١) هو ما أسماه العرب بـ «المهرجان»، عيد مهر (الشهر السابع في التقويم الفارسي، أول شهر الخريف) وعملياً عيد الخريف، مقابل نوروز: عيد الربيع، عيد أول السنة الفارسية. وكان يحتفل به بمستوى قريب من الاحتفال بالنوروز.

ـ ٦٧ ـ

عن طريق أصفهان جاء إلى طهران. مهما كان شأن هذه الجادة، فقد كانت أفضل من دروب الصحراء. وفي أصفهان كانت وسائط نقل أكثر تتجه إلى طهران. جاء من يزد إلى أصفهان بعربة مسافرين، ومن هنا انتقل إلى طهران بإحدى الحافلات ـ التي كان قد بدأ تسييرها أخيراً ـ بمعية عشرة أو اثني عشر مسافراً آخرين. فوصلها في يومين. كان الوقت غروباً عندما أنزلتهم الحافلة أمام شمس العمارة[1]، في شارع ناصرية، أمام أحد المرائب، فانطلق جاويد سيراً نحو وزير دفتر.

مرة أخرى كان الوقت خريفاً، وكانت المدينة نائمة تحت أول الرياح الباردة الهابة من الجبال. خلافاً للسفرة السابقة التي جاء فيها إلى طهران، وكان فيها حائراً ساذجاً ضائعاً، كان الليلة ذا هدف، ناضجاً، محروقاً، يعرف جيداً أين يذهب، ويعرف ما يريد أن يفعل. أجرى حسابه: تمر اليوم ثلاثة أشهر وعشرة أيام بالضبط على اليوم الذي دفن فيه ملك آرا في السرداب.

كان الوقت موغلاً في المساء عندما بلغ زقاق چاله حصار. نزل من وراء گذر مستوفي نحوالأزقة التي يعرفها جيداً، وبدون أن يراه أحد، خرج من وراء تكية گذر وزير دفتر. ولكي لا يصير أمام بستان ملك آرا الكبير، وأمام الحارس الواقف أمام الباب حتماً، فقد جاء من وراءالزقاق الذي يقع فيه منزل آية الله لوساني، واجتاز بيت قريشي، وجاء إلى النقطة التي تبدأ فيها الزاوية الشمالية الغربية لبستان ملك آرا بجداره الخفيض.

---

(١) قصر مشهور من قصور آل قاجار، يقع في المركز القديم لطهران، تطل إحدى بواباته على شارع ناصرية، الذي صار ناصري، ليصير الآن ناصر خسرو.

كان قمر كبير منير خريفي يشع فوق البستان... كانت أغصان متشابكة جافة لصريمة الجدي[1] والياسمين لا تزال تتكأكأ فوق الجدران ـ مثل نسيج عنكبوت هائل الحجم مات منذ سنوات، ولكن كفره المشؤوم لا يزال معلقاً في عنق الزقاق.

وقعت عينيه على طرف من جدار البستان تهدم فتساقط طابوقه. كان هذا هو الطرف الذي انسل منه قبل نحو أربعة أشهر ملك آرا، بمهارة، في تلك الليلة، فدخل. ودخل جاويد من النقطة.نفسها

تحت ضوء القمر، كان البستان المتروك أسوأ منه قبل ثلاثة أشهر، متساقط الأوراق مهجوراً. كان الحوض يابساً متشقق القاع. وكانت الحدائق مغطاة بالعلف الوحشي والأوراق المتساقطة. لم يكن يجري غير ساقية الماء، كشأنها أبداً، كما لو كانت تحسب ـ بصوتها الرتيب الذي يمر ـ ساعات وأيام خراب وموت ملك آرا.

اجتاز وسط البستان كما الظل، على رؤوس أصابعه، فجاء إلى وراء الباب الكبير. نظر من شقوق الجدار. رأى ظل الحارس الذي كان ما يزال يقف في ذلك الطرف، ببندقيته وحربتها المركبة، يدخن چپقة[2]. إذن فقد كان ملك آرا لا يزال في عداد الهاربين، وكان لايزال تحت التعقيب.

جاء في طلب سلالم السرداب. هبط في الظلام. انتظر عدة دقائق أسفل السلالم كي تعتاد عيناه الظلام، وهو عمل كانت له فيه ذات يوم مهارة كبيرة. وفي إحدى زوايا المطبخ المرطوبة وجد سراجه القديم. في مكانه المعتاد. كان ما يزال في السراج قليل من نفط.

أشعل جاويد عود ثقاب فأنار السراج. ثم حمله فجاء نحو خزان الماء.

---

(١) شجيرة زاحفة متسلقة، أزهارها غنية الرحيق.

(٢) الچپق مبسم تدخين يشبه الغليون، ولكنه مستقيم، وأكبر حجماً.

عندما كان يتقدم في دهليز الخزان، من فوق قبر أبيه فيقترب من خزان الماء إياه، كان بمقدوره أن يسمع جيداً ضربات قلبه. فتح بويبة خزان الماء. ألقى ضوء السراج داخل خزان الماء. كان الماء لا يزال قريبا من حافة البويبة.

استدار فاجتاز الدهليز بقدمين واثقتين، حتى وصل قاعدة صنبور الماء عند أدنى السلم. حصل على جوال قديم فجاء به وشد به صنبور الماء، وعلقه به. فتح ماء الخزان وتركه مفتوحاً. كان صوت الماءالمكتوم يندلق على الجوال ويهبط منه فينصب عند أسفل قاعدة الصنبور إلى الحفيرة فلا تكاد تسمعه الآذان.

عاد إلى بويبة خزان الماء. وقف والسراج في يده وراح يراقب خلو الخزان التدريجي. وكان يدري أن أمامه جرياناً بطيئاً طويلاً سمجاً. استفاد من الفرصة فعاد إلى المطبخ وملأ السراج مرة أخرى من برميل نفط قديم كان يحتفظ به هناك دائماً في أواخر إقامته الدائمية، وعاد به مرة أخرى.

كان الماء قد بلغ بويبة السرداب. كانت البويبة الصدئة تلوح رويداً رويداً من تحت الماء. وقف جاويد وراح ينظر. كان محتاراً طيلة هذه الأشهر بأمر هذه البويبة. كان قد فكر بأنه، إذ يفتح ذات يوم هذه البويبة مرة أخرى، فماذا سيرى؟ مع أنه كان مؤمناً بانتصاره ولكن قلبه كان لا يزال، مثل طفل يخاف الظلام. كان قد عاش سبع سنوات مع أكاذيب وخداع وشرور هذه المخلوقات العجيبة، غير المتوقعة. ومع ذلك، ففي هذه الدقيقة الأخيرة لم تكن روحه الوجلة مطمئنة ـ ما لم يراهما ميتين بعينيه.

كانت ظلمة خزان الماء وأمواج الماء القذر كريه الرائحة، لا تزال توقظ أحاسيسه النائمة... كان الماء ينزل ببطء عن أدنى البويبة. كان

يفكر في الليالي التي كان ينطلق فيها بين الماء، فيأتي، ويدخل ذلك السرداب، حاملاً لملك آرا العشاء والعرق والصحف ـ على أمل أن يعثر على أفسانه. عضّ على شفتيه. كان يخطو كل ليلة فوق قبر أبيه وأمه، ويحمل لقاتلهما عرقاً وطعاماً وأفيوناً وجرائد، على أمل أن يؤدي السنّة والعمل والرسم التي أُمر بأن يؤديها. وراح يفكر في الأيام التي اندفعت فيها ليلا أيضاً بين الماء فذهبت إلى ملك آرا. ليلا... امرأته، ذهبت من وراء رأسه إلى أحضان ملك آرا فخلعت ثوبها وقميصها الداخلي له، وقالت في أحضانه كلام سوء عن جاويد، سخرت منه، وخلطت أكاذيبها بأكاذيب ملك آرا وقباحاته... ثم تذكر وجه ولحية وشاربي ملك آرا الطويلين، وعينا ملك آرا الكبيرتين المريضتين، وقبعة ملك آرا وهو يقف مام أبيه وأمه يراقب موتهما. تذكر آخر ليلة وقف فيها هو وراء هذه البويبة ليسمع أن ليلا خنقت أخته، ليلا التي بقيت زوجته سبع سنوات وخدعته. لم تكن عنده عاطفة نحو أي من هذين حتى الآن، لم تكن عنده عاطفة لأي حيوان مثلهما. لم يكن يحس الذنب فقط، وإنما كانت روحه مفعمة بفكرة الانتصار. لم يكن عنده غفران ولا محبة لهما. كان يجب أن ينمحيا عن صفحة الأرض.

عندما وقعت عينه على قاع خزان الماء، الذي تجلى من تحت الماء، ارتعش وانتبه لنفسه. حتى السكين التي كان قد ألقى بها ذلك اليوم في قعر الماء كانت لا تزال هناك، كان قد أصابها الصدأ، واسودت.

دخل وحلَ وقذارةَ قعرِ خزان الماء، والسراج في يده. تقدم نحو البويبة، وقف أمام البويبة.

سحب سقاطات البويبة ـ التي استحكمت وصدأت لكثرة ما بقيت تحت الماء. كان واثقاً أن ملك آرا وليلا قد فتحا سقاطة خلف البويبة بآخر جهودهما، وتركاها مفتوحة. وعلى أية حال، فإنه لم تكن البويبة

مفتوحة فهي ليست ذات بال بالنسبة لجاويد ـ وهي من الخارج تفتح بمعونة طرف مسحاة. ولكن حدسه كان صحيحاً. كانت البويبة مفتوحة من الداخل. كانت أظافر جاويد وأصابعه كافية لفتحها.

ضربت رائحة الجثتين وجهه.

كانا هناك.

وضع على أنفه منديلاً، وهبط سلالم السرداب، وأغلق البويبة.

كانت جثة ملك آرا ممددة في زاوية، وقد ألقيت عليه بطانية. يبدو أنه مات أولاً، فغطت ليلا وجهه لكي ـ لا بد ـ لا تقع عيناها على جثته. دفع جاويد البطانية جانباً بطرف إحدى قدميه. كان ملك آرا حقاً ـ وقد فسد وجهه وتلاشى منذ الآن.

كانت ليلا، في زاوية أخرى، مقرفصة تحت لحاف ملك آرا ميتة. كان وجهها النحيل الذي استحال رمادياً الآن لا يزال يحتفظ بقليل من الشكل الأصلي. بالمقارنة مع بقية وجه ملك آرا، كان يبدو أن ليلا ماتت بعده بشهر على الأقل. ولكن النمل والدود والخنافس أكلت جزءاً من سيقانهما وأياديهما وجسديهما.

راوده ذهنه أن يصب نفطاً على بقية جثتيهما فيحرقهما. لأنهما قد تعفنا بشكل فظيع، وكان يمكن أن تنبعث رائحتهما إلى الزقاق فتخبر الجيران. ولكنه صرف النظر عن ذلك. فهو إن أبقى البويبة مغلقة فستبقى رائحتهما النتنة لهما، كما بقيت طوال هذا الوقت والنار التي هي مقدسة لا ينبغي تلويثها. تذكر كلام عمه: اترك الميت وانصرف.

راح ينظر. كانت حقيبة ملك آرا قرب جثة ليلا. فتح الحقيبة ونظر فيها. كانت كل الأشياء التي رآها في الليلة الأولى لا تزال في مكانها ـ باستثناء كثير من الذهب والجواهر، التي كانت في رأس ليلا وعلى عنقها ويديها، كما كان مقدار منها في منديل حرير كبير قرب يد ليلا أيضاً.

ويبدو أن ليلا قد جردت ملك آرا، بعد موته، لأن خواتم ملك آرا وساعته وعلبة سجائره كانت في منديل ليلا أيضاً. جمعها جاويد ووضعها في حقيبة ملك آرا، وحتى الذهب، والمجوهرات التي اعتبرتها ليلا ميراثاً مسروقاً فصلها عن ليلا فوضعها في الحقيبة. إن ليلا لم تكن لتحتاج إليها وما كانت تستحقها. أخرج مسدس ملك آرا من حقيبة يده. نظر إليه متأملاً. كان المسدس الذي تركه ملك آرا في تلك الليلة الأولى - كذباً وخداعاً - بضع دقائق في يديه، قائلاً: إما أن تقتلني وإما أن تساعدني. سدده جاويد نحو هيكل ملك آرا. ضغط الزناد. لم تنطلق اطلاقة. كان المسدس خالياً. رماه جاويد على رأس ملك آرا.

حمل حقيبة ملك آرا وسيفه. ألقى آخر نظراته عليهما. خرج من السرداب. أغلق البويبة للمرة الأخيرة. سحب سقاطات السرداب لآخر مرة أيضاً. جاء ولآخر مرة وقف فوق النقطة من الخزان التي كان أباه وأمه مدفونين فيها، فتلا آخر فرورته الدعاء للموتى عليهما.

«على أمل اللقاء، يا أمي العزيزة».

«على أمل اللقاء، يا أبي».

ثم أضاف:

- «ليطمئن بالك، يا أبي - لقد أخذت قيمة آخر صناديق الفواكه والثمار التي كنتَ جلبتها لملك آرا، منه».

خرج من السرداب، عازماً ألا يضع قدميه مرة أخرى، إلى آخر عمره، في أي سرداب.

وحان وقت الرحيل.

ـ ٦٨ ـ

خرج من السرداب. ملأ خزان الماء لآخره مرة بالماء. جلس في زاوية البستان. ولآخر مرة انتظرالفجر في هذه المحلة.

نهض مع أول أنوار النهار، اغتسل بهدوء وبلا صوت في ساقية الماء. وقف وراح يدعو. لم تكن الشمس قد طلعت بعد عندما ذهب من ظلمة الدهليز نحو الباحة الخارجية، كان يريد أن يرى إن كانت لا تزال شاه باجي هناك، أم أنها رحلت عن هذا البيت هي الأخرى. من بعيد رأى دخان سماور قريباً من حجرة شاه باجي. ترك حقيبته وبقچته في زاوية من الدهليز، وجاء. كان باب حجرته السابقة مختوماً وممهوراً بختم حكومي أيضاً.

كانت شاه باجي بين شادرها وغطاء وجهها تصلي. تنحنح جاويد وتقدم فجاء إلى عتبة حجرتها، ناداها وجلس في زاوية. سرعان ما أطلقت شاه باجي، بلهوجة، عدة تكبيرات، وكسرت صلاتها على عجل، وتقدمت. قالت من وراء الباب نصف المفتوح:

ـ «ماذا تفعل هنا، يا ولد؟». فقال جاويد:

ـ «جئت أودعك». فقالت شاه باجي:

ـ «يا أبو الفضل. أعوذ بالله». فقال:

ـ «وعندي، أيضاً، أمانة لك»، ومد يده في جيبه فأخرج حزمة من ورق النقد. لم تر شاه باجي المال. قالت من ثقب صغير في الشادر الذي على وجهها:

ـ «من أين جئت بحيث لم يأخذوك؟». فسعل جاويد، وسأل:

ـ «(لم يأخذوك) يعنى ماذا؟». فقالت:

ـ «إن رجال الأمن يطاردونك أنت أيضاً منذ شهر تقريباً».

ـ «يطاردوننى؟... ماذا يريدون؟». فقالت:

ـ «ما أدرانى؟ يقولون إنهم يريدون أن يأخذوك أنت أيضاً إلى إدارة الشرطة. ويريدون أن يلقوا عليك أسئلة. يقولون إنهم عرفوا أنك كنت تعرف أين هو ملك آرا. يقولون إنك كنت تشترى الأفيون والدواء كل يوم من يهودى فتأخذه للأمير... سألونى وسألوا أهل المحلة جميعاً أين ذهب الولد الزرادشتى. حسناً، الحمد لله كذبنا فقلنا إنه ذهب إلى خراسان عند زوجته». فهز جاويد رأسه. وقالت شاه باجى:

ـ «ولكن يبدو أنهم فهموا أنك ذهبت ـ لا أدرى حيث ذهبت...». أسكت شاه باجى بيده، وسألها:

ـ «إذن فلهذا ختموا ومهروا باب حجرتى السابقة». فقالت شاه باجى:

ـ «ماذا إذن؟».

حدّق بشادر شاه باجى الملفوف. فهم أنه لم يعد بوسعه أن يبقى هنا، أو أن يراه أحد ما هنا. كان حتى صوت شاه باجى يرتجف خوفاً. قال جاويد:

ـ «يا شاه باجى، لا تخافى. لقد جئت ليلة أمس، وسرعان ما سأعود. هاك، خذى هذه النقود. هذه تخصك. ولكن لا تقولى لأحد من أين جئت بها... وإلا فسيسودون معيشتك بالأذى والعذاب. أفهمت؟».

أخذت شاه باجى المال. لم يكن جاويد قد رأى شاه باجى قط. كانت شاه باجى، بالنسبة له، إنساناً مخيفاً وضائعاً بين شادر صلاة. سأل

صوت شاه باجى:

ـ «من أعطى كل هذا المال؟ أهو حلال؟».

لم يستطع جاويد أن يجيبها. قال:

ـ «روحى اشترى لك بيتاً، عيشى، افعلى ما تحبين... ولكن عيشى. إن هذا المال أحلّ حتى من حليب أمك». فقالت:

ـ «حسناً، عساك ترى الخير. لا أقول من أعطاه. أقول: الله أعطاه. سأقول للجميع إننى طلبت طلباً فرأيت حضرة فاطمة فى الحلم، نهضت صباحاً فرأيت تحت وسادتى حفنة مال أرسلتْه أم البنين». فقال جاويد:

ـ «عيشى جيداً وبطهارة، يا شاه باجى. ليس ضرورياً أن تلفقى أكاذيب... تصورى أنه كان عندك من قديم... فكّرى أنك جمعت أجرتك طيلة هذه السنوات». فقالت:

ـ «واه... حسناً، صحيح».

أدار جاويد رأسه وحدق فى الباحة وباب الزقاق. فكر فيما قالته شاه باجى عن رجال الأمن وإلقاء القبض عليه. أصابه اضطراب عميق جديد لكونه هو أيضاً تحت التعقيب ومهدد بالاعتقال. طبيعى أنه قد قتل شخصين، ولكنه لم يكن يدرى إن كان رجال الأمن يريدونه من أجل استجوابه عن مخبأ ملك آرا، أم أن ثمة اتهامات أخرى. ليلة أمس، فى آخر الليل عندما وصل من الطريق لتوه، لو أنه ـ بدلاً من حائط البستان ـ كان قد جاء من الطريق الاعتيادى، طريق باب الزقاق، فرآه حارس الباب ـ الذى كان لا بد يعرفه ـ فما الذى كان سيقع؟ قال:

ـ «اسمعى، يا شاه باجى. لم أكن أدرى أن رجال الأمن يطلبوننى. ولست أدرى حتى الآن ماذا يريدون منى. ولكن عندى اليوم شغل، عندى شغل كثير، وعليك أن تساعدينى».

فسعلت شاه باجي داخل شادرها:

ـ «واه... أية مساعدة؟».

ـ «يجب فقط ألا تقولى لأحد أنك رأيتنى، لا تقولى شيئاً». فسألت شاه باجي:

ـ «إنك لم تقم بخلاف؟ لم تستل سكاكين مثل أولاد غلوم على أو تفعل أفعالاً قبيحة مثلهما؟».

فقال جاويد:

ـ «لا، لم أقم باستلال سكاكين، إنك تعرفين أنى لا أرتكب خلافاً». ثم سأل:

ـ «اسمعى، يا شاه باجي... أتركوا ذلك الطريق تحت الأرض إلى باحة ثريا خانم مفتوحاً؟ أم أنهم أغلقوه؟». فقالت:

ـ «لِمَ لا، أغلقوه، بنوا جداراً». فقال:

ـ «إذن فلم يعد ثمة طريق من هذه الباحة إلى تلك الباحة». فقالت شاه باجي:

ـ «لا، لا طريق».

كان جاويد يريد أن يرى ثريا خانم، ويريد أن يرى بضعة أشخاص آخرين أيضاً، فيسدد لهم حصصهم من المال والحياة. ولكن ذلك لم يكن في مقدوره اليوم. كما لم يكن أيضاً يريد أن يبقى عند شاه باجي، لم يكن يريد أن يخلق لها متاعب، وعلى أية حال، فما كان بمقدوره أيضاً أن يخرج من البيت حتى المساء. قال:

ـ «يا شاه باجي، في أمان الله... لا تقولى لأحد شيئاً».

وكان وقت الرحيل حقاً.

- ٦٩ -

فتح باب السطح قليلاً، وأخذ ينظر... من هنا، كان يرى التكية المقابلة للمنزل ورأس الحارس أمام باب البستان. ركض بسرعة فوق الأسطح الطينية منطوياً على نفسه، وزحف إلى سطح منزل ثريا خانم. كانت هنا فى إحدى الزوايا، حجرة صغيرة بنيت فى التعمير الذى جرى قبل بضع سنوات لخزن الفراش والناموسيات. التجأ جاويد إلى داخل الحجيرة، وترك بابها نصف مفتوح. من هنا كان يرى نصف باحة ثريا خانم وباب مدخلها بصورة جيدة. تنفس الصعداء، وجلس. كان عنده مكان آمن للاختفاء حتى المساء.

مرة أخرى لعن حظ وطالع مجيئه لطهران. كلما أتاها لا بد أن ينحبس منذ اليوم الأول، أو أن يحبس نفسه فراراً من الحبس. ليته يستطيع أن يفهم ماذا تريد منه الشرطة. ولكن بما عمله، وبما كان يريد أن يعمل. ومع رجال الشرطة الذين لم يكن يعرفهم، لم يكن بمقدوره أن يحمل حقيبة ملك آرا بيده ويذهب إلى مركز الشرطة فيقول: أنا جاويد پور فيروز، ماذا تتفضلون بالطلب منى؟

جلس، وفكر فيما يفعله ـ بكل هذا المال والكنز ـ فى هذه الدنيا، فى مدينة لم تعد مكاناً مناسباً له، بل وحتى فى بلاد لم تعد مأمناً له.

ارتفع النهار، وجلس هو، محدقاً منتظراً مفكراً. كان يرى تحت ناظريه حجرته القديمة السابقة قرب باب البستان، التى احتلها الخادم الجديد، عبد الرسول، مع زوجته وأطفاله ـ كانت الحجرة التى عاش فيها نحو ست سنوات أو سبع من حياته، أو كان فيها عبداً، عانى الذل. وقتلوا أثناءها رجولته وأفضل سنوات حياته فقضوا عليها. نظر إلى كل

المحلة. كان يرى أمامه السطوح الطينية الحقيرة الخفيضة المتناثرة لبيوت المحلة الأخرى، وسقوف الأسواق الصغيرة المقببة الطينية عديمة النظام شائهة الأحجام التى كانت مثل إغفاءة كسلى ومجنونة هائمة فى كل مكان. وأبعد قليلاً، كان يرى أيضاً قبة ومنائر مسجد سيد نصر الدين، الجالس نعساناً، بآياتها العربية والكوفية، فى نومة إجبارية نشأت عن حملة وغيبوبة لم تصح منها إيران منذ ألف وثلاثمائة سنة. جلس ونظر وفكر.

فكّر فى حياته هنا وفى مستقبله. مهما كان هنا فهو ليس فى مكانه. ولكن أين بمقدوره أن يذهب؟ هناك أيضاً لم يكن، ولا شك، مأموناً بالنسبة لجاويد بالوضع المحكم الفعلى للشرطة والأمن والارتباطات. كانت ثمة برقية مضمونها أن يلقوا القبض عليه. أين يمكنه أن يذهب إذن؟ فى أية مدينة أخرى يمكنه أن يعيش؟ أيمكنه أن يذهب خارج البلاد؟ ينبغى عليه، على أية حال، أن يبتعد عن هنا.

كان النهار يزحف ذرة ذرة فوق السوق الصغير، وينقضى، وهو يسبح فى بحر ذكريات وجراح هذه السنوات السبع. سبع سنوات... سبع دورات للأرض حول الشمس ودورات للقمر والأرض حول أحدهما الاخر والنجوم والفلك وعناصر الأرض... كم ليلاً ونهاراً تصير؟ مهما كان، فقد انقضى الآن، لقد انتهى الامتحان. كما ينتهى كل شىء، كل شىء. لم تبق إلا نهاية الخير والشر. كان كل كلام عمه، الذى قاله له تلك الليلة بين مرتفعات طريق طهران قبل الموت. حتى قوله إن فى طينة الناس خيراً، كان صحيحاً. حتى هنا، فى قلب ظلمة بيت أرا توجد حبات الخير التى قال عمه إنها موجودة فى طينة الناس، فى طبيعة الإيرانيين، موجودة حقاً. لقد دلّته ثريا خانم على ذلك.

كان الغروب يهبط بالتدريج، مع غيوم سوداء، على السوق الصغير المهدم. وعندما شرع المطر يهطل قليلاً أحس جاويد سروراً وطراوة مريحين. خرج من الحجيرة، فوقف. راقب وضع البيتين والتكية. كان السوق الصغير نائماً تحت غيم المغرب وضبابه الكثيفين. كان الوقت لا يزال مبكراً.

كان المطر في البدء خفيفاً متناثراً. ثم صار سريعاً دقيقاً متتالياً. جلس جاويد عند حافة الحجيرة، وراح يراقب لساعاتٍ المطر ـ الذى كان يبدو لعينيه وكأنه يغسل كذر وزير دفتر ويجتازه.

في أواخر الليل، وكان المطر قد توقف لتوه، عزم على النهوض. وكان جائعاً عطشاً أيضاً. وكان تناقضاً أنه ـ في هذه الليلة الأخيرة، بالكنز ذى الملايين الذى في متناوله، وقد كان مضطراً أن يقضى وقته في جحر مظلم رطب، يترصد كما كان شأنه دائماً خوف ووجل وجوع وعطش. ولكنه كان يدرى أنه لن يعود بعد ـ سيترك لهم السوق الصغير والخان والحجرة والقبة والمنارة، لهم جميعاً: أحياء وموتى، بلا مقابل..

نهض فوقف. تنفس عميقاً. راح ينظر إلى الليل الذى صار، بعد المطر، طرياً جديداً. أفرغ صدره. تحت الهواء الخريفي البارد، تحت السماء التى كانت تصفو وتنار بالكواكب وضوء القمر، ودّع كل ما في محلة وزير دفتر في سنة ١٣٠٩ الهجرية الشمسية[1]. وداعاً، في أمان الله، ها نحن ذاهبون. في أمان الله أيها الأمير كمال الدين ملك آرا، بفمك وخطمك ومهابتك الرسمية وعظم شأنك الموحل المتهرئ، في أمان الله يا ليلا بسرقاتك وأكاذيبك وإهاناتك تلك، في أمان الله يا شاه باجي أين ما كنت داخل شادرك وسروالك الطويل، في أمان الله، يا تاج ماه

(١) ١٩٢٠ الميلادية.

خانم بجبل الشمم والعظم ذاك وأنت تنقّين وتلعنين ولكنك مع ذلك تواظبين، بمنتهى الخدمة، على العناية بملك آرا، على إرضاع أطفال ملك آرا، ومسح عرق زوجات متعة ملك آرا وقد روحت عن نفسك بالمروحة وأصبت بسرطان الثدى، فى أمان الله يا غلوم على بخصيتك ذات الفتق المنتفخة وهراوتك الكرزية، فى أمان الله يا ننه أحمد بشادر صلاتك الأبيض والأسود، فى أمان الله يا أحمد زاغى باستلالك السكاكين، فى أمان الله يا ممد بنگى بحُق وافورك وموادك المخدرة كلها - (إعتنِ بجيل إيران الجديد) - فى أمان الله أبا تراب القزم حوذى الجن بسوطك وسكينك وبعينيك الجائعتين وقلبك الجائع إذ لم يكن لك شبع - أرضىَ عزرائيل أخيراً أن يأخذ روحك القذرة؟ فى أمان الله يا ميرزا خان بتلك الطاقية القذرة والشارب الشريطى والبيت والدكان والمحضر ومكتب معاملات الأملاك، فى أمان الله يا رقية بگم وفاطمة بگم اللتين تشبهان سيدتين من حرم خراسان[1] حتى تحت تراب مقبرة رأس قبر السيد، ركضتما وركضتما وضحيتما بخبز وماء وعصارة روحيكما فداءً للخدمة والحضانة فى هذا البيت، فى أمان الله يا دكتور كيومرث خان الكذبِ بوضوئك وتعطرك، فى أمان الله يا دكتور منوچهر خان نزهت السافل عديم الحياء، فى أمان الله يا ثريا خانم، يا جنة ضائعة ، مخدوشة للخير والرحمة. فى أمان الله يا هما، فى أمان الله يا ژيلا المسكينة التى افتتحوا حياتك منذ اللحظة الأولى بالسرقة والشر والكذب، فى أمان الله يا عبد الرسول، اخدم، فى أمان الله يا كربلائى هاشم، بمنقلك ووافورك، فى أمان الله يا أوسا[2] ذبيح بعصا وسكين ختانك، فى أمان الله

(١) إشارة إلى قبر الإمام الرضا فى مشهد - خراسان.

(٢) مخفف: أوستا= أسطى.

ياعسكر خان بسيفك الذى تستخدمه لقطع الرؤوس فى ميدان الإعدام وغيره، فى أمان الله يا مش غلام القصاب، فى أمان الله يا جواد آقا سنگگى[1]، فى أمان الله يا مش شعبان بائع الخضر، فى أمان الله يا سيد قريشى، فى أمان الله يا داريوش قريشى، فى أمان الله يا حاج سيد آية الله لوسانى، فى أمان الله يا سيد رضا مشير، فى أمان الله يا حاج إسماعيل خان المعمار، فى أمان الله يا بازراچه[2] معير، فى أمان الله يا گذر[3] مستوفى الممالك، فى أمان الله يا بازراچه نائب السلطنة، فى أمان الله أيتها التكية، فى أمان الله يا قراءات الروضة، فى أمان الله يا ضرب السلاسل، فى أمان الله يا صحون الـ (شله رزد)، فى أمان الله أيتها الأعلام السود، فى أمان الله يا أعمال الفتوة فى حفلات الختان، فى أمان الله يا سيد موسى اليهودى بائع العرق عند الباب، فى أمان الله يا أعمال النفاق، فى أمان الله أيتها الأكاذيب، فى أمان الله أيها الزور، فى أمان الله أيها الاختناق، فى أمان الله يا سرداب ويا حفرة، فى أمان الله يا خزان الماء، فى أمان الله يا حضرة الأشرف الأمير كمال الدين ملك آرا، فى أمان الله.

رفع رأسه. تحت سماء الوطن الذى كان يحبه إلى ذلك الحد، وجد نفسه والموجودات أكثر ضياعاً فى غمار النسيان.

وكان الوقت وقت انطلاق.

---

(١) خباز أو بائع الـ (سنگك)= المخبوز على الحصى.

(٢) السوق الصغير.

(٣) الممر، المعبر.

"قصة جاويد" رواية حياة حقيقية لصبى زرادشتى وقعت فى أول القرن. إن المصيبة والظلم الواقعين على إنسان مؤمن يشكّلان نسيج الرواية الأصلى. كما جرت فى الرواية أيضاً المحافظة على ردود فعله الروحية وقوة إيمانه بسنن أسلافه القديمة.

وقد حاول الكاتب، فى خلق هذا الأثر على هيئة قصة، أن يعيد خلق أحاسيس وآلام الصبى الزرادشتى البسيط الساذج، وعوامل إنكسار فؤاده ويأسه وغضبه، على نفس النحو الذى تلقاها هو (الكاتب) وتأثر بها فى زمانه ومكانه الخاصّين.

هل الرسالة الأخيرة هنا هى إنتصار الإيمان الطاهر الراسخ على فساد روح ضلال الأفراد، غلبة النور على الظلمة، تسيّدالخير على الشر، أم أنها أمور كلّية وواهية وسياسية أخرى؟ الجواب على هذا السؤال هو وظيفة ملقاة على عهدة القارىء المنصف الخالى من الغرض والتعصب.

الغلاف تصميم: محمد بغدادى